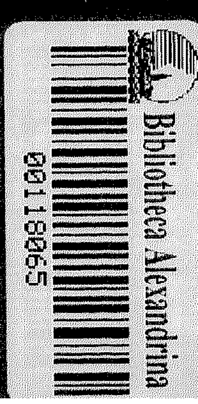


الدكتور/عبدالله حسن الشيبه

أستاذ التاريخ والآثار القديمة



كلية الآداب/ جامعة صنعاء



دراسات في
تاريخ اليمن القديم

الدكتور/عبدالله حسن الشيبة
أستاذ التاريخ والآثار القديمة
كلية الآداب – جامعة صنعاء

الطبعة الأولى

الناشر
مكتبة الوعي الثوري للطباعة والنشر والتوزيع

دراسات في تاريخ اليمن القديم

رقم الإيداع / ....

الطبعة الأولى : ١٩٩٩م– ٢٠٠٠م

المراسلات : بأسم المدير التنفيذي – قسم الدراسات

الجمهورية اليمنية – تعز

هاتف (٢٢٥٣٧٤) – فاكس : (٢٣٢٢٦٦) – ص.ب : (٥٩٣٦)

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من درس بتمعن حالة الحيوية التاريخية الحاضرة ، فانـه يشـعر بما يشـبه الصفعة مردها الأزمة التي وقعت فيها ، وهي أزمة يجدر بنا اليوم أن نستخلص نتائجها.

وأول ما نريد قوله أن هذه الحيوية تُعرف أساساً باسم "بحث" . لذلك لا نشك في أنها لا تتوفر الاّ باستخدام الوثائق ، ولا نـتردد في أن فهمهـا لابُـدّ مـن أن يتنـاول كـلّ الآثـار ، مكتوبة أو غير مكتوبة، وهي آثار تركها مرور ناس على هذه الأرض التي عاشوا فوقهـا مـن قبلنا. ولكن تلك الوثائق ليست بالنسبة للمؤرخ غاية ، وإنما هي وسيلة . فهو لا يجـوز أن يبقي أمامها مفعولاً ، إذ ما من أحـد يقبـل اليـوم أن يحـول " دوره " الى دور آلـة مسـجلة ، وظيفتها أن تعيد موضوعها بأمانة آلية.

ومهمة البحث في التاريخ توجب علينـا أن نعـترف ، دون عموميـات أنهـا تـتركز علـى بديهية ، تعلمنا أنه في مجرى الحوادث البشرية مايسهل فهمه ، وان عقلنا يسـتطيع أن يجتهـد في درسها وتحقيق بعض النجاح ، متناولاً علاقات التماثل القائم بين مشهد انساني – بشري – من جهة ، وذهننا من جهة أخرى. والاقرار بهذا لا يحتـاج الى تدليـل لأنـه يفـرض ذاتـه على كل الذين يتعاطون التأليف العلمي ، في أي علم من العلوم ، فكلها تقتضي في أساسـها هذه البديهية نفسها .....

ولقد وقعت على جيلنا هذه المهمة – كتابة التاريخ – لا إعادة كتابته لأنه عملياً لم يكتب بعد ، وذلك بغربلة وجمع وتفسير أحداث الماضي بحسب قواعد علم التاريخ ومناهج بحثه الحديثة ، التي تجعلنا أهلاً لتفحص الحاضر من زاوية التاريخ ، وأن لا نرى فيه فقط ماطفا على سطحه ، بل أيضاً العوامل الأعمق التي تحرك الأحداث ...

أما القصص التاريخي الميال الى اكتساب الصفات الأدبية التي يتحلى بها السرد ، غير آبه لحقيقة الحوادث ، فلم يعد من التاريخ في شيء. وكذا فإنّ التاريخ يرفض نشر الوثائق كما وردت بما فيها من أخطاء ونواقص وتحريفات وظواهر وبواطن.

وأصبح التاريخ بين هاتين الصيغتين ، لدى بعض الهواة في بلادنا، مهدداً بالذوبان. فالاولى كانت تعوزها أمانة العدل والوجدان ، والثانية افتقدت معنى المجرى الزمني المستمر. وهكذا صار التاريخ لا يحسب تاريخاً ، ولكن شيئاً من الموسوعية ، عالقاً بنقطة معينة من الماضي ، ليمتع القارىء بالحوادث المختارة كحوادث تستحق الوقوف عندها بشغف الاطلاع. وبين هذه الصيغة وتلك ، كانت الحيوية تزوغ نظرتها عن الهدف. وإذا كان المؤرخ في الواقع ، يحدد الحوادث في مجرى متلاحق للأشياء ، واذا كان يسعى الى كشف الأسباب ونتائج وعواقب كل منها ، فإنه يهدف للاستفادة منه في فهم الحاضر ويستعين به على تهيئة المستقبل.

ومع ذلك ، يبقى أن نذكر بأن المؤرخ اليوم يعلم ، بصورة واضحة جداً ، أن وراء مجموعة الوثائق واجباً يتطلب منه دفع الجهود الى ماهو أبعد من البحث. فهو يريد أن يعرف الماضي نفسه ، ولكنه لايقوى على ارجاعه الى الحياة ، لذلك يود على الاقل ، أن يكون له تمثيلاً يأتي أقرب مايستطاع الى الحقيقة التي لايستطيع الوصول إليها ...

لكن التاريخ لايستطيع بذاته أن يعطينا شرحاً مجملاً للأشياء ، أفلا يستطيع على الأقل ، أن يحمل ، الى عملنا اليوم ، ايحاءات معزولاً بعضها عن البعض الآخر ، ولكنها مع ذلك ،

مفيدة ؟

وبعد كل ماتقدم ، وبفضل الحقائق المتابعة التي أوحت إليها ذهنية التعليل ، تكونت مسلكية أصيلة بصورة تدريجية – فلم يعد التاريخ ، كما كان زمناً طويلا جداً ، مجرد نوع أدبي بين أنواع كثيرة حيث كان أصحاب الأدمغة يجربون أنفسهم دون أي إعداد خاص بهذه النوعية من التأليف . ولم تعد تهدف ، كالملحمة أو الرواية ، الى اثارة عواطف القارىء أو تسليته ، أو كالمحاماة غايتها اقناعه بحق هذا أو ذاك . فكان أن إنتهت هذه المسلكية الأصلية الى حيوية فاعلة ، تنضج معالمها يوماً بعد يوم ، لتكون صفة لمشتغلين بها مهنياً أو ما يداني المهنة.

وأود أن أنبه الى أن عملية جمع ونشر هذه الدراسات والبحوث في كتاب ، لايهدف أبداً اعطائها أهمية أكثر مما لها منفردة.

ولا يختلف اثنان في كون التاريخ من فنون المعرفة التي تحتاجها الامم والشعوب وتعتمدها في مسيرتها المعرفية والثقافية ، والدراسة العلمية المتأنية للوقائع التاريخية وأحوال الأمم السابقة والمتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في حياة هذه الامم من الوسائل الهامة التي تعتمدها المؤسسات العلمية في بلدان مختلفة لعملية التخطيط للمستقبل ووضع البرامج في مجالات الحياة المختلفة.

ولعل ابن خلدون قد أكد هذا المعنى بقوله : " إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. " [المقدمة ٩]

وفي مسيرتي العلمية أدركت أهمية دراسة التاريخ اليمني القديم وما يحمله هذا التاريخ من أهمية ترتبط بموقع اليمن الجغرافي، وطبيعة الأرض والتركيبة الاجتماعية له إضافة الى الافتقار الى الدراسة التاريخية العلمية والتحليلية وافتقار المكتبة العربية للدراسات التاريخية اليمنية. هذه الأمور مجتمعة كانت الدافع لكتابة أبحاث مختلفة عن تاريخ اليمن والمنطقة المحيطة بها نشرتها في أوقات ودوريات مختلفة وشاركت ببعضها في ندوات علمية متخصصة آثرت جمعها في كتاب لتعم الفائدة وللترابط الموضوعي بين هذه الأبحاث. إذ التنوع فيها أعطاها صفة الشمول لنواح مختلفة تنوعت بين الحديث عن المهتمين بتاريخ اليمن ودورهم في هذا التاريخ ، وحديث عن المدن والهجر ودور اليمنيين فيما حولهم ودراسة لوقائع وشخصيات هامة وغيرها . وقد سبق ذلك كله تمهيد تاريخي تناولت فيه الخطوط العريضة لتاريخ اليمن القديم بوجه عام وتطور حضارته واتسامها بالطابع العام المميز لهذا التاريخ. وبعبارة أخرى فقد خصص هذا التمهيد للأدوار السياسية والخصائص والمميزات الحضارية العامة ، مرجئاً التفصيل والاسهاب الى كتاب آخر سيتناول " تاريخ اليمن القديم " على انفراد، ويتتبع كل موضوع من هذا التاريخ وتطوره عبر الأدوار التاريخية المختلفة. وهو أمر يستوجب العودة الى الدراسات والبحوث الجديدة التي تعتمد على ما أستجد من اكتشافات آثارية حديثة أضافت الكثير من الآراء والاستنتاجات الأساسية عن تاريخ جنوب جزيرة العرب الذي ما زال يكتنفه الكثير من الغموض ...!! وقصدت بهذا التمهيد تسهيل فهم القضايا المعروضة في هذا الكتاب ليفي بحاجة طلاب التاريخ القديم وفرع الآثار بالدرجة الأولى في كليات الجامعات اليمنية وبحاجة غير المختصين في الموضوع أيضاً. وقد جاءت دراسات الكتاب كالآتي :

أولاً : دور الهمداني في الجغرافية التاريخية لليمن القديم :

يعد كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني من الأعمال التاريخية المهمة التي قدمها المؤرخون العرب ، ويعده المؤرخون المصدر الثاني – بعد النقوش – بالنسبة للجغرافية

التاريخية لليمن والجزيرة العربية . والبحث تكفل الحديث عن الهمداني وأهمية مؤلفاته في التاريخ اليمني وتاريخ الجزيرة العربية .

ثانياً : حركة الكشوف الأثرية في جنوب جزيرة العرب :

عندما غابت المصادر المخطوطة التي يعتمد عليها علماء التاريخ القديم في أبحاثهم تحولت الجهود الى الرحلات الاستكشافية ، وجاء علماء من أماكن مختلفة الى بلاد المشرق حيث بدؤا استكشافاتهم الأثرية وأبدعوا في وصف ما عثروا عليه حيث دونوا الكثير من الحقائق التاريخية بناءً على هذة الاستكشافات وقد تعمدت في هذا البحث – قبل الحديث عن جهود المستشرقين – أن أبين أثر كتب الهمداني عند علماء الآثار ، لأن الرجل قد وصف الأماكن وصف الزائر لها وفي البحث أيضاً اشارة الى دور نشوان الحميري في كتابه شمس العلوم . ولعلنا ندرك أن معلومات الهمداني ونشوان بقيت ناقصة حتى عصر المستشرقين حيث بدأت أعمالهم في التنقيب وحل رموز النقوش ولهذا ركز البحث على دور هؤلاء المستشرقين حيث وصف البعثة الدنماركية التي وصلت سواحل الجزيرة العربية عام ١٧٦٢م، وحديث عن المستشرق الألماني سيتزن A. J. von Seetzenos الذي سافر الى الحديدة عام ١٨١٠م ، ورحلة المستشرق الفرنسي يوسف هاليفي J. Halevy والرحلات الأربع للمستشرق النمساوي الشهير ادوارد جلازر Eduard Glaser خلال الفترة (١٨٨٢–١٨٩٤) والايطالي مانزوني R. Manzoni عام ١٨٦٩م وغيرهم . وتضمن البحث محاولات قراءة النقوش وتقدم الدراسات في حضارة اليمن .

ثالثاً : اسهام عرب الجنوب في قيام وتطور أكسوم :

تضمن هذا البحث الاشارة الى الهجرة من جنوب الجزيرة العربية الى الساحل الافريقي خلال القرن العاشر ق . م ، وحديث عن قبيلتي حبشت والأجاعز ، وكيفية بسط قبائل اليمن سيطرتها على الحبشة في القرن السادس ق . م . وسبب استقلال المستوطنات الحبشية عن مأرب .

رابعاً : الهجر المدنية في اليمن القديم :

من الأمور الهامة في الدراسات الجغرافية وما يرتبط بها تحديد المصطلحات ومدلول كل مصطلح . والوقوف على مدلول التسميات ، ولهذا تعمدت في هذا البحث الحديث عن عناصر التمييز بين القرية والمدينة ومراكز الاستيطان في التاريخ مع الاشارة الى مقومات ثورة المدن ومدلول كلمة (هجر) . كما تناول البحث نشوء المدينة اليمنية القديمة والتمييز بين المدينة والقرية . وخلص الى أن الهجر في اليمن القديم كان يشمل ما يسمى بالبوليس **Polis** أو البو **Po** أي مدينة الدولة في الحضارة الاغريقية وربما الكومي **Kome** لأنها تمارس وظيفة ادارية ، ويقابله الاوبيدوم **Oppidum** في الحضارة الرومانية. وكانت الهجر مكان معبد الاله الأعلى وخلص الى ان الهجر في اليمن كان يشمل مايسمى بالبوليس أو (ألبو) في الحضارة الأغريقية ، أي مدينة الدولة ، وكان يعني أيضاً الكومي لأنها تمارس وظيفة إدارية .

خامساً: محاولات تأريخ كتاب دليل البحر الأرتيري :

كتاب دليل البحر الأرتيري من تأليف تاجر يوناني من أصل مصري مجهول الاسم وقد تكفل البحث دراسة المحاولات السابقة لتحديد زمن تأليف الكتاب وأنتهى الى ترجيح أن الكتاب ألف في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.

سادساً: أهمية كتاب دليل البحر الارتيري لأفريقيا:

يعرض البحث بشكل موجز الفقرات الثماني عشرة الأولى من الكتاب التي تتعرض لأوصاف السواحل الأفريقية الشرقية.

سابعاً: أوضاع التابعين في جنوب بلاد العرب في العصر السبئي الوسيط القرن الأول ق.م. – القرن الرابع الميلادي:

التابع لغة هو (الجنّي) قيل يكون مع الانسان ويتبعه حيث ذهب، وتعنى الخادم لاتباعه

مولاه. وموضوع البحث يدور حول علاقة التبعية في اليمن القديم استناداً الى تحليل تفصيلي للنقوش . ويبين مجالات العلاقات الاجتماعية مثل مكانة الأسرة والعشيرة والمجتمع.

ثامناً: طبيعة الاستيطان في اليمن القديم :

تكفل البحث تقديم ترجمات لكلمات وردت في النقوش اليمينة القديمة احتار الدارسون في ترجمتها لأنّ أسلوب الترجمة اعتمد الاشتقاق اللغوي غافلاً الاطار التاريخي والاجتماعي ، وقد حاولت فهم النص في اطاره التاريخي والاجتماعي والاقتصادي . للوصول الى أنسب ترجمة لهذه النقوش.

تاسعاً: قصة ملكة سبأ بين الأسطورة والتاريخ:

نصت المادة الثالثة من دستور أثيوبيا الذي صدر عام ١٩٣١م أن الشرف الامبراطوري يظل بصفة دائمة متصلاً بأسرة هيلاسيلاسي الذي يسلسل نسبه الى اسرة منليك ابن الملك سليمان ملك بيت المقدس وملكة أثيوبيا المعروفة ياسم ملكة سبأ. ويرى الأثيوبيون أن ملكة سبأ زارت سليمان ملك بيت المقدس وأنجبت منه منليك . والبحث يتكفل رواية ودراسة الأساطير وبعض الحقائق التاريخية التي قيلت بشأن ملكة سبأ.

وبعد عرض موجز لموضوعات الكتاب آمل أن يملأ الكتاب جزءاً من الفراغ الذي تعاني منه المكتبة العربية والمتمثل بقلة الدراسات العربية عن تاريخ اليمن القديم ومايمثله هذا التاريخ من أهمية كبرى لدراسة أحوال المنطقة العربية وماحولها.

ومن الله أستمد العون والتوفيق .

أ.د. عبدا لله حسن الشيبة

هجر صنعاء في ١٩٩٩ م

تمهيد تاريخي

دولة سبأ

لو رتبت المصادر التي ذكرت "سبأ" حسب قدمها التاريخي لوجد أن أقدمها يرجع الى عام ٧٢٠ ق.م. في نص آشوري من عهد الملك سرجون الثاني الذي اشار فيه أنه تسلم هدية من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب من "يثأمر" الذي هو المكرب السبئي المعروف يثع أمر ، كما ورد ذكر المكرب كرب إيل في نص آشوري آخر يعود الى عهد سنحاريب أي حوالي عام ٦٩٥ ق.م. ، ذكر فيه أنه حين احتفل بوضع حجر أساس " بيت أكيتو" (وقد يكون معبداً أو حصناً أو قصراً) استقبل مندوباً عن الحاكم السبئي " كريبي أيلو " حمل إليه هدايا من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب ... ونحن نشك في أن هذا المكرب دفع جزية لسرجون ونرى فيما جاء في نصه نوعاً من المبالغة ، والأرجح أن كرب قدم هدية لصاحب آشور ليضمن استمرار طرق القوافل.

ويأتي بعد المصادر الآشورية في القدم التاريخي : العهد القديم وفيه ذكر لسبأ وللسبئيين في أسفار متعددة منها ما يشير إلى نسب سبأ ، ومنها ما يلقي الضوء على تجارة السبئيين : ففي الإصحاح العاشر من سفر "التكوين" (الفقرة ٧) أن سبأ من أبناء "حام" وفي مكان آخر من الاصحاح نفسه (الفقرة ٢٦) سبأ بن يقضان من أحفاد سام. كما اشارت بعض الأسفار الأخرى الى أرض السبئيين ومحاصيلهم التجارية : ففي "أرميا" الإصحاح السادس (الفقرة ٣) أن أرضهم كانت مركز اللبان. وفي سفر "أيوب" الإصحاح السادس (الفقرة ١٩) أقترن أسم سبأ بتيماء مما يوحي بأن قوافل سبأ كانت تمر منها ... أنظر أيضاً "أخبار الأيام الثاني" الإصحاح الحادي والعشرون (الفقرة ١٨).

إلا أن معرفة العبرانيين بالسبئيين تتجلى بوضوح في قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان "عليه السلام " وهي القصة التي وردت في القرآن الكريم (سورة النمل الآيات ٢٢-٤٤) بتفصيل أكثر مما ورد في "سفر الملوك الأول" ، الإصحاح العاشر (الفقرات ١-١٣) و "أخبار الأيام الثاني" . الإصحاح التاسع (الفقرات ١-١٠) حيث وردت القصة مكررة في السفرين تذكر الهدايا التي قدمتها ملكة سبأ لسليمان وكانت من الذهب والطيب والحجارة الكريمة. وفي الحقيقة لقد كانت سبأ في العهد القديم أكثر دول الجنوب شهرة لدرجة أن لفظ سبأ كان يطلق على جميع تجار العرب.

وتأتي المؤلفات اليونانية والرومانية " أي المصادر الكلاسيكية " بعد الكتاب المقدس في الترتيب التاريخي للمصادر التي ذكرت السبئيين . وأقدم من ذكرهم من اليونانيين "ثيوفوراس" الذي أكد أن سبأ وثلاث ممالك أخرى في جنوب بلاد العرب هي مصدر الطيب. وذكرهم كذلك الجغرافي "استرابون " نقلاً عن روايات أراثوستين : فيصف سبأ بأنهم جيران لبني معين من الجنوب ولمملكة حضرموت من الغرب ولأوسان من الشمال ، وبهذا يكون استرابون قد حدد لنا الأراضي السبئية - بالضبط - في إحدى مراحل تاريخهم.

ومن مورخي الرومان الذين ذكروا السبئيين وبلادهم بلينيوس " أوبليني " في كتابه "التاريخ الطبيعي".

وتشير اللقى الأثرية في الحبشة الى ان هجرة بعض القبائل اليمينة إليها كانت أثناء حكم الدولة السبئية في حوالي الألف الأول ق.م.

وعلى أساس ما ورد في القرآن الكريم وحوله بدأ المفسرون والمؤرخون يتلقفون أقوال

المسنين وحكاياهم عن السبئيين ويدونوها دونما تمحيص أو تدقيق فجاءت مؤلفاهم مزيجاً من الغث والسمين ، بحيث غدا الإعتماد عليها كلياً لا يوصل الى حقيقة أخبار السبئيين. فمثلاً لا تشير هذه المصادر الى السبئيين كما أشارت لهم المصادر الأخرى وكما ذكرهم النصوص المكتشفة في الفترة الأخيرة.

تلك هي المصادر التي ذكرت سبأ إلا أن أهم هذه المصادر على الاطلاق هي النقوش والآثار السبئية. فهي أصدق المصادر لأنها دونت في العصر نفسه ومن الأفراد الذين عاصروا الأحداث. وقد تم في الآونة الأخيرة اكتشاف عدد لا يستهان به من النقوش لعل أهمها ذلك النقش الموسوم بنقش النصر الذي عثر عليه في صرواح عاصمة سبأ القديمة ، والذي يرجع الى حوالي القرن الثامن ق.م. الذي يفهم منه أن كرب أيل وتر تمكن من توحيد اليمن كله في دولة واحدة هي دولة سبأ. وفي هذا النقش ذكر لأسماء بعض المناطق اليمنية التي كانت مزدهرة آنذاك مثل المعافر (الحجرية حالياً) ودثينة وتبنى (لحج حالياً) ونجران ومدن الجوف وعدد من المواقع في وادي ضهر.

ويلوح لنا من النصوص السبئية أن أبرز قوة في هذه الفترة – أي فترة كرب إيل وتر – كانت قوة المعينيين إذ أننا نجد مكرب سبأ يصطدم بقوة معين في الجوف ويحطم أسوار مدنها. ومن القوى التي ظهرت في هذه الفترة " منافسة لمعين " قتبان وحضرموت مما يؤكد أن هذه الممالك الثلاث الأخيرة كانت معاصرة لبعضها من ناحية ومعاصرة لدولة سبأ من ناحية أخرى. ونجد في نقش النصر السالف الذكر اشارات متعددة تفيد المعنى السابق.

وبروز هذه الممالك في الفترة التي نحن بصددها يؤكد الاعتقاد السائد لدى الباحثين وهو : حدوث تنازع على السلطة باستمرار .

وتبدو هذه الظاهرة واضحة في تاريخ اليمن القديم عامة وهي : التداخل التاريخي بين

ممالك الجنوب . فنحن نعرف أن معين ظهرت أثناء وجـــود الدولـــة الســـبئية كمـــا أن حضرموت وقتبان عاصرتا معين . ويهمنا هنا تفسير هذه الظاهرة على أساس أنها تحل كثيراً من الألغاز في تاريخ جنوب الجزيرة خاصة فيما يتعلق بقيام الدول وحروبها ونهايتها.

والتفسير المعقول لهذه الظاهرة ينبع من واقع تاريخ اليمن القديم ، اذ أن النظام القبلـي كان الأساس ، ولكل قبيلة في هذا النظام أراضي معينة . فقد كان في كـــل واد تجمعـــات صغيرة سميت كلاً منها بيتاً ، ثم كونت مجموعة من هذه " البيوت " تجمعاً واحـــداً سمـــوه شعباً، ومعنى شعب في اللغة اليمنية القديمة : " القبيلة المستقرة " . وأرض هـــذه القبيلـــة معروفة لاتتعداها ولايتعدى عليها حتى في حالة تبعيتها لمملكة معينة تبقى مســـتقلة ذاتيـــاً مادامت قوية ، فاذا آنست ضعفاً في الدولة المسيطرة فسرعان مـــاتخرج عليـــها وتنـــتزع السلطة منها ان استطاعت ذلك ولو اقتضى الأمر الاتحاد مع غيرها ، وهذا يفسر لنا قيـــام ممالك كثيرة في اليمن خلال العصور المختلفة جعلها مرشحة لأن تكون أكثر أمكنة العالم في عدد الدول التي أقيمت فيها . وقد يتسع نفوذ احدى الممالك بحيث تشمل جاراتها ولكنـــها –حتى في هذه الحالة– لا تقضي عليها نهائياً ، وانما تكون تبعية الدولة المحتلة اسمياً أو مؤقتـــاً أو اتحاداً مع الدولة الغالبة .

وبعد هذا العرض القصير والذي برزت فيه عدة دول مستقلة ومتنافســـة ، نبـــدأ في تحديد بداية الدولة السبئية ونهايتها . يبدأ التاريخ السبئي بعهد المكارب الذي كان أولهم – حسب مالدينا من معلومات حتى الآن– هو المكرب يثع أمر وآخرهم كرب أيـــل وتـــر صاحب نقش النصر الذي تلقب بالملك . والواقع أننا لانعرف الكثير عن الفـــترة الـــتي تخللت هذين المكربين لأن مصادرنا محدودة ، لكن مامعنى كلمة " مكرب " ؟

لقد فسر الباحثون كلمة " مكرب " بأنه مقرب من الالهة أي أن المكرب السبئي كـــان يجمع بين السلطة الزمنية والروحية وان شئت بين الكهانة والملك ، بينما تجرد من صفتـــه

الكهنوتية في دور ملوك سبأ الذي تلا دور المكارب ،وفي هذا التفسير نوعاً من الوجاهة ، اذ نعرف أن كل حكام جنوب بلاد العرب يعتبرون أنفسهم من سلالة الآلهة والملك فيما بعد ليس الا الابن البكر للاله .

أما نهاية حكم ملوك سبأ الذي أسسه " كرب ايل " فهو قبل عام ٧٠م وبعد عام ٢٤ق.م وهي بداية حكم ملوك سبأ وذي ريدان وانتقال العاصمة من مأرب الى ظفار كما هو المشهور . واضح مما سبق رغم تعدد المصادر فانها لاتعطينا تاريخاً مسلسلاً لبداية كل مملكة ونهايتها وقوائم ملوكها وحكامها .

ملوك سبأ

من الصعوبة بمكان تتبع ملوك سبأ ورصد أهم منجزاتهم وذلك لنفس السبب السالف الذكر ، ألا وهو عدم توفر المصادر التي يمكن الاعتماد عليها . ولكن رغم ذلك فاننا نستطيع تتبع بعض الأعمال والأحداث البارزة الى أن نصل الى مرحلة مااصطلح الدارسون لتاريخ اليمن بتسميته " عصر ملوك سبأ وذو ريدان "

بدأت عهود الملكية في سبأ باتخاذ كرب ايل وتر لقب ملك عوضاً عن لقب المكرب ، بعد أن أحرز لدولته توسعاً كبيراً على حساب جيرانها . ويبدو أن الرجل قد انصرف بعد انتصاراته الى توطيد الأمن في أرجاء دولته الجديدة الواسعة عن طريق اعادة تعمير المدن الخاضعة له واعادة تحصينها بعد أن اطمئن الى موالاتها له . ثم عن طريق مواصلة سياسة أسلافه العمرانية في الاهتمام بمشروعات الري وما اليها.

وتوسعت سبأ في عصرها الملكي فيما كانت قد بدأت به من نظم في عهود المكربين كما تقبلت بعض عناصر الحضارة وبعض التسميات التي أخذت بها الدول الجنوبية الأخرى

الصديقة منها والمنافسة والخاضعة في آن واحد .

ويفهم من بعض النصوص السبئية أنها أخذت منذ عهود المكربين تؤرخ أحداثها بنيابة شخص ذي صفة دينية يتلقب بلقب " رشو " ويجمع الى كهانته شيئاً من الاشراف على شئون الري والزراعة ، ويرى بعض الدارسين أن هذه النيابة قد انتظم أمرها في عهود الملكية وأصبحت تحتسب لنيابة أفراد من ثلاث أسر كبيرة وهي أسرة "حزفر كبير خليل" ، وأسرة "حذمة" ، وأسرة "فضخم" ، وكان هؤلاء يتعاقبون ولداً عن والد كل دورة ثلاثية من الأسر الثلاثة وتستمر نيابة كل منهم ست سنوات أو سبعاً، باستثناء مرة واحدة استمرت لتسع سنوات .

وتلقب هؤلاء الولاة بلقب " كبير " (وهو لقب له مايشبهه في معين وقتبان) وتسمى مجلسهم باسم " مسود " وتلقب ولاة سبئيون آخرون بلقب " قين" واذا زادت منزلة أحدهم لقب بلقب " أكبر أقينم " بمعنى " أكبر الأقيان " . والى جانب لقب " مود " بمعنى صديق أو نديم "الملك" في البلاط السبئي ظهر أيضاً لقب " حرج " ويبدو أنه كان يخص المشرف على المنشآت الحكومية .

والى جانب الصراع الداخلي الذي واجهته سبأ كان عليها أيضاً أن تواجه مشاكل خارجية كان أهمها رغبة الاغريق في مشاركة العرب في الانتفاع بتجارة البخور والتوابل عن طريق البحر الأحمر وما يتصل به من تجارة المحيط الهندي أو احتكارها وحرمانهم منها . وأطلت هذه الرغبة برأسها منذ عهد الاسكندر المقدوني الذي تطلع بعد أن دانت له دولة بابل حتى الخليج العربي الى السيطرة على تجارة بحار العرب واحتكار تجارة الهند ، فأرسل في عامة الأخير ثلاث بعثات بحرية كبيرة تجوب البحار وتتعرف على مواطن الضعف ومواطن الاستغلال في السواحل التي تحيط بشبه الجزيرة العربية .

وبدأت هذه البعثات الملاحية رحلتها من الخليج ولكنها لم تتقدم كثيراً اذ بلغت أكثرها

نجاحاً بقيادة هيرون " Hieron " رأس الخيمة " Maket " وقيل أن الاسكندر أمر كذلك بخروج بعثة بحرية أخرى من مصر عن طريق البحر الأحمر ولكنها فشلت هي الأخرى .

وعندما تقاسم قادة الاسكندر المقدوني الشرق القديم بعد وفاته ، واستقر البطالمة في مصر في أواخر القرن الرابع ق .م أراد هؤلاء أن يستغلوا السواحل الطويلة المطلة على البحر الأحمر الى أقصى الحدود ، وأن يحققوا آمال الاسكندر لمصلحتهم بخطوات متئدة عملية لم يكن تأثر عرب الجنوب بنتائجها محسوساً على درجة واحدة دائماً ، ويمكن ايجاز مراحلها الأولى فيما يلي :

أ- أرسل أحد البطالمة الأوائل ولعله بطليميوس الأول أو الثاني قائد من قادة البحر يدعى أريستون "Ariston" في بعثة استطلاعية ليتعرف على سواحل بلاد العرب وطبيعة الملاحة في بحاره ، فطاف بجزأ كبير منها ولما عاد الىالاسكندرية قدم الى دولته تقريراً مفصلاً عما شاهده ولاحظه في رحلته من الموانئ الشمالية والجنوبية.

ب- جددت في عصر البطالمة بعض الموانئ المصرية المطلة على البحر الأحمر وأنشيء بعض آخر ، حتى تستعد لاستقبال المزيد من متاجر هذا البحر وتصديرها ، ومنها ميناء "أرسينوى" في نهاية خليج السويس وميناء "ميوس هرميس" قرب ميناء القصير الحالية وميناء "برينيكي" الى الشرق من أسوان.

ج- العمل على تأمين السيطرة على خليج العقبة باعتباره مخرج تجارة البحر الأحمر المتجهة (براً) الى بلاد الشام.

د- زيادة الأساطيل البطلمية المقاتلة في البحر الأحمر لتأمين السفن التجارية فيه ، وتشجيع الوسطاء على التعامل معها ، وصرفهم عن الاعتماد على نقل المتاجر بالطرق البرية التي أشرف عليها العرب الجنوبيون والشماليون في شبه الجزيرة.

هـ- تشجيع الجاليات الأغريقية التجارية على استيطان موانئ البحر الأحمر وجزره. فقد وصلت بعض هذه الجاليات حتى جزيرة سقطرة في البحر العربي ، وشاركوا العرب والهنود في سكناها ، كما شاركوهم في نقل تجارة الهند وتجارة سواحل شرق أفريقيا.

أدت هذه الخطوات المتتابعة الى نتيجتين مختلفتين على المدى البعيد بالنسبة لدول شبه الجزيرة العربية. فانتفع بها أهل السواحل وازدهرت تجارة موانيهم الجنوبية الغربية مثل ميناء قنا في حضرموت وميناء عدن وميناء موزا في المنطقة التي تقاسمتها كل من قتبان وأوسان وسبأ (ثم ورثتها حمير).

بينما تأثرت بعض الشيء اقتصاديات الدول العربية الداخلية التي اعتمدت على استغلال قوافل الطرق البرية ولا سيما الطريق الرئيس الممتد من جنوب شبه الجزيرة عبر الحجاز حتى العقبة وما ورائها في سيناء أو في جنوب الشام ، وإن ظل تأثرها حتى المرحلة التي وقفنا عندها محدوداً.

كان أكثر المستغلين لنتائج هذه التطورات قبائل حمير التي أطلت على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية واستفادت من نشاط التجارة البحرية في موانيها لا سيما عدن وموانئ أخرى ذكرها الاغريق باسم أوكيليس.

ويبدو ان حمير كانت الحاكمة لحلف قبلي تداخل مع بعضه بدوافع المصلحة المشتركة ورابطة الموقع. وقد صورتها المصادر العربية تنقسم الى قبائل صغيرة تعيش حول لحج وتمتد شرقاً الى سرو حمير ونجد حمير ، وكانت هذه القبائل اعترفت بسيادة دولة قتبان منذ القرن الرابع ق.م. ولكن الأمور تطورت لمصلحة حمير وحصنهم "ريدان" بعد ازدياد النشاط البحري على سواحلها ، فأخذت تعمل لصالحها .

ونشأت ظاهرة جديرة بالاعتبار ربط الباحثين بينها وبين نهضة حمير ، وهي ان المصادر العربية القديمة لم تنسب أحداثها الى تاريخ ثابت "مثل التاريخ الميلادي أو التاريخ الهجري الحاليين" إلا في نحو سبعة نصوص متباعدة عرفت حتى الآن ، وأدت الدراسات المقارنة الى تعيين عام البداية للتاريخ الثابت الذي ردت هذه النصوص السبعة أحداثها إليه

بعام ١١٥ ق.م. ، وتعددت النظريات في تعيين المناسبة الهامة التي ارتبطت بها هذه البداية، ومالت أحداث هذه النظريات الى ربطها باتحاد حمير في كيان واحد ، وحلت بذلك محل نظرية أخرى سبقتها كانت تربط بينها وبين نشأة مملكة سبأ وذو ريدان ، الأمر الذي دعى الى إعادة ترتيب أحداث الجنوب على أساس جديد وهو ما سوف نأخذ به فيما يلي.

قاد الحميريون في القرن الأول ق.م. انقلاباً على دولة قتبان واستقلوا عنها ، وكانوا السبب في اضعافها ، ثم دخلت حمير بقبائلها في بعض الحروب ضد دولة حضرموت ، ثم أخذت تتحين الفرص لاثبات كيانها السياسي ازاء جارتها العجوز مملكة سبأ.

كانت سبأ تشق طريقها في جهد وعانت بعض الوقت من تضييق جارتيها قتبان ومعين ولكنها قاومت وبدأت بمعين فقضت على استقلالها ، واسكنت مجموعات من السبئيين في بعض مدنها ولكنها لم تنتفع طويلاً بنصرها ، إذ هددها خطر خارجي لم تكن تحسب حسابه.

ونعود الى العوامل الخارجية أو المنافسات الخارجية لنجد ان خطواتها الفاصلة قد بدأت منذ امتد اهتمام البطالمة الأواخر من رغبة الاشراف على البحر الأحمر وتجارته الى رغبة الاشراف على تجارة المحيط الهندي الذي كانوا يعلمون أن كثيراً مما يأتي به التجار العرب من متاجر انما يأتيهم من الهند عن طريقهم ، فودوا ان يوجهوا سفنهم اليها دون وساطة. وسجل المؤرخون خبر رحلة من أولى الرحلات التي نجحت في تحقيق هذه الرغبة ترأسها رجل يدعى يودوكسوس الكيزيكى (**Eudoxus of Cyzicus**) وبلغ بها الهند حوالي عام ١١٧ ق.م. وتعددت بعدها رحلات بحارة الاغريق والبطالمة وساعد على نجاحها اهتداء اليوناني هيبالوس (**Hippalus**) حوالي عام ٤٥ ق.م. الى امكان استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية خلال الصيف (من يونيو الى اكتوبر) في تقصير امد الرحلة من البحر الأحمر الى سواحل الهند في عرض المحيط مباشرة دون ضرورة التزام خطوط السواحل الطويلة.

وأعقب البطالمة منافس أشد خطراً منهم وتمثل في النفوذ الروماني في عهد الامبراطور اغسطوس (أوكتافيوس) الذي أصبح يسيطر على أغلب مناطق العالم القديم دون منازع منذ أواخر القرن الأول ق.م. ولم يكتف أغسطوس بالنشاط العادي الذي يقوم به أعوانه من الأغريق في تجارة الهند والبحر الأحمر ، وأراد أن يقصي العرب عن هذه التجارة جملة أو يجعلهم يعملون لصالحه فيها ، أو يسيطر على أرضهم بجيوشه.

وكانت الصورة البراقة المسرفة التي أشاعها الرحالة والمؤرخون الاغريق والرومان في عالمهم الغربي عن ثراء بلاد العرب مما شجع على هذه الرغبة. فقد كتب الرحالة الجغرافي استرابون في عصره ما يقول : ان السبئيين كانوا من أكثر القبائل ثراء نتيجة لتجارهم في المواد العطرية ولهذا توفرت لديهم كميات من مصنوعات الذهب والفضة كالأسرة والموائد الصغيرة والأواني والكؤوس فضلاً عن قصورهم الرائعة التي كانت أبوابها وجدرانها وسقوفها مختلفة الألوان ، ويرصعون بعضها بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة....الخ.

وليس من الضرورة بطبيعة الحال الى تصديق هذاالتصوير بحذافيره ولكنه كان كافياً لاثارة اطماع الرومان الطموحين الى السيطرة والاستغلال. ولم يعدم أولئك الرومان تقديم المبررات لاطماعهم ، وصور استرابون بعضها فأدعى أن اهل العربية السعيدة كانوا يحصلون على ارباح باهضة من تجارهم مع الأغراب الأغريق والرومان فلا يتركون لهم ولا للبلاد التي ينقلون تجارهم إليها مجالاً للكسب أو الثراء.

وهكذا صدر أمر الامبراطور اغسطوس الى نائبه الروماني على مصر اليوس جاليوس (Aelius Gallus) بمهمة ارهاب العرب أو احتلال أرضهم ، فترأس جيشاً كثيفاً وأنضم إليه عدد كبير من اليهود ومن الأنباط حلفاء الرومان وخرج الجيش في عام ٢٤ ق.م. على متن اسطول كبير (قيل أنه تألف من ١٣٠ سفينة) من خليج السويس وسار في البحر حتى ميناء لوكي كومي Leuke Kome (ربما ينبع البحر الحالية) وسلكت جيوش جاليوس

بعدها سبيل البر خلال ساحل الحجاز وتهامة اليمن، وخربت في طريقها مدن كثيرة. وعندما وصلت الى الجنوب بدأت بتخريب مدن دولة معين التي أصبحت سبأ مسؤولة عنها ، وروى استرابون أن صاحب (يثل) — براقش في الجوف — حين اقتراب الرومان فتح أبوابها ودمر الرومان مدن نشق (البيضاء) ونشان (السوداء) وكمنة (خربة كمنا) وحاصروا مأرب ، ولكن حملتهم باءت في نهاية أمرها بالفشل ولم تتعد مأرب ، وفقدت كثير من سفنها ورجالها. وكان قد صحبها رجلان اهتم التاريخ بهما ، استرابون الجغرافي الرحالة الذي روي احداثها (من وجهة نظره) وكان صديقاً شخصيا للقائد جاليوس ، ثم رجل آخر اختلف الحكم عليه ، وهو وزير نبطي ترأس قومه الذين رافقوا الحملة واعتبره الرومان دليلاً لهم على اساس خبرته بالطرق البرية في شبه الجزيرة وخبرته بطرق العرب في القتال ، وقد ذكره استرابون باسم سلياؤوس وهو اسم قد يكون محرفاً عن اسم صالح.

ورجعت أسباب فشل حملة جاليوس الى عدة عوامل ذكر استرابون بعضها ، ومنها عدم كفاءة جاليوس في قيادة البحر وتنظيم الأسطول بحيث فقد كثيراً من سفنه قبل أن يصل بها الى ميناء "لوكي كومي" ، وانفاقه أغلب جهده في اعداد سفن مقاتله لم تكن لها ضرورة ملحة في حملته لأنه لم يكن من المنتظر أن يقاتله العرب في البحر ثم سيره بجيشه في طرق صحراوية وجبلية طويلة وعرة تمتد نحو ١٢٠٠ ميل من ميناء لوكي كومي حتى داخل البلاد، وكان يستطيع أن يتابع طريقه في البحر حتى ساحل الجنوب، وقلة الماء خلال حصار مأرب، ثم عدم اخلاص الدليل النبطي في النصيحة للرومان، فضلاً عن تفشي الجوع والأوبئة.

وإذا زدنا شيئاً على تحليل استرابون فهو وضع مقاومة القبائل العربية الجنوبية للرومان موضع الاعتبار في عدة معارك كانت احداها عند نهر ذكره استرابون وقد يكون غيل الخارد وشدة تحصن السبئيين في عاصمتهم مأرب ومقاومتهم للحصار الروماني ، وأخيرا احتمال تفسير عدم اخلاص الدليل النبطي للرومان برغبته في الوفاء لبني عمومته العرب مما خيب آمال الرومان.

واستردت دولة سبأ كيانها بعد فشل الحملة الرومانية ، وانفسح السبيل أمامها في الداخل بعد ان انكمش نشاط دولة قتبان وخسرت كيانها السياسي شيئاً فشيئاً تحت تأثير ضربات السبئيين والحضرميين والحميريين خلال القرن الأول الميلادي وبعده بقليل.

ولكن سبأ لم تنتفع بهدوئها طويلاً ، وأخذت المشكلات الحدودية والداخلية تعمل عملها السيء فيها ، الأمر الذي قلل من هيبتها أمام القوتين الباقيتين في ميدان المنافسة أمامها في جنوب الجزيرة وهما قوة حمير وقوة حضرموت ، ومهد لعصر جديد من عصورها وهو عصر ملوك سبأ وذو ريدان.

دولة سبأ وذو ريدان وسيطرت حمير

اختلفت نشأة هذه الدولة عن نشأة غيرها من الدول في أنها لم تبدأ بداية زاهرة ، وإنما قامت خلال ظروف مضطربة استمرت حوالي قرنين من الزمان بين ٦٠ و ٢٦٥م ، وهي ظروف لا زالت تفاصيلها خافية ونصوصها متضاربة.

وكانت قد ظهرت بين القبائل العربية الجنوبية خلال القرن الأول الميلادي روح من التنافس الشديد ورغبة الانتشار وأطماع الرئاسة والسيادة لأسباب غير محددة ، قد تكون منها تلك المحنة التي هزت كيان الدولة السبئية خلال الحملة الرومانية عليها ، ورؤية دول الجنوب تنهار واحدة واحدة لسبب أو لآخر ، وزيادة ثراء بعض المناطق مع افتقار مناطق أخرى نتيجة للتنافس بين التجارة البحرية والتجارة البرية ، وقد يكون منها كذلك انتشار الخيول والقوات الراكبة بين رجال القبائل وما أدى إليه هذا من سرعة الحركة والكر والفر... وهلم جرا.

وكانت أكثر القبائل اليمنية شهرة خارج مأرب هي قبائل مرثد البكيلية في شبام أقيان – شبام كوكبان – ، وذي جره في جبل كنين الواقع جنوب شرق صنعاء، وقد أرتبطت باسرة ملوك سبأ بروابط الأصل والنسب ولهذا ظلت صلات المودة غالبة بينها وبينهم ولكن هذا لم يمنع بعض حكامها الكبار الذين كانوا يتلقبون من قبل بألقاب الاقيان أو الأقيال ، من أن يتلقبوا بلقب "ملك" بين حين وآخر ، بل ولقب "ملك سبأ" أيضا الأمر الذي تقبله ملوك سبأ الشرعيين في مأرب ، في بعض الحالات، على مضض حتى يضمنوا مساندتهم لهم.

وفي الوقت نفسه ظلت القبائل القريبة من مأرب ، عدداً وبأساً ، هي قبائل "سمعي" التي ضمت أثلاث : سخيم في شبام سخيم – شبام في بني حشيش – ، و"بتع" في حاز شمال غرب صنعاء ، وهمدان في ناعط بالقرب من ريدة.

وكيفت هذه القبائل مسلكها ازاء سبأ بما يتفق مع مصالحها والظروف التي عاشت فيها، وظلت موالية للدولة في عهود قوتها ، واستمرت كذلك حتى رأت الأطماع تحيط بها، فبدأت تتحين الفرصة لاثبات كيانها الذاتي تحت زعامة بيت حكم كبير فيها.
وفي حمأة هذه الأطماع والملابسات الداخلية التي مهدت لتمزيق الكيان السبئيء كانت قبائل حمير قد شقت طريقها واتخذت عاصمتها في مدينة ظفار التي نشأت في منطقة خصبة قرب قرية منكث الحالية ، وحمتها عدة حصون قامت على التلال التي تحيط بها ، وكان حصن ريدان أكبرها ، فأصبح حصنها الملكي ، وأنتسب إليه ملوكها في لقبهم الذي اشتهروا به وهو "ذو ريدان".

وفجأة ظهر في نصوص هذا العصر المضطرب ما يدل على أنه قامت في كل من مأرب وظفار أسرة حاكمة ادعى ملوكها لأنفسهم لقب "ملك سبأ وذو ريدان" كل على حدة. وفي تفسير هذه الظاهرة افتراض الباحث فون فيسمان أن مأرب عاصمة سبأ تعرضت

لهجوم من قبل ملك ريدان الحميري في نهاية القرن الميلادي الأول وحينما انتصر عليها اضاف اسمها الى لقبه. ولم يطل حكمه ، وعز على القبائل المحيطة بمأرب ما صارت اليه فعملوا على اخلاء الملك الحميري عنها وأعادوا إليها الملك السبئي المنهزم أو رجلاً من أسرته اتخذ هو الآخر لقب "ملك سبأ وذو ريدان" في الوقت الذي لم يتنازل فيه صاحب ظفار عن لقبه المزدوج.

ومع التجاوز عن الأسماء العديدة التي أتت النصوص بها – مراعاة للتخفيف – تكفي الإشارة الى انه كان من أصحاب الفضل في إعادة الملكية الشرعية الى مأرب زعيم قبائل بتع وزعيمان لقبيلتي مرثد وذي جرة ، وقد عمل كل منهم من ناحيته ، ولم يكن عمله بغير ثمن فقد تلقب كل من الثلاثة بمثل لقب ملك مأرب القديم أي "ملك سبأ" بل وفي بعض الأحيان بلقب " ملك سبأ وذو ريدان".

أما الهمدانيون فقد عملوا بدورهم على أن يكون لهم نصيب في ألقاب العصر وزعامته، وكان قد ترأسهم بعد أوسلات رفشان ولداه " يريم أيمن " و " بارج يهرحب " اذ نرى أكبر الأخوين يريم أيمن يتلقب بلقب ملك وأورثه ولده .

وهكذا شهد العصر (في منتصف القرن الثاني الميلادي) أربع أسر اقليمية أو قبلية ادعى كل رئيس فيها لقب " ملك سبأ " وذلك الى جانب ملك مأرب صاحب لقب " ملك سبأ وذو ريدان " في دولة كانت تسيطر عليها من قبل مملكة واحدة . والى جانب هؤلاء الملوك الخمسة كانت هناك ملكية حمير التي تمسكت هي الأخرى بلقب " ملك سبأ وذو ريدان " وحاولت أن تحققه على حساب هذه الأطراف جميعاً.

وهنا تصدى زعيم همدان " علهان نهفان " الذي شارك أباه يريم أيمن في رئاسة قومه وفي لقب الملك ، لمواجهة الأزمة ، وتلمس الحلفاء حوله ، ووجد بعضهم في خصوم

الأمس، فتحالف مع دولة حضرموت ، ومع جماعات حبشية ذكرها النصوص تحت زعامة " جدرت ملك أكسوم " أو " جدرت ملك حبشت " ، واختلفت آراء الباحثين في تحديد أصل هذه الجماعات . على أن الثابت أنهم فرعاً من سكان جنوب الجزيرة العربية نزح بعضهم الى الساحل الافريقي المواجه لهم وكان لهم أثر في تكوين جماعات الجعزيين الأحرار الذين نشروا اللغة السامية في الحبشة . وقد عرفوا عند العرب بتسمية الحبش . وقد ذهب بعض الدارسين الى اعتبارهم غزاة من الحبشة استغلوا فترات التفكك التي عمت جنوب الجزيرة فاحتلوا مناطق ساحلية واسعة من جيزان وعسير ، للسيطرة على التجارة الافريقية المنقولة الى الساحل العربي بعد أن فشلت الحملة الرومانية في السيطرة عليها . وأيا ماكان التفسير فانها لاتخفي حقيقة واقعة هي أن تمزق الدولة الواحدة وتضارب مطامع زعمائها وتغليب المصالح القبلية أو الاقليمية فيها على حساب الصالح العام ، كل ذلك كان سبيلاً الى تدخل الأغراب في أمورها .

وجدير بالذكر أن النصوص العربية الجنوبية أخذت تشير في هذه الفترة الى دور الأعراب أهل البادية باسم " أعراب " والى انضمامهم الى هذا الفريق أو ذاك . ويبدو أنه أصبح لهم دور كبير في فرق الخيالة أو الفرق الراكبة في الحروب .

ولم يتحقق أمل علهان نهفان في اعادة هيبة دولة سبأ وذو ريدان ، الا في عهد ولده "شاعرم أوتر " الذي أضاف الى هذا الأمل هدفاً آخر وهو تحرير الأراضي التي سيطر الأحباش عليها ولو استدعى الأمر أن يقاتل معهم من كانوا يحالفونهم من القبائل العربية الجنوبية وقد نجح في تنفيذ أغلب هدفيه وبسط سلطانه على أغلب أراضي الجنوب ، في أواخر القرن الثاني الميلادي .

ولكن نجاح شاعرم أوتر كان رهيناً بشخصه ، وبعد وفاته عادت الحروب بين السبئيين وبين الحميريين لسنوات طويلة ، وتحالف الحميريين فيها مع الأحباش في عهد ملكهم

"عذبة"، ولم ينقذ الجنوب منهم الا وفاة عذبة الحبشي وقيام الاضطرابات في بلـــده بعـــد وفاته.

كانت تلك مجرد نماذج من فترات التشتت والصراع والمد والجزر التي شهدتها دولـــة سبأ وجيرانها ، وقد تكررت أمثالها وتغيرت مواقع الأطراف فيها بين تحالف وتخاصم عـــدة مرات خلال القرون الثلاثة الميلادية الأولى .

واذا كانت مأرب قد استنفذت جزءاً كبيراً من طاقتها بعد كفاحها الطويل في ســبيل البقاء ، فقد بقي على ظفار أن تقوم بدورها وقد مالت موازين القوى النسبية اليها بـالفعل منذ النصف الثاني للقرن الثالث الميلادي ، وبجوارها قام حصن ريدان الملكي الذي نـــافس حصن سلحين السبئي في مأرب ، وقد أشاد الاخباريون العرب بالقصرين وبما فيهما مـــن فخامة وروعة .

ومهدت هذه الفترة لسيادة أسرة حميرية ريدانية تنسب الى "ايل عز نوفان يـهصدق" ، أو الى أحد أحفاده الأكثر شهرة منه " ياسر يهنعم " الثاني وقد حرف بعض الاخبـــاريون اسمه الى " ناشر النعم " وذكر عبيد بن شريه الجرهمي أنه سمي كذلك واشتهر بــــه لأنـــه استرجع ملك الحميريين وجمع الأمر لهم . ولما كان رأس أسرة جديدة أســـرفت روايـــات الاخباريين في ذكر مناقبه وفتوحه ، فروت أنه خرب في الشرق والغرب والبر والبحـــر . بتفاصيل نتجاوز عن ذكرها لعدم ثبوت شيء منها .

وشاركه في الحكم حوالي عام ٢٨٠م ولده شمر يهرعش "الثالث" ، ثم انفرد بالحكم في حوالي عام ٢٩١م وتوفرت له شهرة أوسع من شهرة أبيه ، واحتفظت له بعض الأســـاطير العربية بشهرة عريضة ، فاعتبروه أعقل من حكم ، واطلقت عليه لقب " تبـــع الأكـــبر " واعتبرته فاتحاً عظيماً امتد حكمه في زعمها الى فارس وأرمينيا والصـــين والتبـــت ... الخ

وعلى الرغم من وضوح عنصر التهويل فيما ادعته هذه الأساطير فانه يبدو أنها اعتمدت على نصيب متواضع من الواقع وضخمته باسم القومية في عصر نشطت فيه قوى الفرس والروم لتوجيه مصائر العرب . فقد حاول شمر يهرعش "الثالث" أن يحقق الوحدة السياسية لجنوب شبه الجزيرة وأن يزيد من امكانياته ويوسع حدوده ، فاستولت جيوشه على أجزاء متسعة من دولة حضرموت وتوابعها وان لم يقض تماماً عليها ، وبقيت تجاهد في البقاء بعده لفترة قصيرة . وتغلبت جيوشه على أقاليم تهامة واتسعت شمالاً الى ماوراء نجران وضيقت على مصالح الأحباش في تجارة البحر .

وشجعت هذه الانتصارات المتوالية شمر يهرعش "الثالث" على أن يزيد في ألقاب ملكيته ألقاباً أخرى ، واتخذ لقب " ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانة " وذلك في أواخر القرن الثالث الميلادي . ومرة أخرى ارتبطت هذه النهضة الحميرية الكبيرة بشخصية شمر يهرعش "الثالث" (ومن قبله بشخصية أبيه) قبل أي شيء آخر، بحيث أن بعض أقاليم دولته في حضرموت وفي تهامة ، حاولت الانسلاخ عنها في أواخر أيامه أي عندما شاخ عهده ، وربما ردها الى طاعته ولكن الى حين .

وتجددت المشكلات في عهود خلفائه الأقربين ولم ينجحوا في غير اخضاع حضرموت التي استنفذت قواها ، أما الأطراف الغربية لدولتهم فاكتنف الغموض مصيرها .

فقد ورد في ألقاب ملك الحبشة " عيزانا " الذي يرى بعض الباحثين أنه عاصر خلفاء شمر يهرعش أنه " ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشت وسبأ وسلحين وصيامو وبجة وكاسو ملك الملوك "

ويبدو أن سيطرته على حمير وسبأ اللتين أوردهما في لقبه بعد عاصمته أكسوم ، كانت سيطرة مفتعلة أراد أن يمهد بذكرها لمرحلة مقبلة بعد أن أصبحت دولة سبأ وذو ريدان في نظره لقمة سائغة طحنتها مشكلاتها الداخلية .

ولم يقتصر هدف " عيزانا " من هذا اللقب على مجرد الأمل في السيطرة على اليمن ومايصل اليها من متاجر بلده ، بل كانت وراءه ملابسات أخرى فقد اتجهت بعثات دولة بيزنطة في عهد الامبراطور قسطنطين الأكبر حينذاك الى الحبشة وما يجاورها للتبشير بالمسيحية واتخاذ الدين مدخلاً الى عقد المحالفات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية ، ونجحت هذه البعثات من ناحيتها الدينية في اطلاق حرية العبادة للمسيحين من التجار الأغراب ومن تنصروا من رجال البلاط وأهل البلاد التي نزلها ، ويبدو أن عيزانا ملك الحبشة قد سايرها على الرغم من أن اليهودية كانت قد سبقت المسيحية الى بلاده منذ عدة قرون ، ولكنها ظلت محصورة في نطاقها الضيق وسط الديانة الشائعة . ولعله في مشايعته للمسيحية وفي لقبه الذي أدعى فيه سيطرته على سبأ وحمير كان يعمل على أن تكون له الصدارة في تمثيل البلاد الواقعة على جانبي السواحل الجنوبية للبحر الأحمر أمام حليفته الدولة البيزنطية القوية حامية المسيحية في الشرق ووريثة الرومان في سياستها وتجارتها .

وعلى أية حال فما لبثت أحوال دولة أكسوم أن اضطربت في أرضها الأفريقية فانشغلت بنفسها .

وتميز من ملوك العصر " أبو كرب أسعد " الذي مارس الحكم نحو ستين عاماً منذ أن اشترك مع أبيه طفلاً . وعندما استقل بالحكم فأشرك معه ولده " حسان يهنعم " في حوالي عام ٤٠٠م ، وكانت له جهود لتوطيد الأمن في دولته والسيطرة على طريق القوافل المتجهة الى الشمال ، كما كانت له حروب كثيرة ، وشجعه نجاحه على ان يزيد في ألقابه الملكية عبارة أكد فيها سلطانه على بدو المرتفعات والبراري ، فأصبح "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانه وأعرابهم طودم وتهامة" ... ولاتساع أعماله نسبياً احتفظ الاخباريون بذكراه وذكروه باسم "أسعد تبع " ونسبوا اليه فتوحات واسعة واشادوا بقصوره أو حصونه فيما بين ظفار وبين صنعاء.

وارتبطت أهم أحداث العصر بالتطورات الدينية وما ترتب عليها من نتائج حضارية وسياسية.

فقد عرفت اليهودية سبيلها الى جنوب الجزيرة في عهود قديمة وربط بعض الباحثين بينها وبين تخريب الرومان لبيت المقدس في عهد الامبراطور ثيتو عام ٧٠م ، وتشتيتهم لمن بقي فيها من اليهود الذي هرب بعضهم الى الصحراء وانزووا في جاليات صغيرة على الطريق التجاري ووصلوا الى الجنوب. وقد ربط بعض الاخباريين بين الملك أبو كرب أسعد وبين يهود يثرب ، مرة بدخولهم إليها في عهده، ومرة برحلته إليها وتهوده ، ومرة بامتداد نفوذه إليها وتعيين أحد أولاده عليها ...الخ.

وسلكت المسيحية سبيلها الى جنوب الجزيرة عن أكثر من طريق فسلكته أولاً عن طريق البعثات التبشيرية. ويبدو أن الدولة البيزنطية حينما وجدت الحبشة قد انشغلت بمشاكلها الداخلية عما أملته فيها من نشر المسيحية وما يستتبعها من أهداف سياسية، تعاملت مع الدولة الحميرية رأساً. وكان من رسلها المبشرين الأوائل ثيوفيلوس (حوالي عام ٣٧٠م). ويرى التاريخ الكنسي أنه نجح في تنصير الملك الحميري المعاصر له ، ولم يكن تنصير الملك – إن صح – هو بيت القصيد ، وانما يبدو ان بيزنطه أرادت أن تضمن لها أنصار باسم الدين للوقوف في انطلاق نفوذ الفرس المحتمل نحو الجنوب عبر الخليج. ولهذا اتجهت البعثات التبشيرية البيزنطية الى جزيرة سقطرة وميناء هرمز أيضاً.

وسلكت المسيحية طريقها الى الجنوب عن طريق أهل الشام المسيحيين الذين تعاملوا مع أهلها ، وربما سلكته كذلك عن طريق تجار الحبشة المسيحيين وبعض أهل الحيرة على الرغم من اختلاف مذهبهم المسيحي عن المذهب الذي أخذ به نصارى الجنوب.

على انه مهما كان من أمر المسيحية واليهودية فقد ظل اتباعهما قلة قليلة ، وظلت غالبية أهل الجنوب على عقائدهم الوضعية أو الوثنية القديمة.

وتنافست الديانات الثلاث وكان أكثرها تنافساً الدينتـــان الجديدتـــان أي اليهوديـــة والنصرانية. وفي خلال هذا التنافس أشتد أحد الملوك الحميريين الأواخر الـــذي اشـــهرته المصادر العربية باسم يوسف ولقبته ذو نواس (جاء اسمه في النقوش يســـف أســـأريثار) في معاملة المسيحيين لسبب ما يرده البعض الى تهوده ، ويرده البعض الى صداقتـــه لليـــهود وتأثره بتحريضهم ، ويرده البعض الى ربطه بين انتشار المسيحيين في بلده وبـــين احتمـــال انتشار النفوذ الحبشي البيزنطي المسيحي عن طريقهم لا سيما وأن منهم من كانوا علـــى صلة ببلاط النجاشي فعلاً. واستنصر المسيحيون بعضهم بعضاً، وناشدوا امبراطور بيزنطـة أن يتدخل لمعاونتهم ، ولكن الشقة بين بيزنطة وبين الجنوب كانت بعيدة ، فوقـــع عـــبء معاونتهم على ملك الحبشة "كالب" حليف البيزنطيين ووجدت دعوة الاستنصار هـــوى في نفسه لتحقيق أمل أسلافه ولزيادة نفوذ السياسي والتجاري ، وقيل ان "كالب" كان علـــى رأس الحملة على الجنوب أو أشرف على الأقل على اعدادها في ميناء "عدوليس" الـــذي ابحرت منه عبر باب المندب في فترة ما تقع بين ٥٢٠م و ٥٢٣ميلادية ، ونجحت الحملة في غرضها ، وانتصر جيشه. وقتل ذو نواس أو فر وغرق كما روت بعض المصادر العربيـــة. وصحب الاحتلال الحبشي للبلاد في عام ٥٢٥م ما يصاحب كل احتـــلال اجنـــبي مـــن ضروب القتل والتدمير والنهب والأسر التي أفاضت المصادر العربية والاسلامية في تصويـــر بشاعتها.

وأزدادت أعداد الكنائس الكبيرة في الجنوب منذ ذلك الحين وكانت كبراها كنيسة في نجران سماها اتباعها كعبة نجران وكعبة اليمـــن وأخـــرى في ظفـــار، وكنيســـة ثالثـــة في عدن....الخ.

وإلتفتت الدولتان الكبيرتان دولة الروم ودولة الفرس الى هذا المجال الجديد. وكـــانت كل منهما قد فرغت من مشكلاتها التي شغلتها في اغلب القرن الخامس الميـــلادي حـــين تدفقت هجرات الهون على املاك فارس، وتدفقت هجرات الجرمان على املاك بيزنطيـــة.

وبدأ الامبراطور البيزنطي بمحاولة استغلال رؤساء مسيحيي الحبشة وجنوب بلاد العرب. وقيل أنه طلب من نجاشي الحبشة ومن والي الجنوب ان يجعلا قضية المسيحيين قضية واحدة وأن يتعاونا مع دولته في التضييق على الفرس ولكن يبدو أن احد من هؤلاء لم يستجب له.

وسواء مات العاقب – الوالي– الحبشي الأول على الجنوب ميتة طبيعية أو قتل ، فقد عين الاحباش حاكماً جديداً ، لعله أحد القادة الكبار في جيوش الاحتلال ، وهو الوالي الذي ذكرته المصادر العربية باسم "ابرهة" ، الذي انتحل اللقب السبئي الضخم " ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانة وأعرابهم في الطود وتهامة " مع اعترافه بنيابته أو تبعيته لسيده ملك الجعزيين .

واتخذ ابرهة صنعاء عاصمة ، وشيدت فيها خلال عهده كنيسة ضخمة ذكرها الاخباريون باسم " القليس " تحريفاً عن الكلمة **Ecolestic** بمعنى المجمع الكنسي وشيدت كنيسة أخرى في مأرب وروت المصادر العربية أن نفانس المعابد القديمة ومجهودات عرب الجنوب قد سخرت من أجل اخراج هاتين الكنيستين في فخامة كبرى.

ولكن عرب الجنوب لم يسلموا بحكم ابرهة في سهولة اذ تحدثت نصوص عن انقلاب والي كندة "يزيد بن كبشة" ضده وتعاونه مع أبناء "سمه يفع أشوع" من بقايا الأسر النبيلة القديمة وعدد من قبائلهم وكانت منها قبيلة يزن التي انتسب إليها فيما بعد سيف بن ذي يزن. وغلب ابرهة بجيشه هؤلاء الحلفاء بعد جهد جهيد.

ثم سنحت له الفرصة لكي يظهر بمظهر الحاكم المصلح ، فقد زاد تصدع سد مأرب بعد فترات الاهمال والاضطرابات المتعاقبة ، فعمل ابرهة على اصلاحه ، وقد بذل جهود في سبيل ذلك ، وحضر حفل افتتاحه مندوبون من دول الحبشة والروم والفرس والغساسنة والمناذرة ، مما يعني أن أبرهة استطاع أن يوفر لنفسه شهرة كبيرة تعدت حدود جنوب

الجزيرة. ولعل هذه الشهرة هي التي خدعته عن نفسه ودفعته الى غزو مكة ومحاولة هدم الكعبة سواء باسم التعصب الديني ، أم لاستعادة السيطرة على الطريق التجاري الرئيسي الذي كانت مكة قد حققت لنفسها مكانة كبيرة فيه ، أم استجابة لدعوة الروم القديمة باحكام الخناق على المصالح التجارية الفارسية عن طريق ربط الدولة المسيحية الجديدة في الجنوب بالدولة الغسانية المسيحية في جنوب الشام وكلتاهما من أولياء بيزنطة.

وقد أثبت القرآن الكريم نتيجة هذه المحاولة الفاشلة: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وارسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول [١] وبدلاً مما كان ابرهة يأمل فيه من اضعاف مكة أصبحت هزيمته فيها من عوامل ازدياد شهرتها. وربما عاد هو الى صنعاء بقلة بقيت من جنوده ، وعندما هلك خلفه ولداه ولد من أم أجنبية ، وكان أبوه قد ولاه من قبل على قبائل المعافر ، وذكره الأخباريون باسم "يكسوم" وولد من أم عربية ذكروه باسم "مسروق" ، وكان كل منهما أشر من أخيه فضاق الناس بهما وتمنوا تحرير أرضهم.

وتزعم حركة تحرير البلاد "سيف بن ذي يزن" الذي خلدت الرويات والأساطير ذكراه، ولكنه لم يستطيع بأعوانه أن يناهضوا الغزاة بدون عون خارجي ، وربما لأن الغزاة حرموا الوطنيين من السلاح واشاعوا الفرقة بينهم. ولعل ماروته الأساطير من اضطراره الى الاستعانة بالسحر والجن ، وابتلائه بأم انضمت الى من اغتصب عرش أبيه ، وكثرة مالاقاه من مصاعب وعقبات في تنقله وترحاله. كل ذلك كان يرمز الى المشكلات التي واجهتها دعوته في مجتمعه وخارج مجتمعه. وقد روت المصادر العربية أن سيفاً قصد بلاد الروم واستنجد بالأمبراطور "جوستين الثاني" (٥٦٥-٥٧٨) ولكنه لم يجد لديه استعداد لمعاونته ضد دولة مسيحية حليفة ، فأرسل الى ملك الحيرة العربي ليتوسط له لدى ملك الفرس أعداء الروم. فاستجاب له بعد لأي عسى أن يجد سبيلاً عن طريقه الى السيطرة على جنوب الجزيرة وحرمان بيزنطة من امتيازاتها السياسية والاقتصادية فيها.

ولكنه لم يكن مطمئناً كثيراً الى امكان نجاح المحاولة ، حيث روت المصادر العربية أنه اعانه بفرق قليلة كان أغلبها من الأفاقين المجرمين تحت رئاسة قائد فارسي يدعى "وهوز" ، وخرجت الحملة في ثمان سفن غرقت اثنتان منها ووصلت الست الباقية الى عدن أو وصلت الحملة الى حضرموت وهناك ضم سيف أنصاره إليهم وانتصر بهم على جيوش ابن أبرهة (ولعله المسمى المسروق) في حوالي عام ٥٧٥م .

وكالعادة لم يكن عون الأجنبي الغريب بغير ثمن يقابله فقد حكم سيف البلاد تحت طاعة الفرس ، وأضافت الرويات العربية أنه لقي مصرعة بعد ذلك على ايدي جماعة من الأحباش، سواء بدافع من كراهيتهم الشخصية له أو بدافع تحريض دولتهم، أو بدافع من تحريض الفرس أنفسهم. وحكم الفرس بعد ذلك حكماً مباشراً ، فولوا حاكماً فارسياً وتركوا المخاليف في أيدي الأمراء الوطنيين. وهنا توفر للفرس مالم يكونوا يحلمون به من السيطرة على مخارج التجارة البرية والبحرية من جنوب الجزيرة وإليها عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وعن الطرق البرية المؤدية الى الخليج والعراق من ناحية والى الشام ومصر من ناحية أخرى ، الى جانب ما كانوا يسيطرون عليه من تجارة الخليج ، وتتابع على حكم اليمن ثلاثة أو أربعة من ولاة الفرس كان آخرهم "باذان" الذي اسلم في عهد الرسول ﷺ ودخلت اليمن بعده في الاسلام في عام ٦٢٨م.

مملكة قتبان

التكوين السياسي:

قامت دولة قتبان "ق.ت.ب.ن" الى الجنوب من دولة سبأ ، وتضمنت وادي بيحان وحريب ، وعاصر كيانها السياسي في بعض عهوده بقية الممالك العربية الجنوبية الأخرى ،

سبأ وحضرموت ومعين وأوسان ، وتترواحت آراء الباحثين في تعيين بداية هذا الكيان القتباني السياسي بما بين منتصف القرن التاسع ق.م. وبين القرن السابع ق.م. ولكن الوجود الاجتماعي والنشاط الاقتصادي للقتبانيين يمكن ارجاعه الى أبعد من ذلك بعدة قرون.

وقد ورد اسم قتبان عند ثيوفرنس كتبان ولدي اراتوستين كتابانيا ، بينما يطلق بليني على اهلها جيانيناي ويسميهم بطليميوس الكتبانيين. وفي المصادر العربية ورد الاسم لدى الهمداني قتبان بن ردمان ، وفي تاج العروس (مادة قتب) قِتبان بالكسر، بطن من رعين . أما الحاضرة القتبانية (تمنع) فقد ذكرت لأول مرة لدى اراثوستين بفتح اول الاسم وعند بليني وبطليميوس بضم الاول . لكن العلماء يميلون الى كسر أوله أي تِمنَعْ . وفي العهد القديم (تمنه) ، ولكنه فيها علم على قبيلة أدومية وليس اسماً يدل على مكان . وقد حدد موقعها الرحالة جلازر عام ١٨٥٩م، وهي اليوم هجر كحلان الحالية.

وبدأ الحكم في قتبان بنفس الصيغة الثيوقراطية أو الدينية التي بدأ بها في بقية الممالك العربية الجنوبية ، فتلقب أوائل حكامها الكبار منذ القرن السابع ق.م. بلقب "مكرب" وهو لقب تناولنا مدلولات مثله من قبل في سياق الحديث عن دولة سبأ. ومنذ نهاية القرن الخامس ق.م. غلب الحكام القتبانيون الصيغة المدنية السياسية في حكمهم وتلقبوا بألقاب الملكية. وليس من المستبعد أن ذلك التحول قد ارتبط في حينه بنصر سياسي أو حربي رفع من شأن الحاكم القتباني في نظر نفسه ونظر شعبه وجعله يعتبر نفسه لا يقل مكانه عن ملوك سبأ الذين تحول سلطانهم الى الملكية ، لاسيما بعد ان خف الضغط الذي فرضته هذه الدولة على جيرانها في عهد ملكها الداهية "كرب إيل وتر".

ويبدو ان قتبان قد استفادت من وضع سمحت لها به دولة سبأ المعتزة بقوتها ، ثم استغلته لمصلحتها. فقد اقطع "كرب إيل وتر" قتبان بعض الأراضي التي أستولت جيوشه

عليها من دولة أوسان مكافأة لها على التزامها بموقف الحياد خلال حروبه وهو مطمئن الى بقائها موالية له. وكانت هذه الأراضي الأوسانية تطل على ساحل البحر الأحمر وتنتفع من موارده التجارية ، ولهذا عملت قتبان على تدعيم سلطالها عليها وتوسيع رقعتها لمصلحتها.

ومع منطقية مثل هذين السببين السياسي أو التوسعي للتحول الى الملكية في قتبان، لا بأس من تقدير عوامل أخرى داخلية غالباً ما تتماثل نتائجها في نظم الحكم الثيوقراطية الأصل. ذلك أن تجارب التاريخ أوضحت أن الصبغة الثيوقراطية في الحكم أشبه بسلاح ذو حدين ، فهي وإن ضمنت القداسة وضمنت الولاء الروحي للحاكم إلا أنها كانت تخلق أمامه على مرور الزمن منافس من رجال الكهنوت الذين يشاركونه في السلطة باسم الدين، وحينذاك يرى من مصلحته أن يرتفع عن مستوى رئاسة الكهنوت الى مستوى الملكية ذات السلطات الشاملة.

وعلى اية حال ، فإن التحول نحو الملكية في قتبان لم يمنع بعض ملوكها من التلقب بلقب المكرب بين حين وآخر تأكيداً لصفتهم الدينية ولا سيما في أوقات الأزمات (وقد تلقب به الملك يدع أب ذيبان في القرن الثاني ق.م.) ولم يقلل من استمساكهم بالألقاب التي تؤكد صلتهم المباشرة بمعبوداتهم فكان الملك يعتبر في ألقابه ولد "المعبود" عم ، والابن البكر "لكل من" أنبي وحوكم.

وأستمر الحكم الأعلى وراثياً في الأسر المالكة في قتبان يتولى العرش فيه الأبن بعد ابيه أو الأخ بعد أخيه إن لم يكن له ولد يخلفه.

وربما اشترك ولي العهد مع الملك الحاكم بعد ان تتقدم السن به كي يأخذ عنه خبرته ويمارسها بصورة عملية ، ويؤيد حقه الوراثي عن طريق هذا الاشتراك ويضمن عدم منافسة اخوته فيه بعد موت أبيه ، وحينذاك تصدر المراسيم باسمي الحاكمين الشريكين معاً ولم يكن

الوطن القتباني اقل منزلة عند أهله من مقدساهم الدينية ، فإلى جانب القسم الرسمي بأسماء المعبودات لاسيما عم وأنباي وباسم الملك الحاكم يقسم كذلك باسم قتبان.

وكانت الأوامر أو المراسيم الملكية تنقش على مداخل العاصمة " تمنع " أحياناً ، وتنقش على نصب تقام في السوق الرئيسية وفي المعابد ، وتخدم بذلك أغراضاً شتى، ومنها توفير العلنية للمراسيم ولتظل مرجعاً لما يعقبها من عهود وقوانين ، فضلاً عن تخليدها لذكرى الملك الحاكم الذي صدرت باسمه ، ويضاف الى هذه الأغراض فيما يختص بنقشها على نصب المعابد أن المعابد كان لها موضعها المتوسط عادة بين مباني المدينة ، ويتردد عليها أغلب من يعرفون القراءة ، فضلاً عما توحي به من وضع الأوامر الملكية تحت رعاية أربابها، واشعار الناس أن هؤلاء الأرباب شركاء فيها ، لاسيما اذا تناولت حقوقاً للمعابد ومنشآها وكهنتها ، وليس يمنع بعد هذا من افتراض وجود منادين يعلنون مضمون هذه الأوامر والمراسيم شفاهة في الأحياء والأقاليم وبين القبائل باسم الملك الحاكم .

ومن أهم ماتضمنته نقوش البوابة الجنوبية للعاصمة تمنع ، بقايا نص لتشريع صدر في عهد الملك يدع أب ذبيان بن شهر في بداية القرن الثاني ق . م . وفيه مايقضي على القاتل القتباني بالحرمان والخروج على القانون ، فان تجاهل هذا الحكم أباح الملك دمه ان أصر على البقاء في قتبان ، دون أن يترتب على قاتله عقوبة أو ملامة .

في الحياة الاقتصادية :

اعتمدت اقتصاديات قتبان وسلطة حكامها على مااعتمدت عليه بقية الدول العربية الجنوبية من التجارة الداخلية والتجارة الخارجية ، وتنمية للثروة الصناعية والزراعية ، وربما الثروة الرعوية أيضاً ، ثم الاستفادة في الوقت نفسه من تحصيل المكوس والضرائب على هذه وتلك . ووجدت مسلة حجرية صغيرة وسط العاصمة " تمنع " نقشت عليها

بعض تنظيمات التجارة الداخلية والضرائب في عهد الملك " شهر هلال بن يـــدع أب " وهدفت الى ضمان حقوق الدولة في ضرائب التجارة ، وحماية مصالح المواطنين التجــار ، وتركيز التجارة في سوق " شمر " والتزام التجار الأغراب بالتبليغ عن شئون تجارهم ســواء للاذن بها أم لتقدير الضرائب عليها .

وجاء في المرسوم على سبيل المثال أنه أيما تاجر في تمنع ، مهما كانت تجارته ، يجــب أن يدفع ضريبة السوق في تمنع ليكون له دكانه في شمر . وهذا حق (وواجب) لكل تــاجر مهما كانت قبيلته ، فاذا أسس دكانه أصبح له الحق في أن يتاجر وحده أو يشارك غــيره . دون اعتراض من مدير شمر. واذا سمح مدير شمر للتجار القتبانيين بأن يتجولوا بين القبــائل للتجارة وأعلن ذلك أصبح حقاً لهم . فاذا أخطروه بأن أجنبياً نافسهم في هذه التجــارة أو خدع أحدهم ، غرم هذا الأجنبي خمسين وزنة ذهبية ...

فاذا أجر مواطن داره لتاجر أصبح ملزماً بأداء ضريبة السوق في تمنع الى الملك ، مــن تجارة (المستأجر) وماتغله ، فان لم تكف دفعها مما يملك ومن كسبه الخاص .

ومن أدى ضريبة سوق تمنع ليتاجر فيها ، فتاجر مع قبيلة أخرى فقد حقه في ممارســة هذه التجارة ، وذلك حفاظاً على حق القتبانيين الذي خصصه الملك .

واذا باع شخص تجارة جملة ، وكان ينبغي آن تباع في سوق شمر ، وجــب أن يجــري ببيعها بالتجزئة عن طريق وسطاء قتبانيين.

واذا دخل تاجر سوق شمر بتجارة يود أن يبيعها ليلاً ، وجب على الناس أن ينفضــوا من حوله حتى يطلع النهار .

وانتهى المرسوم بالنص على أن للملك حق السيادة على كل معاملة وكل تجارة تجري في منطقته ، وهذا أمر ينبغي على كل ملك أن يؤيده .

ومن أجل خدمة وتشجيع قوافل التجارة الخارجية وتجارة المرور " الترانزيت " لاسيما فيما يختص بالبخور وأنواعه ومشتقاته ، ومن أجل أحكام الاشراف عليها في الوقت نفسه، مد القتبانيون الطرق البرية ومهدوها . ومن أهمها طريق ممر مبلقة الذي بذل فيه مجهود بارع بالنسبة لعصره وبيئته عبر الجبال ليصل بين وادي بيحان ووادي حريب وتعبره القوافل المتجهة من عدن الى نواحي مأرب في سبأ ، عبر الأراضي القتبانية . وقد مهدت أرضيته بالأحجار باتساع يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار ، وامتد نحو ثلاثة أميال (حوالي ٤٨٠٠ م) بين ارتفاع وانخفاض بانحناءات كثيرة في أجزاء شقتها الطبيعة وأجزاء أخرى مهدتها يد الانسان على مدرجات جبلية تحمي جوانبها جدران منحوتة أو مبنية وبلغ ارتفاع أعلى قمة فيه حوالي ٣٨٠ متراً من سطح الوادي . وأقيم على طرفي هذا الطريق الطويل حوض لخدمة القوافل وسقاية الابل .

وتوفر للاستثمار الزراعي دور كبير آخر في اقتصاديات قتبان ولاسيما في نواحي بيحان وحريب وبدأت مشروعات الري في وادي بيحان منذ القرن الخامس ق.م.، وهو وادي كبير ينحدر من المرتفعات الجنوبية ناحية الشمال ويبلغ متوسط اتساعه بين ثلاثة وأربعة كيلومترات وان زاد عن ذلك كثيراً أو قل عنه في بعض أجزائه . وفي انحداره تتعاقب على جانبيه تكوينات بركانية ثم لاتلبث هذه التكوينات حتى تختفي تحت رمله السبعتين الصحراوية الضخمة .

وقامت على البداية الشمالية للوادي مدينة تمنع عاصمة قتبان ، بينما قامت على بدايته الجنوبية حاضرة أخرى تعرف الآن باسم بيحان القصب ولازالت أغلب آثارها لم تكشف بعد .

وكانت مياه الأمطار الموسمية تصل عادة الى وادي بيحان على هيئة السيول فتملأ مجراه الذي يمتد نحو ٦٥ كم وباتساع يتراوح بين مائة ومائتين متر عرضاً . وقد تنقطع هذه السيول لعدة سنوات وتتشرب الأرض الرملية جانباً منها ، ولكن مواسمها وسيولها القديمة أرسبت مع توالي الأزمنة على مدرجات الوادي طبقات كثيفة من الطمي تراوح عمقها في بعض مواضعها بين ١٥ وبين ١٨ متراً .

ولا ندري هل استفاد القتبانيون خبرة ما من نتائج مشروعات الري في أراضي جلوتهم سبأ وقلدوها أم لا . ولكن الدلائل تشير الى أنهم أحسنوا استغلال أوضاع واديهم فأنشأوا فيه شبكة مائية ضخمة ، وقامت منشآت ري أخرى وشقت ترع في وادي حريب الذي يقع الى الغرب من وادي بيحان ويصل بينهما عقبة مبلقة عبر الجبال. ووادي حريب أعرض من وادي بيحان ولكنه أقصر.

وامتدت الترع والمنشآت المائية الى وديان فرعية تتصل به (مثل وادي العين ووادي وهبة) ولاتزال بعض مباني هذه المشروعات المائية ظاهرة بينما غطت الكثبان على بعضها الآخر وتآكلت بقيتها نتيجة لارتفاع المجاري المائية عن الحقول المزروعة مما جعل عوامل التعرية تعمل عملها فيها. ولاتزال تتناثر في الوديان نتيجة لهذه المشروعات حفر وجذور ماكان ينمو فيها من نخيل التمر والدوم وأشجار المر التي أشار الرحالة استرابون – في القرن الأول ق.م. – الى شهرة قتبان بالاتجار فيه والنتاج بعض أنواعه.

ومارس القتبانيون انشاء السدود ضمن مشروعات الري ، على نطاق ضيق ، ومنها سد فرعي في منطقة الخضرة يحتمل ارجاعه الى القرن الرابع ق . م . لصد مياه وادي حماد، وشيد بأسلوب بسيط فبني بأكوام من الطين الجاف دعمت واجهاتها المواجهة لتيار الماء بالأحجار كما دعمت أعاليها بالأحجار أيضاً ، وثمة بقايا سد آخر بجوار بيحان القصب .

ومن المشروعات المائية القتبانية أيضاً حفر الصهاريج ، ولاتزال تتوزع على قمم الجبال آثار صهاريج قتبانية كان البعض منها يتسع لآلاف الجالونات . واختلف الرأي في توقيت انشائها بين مايعاصر العصر الفارسي في القرن الخامس ق . م . ، وبين القرن الميلادي الأول.

ولم تغن كل هذه المشروعات القتبانيين عن حفر الآبار العادية في المناطق التي تحتاجها ، ويحتمل أنه كانت تتسرب إليها المياه الزائدة في المزارع فتختزن فيها حتى يحين وقت الحاجة إليها ويتيسر رفعها. واستفادت الدولة من ضرائب الزراعة كما استفادت من ضرائب التجارة ، ويفهم من الدراسات الحديثة للنظم القتبانية أن هذه الضرائب في قتبان وفي غيرها من ممالك جنوب الجزيرة كانت تعادل العشر أو ما يقرب منه وتؤدي عينية عادة أي من نفس محصول الأرض. ويتولى الاشراف على تحصيلها ولاة الأقاليم وشيوخ القبائل أحياناً ، كما كانت الدولة تأخذ بنظام الالتزام في تحصيل ضرائبها أحياناً أخرى. فتسمح لبعض كبار أهل القرى والمخاليف والمعابد بأن يتولوا جباية ضرائب معينة وتخصص لهم جعلاً منها.

وأمتدت حصيلة الضرائب الى ماهو أكثر من هذا ، فورد في أمر أصدره ملك قتباني الى كبير احدى القبائل بأن يؤدي الى خزينته من ضرائب قبيلته : " عشر " كل ربح صاف وكل ربح يرد عن طريق الالتزام وكل ربح يجبى من بيع ومن إرث. وقد تدل العبارة الأخيرة على تحصيل رسوم على عقود البيع وعقود التوريث على نحو ما تجرى عليه قوانين الضرائب في أغلب المجتمعات المعاصرة.

علاقات قتبان بجيرانها :

شهدت دولة قتبان في تاريخها الطويل أطواراً مختلفة من التوسع ومن الانكماش وكيفت سياستها نحو جيرانها الأقربين ، صداقة أو عداء أو حياداً ، بما يتمشى مع قدراتها وامكانياتهم . فقد مر بنا في تتبع العلاقة بينها وبين جارتها القوية سبأ كيف أنها لزمت الحياد

من جانبها أيام حروب كرب ايل وتر السبني ضد معين وأوسان ، وكيف أمنت بهذا على أرضها من أطماعه بل وحصلت منه على بعض أراضي أوسان القريبة من البحر الأحمر مكافأة لها على مسلكها ازانه ، غير أن تلاصق الحدود بين الدولتين الطموحتين سبأ وقتبان كان من شأنه أن يهيئ استمرار فرص التنافس والاحتكاك ، ثم الاشتعال بينهما .

وبعد عدة حروب لانعرف شيء مؤكد عن نتائجها ، شقت قتبان طريقها وظلت تسيطر على أجزاء من المناطق الساحلية التي كانت تشغلها من قبل أوسان التي عاشت في بعض أجزائها قبائل حمير . وقد تلونت هذه القبائل الحميرية بالولاء القتباني واعتبرت نفسها من " ولد (المعبود) عم " معبود القتبانيين . وأطلقت على حصنها الرئيسي اسم ريدان ، وهو اسم قتباني الأصل كان يطلق من قبل على حصن رئيسي للعاصمة القتبانية " تمنع " وقام على ملتقى الوديان الى الجنوب منها .

على أنه لم يكن من المنتظر أن تسير الأمور في مصلحة قتبان دائماً ، فبعد عام ٢٨٥ق.م. استطاعت جيوش الملك السبني " يثع أمر بين " أن تسترد بعض الأراضي التي اكتسبتها قتبان من أسلافه خلال القرن الرابع ق . م . وشهدت قتبان فترة ازدهار أخيرة في عصر أسرة حاكمة ثالثة أو رابعة بلغت شأوها في عهد " شهر يجل " الذي يؤرخ عهده فون فيسمان ببداية القرن الأول ق . م . وقد تطلعت قتبان في عهده الى دولة معين الواقعة الى الشمال منها فاجتزأت جانباً من أرضها وعقدت معها حلفاً احتفظت لنفسها فيه بالمكانة الأسمى . ولعلها استهدفت من وراء هذا الحلف أن تضيق به على دولة سبأ فتضغط هي عليها من الجنوب وتضغط الحليفة معين عليها من التمال . ويرجع الى أيام هذا التحالف نص من عهد ملك معين " وقه ايل يتع " أرخه كاتبه المعيني باسم ملكه واسم ولي عهده وشريكه في الحكم " ايل يفع يثور " ، كما أرخه في الوقت نفسه باسم الملك القتباني "شهر يجل يهرحب" ، وذلك مما يدل على اعترافه الضمني بنفوذ قتبان على بلده . ولعل هذه الفترة من الازدهار القتباني هي التي روي عنها بليني الروماني أن انتاج الكندر

كان يأخذ طريقه من حضرموت الى حيث تتسلمه قتبان على طريق البخور الممتـد حـتى ساحل البحر المتوسط ، وروي عنها كذلك أن الجبانياتي (أي القتبانيين) لهم مدن كثـيرة أكبرها تمنع ، وأنه كان فيها ٦٥ معبدا مما يشير الى اتساعها .

ولكن يبدو أن بلوغ القمة يعقبه الانحدار أحيانا ، فقد تألبت عليها قبائل حمير المنتشـرة فيها ، ويبدو أنها كانت قد نجحت في تجميع كلمتها من قبل بداية القـرن الأول ق . م . وبيتت النية على الاستقلال عن قتبان . وليس مايعرف حتى الآن عن تفاصيل هذه المحاولـة ولكنها حققت هدفها في النصف الأخير من القرن الأول ق.م. فقاتلت قتبان وأخذت منها ماكان لها من مناطق ساحلية .

وتوفرت بهذا فرصة ذهبية لسبأ التي سكتت على الازدهار القتباني المجاور لهـا علـى مضض ، وعانت من تضييق قتبان عليها من الجنوب وتضييق حليفتها أو تابعتها معين مـن الشمال . فاستغلت فرصتها وبدأت بأضعف الفريقين وهي معـين فـهاجمت عاصمتـها واستولت على مناطق واسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث مـن القـرن الأول ق . م . وانكمشت قتبان على خارطة الجنوب بعد أن خسرت أرض حمير وخسرت حليفتها معـين ولكنها جاهدت في سبيل البقاء ، ساعدها على الاستمرار أن غريمتها دولة سبأ كانت تعاني هي الأخرى مشاكل متعددة تعرضنا لها في حينها ، فلم تستطع أحدهما أن تقضـي علـى الأخرى ، وأن اتصلت المناوشات بينهما .

وفي هذه المرحلة المضطربة من تاريخ قتبان توالى ملوك لايذكر لعهودهم من الأعمـال الانشائية الا أن أول عملة ذهبية قتبانية قد سكت في عهد أحدهم وهو " وراوايل غيلان". وقد كانوا في مجموعهم ضعاف الحيلة ازاء اضطراب موازين القوى في الجنوب ، وكـان ازدياد ضعفهم مشجعا أو مترتبا على هجوم جديد غير متوقع من جارتهم الشرقية دولـة حضرموت التي بسطت نفوذها على الأجزاء الشرقية من قتبان .

وفي حوالي عام ١٠٠ ق . م . دمرت تمنع عاصمة قتبان تدميرا عنيفا لازالت باقية معالمها القديمة . وجاهدت قتبان في سبيل البقاء على الرغم مما لحق بها فاكتفت بمناطقها الغربية ويبدو أنها قد اضطرت نتيجة لضعف حيلتها أن تنضم الى حضرموت في مشاكلها ضد دولة سبأ بعد أن أصبحت هاتان الدولتان هما مركز الثقل في الجنوب فحاربت في صف حضرموت ، ثم تهاوت حوالي عام ٥٠ ق. م . بعد أن استهلكت قوتها وانحسر كيانها السياسي وهجرت مناطقها الزراعية بعد أن قلت رعاية مشاريع المياه فيها وغطت الرمال عليها . وفي عهد "شهر هلال يهقبض" أحرقت تمنع. وكانت بعثة مؤسسة الانسان الأمريكية قد عثرت على آثار ذلك الحريق أثناء حفرياتها في هجر كحلان وأرجعته الى الفترة الواقعة بين ٩٠-١٠٠م.

دولة معين

كانت دولة معين أقرب الدول الجنوبية اتصالا بالمناطق الشمالية في شبه الجزيرة. ونشأت في الجوف الجنوبي فيما يمتد بين حدود حضرموت وبين نجران . وانتفعت معين بسهل متسع يغذيه بالخصوبة ومياه الري وادي الخارد وفروعه .

واختلفت تقديرات الدارسين في تعيين البداية السياسية لدولة معين بما بين بداية القرن السادس ق . م . وبداية القرن الرابع ق . م . ويبدو أن أقرب هذه التقديرات احتمالاً هو بداية القرن السادس ق . م .

واتخذت الدولة عاصمتها في مدينة " قرناو " (خربة معين الحالية) في شرق الجوف ، وقد بنيت مستطيلة في مساحة صغيرة نسبيا وتبلغ مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذي مدخلين تحميهما الأبراج الحجرية ، وبقي جزءا من البرجين اللذين يحفان بمدخلها الشرقي . وقام الى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو

معبد "رصفم " ولازالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفائة أصحابها وان تجاوزنا عن وصفه مراعاة للايجاز .

وكشفت الأبحاث الأثرية في مواطن العمران الأخرى في معين عن مدن : يثل (خربة براقش) ، وكمنا (خربة كمنة) ، ونشان (خربة السوداء) ، ونشق (خربة البيضاء) ورجمة (في اخدود نجران) ... وغيرها .

تعاقبت على حكم معين خمس أسرات حاكمة لم تحتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ، ولكن يرجح الباحثون أن سلطاقم بدأت بنفس الصيغة الدينية التي ظهرت عند جيراهم ، فتلقب كل منهم بلقب " مزود " ربما بمعنى من يزود المعابد بقرابينها، واعتمد هذا الترجيح على بقاء مزود ضمن ألقاب حكام معين المتأخرين حتى بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك .

وعملت معين على استثمار أراضيها الصالحة للزراعة باقامة بعض مشروعات الري الصغيرة للاستفادة من الأمطار والسيول ومياه الخادر وفروعه ، وذلك مما جعل الرحالة الروماني بلينيوس – بليني يصف أراضيهم بأنها خصبة تكثر فيها الأشجار والنخيل ولهم فيها قطعان كثيرة . غير أن معين اعتمدت في حياتها الاقتصادية أكثر مما اعتمدت على الاشتراك بنصيب كبير في تصدير منتجات الجنوب الى أسواق التجارة الخارجية ولاسيما منتجات الكندر والمر واللادن التي كانت ترحب بها معابد الهلال الخصيب ودول البحر المتوسط ترحيبا كبيرا ، وذلك مما جعل نفس الرحالة بلينيوس يعقب بقوله : (والمعينيون منطقتهم يمر فيها ترانزيت الكندر عبر طريق ضيق . وهم الذين بدأوا التجارة وأهم من مارسوها ، واتخذ نوع من البخور اسمه منهم وهو البخور المعيني " **M inaean** ").

ويبدو أن مكاسب هذه التجارة التي سبقت عهد بلينيوس بقرون طويلة هي التي

حركت أطماع دولة سبأ منذ عهد المكربين ضد دولة معين ، وقد مر بنا كيف تكررت الحروب بينهما في عهد المكربين الأواخر ، وكيف أسرفت جيوش كرب ايل وتر السبئي في تدمير مدن معين وتشريد أهلها حتى مايمتد الى نجران .

وعندما استردت معين كيانها بدأت بها عصور الملكية في أوائل القرن الرابع ق.م . واعتاد ملوكها أن يتلقبوا بألقاب شخصية معبرة حاول العالم هومل وغيره تفسيرها، مثل: صدق بمعنى الصادق أو العادل ، ويشور بمعنى المستقيم ، وريام بمعنى المتعالي ...الخ.

وعلى الرغم من سيطرة نظام الحكم الملكي في معين ظل لمشائخ القبائل وأعيان العاصمة نصيب من المساهمة في تصريف أمور دولتهم ، فضمهم في العاصمة مجلس "مسود" (وهو نفس الاسم الذي عرف به مثيله في قتبان) ويوصف بأنه " مسود منعن " أي المجلس المنيع . وكانوا يجتمعون فيه بدعوة من الملك للبحث في أمور الضرائب والمنشآت العامة والمداولة في أمور الحرب – ان وجدت – والتصديق على العقود التي تبرمها الدولة مع كبار الأفراد وتعهد اليهم بمقتضاها بتنفيذ بعض مشروعاتها الدينية أو المدنية وتتفق معهم فيها على الموارد التي ينفقون منها على هذه المشروعات .

ويغلب على الظن أنه قامت الى جانب هذا المجلس الرئيسي في العاصمة مجالس أخرى فرعية في المدن الكبيرة والأقاليم كانت تشكيلاتها واختصاصاتها تشبه المجالس البلدية أو القروية الحالية .

وتولى رئاسة حكم الأقاليم والمدن الكبيرة في معين موظفين تلقب كل منهم بلقب (كبر) " أي كبير أو والي " وتولي كل منهم رعاية شئون اقليمة باسم ملكة في شئون القضاء وفي جباية الضرائب وفي اقامة المشروعات الاقليمية .

غير أن الكبراء أو الولاة لم يكونوا وحدهم المشرفون على جباية الضرائب وانما أخذت دولتهم في نفس الوقت بنظام الالتزام في تحصيل بعض ضرائبها ، وهو نظام سبق أن أشـونا الى تطبيق مثله في قتبان . وكان معدل الضرائب يدور حول العشر أو مايقرب منه ويؤدي عادة عينا .

وبحكم موقعها الشمالي ظلت معين أكثر اتصالا بطرق التجارة الشمالية الرئيسية الـتي تخرج من عاصمتها " قرناو " ومن تابعتها " نجران " الى نجد وما ورائها الى الحجـاز ومـا ورائه. ولرعاية قوافل المتاجر التي تسلك الطريق التجاري البري الكبير الممتد الى العقبـة وما يتفرع منها الى سيناء وغزة في جنوب بلاد الشام ، زودت معين هذه الطريق بحاميـات وجاليات معينية كان استقرارها في الشمال من عوامل التزاوج والاختلاط السلمي بـين عرب الشمال وبين عرب الجنوب كما كانت من أسباب ما تناقله النسابون عـن تنـاثر بطون جنوبية أو قحطانية بين العرب الشماليين .

وأقامت أكبر الجاليات والحاميات المعينية في واحة العلا شمال يثرب ، وكانت في بعض عصورها مقرا لدولة دادان ودولة لحيان . وعندما زاد النفوذ الاقتصادي لهذه الجاليـة زاد بالتالي نفوذها السياسي حتى غدت منطقتها حليفة لدولة معين يحكمها كبير علـى صلـة بالملك المعيني الجنوبي . وربما حدث هذا التطور في أواخر القرن الثالث ق . م . وأصبحت معه المنطقة تذكر في النصوص الى جانب أسمائها القديمة باسم حليفتها الجنوبية أي " معين " مع تخصيصها بكلمة " مصران " .

وتعامل تجار معين ووسطاؤها من " معين مصران " مع العواصـم المصريـة واسـتقر بعضهم فيها . ومنهم رجل يدعى " زيد ايل بن زيد " دفن في مصر ووجد له تـابوت في منطقة منف كتب عليه بحروف المسند مايفهم منه أنه عمل في خدمة معبد مصـري لعلـه سيرابيوم منف ، وتولى توريد بعض المنتجات العربية اليه مثل المر والذريرة (قصب الطيب)

وغيرهما على سفينة بحرية ، في مقابل ماكان يصدره الى بلده من المنسوجات المصرية . وليعبر زيد ايل عن استغراقه في الحباة المصرية تلقب بلقب " وعب " وهو لقب ديني مصري قديم يعني الكاهن المطهر . وأرخ هذا النص بالعام ٢٢ للملك " توليمايوث برتولومايوس " وهو مايقابل عام ٢٦٣ ق . م . ، خلال عهد بطليموس الثاني .

ووصل تجار معينيون بتجارهم الى جزيرة " ديلوس D elos " في بحر ايجة (في اليونان الحالية) في النصف الأخير من القرن الثاني ق.م. ، حيث وجدت فيها آثار صغيرة نقشت بنصوص عربية جنوبية تدعو لأصحابها بآلهة معين (وآلهة سبأ).

واستمرت معين في سبيلها السياسي وسبيلها الاقتصادي حتى دب الوهن في نظامها واشتد بأس جيرانها ، وتجرأت عليها دولة قتبان ودولة سبأ . وبدأت قتبان فاقتطعت جانبا من أرضها ولعلها أجبرتها – كما مر بنا – على عقد حلف احتفظت لنفسها فيه بالمكانة العليا لاسيما في أيام ملكي معين " وقه ايل يثع " وولده " ايل يفع يشور " الثاني . وحاولت قتبان أن تستغل معين في التضييق على دولة سبأ من الشمال ، ولكن هذا زاد من حقد سبأ عليها فما لبثت هذه الأخيرة حتى استغلت انشغال قتبان بمشكلاتها الداخلية مع قبائل حمير وانفردت بمعين فدمرت عاصمتها قرنا واستولت على أجزاء متسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق.م. ، بحيث لم يذكرها استرابون في عام ٢٤ ق.م. حينما صحب حملة القائد الروماني " ايليوس جاليوس "ضد الممالك العربية الجنوبية ، مما يعني أنها كانت قد فقدت استقلالها على أيامه .

لكن الانكماش السياسي لم يؤدي الى وقف نشاط المعينيين في مجالات التجارة فظلوا يقومون بدورهم فيها ويجنون مكاسبها تحت طاعة دولة سبأ القوية ، وبهذه الصورة كتب عنهم بلينيوس في القرن الميلادي الأول ما نقلناه عنه من قبل ، كما كتب عنهم الرحالة الجغرافي " بطلميوس " في القرن الميلادي الثاني .

دولة حضرموت

شغلت حضرموت منطقة واسعة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وجمعت في أرضها الواسعة بين الجبال العالية وبين الوديان العميقة . وكان واديها الكبير وادي حضرموت فيما يبدو مجرى مائيا ضخما خلال الدهور المطيرة القديمة ويمتد جزؤه الخصيب نحو ٦٠ ميلا وتجري فيه بضعة أودية صغيرة منها وادي ميفع وهو واد يحتمل أن يكون لاسمه صلة قديمة باسم مدينة " ميفعة " التي كانت من أقدم العواصم المعروفة لحضرموت .

وانتفعت حضرموت بساحل طويل على بحر العرب (أو المحيط الهندي) قامت عليه ميناء رئيسية اسمتها النقوش "قنأ " وأطلق العبرانيون القدماء عليها اسم " كنية " بينما أطلق الاغريق واللاتين عليها اسم كاني " Cane Kane" وتقع قنأ في الجهة الجنوبية الغربية من قرية بئر علي الحالية ، وتبعد عنها بحوالي ٣كم ، وتحيط بالجبل البركاني (حصن الغراب) من الجهة الشمالية. وقد تم اكتشاف عام ١٨٤٣م.

ولايزال المعروف من تاريخ المراحل الأولى لحضرموت قليلا ويزال الخلاف بين تقديرات الباحثين لبداية تكوينها السياسي واسعا، فبينما أخذ فلبي برأي هومل ببداية عصور الملكية فيها بأواخر القرن الحادي عشر ق.م. أرخها البرايت بأواخر القرن الخامس ق.م. على أساس أنه بعد أن أختفت شخصية كرب ايل وتر السبئي القوية من الجنوب قامت الملكية في حضرموت وربما بدأت بما يشبه التبعية لدولة معين بحيث حكمها معا ملك واحد يدعى "صدق ايل" واذا صح هذا فقد يعني ترابط الجارتين معين وحضرموت في مجالات التجارة وتحالفهما للوقوف في وجه دولة سبأ ذات المطامع الواسعة. وبعد جيلين أو ثلاثة انفرد بحكم حضرموت أمير من أصل معيني يدعى "معد كرب" أسس بها أسرة حكم مستقلة ، مع بقاء العلاقات الودية بين البيتين الحاكمين قائمة. بحيث كان الكتبة في كل منهما يسجلون أحيانا اسم ملك الدولة الثانية الى جانب اسم ملكهم في النصوص التي

تتناول ذكر المنشآت الجديدة والاحتفالات الكبيرة وامتد هذا الوضع الذي لازال بعض الباحثين يتشككون في تفاصيله فترة صعب تحديد أمدها ، ثم غابت أسماء ملوك حضرموت. وعلل بعض المؤرخين هذه الظاهرة باحتمال خضوع حضرموت مرة أخرى خضوعا مباشرا لدولة معين ، بينما عللها بعضهم الآخر بخضوعها لدولة أخرى من الدول الجنوبية مثل قتبان أو سبأ .

واستمرت هذه الفجوة في التاريخ الحضرمي حتى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي. ثم ظهرت الملكية الحضرمية من جديد وبدأها ملك يسمى " يدع ايل بين". ومرة أخرى ليس مايعرف يقينا عن الظروف التي بدأ بها ملكه ولكن تخلفت بضعة قرائن يمكن الاستفادة منها في تصور هذه الظروف ، منها أن يدع ايل بين ذكر في احدى نصوصه أن أباه رب شمس كان من أحرار يهبأر ، وذلك مما يعني أنه لم يكن من بيت مالك قديم وأنه بلغ العرش بمسعاه الشخصي . وقد يزكي هذا الاستنتاج أن عددا من رعاياه قد تفاخروا في نصوصهم بأنهم ساعدوه ، دون أن يبينوا نوع هذه المساعدة . وليس من المستبعد أنها كانت مساعدته على بلوغ العرش . وقد بدت العلاقات بين مملكته الجديدة وبين دولة سبأ التي أصبحت أكبر الدول الجنوبية في ذلك الحين علاقات طيبة ، وذلك مما يحتمل معه أن سبأ عاونته على اعلان ملكة أو أنها – على الأقل – رضيت بما قام به في سبيل اعلان ملكه.

وظهرت منذ عهد يدع ايل شهرة العاصمة الحضرمية " شبوة " التي ذكرت نصوصه أنه عمرها وأنه عمل على تشييد حصن ومعبد رئيسي فيها وتناقل المؤرخون والرحالة الكلاسيكيون اسم هذه العاصمة بمترادفات متقاربة تحرفت بعض الشئ عن اسمها الحقيقي ، ومن هذه المترادفات : **Sabatha , Sabbatha , Sabata** . وتعاقب بعد عهد يدع ايل بين عدد من ملوك حضرموت ، واستطاعت الدولة في فترة ما من القرن الأول الميلادي أن تسيطر على الأجزاء الشرقية من دولة قتبان بعد أن ضعف شأن هذه الدولة الأخيرة ،

فسيطرت على جزءا من وادي بيحان . غير أن تدخل حضرموت في شئون الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة جر عليها مشكلات كثيرة مع القبائل الحميرية حيث أصبحت الحدود بينهما بين مد وجزر لأحدهما على حساب مصلحة الآخر . وجر عليها مشكلات مع دولة سبأ أيضا . ثم أعقبت ذلك عهود سلام ظهر فيها ملكان حضرميان على أقل تقدير باسم " ايل عز يلط " . وأثبت أحدهما في نص من نصوصه أنه " ايل عز يلط ملك حضرموت بن عم ذخر " وأنه قد سار الى حصن أنود ليتلقب (بلقب ملك) . وأشار عدد من أتباعه الى أنهم صاحبوه في هذه الرحلة ، كما سجل رجلان من أشراف حمير أن ملك سبأ وذو ريدان (ثاران يعوب) أوفدهما لحضور حفلة . وتنم هذه المصادر مجتمعة عن أن حصن أنود هذا ، الذي لازالت بعض أطلاله باقية تشرف على واد ينتهي الى العاصمة شبوة – في مكان يعرف اليوم باسم العقلة –، قد توفرت له ذكريات خاصة في عهود الملكية الحضرمية ، وأن حفل التولية كان حفلا ضخما يلائم المناسبة التي أقيم من أجلها . وأن العلاقات بين حضرموت وبين دولة سبأ التي دخلت في طور جديد من أطوار الملكية جمعت فيه بين سبأ وحمير ، أو سبأ وريدان قد غدت علاقات طيبة .

ويذهب الظن الى أن ايل عز يلط بن عم ذخر هو نفس الملك الذي ورد باسم اليازوس Eleazus في مصدر اغريقي عرف باسم دليل البحر الارتيري لمؤلف مجهول من النصف الأول من القرن الأول الميلادي ، وقد وصف فيه اليازوس بأنه ملك بلاد البخور والطيب وأنه أقام في عاصمته S abatha ، وامتد سلطانه الى قنا . وذكر عن هذا الميناء قنا أنها (كانت سوقا لكل اللادن الذي ينمو في البلاد يؤتى به اليها على ظهور الجمال وفي الأرمات المحلية المصنوعة من الجلد ، وفي القوارب ولها تجارة أخرى مع مدن الساحل البعيد ومع بيريجازا وسكيثيا (في وادي السند) ، وفي هذا الوصف مايشير الى ثراء حضرموت من تجارتها البرية والبحرية في أيامه.

واذا كانت حضرموت قد أقامت أغلب بنيانها الاقتصادي على سيطرتها على منطقة

ظفار عمان المنطقة الرنيسية لانتاج اللادن والكندر ، ثم تصديره شرقا وغربا ، فهي قد اهتمت كذلك بتنمية ثروها الزراعية التي كشفت الابحاث الحديثة عن عدد من مشروعات الري التي خدمتها ، والتي نتجاوز عن التفصيل فيها اكتفاء بما ذكرناه عن أمثالها في سبأ وقتبان .

واستمرت حضرموت في سبيلها الاقتصادي والسياسي حتى اشتدت المنافسة بينها وبين صديقتها القديمة سبأ وذو ريدان ، وتطورت هذه المنافسة الى حروب عنيفة عملت معها حضرموت على زيادة حصونها وأسوارها لمقاومة السبنيين ، ولكن الحروب انتهت بانتصار السبنيين في عهد ملكهم (شمر يهرعش الثالث) في أواخر القرن الثالث الميلادي . وبلغ من أهمية انتصاره عليها أن شجعه على أن يبدأ عهدا جديدا للملكية السبنية تلقب فيه هو ومن تلاه من الملوك بلقب " ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانة " وربما حاولت حضرموت النهوض بعد هذا بقليل ولكن الحملات السبئية الحميرية تكررت عليها وأخضعتها تماما لنفوذها منذ أواسط القرن الميلادي الرابع .

عالم الآلهة

نتيجة للكشوف الأثرية المتلاحقة والدراسات المتخصصة المتأنية للآثار والنصوص ازداد الاهتمام في الآونة الأخيرة بشتى مظاهر الحضارة في جنوب بلاد العرب . وبفضل ذلك ، تعمق الاتجاه القائل بأصالة هذه الحضارة ومقدرتها على الأخذ والعطاء.

والبحث في طبيعة العقائد العربية الجنوبية عموما وما يرتبط بالآلهة والعبادات والشعائر خصوصا يجابه بثلاثة تحديات رئيسية:

أولها انعدام المصادر النقشية التي تتناول هذه الأمور بطريقة مباشرة مثلما عبرت عن ذلك النصوص المصرية القديمة وبعدها كتب الديانات السماوية عن معتقدات أهلها . وثاني هذه التحديات يتمثل في قلة المصادر النقشية عموما وتباين عهود مابقي منها. والتحدي الأخير سببه الحالة المزرية لمعظم الآثار الدينية المتبقية ، خاصة آثار المعابد بعد ان طالها الدمار والتخريب بفعل الدهر والانسان . يضاف الى ذلك عدم اكتمال الحفريات الأثرية في المواقع الأثرية .. وبقاء الكثير منها حبيسا في جوف الأرض. وبالرغم من هذه التحديات فقد سبق للفيف من المهتمين بالدراسات العربية الجنوبية القديمة أن قدموا بحوثا قيمة عن الديانة وعن بعض الآلهة العربية الجنوبية. وسنعرض فيما يلي صورة عامة لعالم الآلهة في جنوب جزيرة العرب.

١ـ سبأ

نحن نعرف اليوم – على وجه التقريب –ترتيب الحكام الزمني الذين كانوا يتخذون لقب "مكرب" ، ولا نعرف عن أعمال هؤلاء المكربين المذكورين الأشياء الكثيرة. وبالنسبة للقب " مكرب " الذي يترجم عادة بمعنى "المقرب – الحاكم الكاهن – رئيس حلف قبلي " فإنه من الصعوبة بمكان فهم معناه الدقيق.

لقد كان المكربون كهانا، الا أنهم كانوا يقومون بوظيفة ملك وكاهن معا. وبعد ان تركز سلطانهم بفضل الدعم الديني وتكديس الثروات وتوسيع الأراضي والممتلكات ، طرح "كرب ايل وتر" آخر المكربين لقبه ، ولقب نفسه (ملك سبأ) فصار آخر مكرب وأول ملك في سبأ بآن واحد.

بعد زمن كرب ايل وتر – صاحب نقش النصر – يصبح لقب الحاكم "ملــك". ويستنتج من هذا التغيير في الواقع ان تبديلا فعليا قد طرأ على شكل الدولة أيضـــا. وتؤكد كثير من الشواهد أن شكل الدولة القديم كان ذا طـــابع ثيوقراطـــي . الــه المملكة كان هو الحاكم الحقيقي ؛ وكل مايجري في البلاد التي كانت خاضعة له ، انما كان يجري بحسب إرادته. أما الحاكم الدنيوي فهو يمثل المنفذ لإرادة الاله والوســيط بينه وبين البشر. ويبقى أمر تطبيق هذه الثيوقراطية في الواقع ومدى الدقة في التنفيذ مسألة أخرى.

وإذا سالنا الآن عن الآلهة في هذا العصر ، فإننا ســنجد ان معتقــدات عــرب الجنوب الدينية كانت بسيطة بشكل عام ، بساطة حياتهم الاجتماعيـــة ، لا تتعــدى عبادة وتقديس بعض مظاهر وقوى الطبيعة (كائنات حيوانية ونباتية ، عيون ، آبــار ، كهوف ، حجارة). وقد أفضي قيام صلات حضارية بينهم وبين العالم الخـــارجي الى تطور في مستوى الوعي الديني عندهم ، تمثل في تراجع الظاهرات الدينية البدائية ممــا يندرج في اطار الطوطمية والفيتيشية والحيوية أو الروحية دون زوالها نهائيا، وظـــهور الوثنية التي غدت أكثر الأشكال الدينية انتشارا وأقواها جذورا في المجتمع.

وكانت بلاد العرب الجنوبية ، بفضل موقعها الجغرافي وتوافر الظروف الطبيعيـــة الملائمة وتقدمها الاقتصادي والاجتماعي ، أقدم مواطن الوثنية في الجزيرة العربية كما تؤكد على ذلك المكتشفات الأثرية لانقاض معبد المقه (أله القمــــر) ومعبــد عشــتر (الزهرة) التي تعود الى الألف الأولى ق.م.

لقد نشأت الوثنية في هذه المنطقة العربية المتحضرة على خليفة معتقدات عرب الجنوب البدائية البسيطة ، وكانت الوثنية انعكاسا لأوضاعهم الاجتماعية وشروطها المادية ، فلما كانوا محترفين للزراعة والتجارة ولأهمية معرفة الفلك في تنظيم أوقات الزراعة والسقي والرياح والليالي المقمرة ، فقد برزت عبادة النجوم والكواكب السيارة ولها الأولوية (القمر – الشمس – الزهرة).

ولقد لفتت الأجرام السماوية ، والشمس والقمر منها بخاصة ، نظرهم لما لها من أثر في حياة زرعهم وحيواهم ، وفي تكوين الليل والنهار ، وتعاقب الفصول عليهم ، فنسبوا اليها قوى خارقة ، وعبدو بعضها ، وأقاموا لها المعابد ، وتقدموا من أجلها بالعطايا والقرابين ، لكسب رضاها عليهم ، وابعاد أذاها عنهم.

ومحور عبادة النجوم والكواكب في العربية الجنوبية الثالوث الكوكبي (القمر – الشمس – الزهرة) وهذا الثالوث يشكل عائلة الهية حيث يأخذ القمر مكانة الأب والشمس مكانة الأم وعثتر مكانة الأبن. ويستند د. نيلسن خاصة في محاولته تسويغ هذه النظرية الى عدد الأدلة التي يقدمها من النصوص النقشية الوفيرة التي تسمح بالمقارنة .

ألمقه هو اله مملكة سبأ الذي يمثل الدولة في عصر الملوك الأول. وربما كان في الأصل اله دولة سبأ الخاص؛ وعندما غدت هذه القبيلة هي "القائدة" ارتفع شأن الهها فأصبح اله الدولة الرسمي. ومن خلال رموز الحيوانات الخاصة به ومقارنة الأحوال والظروف المتشابهة في الممالك العربية الجنوبية الأخرى، يمكن القول بأن المقه كان اله القمر في سبأ أو أنه ذو صلة بالقمر. لا يحمل ألمقه في عصر

المكربين أيا من الألقاب، ومن اللافت أنه على الرغم من مكانته الأولى كإله للدولـــة الا ان اسمه لا يذكر في التضرعات في المرتبة الولى وانما في المرتبة الثانية أو حـــتى في المرتبة الثالثة.

أما من يحتل المكان الأول دائما فهو عثتر دون أن يؤثر في ذلك، أي من الالهة التي تذكر. وليس من تفسير للاسباب التي جعلت له هذه الأولوية غير التوقعـــات فحسب. ولعل سبب هذه المكانة العالية يعود الى علاقته بالسقاية والخصوبـــة ؛ إذ تعتبر هاتان عصب الحياة في الدولة الزراعية ، وهذا وضع ممالك العربيـــة الجنوبيـــة القديمة التي اعتمدت على السقاية الاصطناعية "الهيدروليكية" .

وعلى الرغم من أنه يحمل الاسم نفسه مثل الالهة الرافديـــة عشـــتار ، والالهـــة الكنعانية عشترت ، ويحمل سمات قريبة من سمات هذه الآلهات إلا أن عثتر في العربية الجنوبية إله ذكر.

وكما لألمقه علاقة بالقمر ، فان هناك نجما يتبع لعثتر ، هـــو كوكـــب الزهـــرة (فينوس) . وهذا الكوكب كما هو معروف ، نجم صباحي أحيانا ، وأحيانـــا نجـــم مسائي ، أي له نوعا ما شكلان يظهر فيهما . والنجم الالهي عثتر كذلك تمامـــا ، إذ هما في الحقيقة ، كما يبدو لنا على الأقل للوهلة الأولى شكلان مختلفان تماما ، بل همـــا هيئتان متناقضتان ، لهذا الاله الواحد. واضافة الى وظيفته كواهب للخصب يتخـــذ عثتر وظيفة أخرى لنفسه وهي صفة الاله المحارب الذي ينشر الموت والدمـــار بـــين الأعداء .

الربتان ذات حميم وذات بعدان تمثلان صورة لآلهة ذات صلة

بالشمس. وللاسمين دلالة على "الحرارة " و"البُعد" وينسبان لشمس الظهيرة ولشمس الصباح أو لشمس المساء، أو ربما ، وهو الأصح ، للشمس في الفصل الحار وفي الفصل البارد من السنة.

ولا يرد في عصر المكربين العبارة المعروفة في العصور التالية وهي "شمسهمُور" ، أي "اله الشمس خاصتهم " ، ولا شكل الاسماء التي ترتبط بكلمة "ذات" أو بَعْلت". ولا تنادي ذات بعدان في النقوش الخاصة بالمكربين أبداً، بل ذات حميم وحدها.

يؤلف الالهة عثتر ، والمقه، وذات حميم (ذات بعدان) ، أي الزهرة والقمر والشمس (بشكليهما غالباً) ، ودائماً بهذا الترتيب ، ذالك الثالوث الالهي الذي يمكن تسميته السبئي "رسمياً" لأن الالهة الثلاثة هنا يحملون أسماءهم الرسمية ولأن هذا الثالوث عندما يكون ثمة تضرعات طويلة يذكر في المقام الأول ، أو لايذكر غيره على الاطلاق ، الا إذا كان التضرع قصير النص جداً أو موجهاً الى اله واحد بالذات. أما في نصوص الأدعية الطويلة المتأخرة فإن الآلهة الثلاثة ترد مرة ثانية غالبا بأسماء أخرى أو بألقابها المعروفة من دون تغيير ترتيبها قدر الامكان .

يرد في عصر المكربين، إضافة الى الثالوث عثتر ،وألمقه ،وذات حميم/ ذات بعدان الذين ذكرناهم ، ذكر الهين آخرين كثيراً ، هما هوبس وسماع ويرد اسم هوبس في نصوص القرن السابع ق.م. ويبقى ذكره حتى القرن الثالث الميلادي وعندما يذكر في التضرعات يقع اسمه دائماً بين عثتر وألمقه ، أي يكون ترتيبه الثاني ، كأن يقال : "بجاه – بحق – عثتر وهَوْبس والمقه وذات حميم". ان هذه المكانة بين الثالوث الالهي يحمل منذ البداية على الظن بأن هوبس

مكانة رفيعة في عالم الآلهة، بل ربما كان شكلاً من الأشكال التي يظهر بها أحد أفـــراد الثالوث ، إما عثتر أو المقه. وقد كان من المعتقد أن هوبس يمثل صورة لاله القمـــو ، ولكن من المؤكد الآن انه يمثل احدى صور عثتر ولاسيما عندما يفسر معـــنى اسمـــه بشكل صحيح فهو يعني "ياتي فجأة " ، وهذا هو المقاتل عثتر نفسه.

الاله الآخر سمّاع. وكانت عبادته منتشرة انتشاراً واسعاً وعرفت منذ القـــرن السابع ق.م. وقد عرف بلقب ذو ظبيت "رب الظبية" في احدى أماكن عبادته. وفي مكان آخر تظهر الى جانب الكتابات رسوم كثيرة للوعول. ويدل هذا على أن سماع يمثل صورة لاله القمر ، ويفهم من ذلك انه ينظر اليه هنا على انه "السميع". وعلـــى النقيض من هوبس لايظهر اسم سماع أبداً بين الثالوث السبئي الرسمي.

ونخلص أخيراً الى القول أن الآلهة الستة الذين يذكرون اكثر من غيرهم في عصـــر المكربين صاروا في النهاية الثلاثة الكبار في هيئات الثالوث الذي اختصـــروا فيـــه ، بحيث يظهر كل واحد من هذا الثالوث في شكلين . اله القمر المقه وفي صورة خاصـــة سماع. اله النجم في صورة عثتر وهوبس الشمس ذات حميم وذات بعدان. ويظـــهر المقه الهاً للملكة بشكل واضح في كتابات المكرب الأخير عندما يذكر هذا أنه بعـــد استيلائه على "المدن والمقاطعات جعلها مُلكاً لألمقه وسبأ".

لاتختلف النقوش الكتابية في عصر ملوك "سبأ الأوائل" فيما يتصل بالمعلومـــات الدينية عن نقوش عصر المكربين. وغالباً مايذكر الثالوث "الرسمـــي " حيـــث يـــرد هوبس مع عثتر ، وذات حميم مع ذات بعدان. ويظهر الاسم الأخير في البدايـــة في صيغة لاتحتوي على م في النهاية ، ولكن بدءاً من القرن الثاني ق.م. يصبـــح الاســـم ذات بعدان(م).

ويأتي اضافة الى الالهة الخمسة التي يرد ذكرها في عصر المكربين / وهي عثـــتر ، هوبس ، المقه ، ذات حميم وذات بعدان ، بعض الآلهة الجديدة في هذه الفترة الزمنية، مثل ذات غضران التي هي صورة أخـــرى لالهـــة الشـــمس ، و سحر أي "الفجر" . وفي نقش آخر يذكر بعد الأرباب الخمسة المعروفـــين في نهايـــة الدعـــاء ذو سماوي. ويعود النقش الى مأرب وهو عبارة عن إهداء الى هذا الرب الذي برهن فيسمان أنه رب اله قبيلة أمير التي كانت تقيم الى الشمال من مأرب في منطقـة استراتيجية هامة على طريق البخور. وكان بعض افراد هذه القبيلة حضرا مقيمـين ، والبعض الآخر بدوا، وبصفتهم هذه كانوا مربين للجمال في جنوب الجزيرة العربيـة، ونتيجة لذلك كانوا يشكلون أهمية كبيرة للحركة التجارية. ومن النقوش الكتابيـــة يفهم ان هؤلاء كانوا يسكنون في مستوطنات في عدد من مدن الجنوب مـــن بينـــها مأرب. وكانوا يعبدون في هذه المستوطنات بطبيعة الحال كما في وطنهم "الهـهم" ذو سماوي، ولكن كان عليهم أن لا يهملوا عبادة آلهة البلد المضيف، لذلك يذكـر ذوي سماوي في بعض النقوش بعد الآلهة السبئية الرسمية.

ولدينا اله آخر من الالهة يظهر هنا لأول مرة بوضوح ، أنه تألب. وكـــان -كما يبدو – لتألب معبد على جبل ريام في ارحب منذ زمن بعيد . وريام كـــانت نقطة الانطلاق لعبادة تألب ، إذ أن الاله فيما بعد يسمى دائما تـــألب ريـــام (م) . ويبدو ان عبادة تألب بدأت تنتشر من منطقة سمعي على حساب الاله السبئي القـديم سماع وذلك على سبيل الاحتجاج ضد سبا نفسها. ولو سألنا الآن ان كان تـــألب يمثل واحد من الثالوث الالهي لراينا أنه يتطابق مع أحد أشكال اله القمر في صـــورة ما، مادام يحل محل سماع في منطقة سمعي وهو الاله الذي عرفنا فيـــه الـــه القمـــر. ويضاف الى ذلك أن الوعل كان حيوانه المقدس . وهو الحيوان الذي كان يذبـح في الصيد الطقسي الخاص بهذا الاله . وان الاسم تألب نفسه يعني "الوعل".

وفي نص تضرعي يوجه في البداية الى الألهة الخمسة السبئية أولا ، ثم يأتي و شمسهمو/بعلت/هران (الألهة) شمسهم التي تطالعنا هنا للمرة الأولى، وذلك فيما يتعلق بالتسمية شمس وكذلك فيما يتصل بالعلاقة الشخصية التي يعبر عنها باضمير "هم" . ويقصد بهذا الضمير "هم" أصحاب النقش أنفسهم ، وهم افراد عشيرة ريمان الذين أبلوا بلاء حسنا في المعركة ، ونتيجة لذلك – ربما حصلوا على مكافأة – في المناطق التي احتلوها بأن حازوا على مترلة قيادية . أما هران ، التي ذكرت الهتها ، فهي مدينة هران في الجوف التي تعرف اليوم باسم هران شوابه.

وتبدأ اشكال خاصة في الظهور في عالم الآلهة في هذه الفترة الزمنية . ففي عصر المكربين وكما يبدو في عهد الملوك الأوائل لم يكن المقه يحمل أي لقب ، ولكن بدءا من القرن الثالث نعثر على التسمية " ألمقه ،رب/بعل/أوام " ، على الرغم من أن اسم المعبد قرب مأرب معروف في النقوش القديمة.

إذا كنا في الصفحات السابقة قد وجدنا باستثناء الأشكال الثلاثة أو الخمسة الرسمية ، عددا قليلا من أسماء الآلهة ، وعلى استخدام محدود للألقاب، فان الصورة ستتغير تماما في العصر الملكي المتأخر. إذ تقدم النصوص كمية كبيرة من تلك الألقاب الالهية التي تخص مجمع الآلهة العربي الجنوبي.

لقد كان القرنان والنصف وحتى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد مليئة بالمعارك الداخلية الضارية في البلاد ، وجاء الوقت لتنطلق قبيلة حمير من موطنها الأول في قتبان القديمة ولتضغط على مملكة سبأ بقوة. وقد ظهر في سبأ نفسها بعض الأمراء الذين تمتعوا بنفوذ كبير في الدولة يسعون الآن للوصول الى العرش نفسه مستفيدين، من الوضع الصعب الذي وصلت اليه الحال بالنسبة للبيت الحاكم التقليدي في سبأ .

وهكذا أصبح لدينا في هذا الوقت عدد من "الأسر الحاكمة " التي كانت تتحارب مع بعضها بشراسة ، ويدعي زعماؤها حق حمل لقب "ملك سبأ" أو "ملك سبأ وذو ريدان" ، بل ويستخدمون هذا اللقب فعلاً في كتاباهم. وقد سبق وأن أشرنا الى هذه الأوضاع .

وفي نهاية القرن الثالث الميلادي تجتمع اسباب القوة بيد "حاكمة" واحدة في مناطق سبأ وحمير أولاً حيث يحمل الحاكم لقب "ملك سبأ وذو ريدان" ، كما كان من قبل ، أي إنه كان يحكم سبأ وحمير ، وفي حوالي عام ٣٠٠ للميلاد يستطيع شمر يهرعش (الثالث) أخيراً أن يمد سلطانه على حضرموت كذلك التي كانت قد جعلت قتبان في منتصف القرن الثاني تحت حكمها. وظهر من ثم اللقب "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانة" كتعبير عن واقع القوة الحاكمة الجديدة. ثم يعدل اللقب مرة أخرى بعد مئة عام ليشتمل على إضافة " .... وأعرهم في الطود (الجبال) وتهامة"؛ ويستنتج من ذلك أن القبائل البدوية التي كانت تقدم الجنود المحاربين في صفوف الجيش أصبحت تخضع الآن رسمياً للمملكة .

وقد انعكست هذه الأوضاع السياسية الجديدة على الدينية أيضاً ، إذ احتفظت القبائل بارباها الحامين فيما يتصل بالأدعية على الأقل التي كان يتوجهون بها في كتاباهم ، وقد كانت هذه متعددة الأسماء والأشكال في الأدعية التي أصبحت لذلك طويلة في الغالب . ومن هنا فإنه يصعب نسب تلك الآلهة الى القبائل ، ويحتمل أن تكون تلك الألقاب تحمل في طياها أسماء " آلهة محلية" تخص هذه القبيلة أو تلك بطبيعة الحال. كما كانت عبادة أي من تلك الأرباب تنتشر بحسب المجال الذي تصل اليه قوة القبيلة أو الجماعة التي يخصها ذلك الاله.

ثمة سؤال تصعب الاجابة عنه يتعلق بقدم تلك الظواهر من الارباب المحليــة ، إذ لا يعني أن ترد اسماؤها في الكتابات المعاصرة للحقبة التي نتحدث عنها الآن ، أنهـا عرفت في هذه الحقبة الزمنية أو ظهرت لأول مرة من لا شيء ، بل هي في غالبيتــها ألقاب أو أشكال متعددة للآلهة الرئيسية الثلاث التي تلحقها عبارات مثـل "ذو" أو "بعل=سيد ، رب" معبد ما ، فتظهر صيغة جديدة وتبدو بذلك وكأنها شكل خـاص لذلك الإله. ولكن لايبدو ان هذه الوقائع الدينية قد ظهرت في هذا الوقت بـالذات وبهذه الكمية الكبيرة ، أي في هذا الوقت المتأخر نسبيا. ويضاف الى ذلك أن المـادة التي تتكون منها مصادرنا تتسم بالانقطاع وفيها ثغرات كبيرة وغير منتظمة.

لم يتغير شيء في المجال الديني في البداية في عصر المملكـة الموحـدة في القـرون الأخيرة. ولكن الصلة بالآلهة الكبيرة بدات تضعف شيئا فشيئا ، وهو ما يفسر نجـاح المسيحية واليهودية في كسب النفوذ الكبير حتى ان الملوك أنفسهم اتجهوا اليها.

إله القمر

هو ألمقه نفسه الذي يمثل الدولة الآن أيضا في مجمع الآلهة ، وأوام يمثـل المعبـد المركزي ، حيث يسعى ممثلو كل الأسر الحاكمة أو أنصارهم للحصول على نصيحـة الاله "المقه رب أوام" وعونه عندما يشتبكون مع بعضهم في صراعات عنيفة حـول الحكم ، بواسطة ضرب القداح وعن طريق تقديم الهبات. ويظن أنهم كانوا يحجـون الى هناك في الأعياد التي كان يسود فيها "السلام الالهي" . ولعل التعلق بعبادة إلـه المملكة الشديد من قبل كل الفرقاء المتخاصمين يكسبهم الحق في المطالبـة بـالعرش ويقوى حجتهم.

تخاطب نقوس الأدعية الكثيرة التي عثر عليها أثناء التنقيبات الأمريكية والمقدمة كلها للاله ألمقه في بهو المدخل المؤدي الى معبد أوام تخاطب اله المملكة من دون استثناء بـ "ألمقه، رب أوام"، أو " ألمقه ثهوان " (رب أوام)". ويقابلنا في عدد من النقوش لقب ألمقه المذكور في صيغة موسعة وهي "ألمقه ثهوان وثور بلاد بعل ، رب أوام وحرون " وحرون هذا اسم لمعبد آخر من معابد ألمقه. ويظهر الاسم في صيغ متعددة ، وقد ذكرنا الكاملة منها.

ومن المعروف أن الاله المقه عبد بشكل خاص في معبد أوام من خلال صورة الثور ، ولاسيما في قرون مابعد الميلاد. وواضح ان الثور كان يعتبر رمزا للخصوبة كذلك من خلال العبارة "ثور بلاد بعل" ، إذ إن عبارة بلاد بعل " تعني الأرض ذات المياه الوفيرة التي لا تحتاج الى سقاية اصطناعية ، أي الأرض الخصبة". ويتبين من عدد من النقوش في صرواح (خولان) أن الاله المقه يرتبط بحيوان آخر يخص "اله القمر" ، هو الوعل "ألمقه ، رب وعول صرواح" أو "ألمقه ، رب الوعول " الذي سبق أن رأيناه لدى تألب.

وتظهر في هذا العصر بعض الألقاب الاخرى لاله القمر التي تأتي متفردة في النصوص لا تتكرر. ولذلك يتعذر تفسيرها ، ونستطيع اغفال ذكرها هنا وتجاوزها. واشكال المقه هذه تخص بعض الطوائف المحددة ، أو هي بالأحرى آلهة ذات صفة محلية تخص عشيرة صغيرة ما وتوضع تماثيلها في القصر أو في الحصن حيث يخصص لها مكان للعبادة فيه. وعندما يصادفنا في بعض النقوش عبارة " رب بيت س " أحيانا فانها تشير الى مثل هذه الأشكال من الآلهة المحلية والخاصة.

وقد وصل شكل اله القمر المدعو تألب الذي سبق لنا أن تعرفنا عليه الى منزلة رفيعة في القرون التالية للميلاد نتيجة لارتفاع شان رعيته بنو همدان ، أصحاب السيادة في قبيلة حاشد الذي كان حاميهم . ويبدو تألب في هذا العصر وهو يحمل ألقابا متعددة، كان لكل منها معابد كذلك كثيرة تنتشر في مملكة سمعي القديمة.

عثتر ، الرب النجمي

عندما يأتي في مقدمة الدعاء فإنه لا يحمل كذلك في هذا الوقت أي لقب . أما إذا ذكر في نقوش البناء فهو يدعي " عثتر الشرق = ع ث ت ر / ش ر ق ن" غالبا. وكانت الأبنية تقام دائما "بوساطة قوة عثتر شرقان وبمساعدته" وبحمايته؛ والشيء نفسه بالنسبة للأغراض الأخرى ، مثل النذور والمدافن ومايخصها من نقوش.

هناك شكل آخر لعثتر سبق لنا أن تعرفنا عليه ، وهو ذو العلاقة بالسقاية ، والذي ظهر منذ القديم المدعو عثتر ذو ذيبان . ثم نجده يحمل لقبا موسعا "عثتر ذو ذيبان ، رب حوض الماء بحطيب" . أما حوض الماء فالمقصود به فهو بركة معبد صرواح (أرحب) التي اتخذت شكلها المعروف اليوم منذ ذلك الوقت ، وحطيب اسم المعبد نفسه ، ويعني "الغني بالخشب"؛ وقد يعني ذلك أن المعبد كان وسط منشأة غنية بالأشجار.

ويعد الاسم "عثتر ذو جوفت" صورة لعثتر المقاتل ، إذ تعني اللفظة جوفت "النهب ، البلع ، القلب" أي كل ما له علاقة بالقتال والقوة . ويدعي عثتر في نصوص تالية باسم " عثتر ذو جوفت، رب علم" . وتعود هذه النصوص الى أمراء قبيلة مهأ نف وكهنة علم الذين يسمونه "الههم". ويعتقد أن المعبد الرئيس لهذا الإله

كان يقع على هضبة علم ، التي تبعد حوالي ٧٠كم الى الشمال من مأرب حيث عثر فلبي على آثار مدافن واسعة ، ولما كان صاحب النقش من مأرب ، فإن احتمـــال ان يكونَ الرجل كاهن علمْ كبير جداً، ولذلك دعي المعبد كذلك.

ويرد ذكر آلهة مزدوجة " عثتر وآلو زعلان " كحامية لأفـــراد مـــن عشـــيرتي ساران ومحلى من سادة قبيلة بكيل ربع ريده ، في بعض الكتابات . وتعني التسمية " عثتر وواهب النضارة" ، وهذه توازي الى حد ما ماسبق ذكره من تسمية "ألمقه وثـور بلاد بعل" ، من حيث الاشارة الى شكلين للإله الواحد. وفي هذه الحالة المقصود هـو عثتر كواهب للحياة والماء . ونتعرف على شكل آخر لعثتر في الاسم عثتر عزيـزان، وفي نقش من مأرب يدعى "عثتر ، القوي ، "حاميم ".

لقد ذكرنا أنه لم يكن لعثتر القاب عند ذكره في بداية الأدعية الطويلة ، ويذكـــر الى جانبه في هذا الوقت المتأخر هـوبس الذي تطرقنا إلى ذكره من قبل كشكل من الأشكال آلهة الكواكب. ويظهر هنا بشكل خاص داخل الدعاء "الرسمي ". ويقابلنا شكل آخر لعثتر في القرون الميلادية في هيئته المقاتلة ، وهو "حاجر قـــاحم" حـــامي عشيرة وقبيلة غيمان . وقد ذكرنا الاله سحر= " وقت السحر " من قبـــل . وهو يظهر هنا في هذه الحقبة دائماً مقروناً بعثتر. "عثتر وسحر" يأتيان في الأدعيـــة بعد الآلهة الرسمية ، ولاسيما بعد ألمقه "بالمقه ثهوان بعل أوام وبعثتر وسحر".

ويبدو من النقوش التي تذكر ملوكاً حميريين ، والتي تم العثور عليـــها في منـــاطق حمير أن سحر اله حميري ، وهو اسم نجم الصباح عند الحميريين. فهو يظـــهر لأول مرة في المناطق السبئية في القرن الثالث ق.م. بعد انتصار الحميريين في حربهم ضـــد قتبان ، وعندما تم لهم بسط سيطرتهم في وقت لاحق ثم لسحر احتلال مكان لنفســه

في مجمع الآلهة السبئي.

آلهة الشمس

يظهر اسم ذات غضران الى جانب الاسمين ذات حميم وذات بعدان اللذين يحتلان دائماً مكانهما في "الجزء الرسمي" من الأدعية . وتدعى فيما بعد "ربة غفران (بعلت/ غ ض ر ن)". ويبدو ان معبداً كان يقوم في غضران قرب شبام سخيم ، كما يظهر من الاسم. ويذكر ملك أنه قدم قرباناً لالهته "ربة الشمس (ش م س – هـ و) تنوف ، الهة غضران". وتحمل الربة هنا التي تظهر بعلاقة خاصة بالملك لقب "تنوف" الذي يحمل معاني متعددة، ومنها التي تعرف من اللغة العربية الشمالية من مادة نوف أي ، فض وزاد ، أي (الربة "التي تهب بسخاء"). وقد انتشرت عبادة هذه الربة "شمس تنوف، ربة غضران" بشكل ملفت للنظر . وكان يشار إليها بعبارة "الهة الشمس الملك ، تنوف" (ش م س / م ل ك ن / ت ن ف (من غير) ب ع ل ت / غ ض ر ن) في سياق الحديث عن ملوك مختلفي الانتماء في ذلك الوقت، متعادين مع بعضهم ، لتأكيد شرعيتهم في حكم سبأ. ونتيجة لذلك صارت تذكر في نقوش الأدعية المتعددة بعد أسماء الآلهة الرسمية.

وتظهر إلهة الشمس عادة في هذه الحقبة التاريخية بألقاب كثيرة ، غالباً باسم شمس العام وبعدها "ربة كذا ..." مثل :" شمس ، ربة الطيبة" (شمسم /بعلت/م ر خ م م)، و "الهة الشمس ، ربة ميفع " (اي الهضبة) و (ش م س ي – هـ و م / ب ع ل ت ي / أ و ث ن م) "الهتي الشمس ، ربتي حجارة الحدود".

ان تحديد الفروق الطارئة على ربة الشمس في صورها المختلفة أمر يمكن التوصل

إليه من خلال فهمننا لتغير الزمن ، وهو أمر ينطبق على الثالوث الالهـــي بكاملـــه. ولكن الخصوصية بالنسبة لربة الشمس أنها لا تذكر بألقاها الخاصة فقط ، بل يســـبق ذلك اسمها الأساسي والعام (ش م س) دائماً. وكثيراً مايرد ذكر الشمس مع القمـــر أو عثتر خارج اطار الدعاء الرسمي . وفي هذه الحال يظهر القمر بعبارة "رُبْــع (ن) " أي "ربع القمر"، يعني الهلال.

وتذكر النقوش العائدة لهذه الحقبة اسمين مؤنثين للالهة يتطابقان مع اوصاف ربـــة الشمس . هما أم عثتر وعُزَّيان. والاسم الأخير ذو صلة واضحـــة باســـم العُـــزّى المعروف في شمال ووسط الجزيرة العربية، التي تم جلبها الى الجنـــوب. إذ تذكرهـــا أربعة نقوش سبئية ونقشان قتبانيان, ولكن ليس من المؤكد أن عزيـــان عُبـــدت في الجنوب كشكل من أشكال الشمس. كما ان الشكل الآخر للالهـــة لا يخلـــو مـــن المشاكل، فأم عثتر يفهم عادة على أن المقصود بذلك الشمس التي تعتبر زوجة وأمـــاً في "العائلة الالهية". ولكننا نوهنا من قبل بأنه ليس لدينا برهان علـــى ان الثـــالوث الالهي يمثل فعلاً عائلة الهية في الجنوب ، ولذلك فإن أم عثـــتر لا يعـــني الشـــمس بالتاكيد.

آلهة أخرى

الاله ود(م)المعروف الهاً للقمر في معين والهاً رئيساً للدولة هناك يرد ذكـــره في سبأ في هذه الحقبة كذلك ، كما يذكر نقش نذري يخص عشيرة صيـــد(م) الـــتي تهدي الاله "ود(م) ، القمر ، رب قباب(؟) (و د م/ ش هـــ ر ن / ب ع ل / ق ب ب) حاميها ، لوحة منقوشة وآنية للبخور ، وهي عشيرة تنسب نفسها حليفة وتابعـــة (أ د م) لقبيلة ذو غيمان.

ويبدو ود في نقش آخر مهشم بصيغة "ود ذو مُرارت" يخص عشيرة تدعـــي ذو نَعْمت ولحم (م) وسادة قبيلة سهمان. ويظهر أن للقب ذو مرارت علاقة بالكلمـــة العربية الشمالية المرّ ، وهو نوع من الطيوب والبخور ، وخاصة إذا مـــا عرفنـــا أن المعينيين كانوا يقدمون للاله ود البخور في قرابينهم.

وهناك اله آخر اسمه **قينان** ، اله خسأ (م) ، كان له معبد رئيـــس في شبـــام الغراس (ق ي ن ن / أ ل هـــ / خ س أ م) . وكانت القبيلة التي تخصه بالعبادة هـــي بنو خسا ذو الهان وعقرب(م) . وهذه كانت تخضع لبني سُخيم في شبام.

وليس من المؤكد أن تقوم صلة بين اسمه قينان ومادة قـــين العربيـــة (قينـــان في الآرامية، ق ن في الأوغاريتية) التي تعني "حدّاد" . فالنصوص التي تذكره لا تساعدنا في تفسير الاسم، فهو اله محلي على الارجح ، وليس من الممكن معرفة ماذا كـــان يمثل شكلاً محلياً لأحد آلهة الثالوث.

ويظهر عدد من الآلهة تحت تسمية **منضح** (جمع : مَناضِحَت) في هذه الحقبـــة الزمنية دون اسماء محددة، ذات صلة خاصة بمن يتقدم إليها بقرابين أو نذور ، فيشـــار بها بعبارة مَنْضَحُه ، مَنْضَحُهم في الدعاء ، وهي تسمية تسبق عـــادة أسمـــاء الآلهـــة الرئيسية من الثالوث ، ولعل لهذه التسمية علاقة بالماء ونضحه.

ولدينا عدد غير قليل من أسماء الآلهة التي لا تتيح مجالاً للتعـــرف عليـــها لقلـــة النقوش التي قد تذكرها مرة واحدة. ففي أحد النصوص يرد ذكـــر سلســـلة مـــن الارباب الذين قدموا العون في الاعمال العمرانية تحت عبارة "آلهتهم" الى جانب عثتر ذو جوفت ، وهم :

حليم ، رب مَعبْدي يَفع ومتبع(م) ، ورحيم ساجع ، رب سيد(م). والتسميتان تدلان على اله واحد. وتعتبر اسماء الآلهة حليم ورحيم صفات متشابهة تخص الهاً واحداً بعينه ، كما راينا من عدد من الآلهة التي تظهر بأشكال متعددة ولكنها تتصف بصفات واحدة تتميز من خلالها. ولا شك في أن الصفات المذكورة تخص في هذه الحال الرب المقه، رب القمر ، كما يتبين من شاهدين أثنين : الشاهد الأول يتمثل في ترتيب الأسماء حيث يأتي مباشرة بعد عشتر وقبل الشمس ، والثاني يتأتى من اسم المعبد مَتْبَع (م) ، إذ يدعى ألمقه "رب متبع (م) وروظان". ويذكر بعض أصحاب القرابين في نقوشهم التي تعود الى مناطق في شمال بلاد حمير - الى جانب عشتر ذو جوفت كذلك بشير. وليس من المؤكد أي من الارباب يقصد بذلك. ويصادفنا اسم لرب يدعى نسر (م)في بعض النقوش. وهذا اسم لطائر معروف في كل اللغات السامية. ولما كان النسر من حيوانات الشمس ، فلعله في هذ الحال شكل من أشكال الأرباب الشمسية ، لو لم يكن نسر رباً، والشمس ربة في سبأ. ولكن الشمس في معين مذكر، وهذا يشير الى أن ماذهبنا إليه ليس بالضرورة استثناء. ويرد اسماء الاله عوْصْ (عص)) و صلم في النقوش التي نسخها فلبي عن صخور نجران الواقعة شمال المنطقة السبئية ، وهما ربان معروفان في قلب الجزيرة العربية وشمالها ووصلا المنطقة من هناك . ولعل الرب ذو غمام وصل من هناك أيضاً لأن ثمود تعرف رباً بالاسم نفسه (غ م). وهذه كلها تشير ، حتى بأسمائها الى الاله ألمقه ، ومثلها ما وجد بالقرب من المعبد الدائري في مأرب ، إذ كان لقب " ذو الغيوم " يخص ألمقه . وقد يكون الرب رمان (ر م ن ؟) كذلك الذي يرد ذكره في أحد النصوص من أصل شمالي إن صحت مقارنته مع التسمية الآرامية رِمون، وهو نقش عثر عليه في شبام أقيان (كوكبان).

النقوش التوحيدية

تسرب أتباع الديانتين التوحيدتين الى الجزيرة العربية من سوريا وفلسطين ومن منطقة الحيرة العراقية. وتوطدت اليهودية في الجنوب ، وأصبحت البلاد مسرحاً للنزاع بين الامبراطوريتين العظيمتين البيزنطية المسيحية والساسانية الزرادشتية، واستخدام الدين قناعاً لستر أغراض التوسع في الهيمنة على جنوب بلاد العرب ، بلد التجارة والخيرات الواسعة . ويتجلى فيما ظهر من خلافات عقائدية بين الدينين التوحيديين وقاد الى اضطهاد للمسحيين زمن الملك الأخير يوسف أسأر يثار (ذو نواس) ، وبلغ مداه الأكبر آنذاك، ووضعت حداً للملكة التي لقيت نهايتها. فقد أسرع ملك أكسوم المسيحي بتحريض من بيزنطة لمساعدة اخوته في العقيدة ، فانتصر على الملك يوسف وجعل مكانه حاكماً من اكسوم تابعاً له ، كما أشرنا سابقاً .

ويظهر وجود الديانات المسيحية واليهودية واضحاً من خلال ذكر عبارات مختلفة في النقوش محل أسماء الآلهة الوثنية ، مثل : الرب ، رب السموات (والارض)، و "الرحمن ، رب السموات (والأرض) " ، " الرحمن الذي هو في السماء " . ونجد نائب الملك الاكسومي ايلا أبرهة يبدأ نقشه المؤرخ في عام ٥٤٣ م بالعبارات : "بقدرة الرحمن وعونه ورحمته وبقدرة المسيح وروح القدس " . ويلاحظ أن تركيب النصوص لم يتغير من حيث المضمون والبناء ، ولكنها لاتتحدث عن الناحية الدينية شيئا محددا . وإذا حملت تاريخا ما فإنها تعود غالبا الى القرنين الخامس والسادس ، ويبدو أن أقدم تلك النقوش يعود الىالعام ٣٧٨ م . وتجدر الملاحظة هنا الى أن دخول المسيحية الى جنوب الجزيرة لا يعود الى زمن غير بعيد قبل هذا التاريخ.

أما اليهودية فقد انتشرت بين السكان وتوطدت في هذه المنطقة المتحضرة

والمتقدمة اقتصادياً وعمرانياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً . أما كيفية مجيئها وانتشارها، ومتى كان ذلك ، فليس لدينا من نصوص واضحة دقيقة حول هذه الأمور وان كنا قد أشرنا الى بعض الآراء بهذا الخصوص فيما سبق . ولكن من حوالي عام ٤٠٠ م لدينا نص يبدأ بالعبارات : " مبارك وله الحمد . اسم الرحمن الذي هو في السماء ، واسرائيل وربه ، رب يهوذا ". وهذا يوافق ماجاء لدى الاخباريين من أن التبع تُبلك أسعد ابو كرب الحميري (ابو كرب أسعد) إهتدى الى هذه الديانة ، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه وابعاده عن عبادة الأوثان .

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة . غير أن دخول اليهودية الى جنوب الجزيرة يعود أيضاً الى التجارة واتصال الجزيرة بالشمال منذ عهد قديم بطرق القوافل التجارية عبر نجران ومكة ويثرب الى غزة في فلسطين ومنها كان يذهب بعض التجار الى بُصرى في سوريا . وإلى هجرة جماعات من اليهود اليها عن طريق الحجاز ، جذبهم الى هذا البلد المتحضر ازدهار التجارة وتقدم الزراعة فيه .

٢ —قتبان

ان المصادر المتوافرة عن قتبان أقل بكثير من مصادر سبأ ، لذلك فإن معلوماتنا عن المعتقدات الدينية قليلة ، ومن ثم فهي ليست دقيقة ، ويصعب تتبع تطور تلك المعتقدات الزمني ، كما حاولنا في سبأ . كما ينبغي لنا أن لاننسى أن عالم الآلهة السبئية بأشكاله المتعددة لم يبدأ في الظهور بوضوح الا في الوقت الذي بدأت فيه قتبان بالاختفاء والتلاشي . كما يظهر أن التنظيم الداخلي هنا مختلف الى حد ما عن سبأ .

إله القمر

كان اله القمر في قتبان يحمل اسم عم الذي يعني حرفياً " أخو الأب " . وكان مثله مثل ألمقه في سبأ إله الدولة الرئيس ، أي إنه كان يحتل المقام نفسه كما يظهر من الصيغة الرسمية المستخدمة في قتبان ومن منزلته في الأدعية والنذور . وتتضح علاقته بالقمر من خلال ألقابه ، كما في رايعان بمعنى " النامي " ، أو رايعان وساهر(م) " المتنامي والداثري " ، ذو شقير " المشع " ، وذو يسير (م) " الصغير ، القليل " حيث يشار بذلك الى هيئته وهو كامل أو هو هلال.ويظهر بصيغة عم ذو شقير، وعم ذو ريمت (م)، ربما بمعنى " العالي " . وقُدّس في تمنع العاصمة باسم عم ذو دون (م) (ذ - دون م) في معبد حطيب (م) . ويبدو أن لعم في هذه الهيئة منزلة سامية لأن باسمه هذا وبمبادرة منه تصدر مراسيم وقوانين تتضمن ترتيبات أساسية تتعلق بالممتلكات والأراضي . ومن الصعب بمكان التوصل الى فهم معني اللقب هنا ومعني اسم المعبد . ولعل مادة " دين " بمعني دان ، حَكم ، أقرب، المواد اللغوية الى المعني المناسب لوظيفة هذا الإله التي تتمثل في اصدار التشريعات القانونية.

ويشير لقب آخر لهذا الإله هو عم ذو مبرق الى صلته بالبرق ، وقد يعني هذا أنه كان بمثابة اله للطقس كذلك ، وهذه الصفة ليست غريبة فهي ترد في حضارات أخرى كما هو معلوم . ولعل اللقب ذو ديمت (م) يشير كذلك الى هذه الوظيفة إذا فسرنا معناه " بالمطر الدائم " . ولكن تفسير ذو ربحو غير مؤكد.

الإله النجمي

ويدعى كذلك في قتبان عثتر ويأتي في المقام الأول في صيغ الدعاء عندما يذكـر ، ونري ذلك بخاصة في كتابات الأبنية ، ويندر ذكره في النصوص . وهو لايحمل لقبا البته في بداية الصيغة الخاصة بالدعاء في قتبان أيضا . وترد صيغة عثتر الشرق في النقوش القتبانية ، كما ترد صيغ أخرى مثل : عثتر ذو فان أو ناو فان ، أي "عثتر الوفر (الفيض) " و عثتر ذو سالال ، أي عثتر الذي يشير "الرجفة" . وبذلك نرى في عثتر شكل الإله بصفته إله الخصب ، وفي شكل اله الحرب مرة أخرى .

إلهة الشمس

وهي في قتبان مؤنثة كما في سبأ ، وتظهر في ترتيب الالهة في الصيغة الرسمية للدعاء في المقام الأخير بين اسمين مسبوقين غالبا بعبارة : ذات صنتم (م) و ذات ظهران ، ويتطابق هذا مع المعنى الذي تختص به المعروف في النقوش السبئية ، أي معنى " الباردة (كما في العبرية حنه) أي البرودة " و " الخاصة بالظهر (في العربية ظهر ، وفي العبرية صهريم) ، بمعنى " الحارة " . وهذا الترتيب معروف في قتبان ، أما في سبأ فيكون بالعكس . ويأتي لقب ثالث هنا في قتبان ، وهو ذات رحبان الذي يبدي صلة من حيث المعنى بما يعرف في سبأ في لقب ذات غضران، بمعنى " ذات السعة ، والوفرة " .

أما اسم شمس فهو نادر في قتبان . وترد بعض الأحيان بعد اسم عثتر وعم من دون إضافة ، وفي أحيان أخرى مع ضمير الغائب المثنى " شمسهما " بعد ذكر عدد من الالهة . وثمة تعبير مشابه لما هو معروف في سبأ ، وهو " شمس وربع القمر " (ش م س / و ر ب ع / ش هـ ر) ، بهذا الترتيب وليس بترتيب معاكس . وقد ذكرنا من قبل أن النصوص القتبانية تذكر لقبا غريبا للشمس ولعثتر كما في

النصوص السبئية ، وهو ذات حميم عثتر يجور، وهنا بصيغة يغزل . ولعلنا نستطيع أن نتبين من ذلك أن ثمة علاقة خاصة بين الشمس وعثتر . ونفهم من خلال استعراض المعاني الممكنة لهذه العبارة الشائكة ان المقصود بذلك الاشارة الى صفة عثتر القتالية .

آلهة أخرى

نصادف في قتبان إضافة الى الآلهة الثلاثة الرئيسة مع القاهما التي تحدثنا عنها عددا كبيرا من أسماء الآلهة المختلفة . وأكثرها ذكرا هو اسم (أنبي (أنباي) الذي يبدو لنا أنه تمتع بمنزلة رفيعة بين البقية حيث يأتي في صيغ الدعاء بعد عم مباشرة ، وينسب اليه لقب (ش ي م ن) أي " راع " ، وهذا قد يعني أنه كان بمثابة الاله الحامي للاسرة الملكية في قتبان . ويؤكد تلك المكانة ، الرفيعة صيغة ثابتة في الوثائق التجارية ، وهي : (ب – ح ج / أ ن ب ي) أي " بقرار (قضائي) " من أنبي ولا سيما في قضايا الشراء الخاصة بالعقارات وببناء البيوت والمدافن . ويشير الى هذه الصفة القانونية كذلك نقش نذري (أ ن ب ي / ب ع ل / ح ج ن) أي " أنبي ، رب الحق " .

يدل اسم أنبي غالبا على معنى " المتكلم ، المنبئ " ، وهنا عن القانون والتشريعات فيما يتصل بالمقولات الدينية أثناء الطقوس ، وهو في صيغة الجمع ، كما يبدو ، بمعنى لفظ الجلالة ، ويذكر اسم آخر هو حوكم في كثير من الاحيان ، لايختلف في الواقع عن كونه أنبي نفسه . وينبئ الاسم كما يتبين من لفظه عن الحكمة التي تتطابق في صفتها مع شخصية الإله القانونية والتشريعية . وهذا يعني ان

أنبي وحوكم يمثلان تسميتين لاله واحد بمعنى " الناطق بالقانون ، الحاكم، والحكيم " ، ويؤكد ماانذهب اليه أن مكرب قتبان يسمي نفسه " بكر أنبي وحوكم صاحب التنبؤات وصاحب القرار " (ب كـ ر / أ ن ب ي / و ح و كـ م / ذ أ م ر / و ش م ر) . ومن هنا يبدو لنا أن أنبي (وحوكم) إنما هو صورة لاله القمر الذي يعتبر الاله الرئيس في كل المناطق العربية الجنوبية ولكل دولها ، ولايعقل أن ينسب ملك نفسه الى اله آخر غير الاله الرئيس ، وهو اله القمر . ولذلك نجد اسم انبي بعد عم مباشرة في صيغة الدعاء الرسمية . وثمة اسم لإله بصيغة مركبة أخرى هي ورخ وحَريمان إن هي الا شكل من أشكال إله القمر أيضاً ، كما يتضح من الاسم و ر خ الذي يعني القمر ، أما حريمان فيعني المقدس .

ويرد ذكر الإله المعروف في سبأ باسم نَسْر هنا في قتبان في صيغة (ن س و ر) وهي صيغة الجمع ربما للإشارة الى لفظ الجلالة . ويذكر في النقوش التقبانية كذلك إضافة الى نسور إيل فاخر " القوي ، أو الفخور " . وكثيراً ما يرد اسم ايل في الأسماء حيث يشكل عنصراً في تركيبها . ونتعرف من خلال نص على إله يسمى بَلو له علاقة ، كما يتبين في معناه الفعلي والاسمي ذي الصلة بالمدافن ، بلموت ، دون أن نعلم عن وظيفته بشكل دقيق وواضح . ونذكر أخيراً اسم الإله وارفو (و ر ف و) الذي يرد في الأدعية مرات كثيرة بعد عم و (أنبي) وقبل الهة الشمس . ويذكر مرة كصاحب معبد في ذوغيل مع عم لبخ . ولعله يكون اسماً آخر لإله القمر في وظيفته المتصلة بتوفير الخصوبة للأرض ، كما يبدو من معنى اسمه . ويحمل في نص آخر لقب ذو لفّان الذي يعزز هذا المعنى ، وكذلك لقب مَنْضَح في نصين آخرين بمعنى " اله الماء " .

ومن الآلهة الأنثوية المتوافرة في قتبان اضافة الى ماذكرنا من أشكال الهة الشمس الثلاثة نذكر شكلاً آخر لها باسم عُزَّيان ، وأثيرتْ وأخرى باسم نَشْبَت التي

يصعب تفسيرها . وكانت إلهة الشمس تحمل لقب " ذات حميم " ، كما في سبأ، ويرد مرة لقب ذات أدهان الذي يصعب فهمه .

٣ ـ معين

سبق أن نوهنا بأن معلوماتنا التاريخية عن معين ليست كثيرة . كانت معين في شمالي الممالك اليمنية القديمة ، وكان طريق البخور بها ويتابع السير في اتجاه الشمال. وكما ذكرنا في البداية لم يحمل حكام معين لقب مكرب ، بل لقب مزود، ونلاحظ أن الكتابات المعينية تبدي من حيث المضمون أسلوباً ثابتاً ونموذجاً محدداً لايتغير لافتاً للنظر . ونرى أغلب الكتابات الطويلة وهي تتحدث عن الأبنية العامة ، حيث كتبت كتقدمات للآلهة . وعندما كانت تلك الأبنية ينتهي بناؤها وتُسلَّم الى المسئولين لاستخدامها كانت تقدم القرابين (وتذبح) في " بهو معابدها الأمامي " الى الآلهة ، حيث كانت تقام طقوس بهذه المناسبة . وعلى الرغم من ذلك فإننا لانعرف أسماء سوى عدد قليل من الآلهة ، ويرجع ذلك الى نمط تلك الكتابات الذي ذكرناه ، وإلى أن معظم تلك الكتابات ذو مصدر رسمي ، إذ تختفي النصوص ذات الطابع الشخصي الفردي ، وهذا أمر يختلف فيه الوضع عن سبأ حيث نجد الكتابات النذرية الشخصية ، اضافة الى أن عمر دولة معين كان قصيراً نسبياً . وقد عُرِفَت الآلهة الحامية هنا أيضاً ، كما عرفتها سبأ في تاريخها القديم .

إله القمر

كان إله القمر في معين يسمى ود (ود أو ودم) . وتذكر كتابة عثر عليها في

يثل (براقش اليوم) على لسان أصحابها أنهـــم (أدم / ودم / ش هـــ ر ن) أي "أتباع ود (م) شهران " . وكان اسم " شهران " يشكل اسماً يحمله عدد من الملـــوك عند توليهم الحكم في معين . ويشير هذا الى أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم من مواليـــد إله القمر " البكور " ويأتي اسم القمر في الأدعية في الترتيب الثاني أيضاً هنا في معين. وقد دعي ماء هرّان (شوابة) نسبة الى ود (و هـــ ر ن غ ي ل / و د) "غيـــل ود " مما يعني أن معبداً له كان موجوداً هناك باسمه وحوله أرض تخصه .

وقد ذكرنا في اكثر من مكان ان عبادة الاله ود لم تقتصر على معين ، وقد يكون مرد ذلك ربما الى كثرة التجمعات التجارية المعينية في الممـــالك العربيـــة الجنوبيـــة الأخرى. وهذا أمر ثابت من خلال الكتابات التي عثر عليها في تمنع وشبام سخيم ، وشعوب (قرب صنعاء) وفي عمران. كما عبد الاله ودّ في مملكة أوسان التي قـــامت في الجنوب وسيطرت على الساحل فترة قصيرة من الزمن ثم غزاها ايل وتر وقضـــى عليها . ويبرز نقش في أوسان بين الكتابات الأوسانية القليلة النادرة يذكر اسم ملك دخل عالم الآلهة ويحمل لقباً كاملاً على النحو التالي : [ي ص د ق أ ل / ف ر ع م / ش ر ح ع ث ت / م ل ك / أ و س ن / ب ن / ود(م)] " يَصْدُق إيل فـــرع(م) شرح عشت، ملك أوسان، ابن ودّ" ، كان له معبد خاص اسمه نعمان كانت تقدم لـــه فيه القرابين (.../س ق ن ي / ..../ ص ل م / ذ هـــ ب ن / ع د/ م ح ر م س / ن ع م ن). ونعلم كذلك من أخبار حملة كرب ايل وتر أخيراً اسم اله آخر هـــو سَهَمَتْ لعله يخص اله الشمس.

الاله النجمي

لايرد في معين اسم عثتر من دون لقب أبداً. وأكثر ألقابه وروداً هـو قَبْض(م) الذي يحمله عثتر بشكل رسمي والذي يأتي في مقدمة الأدعية الـــتي تتضمـــن أسمـــاء

الثالوث الالهي . ويعني اللقب "ذلك الذي يخص المحصول " أو " الذي يختص بالضرائب" ، وقد يتشابك المعنيان ببعضهما لأن عثتر كان المسؤول عن سقاية الأراضي الزراعية وبالتالي عن المحاصيل الزراعية. كما كان المسؤول عن تحديد الضرائب التي تفرض على المحاصيل الزراعية . وتشير الى هذا المعنى مادة قبض اللغوية بمعناها المعروف في العربية "جمع = قبض" . وكان لعثتر ذو قبض(م) معبد خارج أسوار العاصمة المعينية قرناو ويحمل اسم ر ص ف م ، ونسبة الى المعبد سمي الاله "رب رصفم"، أو "صاحب رصفم".

ويقابلنا في معين شكلان آخران لعثتر أحدهما يدعى عثترشرقان "عثتر الشرق" وهو هنا يمثل نجم الصباح ويشير الى دوره القتالي والراعي ، ويتردد ذكره في كتابات الأبنية، ولاسيما في العبارات الأخيرة الخاصة بالدعاء، أو في الصيغة الخاصة بحماية البناء ، ويكون ذكره في المقدمة دائما قبل عثتر ذو قبض. أما الشكل الثاني لعثتر فهو عثتريهرق (من مادة هرق العربية ، بمعنى سال ، أراق) ، وهو شكل يشير الى وظيفة عثتر المتصلة بالسقاية ، ويرد ذكره في نهاية الأدعية بعد ذكر الثالوث. وثمة ألقاب أخرى لعثتر ، وهي : ذوجرب(م) "صاحب الحقل" ، وحاجر(م) "الذي يحجر ، يصد (الأعداء)".

آلهة الشمس

ويأتي ترتيبها في الثالوث الالهي الرسمي في معين حيث يأتي اسمها عادة في الكتابات المعروفة مسبوقا بلفظة "ذات" واسمها هنا نكرح(م) . ولاترد تسمية "شمس" في معين. ولما كان الثالوث الالهي يتمثل في النجم والقمر والشمس في سبا وقتبان(وربما في حضرموت أيضا) فان نكرح(م) تمثل الهة الشمس دون ريب. ولم تتوصل المحاولات التي بذلت لتفسير معنى نكرح الى نتيجة نهائية. ويقدم نكرح

مشكلة أخرى غير المعنى، وهو أن نكرح لايحدد كونه ذكراً أو أنثـــى، إذ لاتفصـــح الكتابات عن ذلك ، وهي لاتؤكد كونه مؤنثاً كما في المنـــاطق الأخـــرى بحســـب المألوف.

ونعرف من خلال الكتابات المعينية ، كما سبق أن ذكرنا ، اسماً للالهة مســـبوقاً باللقة ذات ، وهو ذات نشق(م) . والاسم نشق هو اسم مدينة البيضاء الحالية في الجوف التي كان لها دور خاص منذ عصر مكربي سبأ. وهي التي حاصرها كرب ايل وتر ثلاثة أعوام ثم ألحقها بدولة سبأ. ولذلك فإن الاسم "ذات نشق" ربما لم يكـــن أصلياً ، بل شاع بعد الحكم السبئي ، وعُبِدَت الهة الشمس السبئية تحت هذا الاسم. وبقي هذا الاسم في مجمع الآلهة المعينية.

آلهة أخرى

لا نعرف من النصوص المعينية أسماء آلهة أخرى سوى عدد قليل ، وحـــتى هـــذا العدد القليل لا نعرف سوى شواهد كتابية قليلة عنه. ففي كتابة بناء مـــن قرنـــاو (معين حالياً) نقرأ (ب ر أ ظ / و د / و ن ك ر ح / و م ت ب ق ب ط) "بأمر من وِدّ ونكرح ومُثِبّ قَبْط" ، ويذكرنا الاسم مثب قبط من حيث التركيب اللغوي باسم مثب نطيان في هرم (بالقرب من حزم الجوف وتسمى اليوم خربـــة همـــدان) الذي يعني "الموصل الى المحصول" ، وهو اسم يشير غالباً الى "عثتر ذو قبض" بصيغـــة أخرى. وتذكر كتابتان من قرناو العبارات " كاهن كاهِلان" ولعـــل الاســـم يعـــني "القوي".

ويبدو اسم اله آخر ، هو بَعَل ، غريباً من حيث الوظيفة والدلالة اللغوية علـــى الرغم من أن بعل معروف في العربية . ويرد ذكره عدة مـــرات ، وفي كـــل مـــرة

بالمشاركة مع عثتر حـــاجر (ن ب ع ل / ..../ و ع ث ت ر / ح ج ر) . كمـــا يذكر إله باسم مَذْهُوَاوُ (م د هــ و و) ، وقد جرت محاولة لتفسير هذا الاســـم الغريب بتقريبه من العربية داهية ، بمعنى "المصيبة "، واعتباره مـــن آلهـــه المصـــائب والدواهي.

وليس من النادر أن تذكر عبارة (ك ل / أ ل أ ل ت / م ع ن م) " كل آلهـــة معين"، أو (ك ل / أ ل أ ل ت / م ع ن م / و ي ث ل) "كل آلهة معين ويثل " بعد ذكر الثالوث الالهي في النصوص المعينية ، وهي عادة غير مألوفة في النصوص العربيـة الجنوبيةالأخرى.

٤ ـ حضرموت

لانعرف الكثير من تاريخ حضرموت ليس فقط في بدايته ، بل حـــتى في اثنـــاء المراحل التالية التي مر بها ، والقليل الذي توصلنا اليه – فيما سبق – لم يكن مصدره حضرمي بل سبئي. كانت حضرموت تقف – كما أســـلفنا – في أثنـــاء الحـــروب الطويلة التي جرت في جنوب بلاد العرب في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد أحيانـــاً الى جانب سبا ، ولكنها كانت ضدها على الأكثر . ثم تمكن الملك شمـــر يـــهرعش أخيراً من اخضاع حضرموت والى إقامة مملكة واحدة صار حاكمها يحمل لقب "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانه".

لم يكن عالم الآلهة في حضرموت فقيراً كما يبدو من خلال ماوصلنـــا مـــن

مصادر اذ مانملكه من كتابات حضرمية قليل نسبياً، وهذا القليل يفتقر أيضاً الى الكتابات الطويلة ذات المحتوى الوافر. لذلك فإن معلوماتنا هنا تفتقر كذلك الى الدقة والكمال أكثر من أي منطقة في جنوب الجزيرة.

يدعى اله القمر واله الدولة الرئيس في حضرموت سين (س ي ن)، أي أنه يحمل الاسم ذاته المعروف في بلاد الرافدين. وكان مركز عبادته في العاصمة شبوة حيث كان يحمل غالباً اسماً يشير الى معبده الرئيس فيه فيدعي سين ذو الم وليس من إمكانية لفهم معنى لقبه هذا الذي عرف به خارج شبوة أيضاً، وكان يدعي نسبة الى معبده في حريضة ذو مذاب(م) كما يشير لقبه ذو مَشْوَر الى معبد ثالث له ، لا نعرف تفسيره. وكان سين يسمى ، مثل الاله عم القتباني ، شَقَر، أي "الساطع البهي" . وقد يكون اللقب هذا نتيجة لغزو حضرموت لقتبان حيث كان عم يحمله كما ذكرنا.

وكان ثمة اسم آخر لاله القمر هو حَوْل، كما كان يدعي في حضرموت أنبي (أنباي) الى جانب عم . ويشير الاسم الى معني "الدائر" أو "المتحول" نسبة الى مروره بمراحل اكتماله (من هلال الى قمر (بدر) والعكس!) . ولدينا مايشير الى تقديم النذور والقرابين الى اله القمر باسمه حول.

أما عثتر الاله النجمي فإن اسمه في حضرموت كذلك عثتر(م) وعستر(م) فإنه يظهر في النقوش قليلاً. وكان لعثتر معبد في غيبون ، كما يظهر من الاشارة الى اسمه في عدد من النقوش . وقد ورد ذكر الالهة شمس الى جانب الاله سين،كما ورد اسمها في بقية نقش في شبوة في صيغة ذات حميم وذات حَسْوَل(م) ، والصيغة الثانية تتطابق مع صيغة ذات بعدان السبئية وذات حنث القتبانية من حيث المعنى.

ونصادف في شبوة كذلك ارباباً آخرين غرباء تقدم لهم النذور والقرابين ، حيث كانت تعتبر مركزاً تجارياً لتجارة البخور ومقراً للتجارة من كل انحاء البلاد. ونعرف من نص يعود الى زمن الملك إيل عزّ يلط أنه بني معبد للإلهة القتبانية ذات ظهْران ، ويبدو من ذلك أنه كثيراً ما كانت عبادة الأرباب تنتقل مع السيادة على أراضي أصحابها . ويرد اسم اله يدعى ذ ت ب ي في عدد من بقايا النقوش التي قدمت له . ومن المتعذر تفسير معنى الاسم ، بل ومن الصعب تقرير فيما اذا كان الحرف (ذ) هو (ذو) أم أنه مرتبط بالاسم نفسه وحرف من حروفه.

في مظاهر الحضارة اليمنية القديمة

١ – كتابة المسند :

ترجع خطوط الكتابات القديمة التي سبقت الخط العربي في شبه الجزيرة الى مجموعتين كبيرتين : مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وكتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة القديمة ، سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وأوسان ثم شاركتها فيها بعض الامارات والجماعات العربية الشمالية في شبه الجزيرة وما يتصل بها من جنوب الشام ، بعد أن حور كتبتها في أشكال حروفها بما يتفق مع مدى اتقانهم لها وربما يناسب مخارج الفاظهم ، تعديلات عفوية أحياناً وتعديلات مقصودة أحياناً أخرى ، وهكذا خرجوا منها بخطوط اقليمية يمكن التمييز فيها أيضاً بين خطوط فرعية محلية اختلفت فيما بينها اختلافات طفيفة.

ثم مجموعة ثانية من الخطوط اعتمدت أساساً على قواعد الكتابة الآرامية ، وكتب بها فريق آخر من الدول والامارات العربية الشمالية بعد أن حور كتبتها فيها هم الآخرون تحويراً قليلاً أو كثيراً .

وأهم هذه الدول هي الأنباط وتدمر مع احتمال وجود خطوط أخرى فرعية في داخلها. وقد اشتق كتبه الحجاز خطهم العربي - لاسيما في مكة ويثرب - من الخط النبطي في الأجيال القليلة التي سبقت ظهور الاسلام .

وعثر على نصوص هذه الكتابات الجنوبية منها والشمالية منقوشة على سطوح حجرية كبيرة وصغيرة مثل جدران المعابد ومداخل المدن والحصون وسفوح الجبال وقواعد التماثيل وسطوح النصب وكسر الحجر الصغيرة. وعثر عليها منقوشة كذلك على سطوح معدنية كالصحاف وقواعد التماثيل الصغيرة وقطع العملة وما إليها ، بل وعلى الأخشاب أيضا بالنسبة للنصوص الجنوبية. لكن لم يعثر منها حتى الآن على نصوص أخرى كتبت على صفحات البردي والواح الصلصال التي كتب عليها أهل الهلال الخصيب ، ولا على الجلود والرق والعظام وحقاف النخيل التي كتب العرب عليها في صدر الاسلام. ولو أنه ليس من المستبعد أن العرب القدماء في الجنوب وفي الشمال كتبوا فعلا على بعض هذه المواد ، ولكنها بليت بمرور الزمن نظرا لطبيعتها الهشة وفعل الأرضة والحشرات.

وفي سياق النصوص المنقوشة يمكن التمييز بين طائفتين :

نصوص مطولة الى حد ما نقش الكتبة المهرة حروفها بعناية على جدران المعابد والنصب وواجهات المقابر والمباني الدنيوية الكبيرة أحيانا ، وعلى بعض المصنوعات الثمينة ، ثم نصوص أخرى مختصرة أطلق الدارسون عليها اسم المخربشات ، وقد حزها أو خربش حروفها بسرعة رجال عاديون من أهل المدن والقرى لخدمة مطالب حياتهم اليومية ، كما حزها وخربش حروفها بعض الكتبة المصاحبين للقوافل على سفوح التلال وجوانب الوديان التي كانوا يمرون بها ويريحون عندها ، وسجلوا فيها أسمائهم ودعوتهم بأسماء معبوداتهم ، بل وبعض ما عن لهم من خواطر شخصية أيضا.

ليس ما يمكن تأكيده حتى الآن عن المنطقة أو الدولة التي بدأت فيها كتابة المسند في

الأجزاء الجنوبية في شبه الجزيرة فبينما كان هناك رأي قديم رد ابتداعها الى دولة معين ، نبه رأي آخر الى دلالة العثور على أقدم صور معروفة لهذه الكتابة في دولة قتبان ، ونبه رأي ثالث الى وضع ظاهرة تركز أغلب النصوص المعروفة حتى الآن في دولة سبأ موضع الاعتبار .

ومرة أخرى ليس ما يمكن تأكيده عن العهد الذي ظهرت فيه بداية كتابة المسند في هذه المناطق ، وأن ذهب بعض الاحتمال الى تعيين هذا العهد بأواخر الألف الثاني ق . م . أو أوائل الألف الأول ق . م . .

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرين حرفاً جامداً لم نعرف أسماءها القديمة ولاترتيبها القديم حتى الآن ولكن تشابهت أصوات ثمانية وعشرين حرفاً منها مع أصوات حروف الهجاء العربية الحالية ، وزادت عليها حرفاً واحداً يسمى في (العبرية) حرف " سامك " كان ينطق قريباً من نطق حرف السين ، على الرغم ، من وجود سين أخرى عادية في كتابة المسند (انظر الشكل ١) . وذلك في مقابل عدم تضمنها حرف (لا) المركب في الكتابة العربية .

وتتصف كتابة المسند بصفات أخرى بعضها اختصت به وبعضها اشتركت فيها مع غيرها من الكتابات السامية القديمة . وكان من ذلك على سبيل المثال :

أولاً : أنها لم تتضمن حروفاً لينة أو حروف حركة ولم تسجل تشكيل الحروف ، شأنها شأن أغلب الكتابات السامية القديمة ، وان لم يمنع هذا من ترجيح استعمال الحروف اللينة في لغاتها المنطوقة ووجود قواعد شفهية لنطق كلماتها مشكلة .

ثانياً : كان السائد لدى الدارسين أن حروفها ظلت تكتب منفصلة غير متصلة ، الواحد منها بجوار الآخر ، وكان ذلك هو شأن أغلب الكتابات القديمة

أيضا حتى ماقبل الميلاد بقليل . غير أن الاكتشافات الأثرية الحديثة – خاصة في مقابر شبام الغراس – أظهرت قطع عليها كتابات متصلة مازالت حتى الآن قيد البحث والدرس .

تالثا : كانت حروفها تخطيطية ، وليست صورا صريحة ، وقد يدل هذا على أنه كانت لها أصول أخرى تصويرية لم تكتشف بعد ، أو أنها نقلت حروفها ناضجة من كتابة أخرى .

رابعا : لم تتغير أشكال حروف المسند ، سواء كتبت في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها ، وكانت سطورها الأفقية تكتب عادة من اليمين الى اليسار ، ولكن فردية الحروف ، وثبات أشكالها ، كل منهما سمح لبعض الكتبة ببداية السطور من اليسار أحيانا وقد يستخدم كاتب المسند طريقة (خط المحراث) Bustrophedon التي تتجه في السطر الأول من اليمين الى اليسار وفي الثاني من اليسار الى اليمين وفي الثالث من اليمين الى اليسار وهكذا ، أو على العكس أي من اليسار الى اليمين في الأول ومن اليمين الى يسار في الثاني ومن اليسار الى اليمين في الثالث وهكذا ، والمهم أن كل سطر يبتدئ في الجهة التي ينتهي بها السطر السابق . وهذه الطريقة تتصف بالقدم بالقياس الى طريقة الاتجاه الواحد.

خامسا : كانت كل كلمة فيها تنفصل عن الأخرى في سطرها الأفقي بخط قائم ، دون ترك مسافة مقصودة بين كلمة وأخرى الا في القليل النادر ، وذلك مع الحاق حروف الوصل بأول الكلمة المتصلة بها.

سادسا : أنها لم تأخذ بتنقيط الحروف ، واكتفت بتغيير أشكال الحروف المتقاربة بعضها عن بعض (كالباء والتاء والثاء ...) وظل ذلك شأن الكتابة العربية حتى صدر الاسلام .

سابعا : أنها عبرت عن التشديد أحيانا بتكرار الحرف المراد تشديده ولم تتضمن ما يعبر صراحة عن صيغة الاستفهام ومايشبهها .

ثامنا : أنها عبرت عن التعريف والتنوين باضافة نون أخيرة في نهاية الاسم ،كما

عبرت أحيانا عن التنكير باضافة حرف ميم أخيرة في نهاية الاسم ، وذلك بما يتفق مع لهجة أهلها .

تاسعا : أنها نسبت أغلب أفعالها الى ضمير الغائب ، على الرغم من معرفتها بضمائر المتكلم والمخاطب في الأفراد والجمع والتذكير والتأنيث .

عاشرا : أنها اكتفت في أغلب أحوالها بكتابة أصول الأفعال ، وتركت للقارئ أن يستنتج صيغ هذه الأفعال من سياق النصوص ، فيما خلا التعبير عن صيغة المستقبل ، باضافة حرف السين أو حرف الهاء في بدايتها ، بما يتفق مع لهجة أصحابها .

وتعددت آراء اللغويين في تعليل تسمية كتابة " المسند " وأقرب هذه الآراء الى الاحتمال رأيان وهما :

أولا : أن العرب الجنوبيين كانوا يستخدمون كلمة " مسند " بمعنى الكتابة على الاطلاق . ويزكي هذا القول أن بعض أوامرهم الملكية القديمة كانت تبدأ بعبارة " سطرو / ذن / مسندن " أي " سطروا أو اكتبوا هذا النقش أو هذه الكتابة " .

ثانيا : أن صفة التناسق الهندسي في هذه الكتابة ، والتي تتجلى مظاهره في تفرقة الأسطر بمسافات متساوية وابتداء الكتابة وانتهاؤها غالبا عند نقطة واحدة في الأسطر الكاملة ، وتفرقة الكلمات بفواصل عمودية يناسب شكلها الطبيعة " العمودية " أو " المسندة " السائدة في معظم الأشكال ، وقد أوحت الى أهلها ، وأوحت الى المؤرخين المسلمين ، بتسمية خطهم باسم الخط المسند ، على اعتبار أن كل كلمة فيه تكاد تستند على الخط القائم الذي سبقها والخط القائم الذي يليها .

أسلفنا أن بعض الدول والجماعات العربية الشمالية قد كتبت بالخط المسند ونتيجة

لظروف واتصالات تعرضنا لها فيما سبق ، وأهمها دولة ددان أو لحيان التي قامت حاضرتها في واحة العلا الحالية . وكانت حروفها أقرب الحروف الشمالية شبهاً بحروف المسند الجنوبية . مع تعديلات طفيفة فيها . ثم جماعات الثموديين الذين تعددت مناطقهم في شمال الحجاز وشمال نجد وغيرها من مناطق شبه الجزيرة ، وقد كتبوا نصوصهم القصيرة بخطين ، خط تقيدوا فيه بأشكال حروف المسند التقليدية ، وخط آخر اشتقوا أشكال حروفه من أشكال المسند أيضاً ولكنهم حوروا فيها تحويراً ملحوظاً . أما المنطقة الثالثة التي أخذت بكتابة المسند فقد انتشرت نصوصها أساساً بين جبل سيس شرقي دمشق وبين قلعة الزرقا الى الشمال الشرقي من عمان (وعلى سفوح جبل حوران الى الجنوب الشرقي من دمشق). وسميت كتابتهم اصطلاحاً باسم الكتابة الصفوية – مع أن أقدم نصوصها وجدت في الحرة وليس في الصفا – ولكن كثرة الحرار وخوف اللبس بينها دعا الى نسبتها تجاوزاً الى الصفا . وقد حور أصحاب هذه الكتابة رسم حروفهم عن حروف المسند أكثر مما فعل غيرهم .

ولم ينتشر الخط المسند القديم في المناطق العربية وحدها وانما وجد سبيله كذلك الى منطقة أكسوم الحبشية ، وكتب به الجعزيون ، وحوروا أشكال حروفه ، وجمعت نصوصهم بين لغتهم الافريقية المحلية وبين اللغة العربية الجنوبية . ويرى بعض اللغويين أن تسميات الحروف وترتيبها في الابجدية الحبشية تلقي ضوءاً على تسميات وترتيب الحروف في الجنوب العربي القديم ، نظراً للصلات المكانية والبشرية والحضارية بين الجانبين .

٢– الفن المعماري :

أ– المعابد :

يبدو أن الصبغة الدينية التي استعان المكربون بها في تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماماً كبيراً لمعابد معبوداتهم ، اظهاراً لتقواهم الشخصية ، وتأكيداً لصلتهم الروحية بهذه المعبودات ، وعملاً على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضاً عن طريق تخصيص المرتبات العينية لهم من عائدات هذه المعابد .

وينسب الى عهود المكربين البدء في اقامة أو توسيع عدة معابد قديمة نتخير منها أربعة جرى الكشف عن بعض أجزائها ، وهي معبد في صرواح ، وآخر في صرواح أرحب ، وثالث في مأرب ، ورابع في المساجد ، وكان هناك دون شك ماهو أكثر منها لولا أنه لم يكشف عنه بعد .

وحين نبحث أمر المعابد في سبأ أو في غيرها نبحثها على ثلاثة أسس ، وهي :

١ – أن المؤرخ يستمد تاريخ الحضارات القديمة ويستنتجه من كل ماتركه أهلها في عالم الفكر وعالم المادة .

٢ – أن الآثار القائمة للأمم القديمة تعتبر من أصدق الدلالات على مدى امكانياتها الاقتصادية والصناعية والفنية ، فضلاً عن دلالتها على معتقداتهم الدينية .

٣– أن المعابد لاتزال أكثر مابقي من آثار الأمم القديمة ونتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة ، ومحافظة القدماء عليها بالترميم والاضافة جيلاً بعد جيل، نظراً لما كانوا يفترضونه فيها من القداسة .

ومع هذه الأسس التي يجب تقديرها في دراستنا لابأس بالاكتفاء بالمعالم الرئيسية المعبرة في دراسة المعابد وغيرها من الآثار المعمارية والفنية ، دون ضرورة للالتزام بالتفاصيل الدقيقة فيها .

انشئ معبد العاصمة صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذي أطلق عليه اسم " المقه"، وكان لفظ " ال " أو " ايل " عند العرب الجنوبيين وعند شعوب سامية قديمة أخرى في العراق وفي الشام يدل على معنى الاله ، ثم استخدم بهذا المعنى في مثل أسماء : اسماعيل ، وجبرائيل وميكائيل وهلم جر .

وتأكيداً لقداسة أصلهم تلقب حكام سبأ بلقب " ولد المقه " أي أبناؤه وخص

السبأيون معبودهم الأكبر هذا بربوبية القمر واعتبروه " سيد وعول صرواح " بما يعني تعدد المعبودات فيها الى جانبه ورناسته لهم .

وهكذا توفرت للقمر عندهم وعند بقية عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام منزلة أكبر من منزلة الشمس على عكس شعوب الهلال الخصيب الزراعية ، ربما لانتفاع أهل شبه الجزيرة بالقمر في مسرى القوافل وتوقيت الشهور ، مع شدة هجير الشمس وقسوتها لاسيما في البيئات الصحراوية . وقد تعددت عندهم ألقاب هذا المعبود بتعدد الصفات التي نسبها الناس اليه واختلاف الأماكن التي عبدوه فيها ، وكان شانه في ذلك شأن بقية ما تخيله القدماء من معبودات.

وتألفت العناصر المعمارية الظاهرة في معبد "المقه" في صرواح من جزئين ضخمين ، أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو على هيئة البيضاوي الناقص. وتضمن أحد نصوص المعبد اسم المكرب يدع إيل ذارح (حرفياً : ي د ع إ ل ذ ر ح) وذكر أنه سور معبد "المقه" ويميل الدراسون الى تاريخ عهد هذا المكرب نحو ٦٦٠ ق.م. ، ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ، ولم يضع أساسه كله ، وإنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره ، كما أشار الى ذلك في نص وترك لخلفائه أن يزويدوه اتساعاً وارتفاعاً. ويدعوا الى هذا الرأي أمران ، أن بقية نقوش المعبد تضمنت أسماء عدة مكربين وملوك سبئيين آخرين ، وأن مباني المعبد التي ترتفع جدرانها الباقية نحو عشر امتار تدل على مهارة كبيرة في فن العمارة لم يكن من السهل على السبئيين أن يبلغوها في أوائل عهودهم بالاستقرار واقامة العمائر الضخمة ، ولازالت الأجزاء الداخلية من المعبد لم تكتشف كشفاً علمياً منظماً حتى الآن ، ويبدو أن جزءاً منه تحول الى حصن في العصور الاسلامية وزادت فيه حينذاك بعض المداخل والمخارج ، بل لا زالت تقوم فوق جدرانه بعض المساكن الحالية فغيرت الى حد ما من خارطته الأصلية.

وأنشيء معبد "معرب" في قرية المساجد ببلاد مراد وعلى مبعدة ٢٧ كم من مأرب الحالية ، من أجل "المقه" أيضاً ، واتم نفس المكرب يدع إيل ذارح عمارته في مناسبتين تحدثت عنهما نصوصه : مناسبة قام فيها بتنظيمات اجتماعية ، وأخرى أحرز فيها انتصارات حربية. وذكر عن المناسبة الأولى أنه أسس كل الهيئات الخاصة بمعبوده ، والخاصة به شخصياً بإعتباره حامي دولته ، ثم الخاصة بتحقيق الاتحاد والتحالف بين طوائف شعبه. تخليداً لذكرى هذه الانجازات أقيم الجزء الداخلي من المعبد وتألف من بهو أعمدة بقيت منها ثلاثة ، ويعقبه الى الداخل فناء كبير تقوم في أواسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفها أربعة أعمدة في صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات ستة أعمدة. ويصل بين أعلى الصفة وبين أعلى المقصورة التي تقل ارتفاعاً عنها سقف حجري منحدر. ولاتزال هذه المجموعة المعمارية في المعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهدم.

أما المناسبة الحربية فقد أدت الى توسيع رقعة الدولة بعد ان استولى يدع إيل ذارح بجيشه على منطقة يشقر (ي ش ق ر) ومزارعها القريبة من منطقة المساجد الحالية. ولما كان يعتقد أن هذا التوسع قد تم بتأييد المقه (وذات حميم وعثتر) عمل على توسيع مساحة المعبد أيضاً واحاطته بسور مستطيل كبير بلغت أبعاده ١٠٤ × ٣٧ متراً، وتقدمت واجهة هذا السور صفة أخرى ضخمة ذات ستة أعمدة مستطيلة المقطع بلغ ارتفاعها بين ٤,٥ و ٥ أمتار أقيمت فوق رصيف حجري ليضمن توازنها ، وتألف كل عمود منها من حجر واحد. وأدت هذه الصفة الخارجية الى المدخل الرئيسي للمعبد الذي حف به مدخلان جانبيان فتوفر له شكل مهيب. وأتصل أعلى الصفة بأعلى المدخل الذي يقل ارتفاعاً عنها بسقف حجري منحدر. ولا ندري هل كانت هذه الظاهرة ، ظاهرة السقف المنحدر التي تكررت مرتين في عمارة المعبد ، ظاهرة عفوية نتيجة لاختلاف الارتفاعات ، أم كانت ظاهرة مقصودة لتصريف مياه الأمطار بسهولة.

وبني المعبد الثالث المكتشف في بلدة صرواح أرحب من أجل عبادة "عثتر" بتخطيط

بسيط ولكنه لايخلو من خصائص مميزة تمثلت في ادخال عنصر الزخرف على أجزاء العمارة ولاسيما الأعمدة . فقد اقيم سور المعبد على هيئة مستطيل يبلغ طوله ٢٠م وعرضه ١٤,٥م ينحرف قليلاً عن الجهات الأصلية الأربعة ، وقامت في مؤخرة فنائه الداخلي المقصورة الرئيسية للعبادة وأمامها بني حوض مربع تحيط به الأعمدة ، طول الضلع فيه ٧,٥م ، لعله كان يستخدم لماء التطهير . وكانت الابواب تقع على طرفي السور الخارجي الطويلين ، أقرب الى وسطه ، ولم تكن متقابلة.

وظهرت عناصر التجديد في عمارة المعبد في أنه تصدرت واجهته الخارجية مشكاة عليا تطل على الطريق ، وتصدرت جداره الخلفي مشكاة علياً أيضاً تطل على فنائه ، وتصدرت الجدار الداخلي لمقصورة العبادة مشكاة ثالثة كبيرة تطل على المتعبدين فيها . ويبدو أنه كان يوضع في كل مشكاة من هذه المشكاوات تمثال لصاحب المعبد . ثم ظهر تجديد زخرفي آخر، تمثل في اقامة تسعة أعمدة مثمنة الأضلاع على الجوانب الخارجية لحوض ماء التطهير الكبير ، واقامة تسعة أعمدة أخرى كل عمود منها ذو ١٦ ضلعاً داخل مقصورة العبادة الرئيسية . وكان لكل عمود منها تاج زخرفي في أعلاه يضيق من أعلى الى أسفل بما يشبه بعض العمائم اليمنية. وقد تهدمت الأعمدة ولم تبق غير قواعدها وأجزاء من تيجانها .

ووجد اسم المكرب " يدع ايل ذارح " الذي أولى اهتماماً خاصاً للمعابد ، ضمن نصوص معبد ضخم آخر يقع الى جنوب شرقي مأرب الحالية بنحو أربعة كم، وهو معبد أطلق عليه السبئيون اسم بيت أوام أي معبدها على اعتبار أنه يعتبر بيتاً مقدساً للمعبود الذي يعبد فيه ، وخصصوه لألمقه " بعل أوام " أي سيدها ، وكانت منطقة أوام ذات صلة بعشيرة مرثد السبئية التي انتسب اليها كثير من حكام سبأ . وأطلق المسلمون على المعبد تجاوزاً أو خطأ اسم محرم بلقيس تأثراً بما نشرته القصص عن بلقيس هذه . ويظهر السور الكبير للمعبد على هيئة بيضاوية تقريباً ، ولايزال داخله لم يكتشف بعضه ، بينما اكتشفت

بعثة أمريكية أثرية أجزاءه القريبة من مدخله فاظهرت بضعة عناصر معمارية راقية بنيت على أغلب الظن بعد عهود المكربين.

ولابد هنا من الوقوف قليلاً لتفسير معنى كلمتي محرم بلقيس. فأما عن كلمة محرم فأمرها سهل ، إذ أنها تعني المكان المقدس للإله ، أي المعبد أما بلقيس فأمرها أكثر تعقيداً.

فقد ذكر ابن خلدون في تاريخه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر مختصراً لأنساب الملوك الذين عاشوا في جزيرة العرب ، ويقتبس من العصر الجاهلي كثيراً من مما قاله من سبقوه مثل المسعودي في (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وابن سعد (في الطبقات الكبرى) ، والطبري في (تاريخ الأمم والملوك) وابن حزم في (جمهرة أنساب العرب) وابن الكلبي في (كتاب الأصنام) وغيرهم. ويقول ابن خلدون: أن ملكة سبأ التي زارت سيدنا سليمان اسمها "بلقمه" أو "بلقيس" وأنها كانت قد حكمت قومها سبع سنوات قبل زيارتها سليمان ، وأربعة وعشرون سنة بعد عودتها من تلك الزيارة ، وأن بلقمه كانت السادسة في ترتيب من حكموا مملكة سبأ ، وفي بعض المؤلفات العربية الأخرى مثل العقد الفريد لابن عبدربه ، ومرآة الزمان لابن الجرموزي فإن اسم تلك الملكة هو بلقمة.

وربما كان أحد الأسمين "بلقمه" نتيجة خطأ في النقل عن الآخر ، ويرجح علماء الساميات أن "بلقمه" هو الأرجح ، وربما كان اسم الاله "المقه" يدخل في تركيبه ، أما أسم بلقيس الذي تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الاطلاق بين الأسماء السبئية المعروفة ، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه أمه أو جارية .

ويمكن أن يرد الى العصر الملكي في سبأ انشاء بعض العناصر المعمارية الراقية في معبد

أوام . وهو معبد ذو محيط بيضاوي امتد قطره الطويل نحو مائة متر وامتد قطره القصير مابين ٧١ الى ٧٥ متراً فتصل بذلك مساحة المعبد الداخلية البيضاوية بكاملها ٦٠٠٠ متر مربع. وبلغ الارتفاع الحالي لبعض جدرانه نحو تسعة أمتار، وبلغ سمك بعض أجزاء جداره الخلفي نحو أربعة أمتار وكانت حجارته عبارة عن كتل منحوته بشكل دقيق يتراوح طول الكتلة الواحدة منها بين ١,٢٥-١,٥م ، وان امتلاء داخله بالرديم وكسر الأحجار .

ولم يتميز هذا البناء بضخامته فقط وانما تميز كذلك بفخامته ولهذا فما من بأس في استعراض بعض أجزائه كنموذج لفن العمارة اليمنية في أيامه .

كان للمعبد مدخلان يسمحان بالدخول عبر السور . أحدهما ، وهو الصغير ، كان موقعه في الطرف الشمالي الغربي مقابل مدينة مأرب، أما الثاني في الطرف الشمالي الشرقي، وكان محصوراً بين برجين ضخمين . وكان هنا غرفة دخول يبلغ حجمها ٢٥×٢٠ م ، تقوم امام المدخل ، وتتكون من بهو مفتوح كان في الأصل ممرا مسقوفا محاطا بالأعمدة من جهاته الثلاثة . وإذا كان (يدع ايل ذارح) هو الذي بنى السور الدائري كما يتبين من نقش بنائه الموجود على الجهة الخارجية ، فقد استكمل البناء من ثم حتى وصل الى الارتفاع المعروف في عصر الملكية . كما بنيت أبراج فوق السور وعلى جوانبه في ذلك العصر المتأخر ، وربما استخدمت المنشأة تلك لأغراض عسكرية ، ولم يتبق من الابراج حاليا أي أثر، ولكننا نعرف عنها من خلال النصوص المكتوبة . ولعلها كانت مبنية من مواد أقل ديمومة من سواها ، وأقل اتقانا من بناء السور الدائري الذي لم يبنه (يدع ايل ذراح) ، كما يبدو ، أول مرة من الأساس ، بل رفعه على قواعد أقدم كانت غائصة بعمق تحت الأرض ، مطمورة منذ ذلك الوقت بالرمل ، وشاد بناءه من جديد .

تقدمت هذا المعبد صفة أو سقيفة يحمل سقفها صف من ثمانية أعمدة حجرية ، كل منها حجر واحد قائم يبلغ ارتفاعه ٦٥و٧ م تصطف الى جانب بعضها بمسافة تبلغ مترين بين

الواحد والآخر. ويتلوها مدخل ذو صرحين مرتفعين يؤدي الى بهو ضخم حفت بصفاته الداخلية وحملت سقوفها أعمدة حجرية كبيرة بقيت بعض أجزائها وكانت تبلغ ٣٢ عمودا. وشكلت في الجدران الداخلية لهذا البهو ٦٤ نافذة وهمية متتابعة قلد بناؤها في الحجر هيئة النوافذ الخشبية الشبكية في اتقان بارع .

ويفترض مكتشفو المعبد أن واجهة المدخل المؤدي الى هذا البهو وأخشاب بابه وأرضيته ودرجات سلالمه كانت مكسوة في بعض مواضعها بصفائح عريضة من البرونز تعبيرا عن الثراء . ويعتقد أحدهم (جام) أن الدرج المؤدي اليه كانت تتوسطه نافورة تصب ماءها في حوض برونزي كبير يواجه المدخل ، بينما يفترض غيره (ألبرايت) وجود خزان ماء فوق صرحي المدخل كان يملأ من بئر داخل المعبد ثم تجري مياهه في مجار تمر خلال أرضية المعبد لتصب في الحوض البرونزي الكبير ثم يعاد توزيعها مرة أخرى في الأغراض التي خصصت من أجلها .

وعثر في المعبد ، وعلى جوانب مدخل البهو بخاصه على عدد كبير من النصب الحجريه المنقوشه وعدد كبير آخر من التماثيل البرونزية الصغيرة والكبيرة مثلت أصحابها الأثرياء ونقشت على هذه وتلك عبارات التعبد والاهداء الى " المقه " "صاحب معبد أوام" وما من شك في أن الصورة الاجمالية التي صورها مكتشف مدخل هذا المعبد ، والتي قدمنا جزءا منها تدل على ماكانت عليه بقيته التي لم تكتشف حتى الآن من روعة وفخامة ، وتدل بالتالي على ثراء العهود التي بنى فيها وهي عهود أسلفنا أن أقدمها يرجع الى عهود المكربين وأن أوسطها يرجع الى العصر الملكي السبئي بينما يرجع أحدثها الى القرن الأول الميلادي وتخرب المعبد في أواخر العصور السبئية ، وتحول الى حصن في العصور الاسلامية

وتوفر لبقية معابد سبأ ماتوفر لها في غيرها من طقوس وأملاك ، بما يتناسب مع قدرات منشئيها ومدى أهمية المناطق التي نشأت فيها .وانتفع أغلبها باعتقاد اتباعها في التنبؤات عن طريق وسطاء من الكهنة ، وهو ماكانوا يسمونه " مسأل " . والى جانب ماتتلقاه هذه المعابد من النذور والأضاحي والفرابين من الدولة ، كان بعض أثرياء مريديها يسجلون

على أنفسهم حججاً أو أوقافاً مع الكهنة يلتزمون فيها بأداء قرابين معينة ويتوقعون ، أو يتوقع لهم الكهنة بمعنى أصح ، سوء المصير ان هم تخلفوا عن أدائها .

اننا لا نستطيع ان نقول في حال من الاحوال ، ان ما ذكرنا من معابد هو كل ما نعرف عن وجودها . فنحن تعرضنا بالتفصيل لبعضها مما نعرف عنها من أوصاف ومواقع ما يمكن له ان يساعدنا على التعرف عليها . وقد توصلنا الى أن الشكل المستطيل كان هو النمط الرئيس لها ، بينما كان المستدير أثرا لنمط حضاري أسبق . ويتبين من عناصر المعبد العمرانية الأساسية : سور خارجي يعزل المعبد عن الخارج ، وفناء داخلي غير مسقوف ، بينما كان قدس الاقداس مكانا مغلقا دائما (مسقوفا) . أما الاعمدة ، وغرف الدخول (غرف البوابات) القائمة على الاعمدة ، فيبدوا أنها كانت عناصر عمرانية عرفت في فترات زمنية محددة ، أما أحواض الماء كانت غالبا او دائما من العناصر التي تتوافر في المعابد.

واذا لم يكن لدينا حتى الآن ما نقدمه من صور النشاط المعماري غير المعابد ، فان المعابد لم تكن تقام في مناطق مقفرة وانما لابد أنه صحب قيامها نشاط أكبر في توفير العمران السكاني والصناعي حولها . واذا كان مكرب واحد مثل يدع ايل ذارح قد أسعد الحظ ذكراه بأن أبقى على نصوصه في ثلاثة معابد على أقل تقدير لتكون شاهداً على اهتماماته الدينية والعمرانية والتنظيمية والحربية كما أسلفنا ، فالمرجح أن مكربين وملوك آخرين سبقوه وخلفوه كان لهم مثل نشاطه وقد تحدثت بعض نصوصهم الباقية فعلاً عما عملوا على تشييده في عهودهم وان لم يعثر له على أثر حتى الآن . وأخيراً فقد كان في اتجاه النشاط الانشائي الديني الى قرب مدينة مأرب مبشراً بقرب الانتقال اليها واستغلال ماحولها، وقد أقيم فيها بالفعل أكبر مشروع بدأه السبأيون في عهود المكربين وهو مشروع سد مأرب .

ب- سد مأرب :

قامت مأرب عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيحان وحضرموت وموانئ البحر العربي ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من مكوس التجارة . وقامت في الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نحو نصف كيلو متر وبعرض يبلغ نحو ٣٥٠ متراً كفل لها بعض الحماية الطبيعية . كما أشرفت ، وهذا هو الأهم ، على وادي أذنه الكبير الذي عمل السبئيون على استغلاله في الزراعة على نطاق واسع .

كانت الأمطار الغزيرة تسقط على المرتفعات في مواسمها وتجري على هيئة سيول عنيفة أحياناً في عدة وديان ينتهي بعضها الى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبي جبل بركاني مرتفع يسمى جبل البلق ، وهو جبل يفصل بين الصحراء وبين المرتفعات في منطقة مأرب . ويسمى جانباه عند هذه الفتحة باسم جبل البلق الأوسط ، وجبل البلق القبلي . ويتراوح اتساع الفتحة في بعض أجزائها بين ٥٠٠ متر وبين ١٩٠ متر ، بمتوسط للاتساع يبلغ ٢٣٠ متراً وكانت السيول بعد أن تندفع من الفتحة تخرج الى وادي أذنه الكبير فتتفرق فيه، ولاتلبث بعده أن يضيع أغلبها في التربة بغير فائدة .

واستهدف السبئيون من فكرة انشاء السد ثلاثة أغراض ، وهي أن يقللوا من اندفاع السيول الى وادي أذنه ومايمكن أن تؤدي اليه من بوار الزرع وتدمير القرى في مواسم الأمطار العنيفة ، وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول في جوف الأرض حين تتجاوز هذا الوادي ، وأن يرفعوا مستوى مياه الري عدة أمتار تسمح لها بأن تصل الى المدرجات القابلة للزراعة على جانبي الوادي ، ثم توزيعها عن طريق فتحات جانبيه يسهل التحكم فيها . وهكذا يميل الرأي الحديث الى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهي فكرة تخزين المياه خلف بحيرة صناعية كبيرة أو نحوها ، نظراً لوجوده في بيئة يمكن أن تتشرب أرضها المياه بسهولة .

هذا ويضيف المهندس ريتشارد بوين من دراساته لمشروعات السدود الجنوبية الأخرى في منطقة بيحان ملاحظة أخرى ننقلها على عهدته بحكم تخصصه وهي أن الجنوبيين لم يعملوا قط على خزن المياه وراء السدود ولكن بنوها لكسر حدة السيول وتوزيعها على أكبر مساحة ممكنة .

وأقدم من سجل اسمه من حكام سبأ على صخور سد مأرب مكرب يدعى " سمه علي ينوف " وهو مكرب يرد فلبى عهده الى منتصف القرن التاسع ق . م . وتخير المسئولون عن بناء السد منطقة تلي فم وادي أذنه وبمعنى آخر تلى مدخل فتحة جبل البلق نظراً لتحديدها النسبي ، وامكان التحكم فيها ، وبسهولة الاعتماد على جوانبها الحجرية البركانية الصلدة.

وبدأوا بتشييد جسر ضخم من الأتربة تختلف الآراء في تحديد امتداده الأصلي ، ويعتقد الباحثون اليوم أنه كان يمتد حوالي (٦٨٠) متر عبر الوادي ، وكان ارتفاعه حوالي (١٦) متر ويقدر سمكه بحوالي (٢٠) متراً ، وكسوا واجهته بالأحجار في مواجهة تيار الملء ، ثم أعيد بناؤه كله بعد ذلك بأحجار جيدة في عهود تالية . وامتد هذا الجسر في الجانب الأيمن من اتساع الفتحة وجعلوا له بوابة متسعة اعتمد أحد كتفيها على الجبل نفسه من ناحية أخرى . ووجه المشرفون على المشروع المياه بعد هذه البوابة الى مجرى واسع ينتهي الى حوض ضخم حددوا جوانبه بالحجر للحيلولة دون سرعة هدمها أو تسرب المياه منها . وتركوا في نهاية الجانب الأيمن منه فتحات مناسبة يسهل التحكم فيها بتصريف المقادير الضرورية من المياه لري الجانب الأيمن من وادي أذنه عن طريق ترع تختلف أطوالها واتساعاتها واتجاهاتها .

وأطلقت النصوص القديمة على مشروع سمه علي ينوف اسم رحب أو رحاب ، بينما يطلق عليه الناس اليوم اسم مربط الدم .

وعدل مشروع السد وأكمل في عهد " يثع أمر بين " الذي حكم حوالي ٤٦٠ ق.م. . وعمل رجاله على توفير مياه الري للناحية اليسرى من وادي أذنه كما توفرت للناحية اليمنى منه من قبل . فمدوا الجسر أو جدار السد في عرض فتحة الجبل حتى نهايتها ناحية اليسار ، وأطلقوا على مشروعهم الجديد اسم " حبابض " . وتركوا في نهايته بوابة ضخمة أخرى ذات فتحتين ، وأجروا خلفها مثل ماتم خلف بوابة الجانب الأيمن ، فمدوا وراءها مجرى طويلاً دعمت جوانبه بالحجر ، وانتهى الى حوض واسع ذي فتحات تؤدي الى عدة مجار للمياه تتوزع في الناحية اليسرى المتسعة من وادي أذنه .

هذه صورة عامة لفكرة سد مأرب وبداية أجزائه ، أما أبعاده الحالية فيفهم من وصف من اهتموا بزيارته ودراسته ومنهم أحمد فخري أن الارتفاع الحالي للجزء الباقي من جدار السد يبلغ ١١ متراً ، ويبلغ امتداده العرضي ٤٠و١٢ من الأمتار . ويبلغ عرض البوابة اليمنى ٥٥و٤ من الأمتار ، وامتداد ضلع الحوض الواقع خلفها ٨٠ و ٧٨ من الأمتار .

أما الناحية اليسرى وهي الأكبر فيمتد المجرى المائي الأساسي فيها نحو ١١٦٠ متراً ، وتتفرع من الحوض الذي ينتهي اليه ١٤ ترعة يبلغ عرض الواحدة منها ثلاثة أمتار . وقد فتحت في أعلى الجانب الأيسر لسد حبابض أربع فتحات تساعد على تصريف المياه الزائدة عن المنسوب المطلوب وتساعد على تخفيف ضغط المياه على جدار السد نفسه . وقد اتبعت في هذه الفتحات أو البوابات فكرة الأهوسة ، ففي الكتفين الجانبيين لكل بوابة شق تجويفان رأسيان يمتدان بارتفاعها لتنزلق فيهما كتل الأخشاب الصلبة حين قفل البوابة ، وترفع فيهما الى أعلى حين فتحها .

ولاتقل طرق البناء المتمثلة فيما بقي سليماً من السد دلالة على براعة المعماريين، فقد شيد في عصور اكتماله من أحجار ضخمة قطعت من جبل البلق وثبتت في مداميكها بمونة

صلبة ، وربط أحياناً بين بعض أحجارها وبعض آخر بقضبان من النحاس المنصهر والرصاص المنصهر رغبة في زيادة ترابطها وتماسكها .

والمرجح أن جانبي وادي أذنه اللذين انتفعا بمشروع سد مأرب هما اللذان عناهما القرآن الكريم بقوله : { لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . . . } .

والواقع أن روعة وضخامة سد مأرب بأجزائه كما سبق وصفها تدعوان الى الشك فيما اذا كان قد بدأ هكذا منذ عهد سمه علي ينوف ، وعهد يثع أمر بين ، أم أن شقي المشروع بدأ متواضعين ثم زاد اتساعهما وارتفاعهما وتقويمهما في عهديهما وعهود من تبعوهما من المكربين والملوك ، ولعل هذا الرأي الأخير هو الأرجح . فقد أصلحت جدران السد أكثر من مرة بعد أن تعرضت للتهدم نتيجة لتراكم الأرساب خلفها حيناً ، وبتأثر عامل الزمن في مبانيها حيناً آخر . وسجل عدد من الحكام السبئيين أخبار مرات الاصلاح التي تمت في عهودهم . وكان من ذلك على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشمالي في عهد الملكين " ثأران يهنعم بن ذمار علي يهبر " وابنه " ملكي كرب يهأمن " الذي كان يشاركه في الحكم، وذلك في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ، ثم جدد كله أو دعم في عهد الملك " شرحبئيل يعفر " في عام ٤٤٩ م كما أعيد اصلاح شق فيه في العام التالي أي عام ٤٥٠م.

وتمت آخر اصلاحات السد في عهد ابرهة حاكم سبأ خلال عام ٦٥٧ من التقويم الحميري – الذي يبدأ عام ١١٥ ق . م . – ويوافق ذلك ٥٤٢ للميلاد . وبذلت فيه حينذاك جهود ضخمة ، بحيث ذكر ابرهة في نقشه أن رجاله قضوا في ترميم السد أحد عشر شهراً ، واستهلكوا (٦. ٨ و ٥٠) غرارة من الدقيق ، (٣٦.٠٠٠) حمل من التمر ، (٣٠٠٠) بعير وثور ، (٢٠٧.٠٠٠) رأس من الغنم، الأمر الذي يشير الى اشتراك عدد كبير من الناس في اصلاح السد . وعلى الرغم من قيام ثورة ضده حينذاك ، فقد أقام

حفلاً كبيراً بمناسبة انتهاء العمل في اصلاح السد ، حضره وفد من الحبشة ، ومن فارس ، ومن بيزنطة .

وعلى أية حال ، فقد استطاع السبئيون على امتداد عصور اهتمامهم بسد مأرب أن يتموا مشروعاً كبيراً حق لهم أن يفخروا به بين المشاريع المائية الأخرى في العالم القديم وهي مشاريع كان من أقدم ما يمكن ترجيحه منها حتى الآن مشروع سد اللاهون في مصر الذي شيد في أوائل القرن الثامن عشر ق.م. لتوجيه جانب من فيضانات النيل الى منخفض الفيوم لرفع مستوى الماء فيه حتى تنتفع به أكبر مساحة ممكنة من أراضي المدرجات الخصبة التي تحيط به ، ثم الانتفاع ببعض مياهه المخزونة لري الأراضي القريبة منها في غير أوقات الفيضان.

وظل سد مأرب يؤدي أغراضه حتى نهاية عهد ابرهة في عام ٥٧٠ م أي بعد بداية ماوصلنا عنه بأكثر من أحد عشر قرناً ، ثم انهار حوالي ٥٧٥ م بما وصفه القرآن الكريم ووصف نتائجه في سورة سبأ بقوله : { لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ... } الآيات ١٥–١٨ . وأقام السبئيون سدوداً أخرى محلية في عهود متفرقة في المناطق التي تصلها مياه السيول بعيداً عن منطقة مأرب .

شكل رقم " ١ "

لاتيني	اغريقي	عبري	حبشي	ثمودي	حميري	عربي
A	A	א	አ	[illegible]	𐩱	ا
B	B	ב	በ	[illegible]	𐩨	ب
T	T	ת	ተ	[illegible]	𐩩	ت
TH	Θ			[illegible]	𐩻	ث
J	Γ	ג	ገ	[illegible]	𐩴	ج
Ḥ		ח	ሐ	[illegible]	𐩢	ح
KH	X		ኀ	[illegible]	𐩭	خ
D	Δ	ד	ደ	[illegible]	𐩵	د
DH				[illegible]	𐩹	ذ
R	P	ר	ረ	[illegible]	𐩧	ر
Z	Z	ז	ዘ	[illegible]	𐩸	ز
Ś		ס			𐩯	سّ
S	Σ	שׂ	ሰ	[illegible]	𐩪	س
SH		שׁ	ሠ	[illegible]	𐩦	ش
Ṣ		צ	ጸ	[illegible]	𐩮	ص
Ḍ			ፀ	[illegible]	𐩳	ض
Ṭ		ט	ጠ	[illegible]	𐩷	ط
Ẓ				[illegible]	𐩼	ظ
A'		ע	ዐ	[illegible]	𐩲	ع
Ġ				[illegible]	𐩶	غ
F	Φ	פ	ፈ	[illegible]	𐩰	ف
Q		ק	ቀ	[illegible]	𐩤	ق
K	K	כ	ከ	[illegible]	𐩫	ك
L	Λ	ל	ለ	[illegible]	𐩡	ل
M	M	מ	መ	[illegible]	𐩣	م
N	N	נ	ነ	[illegible]	𐩬	ن
H	H	ה	ሀ	[illegible]	𐩠	ه
W	O	ו	ወ	[illegible]	𐩥	و
Y	Y	י	የ	[illegible]	𐩺	ي
LATIN	GREEK	HEBREW	ETHIOPIC	N ARABIAN	S ARABIAN	ARABIC

دور الهمداني في الجغرافية التاريخية لليمن القديم

هذا بحث قصير حاولت فيه أن أوضح أهمية أبي محمد الحسن الهمداني لجغرافية اليمن التاريخية القديمة ، استناداً إلى كتابي "الأكليل" و "صفة جزيرة العرب"(**) . وكتاب الصفة هو الذي قال عنه المستشرق الشهير أ. إشبرنجر (إن الصفة إلى جانب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي ، يعتبران أهم عملين جغرافيين قدمهما العرب)(١)

وليس ثمة شك في أننا لكي نفهم تاريخ منطقة ما ، لابد لنا من معرفة المسرح الذي جرت عليه أحداث هذا التاريخ ، ونجد لهذه المقولة في اليمن أكبر برهان لها. فنحن إلى اليوم، رغم كل الجهود التي يبذلها علماء الدراسات اليمنية ، مازلنا غير قادرين على تتبع طرق القوافل القديمة بشكل صحيح ، علماً بأن هذه الطرق قد أدت – إلى جانب عوامل أخرى– دوراً هاماً في ازدهار الحضارة اليمنية القديمة أكثر من هذا فإننا لم نستطع بعد تحديد مواقع أسماء مدن أثرت تأثيراً بارزاً في أحداث ذلك التاريخ. فأين تقع بالضبط مثلاً مدينة س و م (هـ ج ن ر / س و م) التي ورد ذكرها في أكثر من نقش ، منها نقش Ja 585/7,11، صحيح أنه يمكننا القول استناداً إلى المؤلفات الكلاسيكية ككتاب "التاريخ

(*) عرض في الندوة العالمية الأولى في الذكرى الألفية للهمداني من ١٩–٢٥ اكتوبر ١٩٨٢م وقد نشر في الكتاب الذي صدر عن الندوة عام ١٩٨٦ ، ص ٧٣–٨٢.

(**) كل الاستشهادات الواردة عن الهمداني مأخوذة من كتبه التي حققها القاضي العلامة محمد بن علي الأكوع، إلا أن نذكر خلاف ذلك.

(١) A. Sprenger, Die Post-und Reisenruten des Orient, Leipzig, S. xv 111.

الطبيعي لبلينيوس Plinius, Naturalis Historia VI, 26, 104 المتوفى عام ٧٩م ، في حادث فيزوف الشهير ، وكتاب "دليل البحر الأريتري" أو كما يسميه البعض "الطواف حول البحر الأريتري" لمؤلف مجهول Periplus maris Erythraei والذي يرجع تاريخه بإجماع الدارسين إلى النصف الاول من القرن الاول الميلادي ، يمكن أن نقول أن هذه المدينة كانت تقع في المعافر. لكن في أيّ مكان في المعافر ؟ بل أين كانت حدود المعافر القديمة التي كان يدوي اسمها حتى نهاية العصر الوسيط؟ بل منذ متى استبدل اسم المعافر واستعمل بدلاً عنه اسم الحجرية؟ وربما قصد به جزء من المعافر فقط،أو أين كان يقع (ع ر/ك ل ي ب م)، أي "جبل أو قلعة كليب" الوارد في نقش إرياني رقم ٣٢ الفقرة ٨ ، صحيح أن هذا الحصن كان في حضرموت كما يفهم من النقش ، لكن أن يقع – بالتحديد– في حضرموت؟ وإذا تركنا النقوش جانباً فإننا لم نستطع تحديد أسماء أماكن ورد ذكرها لدى لسان اليمن، فأين تقع بالتحديد الساعد ، التي يقول عنها الهمداني في أثناء حديثه عن مدن اليمن التهامية " ثم الساعد من أرض حكم بن سعد قرية لحكم "[٢] ، أو أم جحدم ، والتي يقول عنها لسان اليمن ما نصه :" وأم جحدم بين كنانة والأزد وهي حد اليمن"[٣] شمالاً.

وهكذا يمكن القول إن هذه الصورة غير الواضحة لمسرح الأحداث إلى جانب عوامل أخرى ،كغياب النقوش حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية للممالك اليمنية القديمة مما تعد من العوامل التي وقفت حائلاً أمام إجراء دراسات تفصيلية للحضارة اليمينة القديمة ، وهنا تبرز أهمية مثل هذا البحث.

إننا عندما نتحدث عن الجغرافية التاريخية لليمن القديم ، فإن مصدرنا الأول في هذا الصدد هو النقوش ، خاصة تلك التي ورد فيها ذكر أسماء أماكن أو أودية أو قصر أو

---

(٢) الحسن بن أحمد الهمداني . صفة جزيرة العرب ، ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه . ص ٧٧.

نخـــل ... الخ، كنقـــش المكـــرب "الملـــك" كـــرب إيـــل وتـــر، ويحمـــل الرقـــــم RES 3945, RES 3946 ضمن النقوش السامية (المكملة) ، GL 1000, A.B ضمـــن مجموعة جلازر.

إن هذا النقش يحتوي قرابة ألف كلمة وحوالي ٨٥ اسماً ، مابين اســـم مكـــان وواد وقصر ونخل ، لذا يمكن اعتباره القاعدة التي نعتمد عليها بالنسبة إلى النقوش دون أن يعـني ذلك اننا ننوي هنا تحقيق هذه الأسماء كلها ، لأن ذلك يخرج عن نطاق البحث الذي نحـــن بصدده، بقدر ما يعني أننا سنأخذ بعضاً من الأسماء التي ورد ذكرها في هذا النقش ونقابلـها بما يوازيها لدى الهمداني ، سواء في كتابه "صفة جزيرة العرب" أو "الأكليل" ، ذلـــك أن بعضاً من أسماء الأماكن التي جاء ذكرها في الإكليل لا نجدها في الصفة ، مثل رتغة الـــتي يقول عنها الهمداني "ورتغة وتريس وتريم مدن حضرموت"[٤] ، والتي تقابلها في النقـــوش (ر ط غ ت م) ، كما في نقش إرياني رقم ٣٢ الفقرة ٧ مثلاً. والنقش الأخير يشبه تقرير عن حملة عسكرية قام بها القائد السبئي (س ع د ت أ ل ب) على حضرمـــوت ، تنفيـــذاً لأوامر الملك (ذ م ر/ع ل ي/ ي هـــ ب ر).

وإبدال (التاء) من (الطاء) لدى الهمداني ، ليس غريباً علينا نحن معشر اليمنيين. فحـــتى يومنا هذا ما زال الناس في الحجرية – مثلاَ – يقولون تاقة" بدلاً من "طاقة" أي شـــباك – "وتريق" بدلاً من "طريق" "ومنتق" بدلاً من "منطق" ... الخ.

وقبل التدليل على القول بأهمية الهمداني للجغرافية التاريخية لليمن القديم لابد من التنبيـــه إلى أمر مهم ، فالشواهد النقشية التي سنوردها هنا تتطابق بالأساس مع أسماء الأماكن الـــتي وردت لدى الهمداني ، أخذاً بعين الاعتبار بعض قواعد خط المسند ، كغيـــاب الحركـــات

---

(٤) الحسن بن أحمد الهمداني : الأكليل ، ج ، ص ٣٦.

الطويلة والقصيرة ، وكذلك حروف اللين من ناحية ، والتمييم من ناحية أخرى .. إلى غير ذلك.

جاء في السطر الخامس عشر من نقش الملك كرب إيل وتر ، والذي يسميه بعض المؤرخين "نقش النصر" أربعة أسماء لأماكن متسلسلة على النحو التالي :

(ج و ع ل) ، (د و ر م) ، (ف ذ م) ، (ش ب م)[٥] وحتى وقت قريب كان علماء الدراسات اليمنية يبحثون عن هذه الأماكن في الجوف على أساس أن السطر الرابع عشر من النقش نفسه ورد فيه ذكر للمدينتين (ن ش ن) نشان ، وهي المدينة التي تعرف منذ زمن الهمداني حتى اليوم باسم السوداء ، و(ن ش ق م) نشق ، وهي التي تسمى اليوم البيضاء ، والمدينتان معروفتان في الجوف.

غير أن الهمداني يذكر في الصفة[٦] (الجوعر) و(شبام) كاسم لمدينتين في مخلاف أقيان بن زرعة بن سبأ الأصغر ، وهو المخلاف الذي يعرف باسم مخلاف شبام أو مخلاف الشرف الأعلى والشرف الأسفل[٧] . وفي الأكليل يكتب مانصه " .. أما قلعته – أي قلعة ضهر– فهو حصن يسمى دورم"[٨] ، ثم يضيف مانصه " ... وبضهر .. جبل عالية صلدة لا ترقى تسمى فذة"[٩] .

يفهم من كتابات الهمداني ، أن شبام (شبام أقيان) والجوعر يقعان في مخلاف أقيان –

---

(٥) قارن أيضاً بالنسبة إلى هذه الأسماء النقش الموسوم بـ **C..IH 603/11** .

(٦) ص ٢٣٣ ومايليها

(٧) أنظر الصفة ، ص ٢٣٤

(٨) ج٨ ، ١٢٣.

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٦.

كما سبقت الاشارة إلى ذلك – وأن وادي ضهر (بالضاد) كان مركزاً لمخلاف مأذن ، أي أن كلا المخلافين يقعان شمال وشمال غرب صنعاء.

وبعد هذا التحديد ، فإن الأمر لايحتاج إلى قدرات خاصة للقول بأن الجوعـــر الــتي ذكرها الهمداني هي (ج و ع ل) النقوش مع إبدال حرف اللام بحرف الــراء، و (د و ر م) دون أي إبدال أو تغيير في الحروف ، وفذة هي (ف ذ م) و (ش ب م) هي شبام. إن هذا التطابق بين أسماء الأماكن الأربعة إلى جانب أهميته للجغرافية التاريخية لليمن القديم ، يشـير جملة من القضايا المهمة التي لها دلالات اجتماعية واقتصادية بالنسبة إلى التــاريخ اليمــني القديم.

فنقشنا الذي اقتبسنا منه هذه الأسماء ، يذكر ضمن ما يذكر أن هذه المناطق كانت تابعــة لملك نشان ، بل إن عالم اليمنيات الأستاذ رودو كاناكيس يترجم الفقرة التالية من النقــش كما يلي:

و هـــ ث ب/أ ب ض ع/و هـــ ب هـــ و/م ل ك / س ب أ/ل أ ل م ق هـــ/و ل/س ب أ /

Und er die Gebite, die ihm (dem Koning von Nasan) der konig von Saba (Krbl) Zu Lehen gegeben hatte, an den sabaischen Staat Zuruckbrachte.(١٠)

وترجمة ذلك إلى العربية "واستعاد الملك (كرب إيل) للدولة السبئية المناطق التي كـــان قد أقطعها "لملك نشان".

علماً بأن هذه المناطق تقع ضمن المنطقة السبئية ، فهل هذا يعني أنها كانت اقطاعيـــات – إذا استعملنا تعبير عصرنا – خضعت لملك نشان فيما بعد كما يفهم مـــن النقـــش ، ثم

(١٠) أنظر: N. Rhodokanakis, Altsabischche Textel, S. 29.

قررت سبأ اعادة الأمور إلى وضعها القديم ؟ هذ أسئلة تحتاج إلى دراسات مستفيضة للإجابة عنها.

هذا عن أسماء الأماكن التي وردت في النقوش ونجدها في مؤلفات الهمداني. وهناك اسماء أماكن أخرى وردت في النقوش لا نجدها كاسم مكان لدى الهمداني، بل ترد لديه كاسم قبيلة مثل (ن ش ق م) ، وهي ليست همدان الجوف كما أعتقد العلامة الأكوع[١١] ، بل هي – كما أسلفنا – خربة البيضاء في الجوف، وهي على حد قول الجغرافي استرابون واحدة من المدن التي حطمها القائد الروماني اليوس جاليوس في حملته على جنوب بلاد العرب عام ٢٤ ق.م.

ولنأخذ أمثلة أخرى من الأودية بعد أن ذكرنا بعضاً من أسماء المدن والقرى ، فالهمداني ذكر عدة أودية في اليمن – أي اليمن كما يحددها الهمداني – نجدها في النقوش ، وتسهيلاً للمتابعة سأقسم الأودية إلى قسمين : جنوبية غربية ، وهي الأودية الواقعة في تهامة بشكل عام ، وجنوبية شرقية وهي الأودية الواقعة في الشرق، وفي كلا الحالتين سأتتبع الأودية من الشمال إلى الجنوب ، مع ملاحظة أن عدم ذكر بعض الأودية في النقوش لا يعني عدم وجودها إطلاقاً ، بقدر ما يعني أن هذه الأسماء لم يرد ذكرها في المادة النقشية التي تم اكتشافها حتى الآن .

القسم الأول : وهي الأودية الواقعة في تهامة :

يذكر الهمداني في الصفة عدة أودية لها ما يقابلها في النقوش ، كوادي نجران في النقش الموسوم CIH 363/1,2 من مجموعة النقوش السامية[١٢] ، ووادي ريم الذي أتى ذكره في

(١١) أنظر الصفة ، ص ١٥٩ ، هـ ١.

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٩٩ ، ١٧٠ ، ٢٦٨، ... الخ ، وقارن الاكليل ج١ ، ص ١٤ ، ١٢١ الخ ، الإكليل ج٢،ص ١٩،٣٦، ٦٨...الخ، الإكليل ج٨ ، ص ١٣٣ ، ٢٢٢ ... الخ ، الإكليل ج١٠ ، ص٢

نقش إرياني رقم ١٧ الفقرة ٣[١٣]. ثم وادي عتود الذي ذكر في عدة نقوش منها نقش إرياني رقم ١٧ الفقرة ٣ أيضاً[١٤]. فوادي ضمد ، وقد ذكر في النقش الموسوم CIH 407/21 من مجموعة النقوش السامية ، وأيضاً في مجموعة Ja 649/16-17 ثم وادي ليّه الذي أتى ذكره في نقش Ja 649/9[١٦]. ووادي حلب الذي ورد ذكره في مجموعة Ja 616/17[١٧] ، ثم وادي سردد وقد جاء ذكره في مجموعة Ja 576/6[١٨]. فوادي سهام الذي ذكر ضمن مجموعة Ja 574/4[١٩] ، وأخيراً وادي رمع الذي جاء في مجموعة نقوش Ry 507/5[٢٠].

هذا بالنسبة للأودية الوقعة في الجنوب الغربي ، أما بالنسبة للأودية الواقعة في الجنوب الشرقي ، وهي أودية القسم الثاني ، فإن لسان اليمن يذكر عدة أودية لها ما يوازبها في النقوش ، وقد اخترنا هنا بعضاً منها ، فأولها وادي مذاب الذي جاء ذكره في النقش المرسوم RES 3954/15 من مجموعة النقوش السامية (المكملة)[٢١] ، فوادي خبش، وقد ورد في النقش CIH 541/44,113 من مجموعة النقوش السامية[٢٢] ، ثم الخارد ، السدي يقول عنه الهمداني في أثناء حديثه عن الجوف:"ويفضي إليه أربعة أوديه كبار، فأولها الخارد،

---

(١٣) الصفة ، ص ١٢٦ ، ٢٥٦ ... الخ

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٧٧، ١٢٦ ، ٢٥٩ ...الخ.

(١٥) المصدر نفسه ، ص٧٦، ١٢٦، وقارن الاكليل ، ج١ ، ص ٢٩٧.

(١٦) الصفة ، ص ١٢٥ ، ٢٥٩...الخ ، وقارن الاكليل ج١ ، ٢٢٥.

(١٧) الصفة ، ص ٧٥ ، ١١٧ ، ١٢٥ الخ

(١٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ ، ٢٢٣...الخ ، وقارن الاكليل ، ج١ ، ص ٢٢٣، الاكليل ، ج٢، ص١٢ ، ٧٩ ..الخ ، الاكليل ، ج٨ ، تحقيق فارس ، ص ١٩.

(١٩) الصفة ، ص ١٠٨ ن ١٢٢ . .الخ ، الاكليل ، ج٢ ، ص ١٨ ، ٢٨٣ ...الخ .

(٢٠) الصفة ، ص ١٢٢ ، ١٤٦.

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٦١ ، ٢٤١ .. الخ ، وقارن الاكليل ، ج١٠ ، ص ٦٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٣

(٢٢) الصفة ، ص ١٥٢ ، ١٥٩ ... الخ

مخرجه ما بين جنوبه ومغربه ومساقي الخارد من فروع مختلفة فأولها خولان في شرق صنعاء فيصب إليه غيمان وما أقبل من عصفان وثربان وظبوة وحزيز"[٢٣] . وقد ورد اسم هذا الوادي العظيم في نقش وحيد حتى الأن هو نقش جلازر رقم GL 1628/3,4,5 فوادي حريب الذي جاء ذكره في النقش رقم Ja 649/25 من مجموعة جام[٢٤] ، فوادي جُردان – أو جردان – والذي يقول عنه الهمداني " جردان واد عظيم فيه قرى كثيرة"[٢٥] وقد جاء ذكره في نقش برقمRES 3945/8 من مجموعة النقوش السامية (المكملة) ونقوش أخرى، ثم وادي عبدان[٢٦] الذي ذكر في نفس النقش السابق السطر ٩ ، فوادي دهر[٢٧] الذي ذكر في نقش برقم Ja 665/25 من مجموعة جام ، ثم أخيراً وادي رخية[٢٨] الذي ذكر برقم CIH 621/4 من مجموعة النقوش السامية . وإذا اعتمدنا ـــــ كمثال ثالث– المخاليف لدى الهمداني ، وبحثنا عما يوازيها في النقوش، فإننا سنجد الصورة التالية، فلسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني يذكر في "صفة جزيرة العرب " ضمن ما يذكر عدة مخاليف في اليمن ، وقد اخترنا بعضاً منها وذلك للتدليل على أهمية الهمداني في تحديد كثير من الأسماء التي جاء ذكرها في النقوش ، فلولا كتابات هذا العالم اليمني لبقيت هذه الأسماء طلاسم يصعب فهمها ، إن لم نقل يستحيل فهمها على الدارسين في مجال الحضارة اليمنية.

نلاحظ أن كثيراً من أسماء المخاليف التي جاء ذكرها في النقوش لا وجود لأسمائها القديمة اليوم ، إما لتبدل الاسم وبالتالي إلى اختفائه مع الوقت ، وإما لضمه إلى مخلاف آخر ، ومن ثم إلى ضياع اسمه القديم، فهو يذكر مثلاً مخلاف الهان ويقول عنه: "وألهان في ذاتها بلد واسع ومجمعها الجباجب ألهان ويسكنها ألهان بن مالك أخو همدان وبطون من حمير وقراها

---

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٣.

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٥١ ، ٢٢١ ... الخ

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ – ٢٠٠

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٩

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ ، ١٧٦

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ ، ١٧٦ ، وقارن الاكليل ، ج٢ ، ص ٢٦

تكثر"[٢٩] . وهذا المخلاف الذي يذكره الهمداني قـد جـاء ذكـره في نقـش برقـم CIH 350/5 من مجموعة النقوش السامية كـ (أرض / أ ل هـ ن) أي أرض ألهان .

فمن منا كان يستطيع تحديد مكان هذا المخلاف لولا هذه الكلمات المضيئة التي كتبها الهمداني "... وهو مخلاف واسع _ أي ألهان _ ينسب إليه غرب حقل جـهران...الخ"[٣٠] بمعنى آخر فإن الاسم كان يطلق على المنطقة التي سمي جزء منها اليوم آنس بما فيه مخـلاف حمير الحديث .

والشيء نفسه يقال عن مخلاف حراز وهوزن ، فمن منا كان يستطيع أن يحدد مكـان (أ ر ض/ هـ و ز ن) الذي ورد ذكره في نقش برقم ٧/٣٤٣ مـن مجموعـة النقـوش السامية ، لو لم يقل لنا الهمداني "مخلاف حراز وهوزن وهو سبعة أسباع، أي سبع بـلاد : حراز المستحرزة ، وهوزن ، وكرار ، وصعفان ، ومسار، ولهاب ، ومجيح ، وشبام ، ويجمع الجميع اسم حراز وهوزن "[٣١] .

أو مخلاف مأذن والذي يقابله في النقوش (أ ر ض / م أ د ن) كما في النقش رقـم CHI 323/4 مـن مجموعـة النقـوش السـامية ، والـذي يقـول عنـه الهمـداني : "... كما يجمع ضهر وضلع وريعان مخلاف مأذن من آل ذي رعين "[٣٢] ، وقـس علـى ذلك مخلاف المعافر والمعلل...الخ. ولما كان غرض هذا البحث توضيح أهمية لسان اليمـن الحسن بن أحمـد الهمـداني للجغرافيـة التاريخيـة لليمـن القـديم ، فإننـا لم نـورد

(٢٩) الصفة ، ص ٢٢٧.

(٣٠) المصدر نفسه ،ص ٢٢٧.

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ ، وأنظر أيضـاً ص ١٠٧ ... الخ ، وقـارن الاكليـل ، ج٢ ، ص٤٢، ٢٤٥، الاكليل ، ج١٠ ، ص ١٢٦.

(٣٢) الصفة ، ص٢٣١ ، أنظر أيضاً ص ١٥٥ ، ١٧٠ الخ ، وقارن الاكليل ، ح٨ ، ص ١٨٠

هنا سوى بعض الشواهد التي تؤكد ما ذهبنا إليه ،وهو أمر اتضح من بعض الأمثلة الـــتي ذكرناها .

وهنا يصح القول ، بأن رسم صورة ، ولو تقريبية لليمن القديم ، لا يمكن أن يتـــم إلا استناداً إلى المادة النقشية أولاً ، ومن خلال كتابات الهمداني ثانيــاً ،ثم بجـــهود البـــاحثين المحدثين ثالثاً.

وإنني لا أبالغ عندما أقول ، إن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني يعد بحق المصـــدر الثاني بعد النقوش بالنسبة للجغرافية التاريخية ، ليس لليمن في العصرين القديم والوســـيط فحسب ، بل ولجغرافية جزيرة العرب بشكل عام ،فـــ(هـــ ج ر ن/ق ر ي ت م/ذ ت / ك هـــ ل م) التي كان يتردد اسمها في النقوش السبئية لا يمكن أن تكون سوى ذلك الموضع الـــذي ذكره الهمداني في أثناء حديثه عن الطريق من مكة إلى اليمن قصد نجران ، إذ يقول " فـــان تيامنت شربت ماء عادياً يسمى قرية إلى جنبـــه آبـــار عاديـــة وكنيســـة منحوتـــة مـــن الصخر"[٣٣] . وهي التي تعرف اليوم باسم قرية الفاو الرابضة على بعد حـــوالي ٧٠ ك.م تقريباً جنوب وادي الدواسر ، وتقوم جامعة الرياض منذ أكثر من عشر سنوات بحفريـــات أثرية واسعة النطاق في هذه المنطقة .

وهكذا يتضح لنا أن كتابات الهمداني إلى جانب النقوش يمكن اعتبارها في التحليل الأخـــير من المادة التي يجب الاعتماد عليها ليس فقط لرسم خريطة لجغرافية اليمن القديم بل وأيضـــاً في فهم تاريخ وآثار اليمن القديم . ولا داعي هنا للتذكير بأننا في أمس الحاجة إلى مثل هذه الخريطة التي ستسهل لنا فهم واقعنا الحاضر ، الأمر الذي يساعدنا إلى حد كبير على وضع (اســـتراتيجيات) المســـتقبل ، إذ لا يعقـــل أن نحـــاول بنـــاء يمـــن جديـــد لا

---

(٣٣) الصفة ، ص ٢٩٧

يرتكز بالأساس على فهم الماضي بما فيه من سلبيات وإيجابيات ...

ولعل من المفيد أن نقول هنا، إننا في الوقت الذي نتباكى فيه جميعاً على ضياع جزء من مؤلفات الهمداني ، نهمل أو نغض الطرف على هذا التحطيم والنهب لآثارنا ، هذه الآثار التي كان يعتز بها صاحبنا ، وكانت بالنسبة إليه المصدر الأول في كل ما كتب، وهو الأمر الذي قدم في سبيله كثيراً من التضحيات .

حركة الكشوف الأثرية في جنوب جزيرة العرب

لما نضب معين المصادر المخطوطة المحدودة التي استقى منها علماء التاريخ القديم مادة أبحاثهم وتفاصيل أخبارهم ، مني هذا الفرع من التاريخ بجمود كبير، وتعرض بسبب نقص المصادر لشلل خطير ، وكاد يتسرب من جرائه اليأس إلى نفوس أكثر المؤرخين ، لو لم يقدر لهذا العلم ظهور فئة من الباحثين أخذت منذ منتصف القرن الثامن عشر تنشد آفاقا جديدة تتزود منها ما يشفي غليلها وينير سبيلها ، في طليعة هؤلاء البحاثة فينكلمان Winckelman مؤسس علم الآثار الحديث وعشرات غيره ممن أطلق عليهم اسم علماء الآثار .

حولت هذه الفئة وجهها شطر بلاد الشرق الأوسط مهد الحضارات ومهبط الديانات ، علها تعثر في آثار السلف ما ضنت به عليهم الصحف المخطوطة والروايات المنقولة ، فجابت البلاد طولا وعرضا تستجوب معالمها وتنتزع أسرارها ، ولم تهمل شاردة عنها ولا واردة إلا دونتها ،ثم عاد هؤلاء العلماء بعد جهد جبار وسعي قهار إلى بلادهم وقد غمرهم الأمل ، وحل في نفوسهم الرجاء محل اليأس . وأصدروا بما حملوه معهم من حصاد رحلاتهم وتنوع مشاهدتهم عشرات بل مئات الكتب والأبحاث عن أمجاد السلف وآثارهم المشتتة في هذه البلاد ، ووصفوا صروحها المشيدة التي فتنهم جمالها ، وسحرتهم روعتها أحسن وصف،

---

(١) نشر في مجلة دراسات يمنية العدد السابع والثلاثون يوليو،اغسطس،سبتمبر(١٩٨٩)ص٨٦-١٣٢.

وأدرك العلماء أنها وليدة ماضٍ تليد ونتاج حضارة زاهرة درستها العصور وسكتت عنـــها السطور . وما هذه المعالم القائمة على ظهر الأرض سوى بقية ضئيلة من دنيا قديمة مجهولة، قاومت الأحداث عشرات القرون وصمدت لعاديات الزمن وقسوة العصور ، حتى أدركنا هذه البقية الباقية تشكو بشمم ظلم الطبيعة وإهمال الإنسان، وهنالك ما هو أعظم منها قد طوحت به الأزمان ، وطغت عليه الأتربة والرمال ، فحجبته عن الأنظار .

وقد خفيَ عن المؤرخين إلى عهد قريب كنه هذه الصروح ، ودهشوا لها ، ووصفوهـــا بأنها من عجائب الأنام . وذهب بعضهم إلى أنها من عمل الجان ، ومن معجـــزات النـــبي سليمان . وساد الناس هذا الاعتقاد قروناً طويلة ، وتداولته ألسنة الرواة ، وتناقلته الكتب إجيالاً إلى أن حان الزمان الذي بدّد فيه علماء الآثار هذه الأوهام ، وأعلنوا للملأ حقيقـــة هذه المعالم وأنها من أمجاد السلف ، وما كان هؤلاء إلا بشراً مثلنا ، ولكن سلكوا ســـبيل المجد فبلغوه ، وساروا في موكب الحضارة فتقدموه ، وخلفوا لنا من آثارهم منجماً لا يشح ومعيناً لا ينضب سيبقى منهلاً للرواد على مدى الزمن...

وقد فاقت أعمال هؤلاء البحاثة والرواد كل ما كان يرجى منها من نتائج، ولمـــس أكابر المؤرخين والمؤسسات العلمية فوائد هذا العلم واعتبروه فتحاً جديداً وتنبـــؤوا لـــه مستقبلاً باهراً ، وتبوأ هذا العلم على حداثة عهده مكانته بين العلوم العصرية ، له أصولـــه وفروعه ، ونظمه وأسسه ، وتقرر في المعاهد العالية والجامعات. وقد نفـــذ هـــذا العلـــم الحديث لا سيما بعد أن حلت رموز خطوط الأولين إلى صميم العـــهود القديمـــة تمكـــن الباحث على ضوء وثائقها ومن خلال مخلفاتها وأنقاضها أن يرســـم الخطـــوط الرئيســـة لأوضاعها السياسية والعمرانية ، وأن يقف على نظمها الاجتماعية والثقافية ، وأن يرجـــع بفضلها تاريخ الحضارة البشرية إلى الوراء عشرات الآلاف من السنين .

فلا عجب إن احتلت البعثات الأثرية لدى الدول الأوروبية مكانة رفيعـــة ، وتبنتـــها ورعتها بعنايتها حتى أرفقتها بحملاتها العسكرية كما فعل نابليون بونابرت في حملته علـــى

مصر. وقد رافقت بعثة أثرية أخرى الحملة الفرنسية التي توجهت إلى لبنان في عام ١٨٦٠م، واصطحبت أيضاً الجيوش البريطانية إلى العراق بعثة في عام ١٩١٥ . وقد توافدت البعثات الأثرية حتى الحرب العالمية الأولى على بلاد اليونان وجزرها ومصر وبلاد فارس وآسيا الصغرى وفلسطين.

وعلى الرغم من أن جنوب الجزيرة العربية يقع في قلب العالم القديم ، وبجانب الطريق الأساسي لتجارته ، فقد ظل شبه مجهول للرحالة الأجانب حتى وقت قريب... وكان السبب في ذلك العزلة التي فرضها النظام الإمامي على البلاد إلى جانب قلة العطاء الاقتصادي ، مما جعل التجارة العالمية تكاد لا تأبه به ، فضلاً عن وعورة مسالكه ، الأمر الذي جعل الطواف حوله بحراً أكثر يسراً من سلوك طرقه ودروبه .

إن أول عالم اهتم بآثار اليمن القديمة هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني الذي توفي بعد عام ٣٣٦ هـ[١] والذي خصص الجزء الثامن من كتابه الموسوعي الإكليل للبحث (في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات).

وعلى الرغم من أن المستشرقين لا يرتاحون كثيراً إلى المراجع العربية عند البحث في التاريخ القديم فإنهم يتفقون في إظهار منتهى العناية بما ذكره الهمداني عن اليمن في كتابيه (الإكليل) و (صفة جزيرة العرب)[**] ، وقد قام المستشرق النمساوي موللر **D.H.Muller** في سنة ١٨٧٧-١٨٧٩ بنشر فصول باللغة الألمانية من الجزء الثامن من كتاب (الإكليل) بعنوان (أبراج وقصور جنوب الجزيرة **Die Burgen und Schloesser Sudarabiens**) ومعروف أن كتاب الإكليل لم يعثر من أجزائه العشرة حتى الآن سوى أربعة هي : الأول

---

(١) من أجل ترجمة للهمداني أنظر ، يوسف محمد عبدالله : أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، مطبوعات وزارة الاعلام والثقافة بصنعاء ، (١٩٨٥) ص ١٣١-١٤٦.

(**) كل الاستشهادات الواردة عن الهمداني مأخوذة من كتبه التي حققها القاضي العلامة محمد بن علي الأكوع، إلا أن يذكر خلاف ذلك.

وقد حققه ونشره القاضي محمد الأكوع عام ١٩٦٣ في القاهرة ، والثاني : حققه ونشره القاضي الأكوع أيضاً عام ١٩٦٦ في القاهرة ،والثامن : وقد حققه ونشره باللغة العربية لأول مرة الأب أنستانس الكرملي عام ١٩٣١ في بغداد ، ثم قام الأستاذ نبيه فارس بإعداد ترجمة إنجليزية أرفقها بحواش تاريخية ولغوية نشرها عام ١٩٣٨ في السلسلة الشرقية في جامعة برنستن بعنوان **The Antiquities of South Arabia** ، ثم نشر النص العربي وهو النص الذي أعيد طبعه بالتعاون بين مكتبة دار الكلمة – صنعاء ودار العودة – بيروت دون تاريخ . وفي عام ١٩٧٩ أعاد القاضي محمد الأكوع نشر هذا الجزء في دمشق ، أما الجزء العاشر من الإكليل فقد نشر على يد محب الدين الخطيب في القاهرة عام ١٣٦٨ هـ . أما كتاب صفة جزيرة العرب ، فقد حققه ونشره باللغة العربية لأول مرة الأستاذ موللر السالف الذكر عام ١٨٨٤–١٨٩١ في ليدن ،وقد قام الأستاذ فورر **L.Forrer** عام ١٩٤٢ بنشر ترجمة إلى اللغة الألمانية من الكتاب خاصة بالجزء المتعلق بجنوب الجزيرة بعنوان:

Sud arabien nach al - Hamdanis "Beschreibung der arabischen Halbinsel" Lepipzig (1942).

ثم نشر الكتاب محمد بن عبدالله بن بلهيد النجدي في القاهرة عام ١٩٥٣، وأخيراً أعاد نشره القاضي محمد الأكوع عام ١٩٧٩ بالرياض. ولا غرابة إذا رأينا المستشرقين يهتمون بمؤلفات الهمداني ، فهو لا يقتصر خلافاً لغيره من علماء تلك العصور على سرد روايات منقولة ، بل كان يسعى إلى مشاهدة البلاد والآثار التي يتكلم عنها ويصف لنا ملاحظاته الدقيقة . ولا ننسى أن قسماً كبيراً من المعابد والقصور التي ترجع إلى السبئيين والحميريين وكانت لا تزال قائمة في عصره يعتز بها أهل اليمن ويتفاخرون ،وفي الحقيقة فإن مباحث العلماء المحدثين الذين زاروا الأماكن الأثرية في اليمن قد جاءت مؤيدة لما ذكره الهمداني ، خاصة عن سد (مأرب) وقصر (ناعط) . يقول الهمداني : " نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها ، سوى (غمدان) فإنه لم يبق منه سوى قطعة من أسفل جداره ، فلم أرَ مثل (ناعط) و (مأرب) و (ضهر) ولناعط الفضل " . ولعله من المفيد هنا أن نأخذ بعضاً

من كتابات الهمداني الأثرية ، كما وصفها قبل ألف عام ، ثم نقارن بين ما كتبه وما نعرفه اليوم عنها ...

قصر ناعط :

يقول الهمداني : "وهي مصنعة بيضاء مدورة في رأس جبل ثنين وهو أحد جبال البون. وهو جبل مرتفع مقابل لقصر تلفم وهو جبل في سرة همدان وهي ريدة مسكن الهمداني. فمن قصور ناعط المملكة الكبير الذي يسمى يعرق منها قصر ذي لعوة المكعب، وذلك بكعاب خارجة في معارب حجارته على هيئة الدرق الصغار ، وذرعت في معرب منه سبعة أذرع إلا ثلثين الذراع التامة وهما سوى هذين القصرين ما يزيد على عشرين قصراً كباراً . سوى أماكن الحاشية وكان عليها سور ملاحك بالصخر المنحوت . وما فيها قصر إلا وتحته كريف للماء مجوف في الصفا فما يترل من السطح ابتلعه ، وفيها الأسطوانات العظيمات طول كل واحدة منها نيف وعشرون ذراعاً مربعاً ، ولا يحضن الواحدة منها إلا رجلان ، وفيها بقايا مسامير حديد قيل : إنها كانت مراقي إلى رؤوسها وإنه كان يثقب عليها الشمع إذا أرادوا الصرخة فتنظر النار من جبل سفيان الذي يشفى على عيان ومن جبل حضور وراس مدع وجبل ذخار وظاهر خرفان".

وقد أجاد الهمداني في وصف النقوش التزيينية على جدران قصر ناعط كما تدل هذه الأبيات من قصيدة طويلة له :

فمن يك ذا جهل بأيام حمير ... وآثارهم في الأرض فليأت ناعطا

يجد عمداً تعلوا القنا مرمرية ... وكرسي رخامٍ حوله وبلانطا

ملاحك لا ينفذ الماء بينها ... ومبهومة مثل الفراخ خرائطا

على كرف من تحتها ومصانع ... لها بسقوف السطح ليس وقابطا

تخال حنين الريح في نزعاتها ... إذا اخترقت بين الزنير برابطا

كأن رفعت عنها البنات أكفهـــــا بأول يوم قبل أمسك فارطـــا
ترى كل تمثال عليها وصـــــورة سباعاً ووحشاً في الصفاح خلانطا
نجانب ما تنفك تنظر قابضــــاً لإحدى يديه في الحبال وباسطـا
ومستفعات من عقاب وأجـــدل على أرنب هم ذا فراخ وقامطـا
وسرب ظباء قد هُـلـن لمخنـق وغضف ضراء قد تعلقن باسطا[٢]

ومعروف أن ناعط ترد في عدة نقـوش عربيـة جنوبيـة كـهجر نذكـر منـها : CIH 107/2 (هـ ج ر هـ م و / ن ع ط م ...) وتقع على بعد ١٥ كم جنوب شرق مدينة ريدة وقد زارها الأستاذ رات W. Radt عام ١٩٧١م، وضمن وصفاً لها في تقريره الذي كتبه عن رحلته، كما ذكر نشوان الحميري في كتابيه المعروفين ناعط وأثنى عليها[٣].

وجبل تنين قد ذكر هو الآخر في عدة نقوش منها : CIH289/24 الذي يفهم منه أن معبداً للاله عشتر كان قائماً هناك (ع ث ت ر / ب ع ل / ث ن ي ن). أما مدينة ريدة فقد تكرر ذكرها في أكثر من نقش ، مثلاً : CIH282/2 (ر ي د ت) ويسـميها الهمـداني ريدة البون وريدة عمران وريدة شهير تمييزاً لها عن ريدة الصيعر وريدة أرضـين وريـدة الحرمية ، وكلها في حضرموت ، ويذكر القاضي الأكوع ريدة في عسـير وريـدة في ذي السـفال . ليـس هـذا فحسـب بـل إن هنـاك فيمـا نقلنـاه عـن

---

(٢) الأكليل ، ج٨ ، ص ٨٢-٨٥.

(٣) الحميري نشوان · ملوك حمير وأقيال اليمن ، القصيدة الحميرية وشرحها المسمى خلاصـة السـيرة الجامعـة لعجائب أخبار الملوك التبابعة ، حققها وعلق عليها · السيد علي بن اسماعيل المؤيد واسماعيل بن احمد الجـرافي، المطبعة السلفية ، القاهرة (١٣٧٨ هـ) ص ٢٢ ، ٥٨ ، ١٠٠، إلخ ، منتخبات في اخبار اليمن من كتـاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، اعتنى بنسخها وتصحيحها عظيم الدين احمـد ، طبعـة وزارة الاعلام والثقافة بصنعاء ، دمشق (١٩٨١)ص٦٧،٩٦، ١٠٤.

Radt,W.:Bericht uber eine Forschungsreise in die A. R.Jemen, Archaologischer Anzeiger (1971), S. 273 U. Abb. 34-41.

الهمداني عدة كلمات ترد في النقوش اليمنية القديمة مثل كريف = ك ر ف ومعازب معارب = م ع ر ب بمعنى الحجارة المربعة . صحيح أننا لا نعرف مكان قصر يعرق ولا قصر ذي لعوة ، إلا أننا نعرف أن ناعط كانت مسكن أحد الملوك الهمدانيين، وكان بها معبد ، وقد جاء في النقوش (ذ ل ع و هـ) كاسم قبيلة كانت تسكن في ناعط ، ثم إن المنطقة لم تدرس بعد دراسة وافية حتى نستطيع الجزم بعدم وجود هذين القصرين ..

ولناخذ مثلا آخر من الهمداني وليكن سد مأرب الشهير ، بعد ذكر الآية الكريمة: { لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور }[٤]. يقول الهمداني في وصف سد مأرب: "وهي كثيرة العجائب، والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان ، الغامر : العافي ... وأما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها قد فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا ، وهو الذي يخرج منه الماء قائما بحالة على أوثق ما كان ، ولا يتغير إلى أن يشاء الله عز وجل ، وإنما وقع الكسر في العرم ، وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمسة عشرة ذراعا ... وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن ... وكان العرم مسندا إلى حائط وآثر ما بين عضاد بالمذاخر بمعازب من الصخر عظام ملحمة الأساس بالقطر ... ويقول بعض العلماء أن بانيه لقمان بن عاد وبعضهم يقول بناه حمير والأزد بن الغوث من عقب كهلان.."[٥] على أنه في مكان آخر يبدي هذه الملاحظة الانتقادية " العرب ينسبون كل مستظرف من البناء إلى سليمان بن داود عليه السلام ، كما ينسبون كل قديم إلى عاد" ويضيف : " وقد أكثر الناس في بناء الجن لقصور اليمن ، ما ذلك إلا من زيادة الناس في الأحاديث"[٦].

---

(٤) سورة سبأ : الآية ١٥.

(٥) الإكليل ، ج٨ ، ص ٩٥-٩٩

(٦) المصدر نفسه ، ص٦٦

ومدينة مأرب أشهر من أن تعرف ، فقد تكرر اسمها في عدة نقوش عربية جنوبية، بل كانت معروفة لدى كثير من المؤرخين والكتاب الكلاسيكين أمثال بلينيوس واسترابون . ونعرف اليوم أن هذه المدينة كانت مسورة منذ الفترة التي لم تصلنا عنها أية شواهد نقشية وإن كنا لانعرف حتى اليوم من الذي اختطها . واستناداً إلى الدراسات الحديثة التي أجريت على خرائب المدينة أن مأرب كانت أشهر مدينة يمنية قديمة ، وهي عاصمة سبأ لقرون عديدة، وموقعها كما هو معروف في السهل السبئي على مشارف صحراء صيهد الذي يتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان الذي كان يمتد من ميناء قنا (بير علي الحالية) على ساحل المحيط الهندي عبر حضرموت إلى نجران ومنها إلى دادان (العلا اليوم) ثم إلى غزة على ساحل البحر المتوسط .

كما تدل الخرائب والآثار المنتشرة التي تكتنف قرية مأرب الصغيرة ، على الضفة اليسرى من وادي (ذنة) على ضخامة المدينة القديمة ، تلك المدينة التي اعتبرها بطليموس الجغرافي الإسكندري وسط الإقليم المناخي الأول على وجه الأرض . وكانت مساحة المدينة حوالي كيلو متر واحد مربع ، ويحيط بها سور عرضه متر تقريباً وبثمانية أبواب ، هي نفسها أبواب المدينة .

ويرجح أن التل الذي تقع عليه قرية مأرب هو مكان القصر الملكي سلحين الذي لا يغفل ذكره العلامة الهمداني ، وتردد اسم القصر في النقوش أيضاً . بل يذكر أن " مأرب ومريب قبيلتان من العرب العاربة "[٧] ونحن نعرف اليوم أن الاسم (م ر ي ب) الذي ذكر في عدة نقوش منها : **CIH 19/6;389/4; Ja 560/11** هو الاسم القديم للمدينة ، ثم استبدل بالاسم (م ر ب) **.CIH 407/10 ; 541 / 65-66 , 67 , 81 ; RES 3910 / 2; RES 4763 / 1...etc.**

---

(٧) المصدر نفسه . ص ١٠٤.

وقـد بقيـت المدينـة عاصمـة لسبأ وشـهدت الحملـة الرومانيـة عـام ٢٤ ق.م. وهي الحملة التي أخفقت أمام أسوار مأرب واضطرت بعد أيام إلى الانسحاب .

وفي القرن الأول الميلادي ظهرت دولة حمير كقوة ضاربة بعاصمتها ظفـار وقصرهـا ريدان، وادعى حكامها حق السيطرة على مأرب ، ولقبوا أنفسهم بملوك سبأ وذي ريـدان ، وهو لقب تنازعه معهم ملوك مأرب حفاظا منهم على شرعية الحق التقليدي في مـأرب . على أن ذلك الوضع لم يدم طويلا ففي القرن الثاني بعد الميلاد انتهى الحكم التقليـدي في مأرب نتيجة صراع القوى في اليمن آنذاك وانتهت مأرب كعاصمة . ولكن ذلك لا يعـني أن مأرب انتهت كمدينة بل بقيت محتفظة بمكانتها الدينية ومقامها الخاص المرموق زمنـا ، ولما احتل الأحباش اليمن عام ٥٢٥ م أمر النجاشي (كالب) أن يسجل نقش نصـره في مأرب وبني في عهد أبرهة كنيسة فيها بعد ذلك .

وعلى الرغم من التحولات التاريخية خلال تلك المرحلة ، كانتقال ثقل الحضارة مـن مأرب إلى ظفار ، وتداول أعنة الحكم بين كثير من أقيال سبأ ، وتحول طرق التجارة مـن البر إلى البحر ، على الرغم من ذلك كله فإن لحضارة سبأ معلما ثابتا واحدا على الدوام ، نما معها وصاحب أوج نفوذها ، وواكب فترات ضعفها وقوتها، وشهد لحظات انهيارها ، ثم انهار على أثرها . بل إن صدى تاريخها ظل يتردد على مسامع الزمن مرتبطا بذلك المعلـم الثابت وهو اليوم عنوان الحضارة ورمزها وآيتها ، ذلك هو سد مأرب .

وكان صيت السد قد ذاع في التاريخ لما ناله من تكريم بذكره في القرآن الكريم.

ويعتبر سد مأرب أشهر آثار اليمن وأعظم عمل هندسي قديم في الجزيرة العربية، وقـد بني بين مأزمي الجبلين ، البلق الشمالي والبلق الجنوبي ، على وادي ذنة، مـيزاب اليمـن الشرقي. ووداي ذنة هو أعظم أودية مشرق اليمن كما هو وادي مور أعظم أودية مغربه ،

وذلك حيث تتجمع مساقط المياه في المرتفعات الشرقية من ناحية رداع وذمار ومراد وخولان وغيرها . وتأتي هذه السيول التي تكون عادة موسمية في فصل الربيع والصيف وخاصة في إبريل ومايو ويوليو وأغسطس لتكون وادي ذنة ،وتفضي جميعها إلى موضع السد بين مأزمي مأرب . ولم يكن الغرض من بناء السد هو خزن المياه طيلة العام ، وإنما كان بالدرجة الأولى التحكم في تلك السيول الجارفة ، وتحويلها سريعا إلى الضياع والحقول في سهل مأرب والتي عرفت بالجنتين . ويبلغ طول السد حوالي ٧٢٠ مترا ، ويبلغ ارتفاعه حوالي ١٥ مترا . أما جداره فإنه يقارب العشرين مترا . وكان الجدار ترابيا مملطا بالحجارة والجص من الجانبين ، ومسندا إلى حائط وأثر من الصخر . والحائط يقوم على حجارة ضخمة ملحمة الأساس بالقطر من نحاس أو رصاص ،وذلك لإحكام الربط . وربما تجنبا لأثر الزلازل ، وفي طرفي جسم السد يقع الصدفان ،وهما الفتحتان اللتان يخرج منهما الماء إلى شبكة من قنوات الري ، والسدود الصغيرة والمقاسم التي توزع المياه على الأرض وفق نظام دقيق وعرف متبع[٨] .

وتدل الدراسات الأولية الحديثة والصور الجوية أن المساحة التي كان السد يرويها شاسعة تقدر بأكثر من ٧٢ كم مربع . وذلك يعني أن السد كان يسقي مسافة ٢٤ كم على الأقل باتجاه نهية دغل في طرف مفازة صيهد . على أن هذا ليس هو القول الفصل فلا بد من تقدير زحف الصحراء وحركة التصحر الذي تسببه الرياح عبر القرون وتطمر مساحات شاسعة من التربة الخصبة التي كان السد يرويها .

ويمكن اعتبار تقنية سد مأرب ومرافقه الزراعية فريدة في عصرها ، خاصة إذا ما قورنت بمنشآت الري المعهودة في حضارة وادي النيل ، أو حضارة بلاد الرافدين .

فقد كان الري في تلك البلدان يعتمد على أنهار دائمة الجريان ويقتصر جهد

---

(٨) انظر مايذكره الهمداني عن قصة السد التي أستوحاها من الآثار التي شاهدها ، المصدر نفسه . ص١٠١، وقارن ، يوسف محمد عبدالله : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٩-٣٢.

الإنسان على حسن استغلال تلك المياه وضبط فيضانها . أما في اليمن فلم يكن هناك أنهار دائمة الجريان ، وإنما كان هناك وديان جافة ، لا تسيل المياه فيها سوى فترات قصيرة من السنة معلومة مواسمها ، ولهذا كان هم السبئيين هو إقامة نظام للري يتلاءم مع تلك الشروط الطبيعية حتى يتمكنوا من حصر تلك السيول الجارفة وتصريفها إلى الحقول بأسرع وقت ممكن ، ثم خزن ما تبقى لفترات قصيرة .

وسد مأرب قديم قدم ازدهار حضارة سبأ ، بل إن ذلك الازدهار مرتبط ولا ريب بتلك القدرة الفنية الرائعة على إقامة ذلك السد الشهير ، وآثاره الباقية تدل على أن بناءه قد مر بمراحل عديدة ، وأنه تضخم وتجدد مع الزمن ، وكان جدار السد متماسكا وثابتا ، مما جعل بعض الناس يروون عن بنائه أجمل الأساطير ... غير أن النقوش التي عثر عليها في جدران السد تنبئنا أن من بناة السد المكرب (سمهو علي ينوف بن ذمار علي) وابنه (يثع أمر بين) ويقدر العلماء فترة حكم هذين المكربين في حوالي القرنين الثامن والسابع ق . م .، ولهذا لا بد أن يكون السد قد أقيم لأول مرة منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة ، إذ إن بناء السد من قبل (سمهو علي ينوف) وابنه (يثع أمر بين) كان في شكله المتطور المحكم مما يدل على أن تجارب بنائه الأولى قد سبقت ذلك بقرون .

أما متى تفجر سد مأرب ؟ فسؤال تقتضي الإجابة عنه تتبع تاريخه عبر القرون ، إذ لم يتفجر السد مرة واحدة ، وإنما صارع عوادي الزمن والطبيعة وإهمال الإنسان طيلة الفترة التي كان قائما فيها ... ولا ريب أنه تأثر بتلك التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدها اليمن قديما ، وتعرض للإهمال والكوارث الطبيعية مرارا ، وتفجر نتيجة ذلك مرارا أيضا . على أننا لا نملك وثائق تثبت ذلك ،وإن كنا نملك بعضا منها عن مرات تفجره بعد الميلاد . وهي نقوش يمنية قديمة تذكر بوضوح تفجر السد ،وما بذل في حينها من جهود كبيرة في سبيل ترميمه وإصلاحه ، وربما يعثر في المستقبل على نقوش أخرى تقدم معلومات أغنى عن بناء السد وعن تجديده وعدد مرات تصدعه .

والانفجارات التي سجلتها النقوش المعروفة للسد هي ثلاثة :أولها انكسار العرم الـذي حدث في عهد (ثاران يهنعم بن ذمار علي يهبر) ودليل ذلك نقش عثر عليه في مــأرب Ja671 ، أي في حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي ،ويذكر أنه في عهد (ثاران يــهنعم) وابنه (ملكي كرب يهأمن) الذي كان يشاركه في الحكم ، تم إصلاح ما هدم من السد في حوالي ثلاثة أشهر . وثانيهما حدث في عهد (شرحبئيل يعفر بن أبي كرب اسـعد) التبـع اليماني المشهور ، وذلك بين عامي ٤٤٩ و ٤٥٠ بعد الميلاد. ويذكر النقـش CIH450 أنه تم إصلاح ما هدم من السد من جدرانه أو قنواته ،وأعيد بناؤه سويا كما كان ، وذلـك في خمسة أشهر من العمل المتواصل ، واشتركت في إصلاحه عشرون ألفا مـن السـواعد اليمنية القديمة ... وتفجر سد مأرب للمرة الثالثة في عهد أبرهة الذي حكم اليمـن بعـد الغزو الحبشي واليا لنجاشي الحبشة. ثم حاكما مستقلا عنه . وكان ذلك الانفجار في عـام ٦٥٧ بالتقويم الحميري (الذي يبدأ ١١٥ ق.م) ويوافق ذلك عام ٥٤٢ بعد الميلاد .

أما متى انفجر سد مأرب للمرة الأخيرة ؟ وهي الحادثة التي ذكرها القرآن الكريم ، فلا يعرف زمانها بدقة وإن كان جمهور العلماء يرى أن تلك الحادثة لابد وأن تكون قـد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادي ، أي بعد عام ٥٥٠ م وذلك قبل ميلاد الرسول ﷺ بسنوات قليلة .

إلى جانب الهمداني ينبغي أن نذكر نشوان بن سعيد الحميري الذي توفي سنة ٥٣٧هـ (١١١٧ م) . يشير ياقوت الحموي في معجمه عند الكلام عن جبل صبر إلى قيام نشـوان واستيلائه على بعض الحصون في تلك المنطقة ومبايعة السكان له بالملك ،ولكن يبـدو أن هذه المغامرة في سن الشباب لم تستمر طويلا، فانصرف صاحبنا بعد ذلـك إلى البحـث العلمي وألف كتاب (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم) الذي يشتمل على كثير من المعلومات القيمة عن اليمن وعن تاريخها ولغتها،وقد استفاد الأستاذ د – هـ موللر من هذا الكتاب في دراساته في بلاد العرب الجنوبية . وكان المستشرق النمساوي فون كريمـر

Von Kremer ، قد نشر القصيدة الحميرية وترجمة ألمانية لها عام ١٨٦٥ م وهي التي يذكر فيها نشوان أسماء ملوك اليمن وأقيالها [٩] ، ثم حقق السيد على بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي القصيدة وتم نشرها عام ١٣٨٧ هـ . ثم نشر الدكتور عظيم الدين أحمد من البنغال في الهند (منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم...) مع شروح وتعليقات باللغة الألمانية عام ١٩١٦ ضمن مجموعة الأستاذ جب .

لا ريب في أن الأخبار التي يرويها أبو محمد الحسن الهمداني ونشوان الحميري تساعدنا على دراسة تاريخ وآثار اليمن وفهم الألفاظ القديمة من أسماء القبائل والأشخاص والأماكن والمصطلحات اللغوية التي ترد في النقوش ، إلا أن هذه الأخبار ناقصة ومضطربة تقتصر على العصور المتأخرة ، وليس فيها تحديد للزمن وضبط لتسلسل الملوك وإحاطة بأسماء الآلهة ، وتفصيل للعقائد الدينية ، ووصف للحياة السياسية والاجتماعية الفكرية .

ونحن لانزال بعيدين عن تكوين صورة شاملة واضحة عن تاريخ وآثار اليمن. ولكن معرفتنا في هذا الموضوع قد أخذت تزداد منذ قرنين بعد أن بدأ المستشرقون يرتادون البلاد ويستنسخون النقوش وينقبون عن الآثار القديمة ، وبعد أن توصلوا إلى قراءة النقوش السبئية والمعينية والحضرمية والقتبانية وتفسير معانيها. إن هذا العمل لم يكن سهلا، فقد اعترضته في الماضي وما زالت تعترضه حتى اليوم مع الأسف صعوبات كبيرة . ولئن اتصف العصر الحديث منذ بدايته بنزوعه إلى الابتداع وإلى التجديد في كل شؤون الحياة ، وقطع في ذلك أشواطا جد بعيدة وجريئة، غير أنه في الوقت نفسه شغوفا بتقصي الأصول؟ أصول الأشياء،وأصول الكائنات، وأصول الحضارات، وتوضيح ما خفي من تاريخها القديم.

واتبع هذا العصر في معظم دراساته لأصول الحضارات والشعوب أسلوب الرحلة ومنطق البحث العلمي والمقارنة المنهجية واستقراء المصادر من آثار مادية ونصوص ، وخطا

---

(٩) Die Himjarische Kasideh. Heraug. und ubersetzt von Alfr. von Kremer, Leipzig (1865).

في ذلك أيضاً خطوات منذ القرن السادس عشر الميلادي وحتى الآن .

وهيأت السبل أمام الاهتمامات الأوربية بشبه الجزيرة إرهاصات حضارية أعقبت نجاح بعثة فاسكو دي جاما في الإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ والرحلة إلى قلب المحيط ، واستهدفت مصادر هذه الإرهاصات فيما استهدفته من أغراض تجميع المعارف ورصد الفوائد ووضع الخرائط بطرق علمية لسواحل المحيط وموانيه .

البعثة الدانماركية :

حوالي منتصف القرن الثامن عشر كان الأستاذ ميخانيلس **Michaelis** في جامعة جوتنجن **Goettingen** بألمانيا قد أخذ يوجه أنظاره إلى بلاد العرب الجنوبية ، ويصرح بأنها أغنى أقطار الكرة الأرضية التي تستحق اهتمام العلماء لأسباب عديدة، من جملتها الأمل في العثور على وثائق تمكننا من إيضاح بعض المسائل الغامضة المتعلقة بدارسة الكتب المقدسة . ويمكن أن نضيف هنا أن اهتمام الهيئات والبعثات الغربية ببلاد العرب الجنوبية ازداد نظراً لما يلي :

أولاً : كانت قرب مناطق شبه الجزيرة العربية إلى خطوط الكشوف الجغرافية بعد الدوران حول أفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي لوقوعها عند مداخل البحر الأحمر من الجنوب .

ثانياً : إنها كما جاء على لسان كثير من المستشرقين – نقلاً عن الرحالة المخاطرين الغربيين – كانت أقل أجزاء شبه الجزيرة العربية عداء لظاهرة الاستكشاف والمخاطرة ، وكان أهلها أقل تعصباً ضد الأجانب عن غيرهم من بقية الأجزاء .

ثالثاً : إن خصوبة أرضها ،واعتدال مناخها جعلها أسهل ريادة من غيرها من أجزاء شبه الجزيرة التي تتميز بالوعورة الصخرية وقسوة المسافات والمساحات الرملية الصحراوية التي

يمكن أن تبتلع الغرباء من غير العارفين بدروبها وأماكن آبارها .

رابعا : ما عرف عن اليمن في الكتب الكلاسيكية اليونانية والرومانية من عراقة الأصل وعمق الجذور التاريخية ، كما أنها إلى حد كبير أحد المنابت الأصلية للحضارات السامية والحضارات العربية ، مما جعل لعاب المستكشفين يسيل حول كشف النقاب عن آثارها ونقوشها وخطوطها وسدودها.

خامسا : إن وقوعها على الطريق إلى الحبشة المسيحية وطرق الكشوف الجغرافية جعل الكثير من المخاطرين يفضلونها على غيرها كهدف يمكن الوصول إليه في طريق الذهاب والعودة .

إذا لقد كانت هناك عدة عوامل تؤيد ما ذهب إليه الأستاذ ميخائيلس وقد جاء في ذلك الوقت إلى جوتنجن المستشرق الدانماركي فون هان **Ehr. Von Haven** الذي أيد هذا الرأي وبحث مع الأستاذ ميخائيليس في ضرورة إرسال بعثة علمية إلى اليمن، فكتب هذا إلى وزير الخارجية الدانماركي الكونت برنشتوف **Bernstorff** المشهور بتشجيعه للبحوث العلمية، يبين له الفوائد العظيمة التي تنتظر من مثل هذه البعثة إلى بلاد العرب السعيدة .

وكانت الدانمارك في ذلك الوقت من الدول ذات المركز المرموق في أوروبا، وممن يحرص على إعلاء شأن العلم والاسهام في الاكتشافات الحديثة . وصادف الاقتراح قبولا لدى الملك ،بل إنه شارك خصيصا في رسم خطة عمل البعثة وتذليل الصعوبات التي طرأت في سبيل تنفيذها . وفي أواخر سنة ١٧٦٠ تقرر إيفاد بعثة مؤلفة من خمسة من العلماء وبتخصصات مختلفة ، يصحبهم خادمهم (أحد جنود سلاح الفرسان المسرحيين) . وهؤلاء العلماء هم: البرفيسور فريدرك كريستيان فون هافن ، دانماركي متخصص في فقه اللغة والدراسات الشرقية ، والبرفسور فورسكال **P. Forskal** ، سويدي جمع بين علمي الطب والنبات ، والطبيب كارل كرامر **K. Cramer** ، دانماركي متخصص في الجراحة وعلم الحيوان ، والسيد جورج وهلم باورن فايند **G. W. Bawrnfeind**، رسام أنيطت به مهمة

الرسوم الفنية ، والمهندس الملازم كارستين نيبور C. Niebuhr ، مساح ومهتم بالأعمال الميدانية . وكانت هذه أول بعثة استكشافية أثرية توجهت إلى اليمن .

وفي اليوم الرابع من يناير سنة ١٧٦١ بدأت البعثة رحلتها الطويلة ومغامرتها الرائدة نحو اليمن ، حيث أبحرت الباخرة الحربية (جريندلند) قاصدة مصر ، حيث قضت البعثة فيها وفي شبه جزيرة سيناء سنة كاملة . وبعد استراحة قصيرة واصلت البعثة رحلتها فوصلت سواحل الجزيرة العربية في أكتوبر ١٧٦٢ ، فمرت بجدة والقنفذة واللحية ، وأخيرا وصلوا إلى بيت الفقيه، وكان آنذاك مركزا لتجمع تجارة البن في اليمن ، ومنها تفرقوا في شتى أنحاء اليمن كل في حقل اختصاصه ، فتجول نيبور في إقليم تهامة ،وصعد فورسكال إلى الهضبة ليجمع النباتات ، وكان قد حاول عبثا الصعود إلى الجبل المشهور (صبر) ، وأوغل الآخرون في الداخل . وعادوا في بداية الصيف ليلتقوا جميعا في بيت الفقيه ثم المخاء ميناء اليمن . وأصيبت البعثة بوفاة الأستاذ فون هافن متأثرا بحمى المناطق الاستوائية . وكان يعتبر من أعلى رجال البعثة مكانة وأكثرهم علما بالعربية .

وقررت البعثة الإقامة في المرتفعات حيث المناخ أكثر ملاءمة واتخذوا من تعز مقرا لهم ، وتلقت البعثة دعوة من إمام اليمن آنذاك العباس المهدي (١١١٦- ١١٩٠هـ) ١٧٤٧-١٧٧٦ م لزيارته في العاصمة صنعاء . وفي الطريق إلى صنعاء مات عالم النبات فورسكال بسبب متاعب السفر . ولما وصل بقية أعضاء البعثة صنعاء أحسن الإمام وفادتهم ، وبقوا فيها عشرة أيام ، ثم عادوا بعدها إلى المخاء حيث استقلوا سفينة تنقلهم إلى بومباي ، وفي عرض البحر مات الرسام باورن ثم الخادم . وبعد أن وصلت البعثة بومباي بأيام قليلة لحق بمن مات من البعثة الطبيب كارل كرامر ، فبقي نيبور المساح وحيدا . وهو موقف أليم ، ولكنه قرر مواصلة المهمة ، وعاد إلى كوبناهجن في ٢٠ نوفمبر عام ١٧٦٧ بعد أن غاب عنها ما يقرب من سبع سنوات ، وكان الملك فريدريك الخامس قد مات ولكن الوزير برنشتوف قدمه إلى الملك الجديد فوجد منه من

الرعاية ما شجعه على كتابة قصة تلك الرحلة المثيرة في الجزيرة العربيـــة ، وخاصـــة العربية السعيدة (اليمن).

نيبور :

على الرغم من موت أربعة من أعضاء البعثة الخمسة فإن هذه الرحلة قد نتجت عنـها فوائد علمية لا يستهان بها . إذ كان من محصلتها مذكرات ودراسات هامـــة قدمـــت إلى أوربا لأول مرة تعريفا مفيدا لتلك البلاد الشرقية النائية وخاصة اليمن . وتتمثـــل هـــذه المذكرات بما يلي :

١- الجزء الأول من مذكراته : قصة الرحلة من كوبنهاجن إلى بومباي .
٢- مذكرات فورسكال في النبات .
٣- رسوم باورن فايند للنبات والطيور والأحياء المائية .
٤- الجزء الثاني من مذكرات نيبور .

وقد قام نيبور بجمع كل هذه المذكرات ونشرها في كتاب ضخم باللغة الألمانية بعنـوان (وصف بلاد العرب **Beschreibung von Arabien , Kopenhagen (1772)**) ووصف فيـه الرحلة ، وما زال الكتاب يعتبر حتى اليوم من أحسن المراجع عن اليمـــن . فـــإن جميـــع الباحثين الذين زاروا اليمن بعد نيبور يتفقون على الإعجاب بملاحظاته الجغرافية الدقيقـة ، وبالخارطة المفصلة التي وضعها عن الأماكن المجهولة في هذه البلاد . وقد ترجم الكتـاب إلى الفرنسية في العام الثاني ، وأعيد طبعه مستكملا بالألمانيـــة ســـنة ١٧٧٩ ، ثم ترجـــم إلى الإنجليزية في سنة ١٧٩٢م . إن نيبور نفسه لم تساعده الظروف على استنساخ النقـــوش ، ولكن إليه يرجع الفضل في توجيه أنظار الباحثين بعده إلى هذه النقـــوش الـــتي يســـميها (حميرية). وهو أول عالم أوروبي شاهد هذه الكتابات اليمنية القديمة ، إذ جاءه أثناء مرضـــه في المخا تاجر هولندي – كان قد اعتنق الإسلام – ببعض الألواح التي كتبت بخـــط مـــعروف.

وإليك ملاحظاته عليها : "لا شك في أنه يمكن العثور على كتابات حميرية في المناطق الجبلية بين تعز وصنعاء وتهامة . ولما كنت عندما أراني الهولندي المسلم الكتابة الموجودة لديه ، في حالة من الحمى ، أستعد للموت عوضا عن الاهتمام بجمع كتابات مجهولة ، فقد ضاعت علي فرصة استنساخ تلك الألواح . وإذا كانت الذاكرة لا تخونني فإن حروف تلك الكتابة كانت مؤلفة من خطوط مستقيمة "(١٠) وبما أن العلماء قد حصلوا حتى الآن على آلاف من الأحجار المكتوبة بهذه (الخطوط المستقيمة) ، فليس هناك من شك في أن الكتابة التي شاهدها نيبور وهو طريح الفراش ، كانت (حميرية) حقا .

وكان نيبور يسجل في مذاكرته ما يصادفه من مشاهد وآثار ، فقد وصف في كتاباته مدينة صنعاء وصفا رائعا . واهتم بقصر الأئمة الذي حوله الأتراك إلى مستشفى عسكري لجنودهم ، وضاحية بير العزب بمساكنها وحدائقها المتناثرة ، وحي اليهود ، وضاحية الروضة التي تبعد عدة كيلو مترات شمال العاصمة وسط سهل خصيب منبسط يشبهه نيبور بسهل دمشق .

وبفضل البعثة الدانماركية اتجهت أنظار رجال العلم في الغرب إلى الكنوز التي يمكن اكتشافها بين آثار بلاد العرب الجنوبية . وفي الحقيقة قد ظهر كثير من الباحثين الذين اقتدوا بالبعثة الدانماركية وأخذوا يسعون إلى التنقيب عن الألواح الكتابية التي تكلم عنها نيبور . ولذلك يمكن اعتبار هذه البعثة فاتحة الدراسات العلمية عن بلاد العرب الجنوبية ..

سيتزن A. J. Von Seetzens :

في صيف سنة ١٨١٠ (تقريبا ١٢٤٠هـ) – أي بعد البعثة الدانماركية بمدة نصف قرن –

(١٠) Niebuhr C., Beschreibung von Arabien, Kopenhagen (1772) P. 95.

سافر المستشرق الألمـــاني الدكتـــور أورليـــخ جيســـبار فـــون ســـيتزن – إلى ميناء الحديدة للبحث عن الألواح الكتابية التي ذكرها نيبور . وأخذ لهذه الغاية يتوغل في داخل البلاد على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية . فقد كان الإمام المتوكل أحمـــد بـــن المنصور علي بن المهدي الصنعاني يشن عدة حروب ، منها حرب بينه وبين بكيل ، ومنها خروجه بجنده إلى بني الحارث ، ومنها حروب الروضة لمّا خرج أهلها عن الطاعة . وانطلق من الحديدة إلى بيت الفقيه وزبيد وكسمه وصنعاء بحثاً عن النقوش الغريبة التي أشار نيبور إليها . وبالفعل عندما وصل إلى ظفار خلال عودته من صنعاء إلى عدن عثر علـــى الآثـــار القديمة ونسخ نصوصاً قصيرة من منكت ، ثم واصل المسيرة إلى المخاء ، على أنـــه كـــان يحمل معه أيضاً بعض الأفاعي والحشرات منقوعة في الكحول فشاع عنـــه بأنـــه يشـــتغل بالسحر . وهكذا فإنه لما استأنف رحلته إلى الداخل ضاع أثره . فقال بعضهم إنه قتل مـــن قبل البدو قرب مدينة تعز ، بينما يروي آخرون أنه وصل صنعاء ، وإن الإمام هو الـــذي أمر بدس السم له في الطعام . وهكذا فقدت مذكراته وتبعـــثرت، وإن انتقلـــت صـــور النصوص التي عثر عليها إلى عالم النور بعد أن أرسل بصورها إلى أحد مشـــجعيه وكـــان يرأس تحرير مجلة للدراسات الجغرافية والفلكية حيث جرى نشرها في العام نفسه . وكانت على الرغم من بساطتها وصعوبة قراءتها بداية متواضعة لفتح الطريـــق أمـــام الدراســـات اليمنية[١١] .

ولستد وكروتندن J. R. Wellsted & Charles J. Cruttenden :

إن عاقبة سيتزن لم يكن من شأنها أن تشجع العلماء على القيام برحلات جديدة إلى اليمن . وظـــل الأمـــر كذلـــك مـــدة خمـــس وعشـــرين ســـنة ، إلى أن انفســـح المجال أمام عدد من رجال البحر البريطانيين منذ النصف الثاني من القرن الثـــامن عشـــر وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان منهم من شجعتهم المهام الحربية التي

(١١) نشرت في : Fundgruben des Orientes II, Wien (1811) P. 275.

كلفوا بها في البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى أن يتتبعوا – عفوا أو قصدا – ما مروا به من مواقع الحضارات العربية القديمة . وهكذا شاهد الطبيب المساعد هـ.ت. كارتر أطلال ميناء روري في عام ١٨٣٣ ونبه إلى نصوصها القديمة. ووجه الكابتن ج.ر. ولستد (ورفيقه القبطان س.ب هاينس S. B. Hainss) الأنظار إلى آثار القصر والحصن القديم حول ميناء قنا والمعروف في النقوش باسم (م و ي ت) CIH621/71; CIH728/2 والذي يسمى اليوم (حصن الغراب) والمبني على صخرة عظيمة سوداء . ومعروف أن قنا كان الميناء الرئيس لليمن القديم . وقد ذكر اسم الميناء في عدة نقوش كـهجر منها : RY 533/4,8; CIH728/2; Ja632/3 وهو الميناء المعروف اليوم باسم بير علي وبعد أن نسخ ولستد بعض نقوش الحصن في عام ١٨٣٤ قام بنشرها ، واعتبرها قريبة الصلة بالنقوش الحبشية التي بدأ ظهورها هي الأخرى في عالم الاستشراق ، ويعد النقش الموسوم CIH621 والمشهور بين علماء الدراسات اليمنية القديمة باسم نقش حصن الغراب، من أهم النقوش التي نشرها ، إذ أن النقش يؤرخ لأهم فترة من فترات الحضارة اليمنية القديمة، ألا وهو العام ٦٤٠ حسب التقويم الحميري ، أي سنة ٥٢٥ بعد الميلاد ، وهذه المرحلة هي التي شهدت سقوط الحضارة اليمنية القديمة .

ثم عاد في عام ١٨٣٥ فنبه وزميله كروتندن إلى آثار حصن نقب الهجر أو حصن مدينة ميفعة الواقعة في وادي حضرموت والتي جاء ذكرها في عدة نقوش حضرمية منها : RES 2687/4, RES 3869/3, RES 2640/1 والتي تعد العاصمة الجنوبية لمملكة حضرموت ، ثم سجل ملاحظاته عن خصب وادي حضرموت ، وكانت هذه الاكتشافات أول سجلات أثرية تعرف عن الحضارة العربية الجنوبية في حضرموت(١٢) .

---

(١٢) - Wellsted J. R., Travels in Arabia I, London (1838) P. 426-434.
Account of same inscriptions in the Abyssinion character, found at Hassan Ghorab, near Aden, on the Arabian coast, Journal of the Asiatic Society of Bengal (Calcutta), III (1834) P. 554-556.

وقام الضابطان البريطانيان هلتون **Hulton** وكروتندن في صيف سنة ١٨٣٦ برحلــة من المخاء إلى صنعاء . وقد مرض هلتون من مشاق السفر ومات في طريق العــودة ، ولكــن كروتندن استطاع أن ينشر نتائج هذه الرحلة التي عثر فيها على خمسة نصوص ســبئية ، مضيفا بذلك جهدا لاستكمال حل رموز خط المسند ، وذلك في مقالتين نشــرهما عــام ١٨٣٨ عن مغامراته في صنعاء(١٣).

ونسخ هاينس **Haines** نصا من عدن أعلن عنه عام ١٨٤٢ ، كمــا أعلــن بــيرد **J. Bird** عام ١٨٤٤ عن خمسة نصوص اشتريت من عدن(١٤).

هذه الرحلات قد برهنت على أن هناك وراء الشواطئ الرملية القاحلة في جنوب بــلاد العرب أراض زراعية خصبة واسعة كانت قديما مركزا لحضارة راقية .

قراءة النقوش :

وخلال هذه الحقبة من الزمان ، وبناء على ما دخل المتاحف الأوروبية والمجموعات الخاصة من النصوص العربية الجنوبية ، بدأت الدراسات العلمية لحل رموز الكتابات التي عرفــت

---

(١٣) -Cruttenden C. J., Narrative of a Journey from Mokho to San'a by Tarik eshsham, or Northern Rout, in July and Agust, 1826, Journal of the Royal Geographical Society, 8 (1838) P. 267-289.
Journal of an Excursion to San'a, the Copital of the Yemen, Proceedings of the Bombay Geographical Society, Sept-Nov. (1838) P.39-55,

(١٤) - Bird J., Hamaiyaric Inscriptions from Aden and Saba, Translated In to English, With Observations on the Establistment of the Christian Faith in Arabia, Journal of the Bomboy Branch of the Royal Asiatic Society, VIII (Oct. 1844), P. 30-40
- Haines S. B., Ancient Inscription found at Aden, Journal of the Asiatic Society of Bengal, XI (1842), P. 958-959.

حتى ذلك الوقت . وتتضح الصعوبات التي واجهت العلماء لحل رموز خط المسند إذا ما عرفنا أن النصوص التي استنسخها سيتزن من ظفار وأرسلها إلى أوربا نشرها م. لاينس M. Lanci ١٨٤٠ على أنها نصوص كوفية[١٥] . وتقدمت الدراسات بشكل سريع بجهود العالمين الألمانيين جزينيوس H. F. Wilhelm Gesenius وروِدجر Emil R. Rodeger الذين نشر أولهما عام ١٨٤١ في مدينة هاله بحثا في اللغة الحميرية وحل رموزها Himjaritische Sprache und Schrift und Entzifferung dr Letzter . وفي نفس العام نشر الثاني وهو تلميذ جزبنيوس في مدينة هاله أيضا دراسة بعنوان : (محاولة في اللغة الحميرية) Versuch uber himjarischen Schriftmonumente.

ثم نشر بعد عام واحد نتائج رحلة ولستد باللغة الألمانية (هاله ١٨٤٢) . بديهي أن هذين العملين لم يكونا مكتملين ، إذ لم يصل إلى أيدي الباحثين حتى ذلك الوقت سوى ثلاثة عشر نقشا فقط ، وإن كانت ترجمة وتفسير الأستاذ رودجر صائبة إلى حد بعيد . هذا ولم يكن يعلم كل من جزينيوس وروِدجر أن الآخر يعمل في نفس الاتجاه ، أي محاولة حل رموز خط المسند . واستعان كلاهما لدراسة خصائص خط المسند بالحروف الحبشية وغيرها من الكتابات السامية .

ومما ساعد كثيرا في تقدم هذه الدراسات ، الاكتشافات التي قام بها في سنة ١٨٤٣ الرحالة الألماني أدولف بارون فون فريده Adolf Baron Von Frede الذي اكتشف لأول مرة نقوشا حضرمية ، والصيدلي الفرنسي توماس أرنو ، وكان لتشجيع فلوجانس فرسنل F. Fresnel القنصل الفرنسي في جدة الفضل في رحلة فون فريده . فقد توغل من ميناء المكلا عام ١٨٤٣ باتجاه الشمال – الغربي في داخل حضرموت ، واجتاز هذا الرحالة الشجاع الصحراء الواسعة ذات االرمال المتحركة المعروفة باسم البحر الصافي ، أو صحراء

---

١٥) Lanci M., Trattato della Sepolcrali iscrizioni in Cufica tamurea enischia lettera da Maomettami Operate [Lucca] (1840), 190 u., af. 32, A3.

الأحقاف في شمالها ، وعثر في وادي عوين على جدار أثري نقش عليه نص . ثم زار وادي عمد ، وكان سيء الطالع ، فإلى جانب المشاق التي كابدها حتى كاد يقتل في حضرموت حينما كشف أمره كأجنبي متنكر في ثياب مسلم يبغي زيارة قبر النبي هود عليه السلام ، شك بعض مواطنيه في صحة تقريره من رحلته بعد عودته إلى بلده ، فانطوى على نفسه واختفى عن العيان، وإن اعترف بجهوده الرحالة أرنو الفرنسي والقبطان هاينس البريطاني ، ثم نشر البارون هـ. مالتزن M. F. Maltzan قصته وخرائطه في عام ١٨٧٠ بعد عشر سنوات من وفاته ، وأثبتت دراسات القرن العشرين صحة بعض ما أتى به عن رحلته إلى جانب بعض آخر زيفه أو سمعه من غيره ولم يحققه[١٦] .

أما توماس آرنو Thomas J. Arnaud فقد كان صيدليا وهاويا للدراسات الطبيعية والآثار الحضارية . وقد عمل في خدمة محمد علي في مصر وجدة وعسير ، وكان قد وجد التشجيع على الارتحال من القنصل الفرنسي في جدة فرسنل ، الذي ظل دؤوبا على تزكية ما ينمي المعرفة بشبه الجزيرة وآثارها . واستطاع أرنو أن يكتسب صداقة المشائخ والزعماء بما قدمه لهم من أدوية وعقاقير لمعالجة بعض الأمراض ، وقد مكنه ذلك من التنقل بحرية في اليمن ، فزار الجوف وبقايا آثار سد مأرب، كما مكث مدة في صنعاء ، وصراوح المعروفة بأثارها القديمة ، واستطاع أن يصور قرابة ستة وخمسين نقشا من النصوص القديمة . وجدير بالذكر هنا أن نقول إن آرنو وصل إلى صنعاء بصفته طبيبا مرافقا لبعثة تركية رسمية من العسكريين، وهناك انفصل سرا عن الأتراك وقام برحلة إلى الشرق من صنعاء لأجل الوصول إلى مأرب. وكانت طريق القوافل بين صنعاء ومأرب وعرة جدا ومحفوفة بكثير من الأخطار . فاتفق آرنو مع أحد رجال القوافل مقابل مبلغ من المال على أن يوصله إلى مأرب. وقد قطع الطريق على ظهر الإبل في ستة أيام ، واستطاع أن يحصل على إذن من .

---

(١٦) Maltzan Heinrich von, Adolf von Wredes Reise in Hadhramaut Beled - Beny Yssa und Beled el-Hadschar, Herausgg. mit einer Einleitung,Anmerkungen und Erklarung der Inschrift von Obne versehen von Heinrich, Freiherr von Maltzan, Braunschweig (1870).

أمير مأرب بزيارة الآثار القديمة هناك . سجل آرنو مشاهداته كتابة ورسما عن سد مـــأرب ومعبد الإله المقه ، المعروف من النقوش باسم أوام ، ويسميه السكان اليوم محرم بلقيــس . وفي طريق العودة مرت القافلة بالقرب من مكان يسمى خربة (أصله في طرف بـــلاد آل جناح وهو أحد أودية بلاد آل جناح يحده من الشرق جبال آل جناح ومن الغرب ماهليـة وقبيلة السعاترة ، أما من الجنوب فتحده معشرة ومن الشمال جبل العمري . وتوجد فيــه بعض أطلال قصور ، وتقع على جوانب واديه ، ولا توجد منطقة باسم خربـــة في لـــواء مأرب غير هذا الوادي) حيث توجد آثار قديمة. فتسلل صاحبنا في الليل مع رفيقه اليمـــني وسبق القافلة إلى المكان وقام باستنساخ بعض النقوش التي استطاع تمييزها علـــى ضـــوء الفجر . وقد ظهر من قراءة هذه الكتابات فيما بعد أنها تذكر تأسيس مدينة صرواح ... ثم أسرع إلى اللحاق بالقافلة وعاد إلى صنعاء . وفي الطريق من هناك إلى شاطئ تهامة مـــرض آرنو بسبب مشاق السفر والأمطار المتواصلة وضعف بصره في أعقاب رحلته . علـــى أن وصف رحلته والنقوش التي استنسخها من صنعاء وصرواح ومأرب قد وصلت كلـــها إلى القنصل الفرنسي فرسنل الذي اعتنى بها وقام بنشــــرها في المجلـــة الآســـيوية **Journal Asiatique** عام ١٨٤٥ والتي لم يكن من الممكن، حسب تطور العلم – في ذلك الوقـــت – قراءتها بعد. وكانت هذه المرة الأولى التي استخدمت فيها المطابع حروف المســند . وفي عام ١٨٤٧ نشر جون ولسون **Jan Wilson** النقوش التي نقلها القبطان البحري هـــلينس من عدن إلى جانب النقوش التي نقلها الدكتور ماكل **Mackell** من صنعاء . وبعد عقــــد من الزمن نشر العالم الألماني أرنست أوسيندر **Ernst Osiander** (عام ١٨٥٦) دراســـة بعنوان " حول النصوص الحميرية " مع بعض قواعد هذه اللغة[١٧]

وبنشر هذه الوثائق الأصيلة قد تم وضع حجر الأساس للدراسات العلمية عن آثـــار وتاريخ اليمن القديم .

---

(١٧) - Osiander Ernst, Uber die himjarischen Inschriften, Zur himjarrischen Alterums und Sprachkunde, ZDMG 10 (1856), P.17-73 vgl. auch ZDMG 17(1863), P. 795-796.

اكتشافات متفرقة :

وحوالي عام ١٨٦٠ استطاع الضابط الإنجليزي كوجلان Cogllan أن يشتري خمس وعشرين لوحة برونزية نفيسة ،وهي التي تحمل الأرقام من ٧٠ - ٩٦ في CIH ، واشترى أيضا تمثالا صغيرا ، كما وصلت إلى المتحف البريطاني بعض الحجارة والنقوش من مارب. وجميع هذه الألواح -ما عدا واحدة - قد أخذت من معبد قديم في مدينة عمران الواقعة شمال غرب صنعاء، وهي تتضمن "وصايا وقفية " على الإله المقه ، وتفيدنا في معرفة الطقوس الدينية في تلك الأزمنة القديمة ، أما اللوح الآخر فإنه من مدينة شبوه في حضرموت ، وهو أيضا يتضمن "وثيقة إهداء" إلى الاله سين وترجع أهمية هذه الوثيقة إلى أنها تساعد على معرفة اللهجة الحضرمية القديمة[١٨] .

وأدت حصيلة الجهود المتفرقة في بلاد العرب ، شمالها وجنوبها ، إلى جانب غيرها من الدراسات اللغوية للمشرق العربي القديم ، إلى قرار " الأكاديمية الفرنسية للنصوص والآداب" في باريس في عام ١٨٦٩ م بإصدار مدونة النقوش السامية ، وقد خص الجزء الرابع للنقوش اليمنيةالقديمة **Corpus Inscriptionum Semiticarum** ويقع في ثلاثة مجلدات ، وكان ذلك كسبا للدراسات العربية القديمة بما ظهر فيها فيما بعد من بحوث عن النصوص اليمنية القديمة ، وذلك خلال الفترة من ١٨٨٩-١٩١١-١٩٢٩[١٩] .

---

(١٨) قارن :

Bardey A., Repport sur El-Yemen et partie du pays d'Hadramaut (Arabie) avec carte d'ensemble, Bulletin de Geographie historique et descriptive, No.1 (1899), P. 19-63.

(١٩) للتوسع في حركة الكشوف الأثرية قبل جلازر ، أنظر :

- Weber O., Forschungsreisen in Arabien bis Zum Auftreten Eduard Glaser, Der Alte Orient, VIII (1907).

رحلة هاليفي Joseph Halevy :

بعد أن قررت الأكاديمية الفرنسية للنصوص والآداب في باريس إصدار المدونة ، عهد إلى المستشرق يوسف هاليفي في سنة ١٨٦٩ بتنظيم رحلة إلى اليمن وجمع النقوش اللازمة لهذه المجموعة . وكان قد علم آنذاك أن يهوديا اسمه يعقوب سفير Yacob Saphir استطاع التجول في اليمن بالاندماج مع سكان البلاد اليهود . وفي الحقيقة فقد كان هناك في اليمن طائفة يهودية كبيرة ، حظيت بوضع خاص بعد الإسلام ، إذ كان يترفع المسلمون عن قتل يهودي أعزل من السلاح – وهو أمر كانت قد حرمت منه هذه الطائفة في فترة من فترات التاريخ – مثلما يأنفون من الاعتداء على امرأة أو طفل ، وقد مكن هذا الوضع اليهود بالتمتع بالحماية ، ولا يخاف أفرادها على حياتهم . وقد استفاد هاليفي اليهودي من ذلك ، فتزيا بزي اليهود الفلسطينيين وبدأ يتجول في الأنحاء النائية من البلاد يرافقه يهودي صنعاني يدعى حاييم حبشوش . فتنقل من صنعاء إلى منطقة الجوف وإلى نجران حيث أخذ رسوما لآثار مدينة نجران القديمة المعروفة عند الرومان باسم Nagra Metropolis التي ورد ذكرها في CIH 363/1,2,RES 3943/3 (و ك ل / أ هـ ج ر / ن ج ر ن) وكل مدن (وادي) نجران. ثم عاد عن طريق مأرب وصرواح إلى صنعاء. ويروي هاليفي أنه تحمل كثيرا من المشاق والمتاعب في هذه الرحلة لأن السكان كانوا يحتقرونه ويرون اهتمام يهودي مثله بآثار بلادهم وتاريخ أجدادهم تطفلا مزعجا.

ولاننسى أن اليمنيين ينظرون إلى هذه الآثار القديمة نظرة إجلال ممزوجة بالخوف. فهم يعتقدون بأن الأبنية القديمة العظيمة التي ترتفع أطلالها بين الرمال إنما قام بتشييدها الجن ، وإن اقتراب الكفار منها ولمسهم لها واستنساخهم لنقوشها يجلب الكوارث على البلاد. ولذلك كثيرا ماكانوا يعتدون على هاليفي ويشتمونه ، ولكنه تحمل كل الإهانات واستطاع أن يعود سالما إلى فرنسا ومعه (٦٨٦) نقشا قديما قدمها إلى المجمع الفرنسي. وقد تبين أن هذه الكتابات لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت عدا (١٥) منها.

كان هاليفي قد استنسخ النقوش من (٣٧) موضعا مختلفا ، ثم قام نفسه في سنة ١٨٧٢ بنشرها مع مذكرات عن رحلته في المجلة الآسيوية ،وشفعها في السنوات التالية بدراسات تحليلية للنصوص الجنوبية المعروفة حتى وقته. كما نشر مقالا في عام ١٨٧٧ عن رحلته إلى نجران[٢٠] . ويعتبر هاليفي أول أوربي نجح بعد عهد اليوس جاليوس الروماني منذ عام ٢٤ ق.م. في قطع الطريق من نجران حتى منطقة الجوف الجنوبي.

إن رحلة هاليفي هذه لها أهمية علمية كبيرة، فهي قد ساعدت العلماء على معرفة الشيء الكثير عن حضارة اليمن القديم ولغة سكانها بالاستناد إلى الكتابات المتنوعة التي استنسخها ونشرها. إن أطلال المدن الكثيرة والأبنية الضخمة التي كشف عنها على ضفاف وادي الخارد في الجوف بالشمال الشرقي من صنعاء ، تدلنا على أن هذه البلاد قد بلغت في القديم درجة عالية من الحضارة ، وبعد دراسة النقوش التي عثر عليها في هذه المنطقة تبين أنها من آثار مملكة معين وأنها كتبت بلهجة المعينيين في حين أن النقوش التي أكشفت من قبل يرجع أكثرها إلى مملكة سبأ، وبعضها إلى مملكة حضرموت.

وبين الآثار التي اكتشفها هاليفي أطلال حصون ضخمة وبقايا أسوار عظيمة ترتفع بينها الأبراج العالية . وفي الدرجة الأولى عثر على كثير من المعابد التي تزينها الأعمدة والأنصاب. ومن أطلال المعابد الكبيرة التي يذكرها هاليفي تلك القائمة في

---

(٢٠) Halevy J., Vayage au Nedjran, Bulletin de la Societe de Geographie: I, 6 Serie, t.6 (1873), P. 5-31, 249-273, et 581-606; II De Sana au Nedran, 6 Serie, t13 (1877) P. 466-479.

وقد نشر جويتين S.D. Goitein، مذكرات حشوس :

Travels in Yemen, Jerusalem (1941).

وقارن أيضا :

Philby H. St. J. B., Halevy in the Yemen, The geographical journal, CTI, July to December (1943) P. 116-124.

مكان مرتفع يقال له براقش ، وقد ظهر أنه كانت هناك في القديم مدينة عظيمة تسمى يتل، وهي التي ورد ذكرها في عدة نقوش معينية كهجر مثـــــل: RES2952/2a,RES2965/1 وسبنية مثل : CIH609/4,RES4658/5,Ja619/9 إلخ ! كما جاء ذكرها لدى استرابون كـــ(أترولا Athroula) وكـــ(أتولولوي Athlouloi) لدى بلينيوس . أما الهمداني فإنـــه لايعرف هذا الاسم القديم ، وعوضاً عنه يستعمل الاسم الذي مازلنا نستعمله حتى اليـــوم وهو"براقش". وتقع مدينة يثل على حافة وادي فرضان شمال قرية خربـــة درب الصـــبى وجنوب غرب قرية الخلق .

على أن أعظم مدينة زار (هاليفي) أطلالها هي التي يطلق عليها الآن اسم (معين)، أما اسمها القديم ، عندما كانت عاصمة لمملكة معين ، فهو "قرناو" التي ورد ذكرها في عدد من النقوش المعينية كهجر RES2774/2 , RES2945/2,RES3012/9 .

وقد زار هذا الموقع الأستاذ محمد توفيق واكتشف فيه سوراً مستطيل الشكل وقصـــراً يسمى (يفش) . وقد بنيت (قرناو) على تل اصطناعي يبلغ ارتفاعه (١٥ م) عـــن ســـطح الوادي ، وعلى هذا التل باتجاه غرب – شرق يظهر المسقط الأفقي لأساسات سور المدينـــة بأبعاد ٤٠٠×٢٥٠ م ، ويبدو أن الغرض من بناء التل الاصطناعي هو حماية المدينة مـــن الفيضانات التي كانت تحدث في موسم الأمطار في وادي الخارد . وقد بلغ حجم الحجـــارة التي استخدمت في بناء السور حوالي ١,٥ متر مكعب ، وهي حجارة أو صخور جيريـــة جلبت من بعد حوالي ٥٠ كم من العاصمة قرناو . وفي الناحية الشمالية الشرقية وعلـــى بعد ٧٥٠ متراً خارج السور تم اكتشاف المعبد المستطيل الشكل "رصفـــم – ر ص ف م" ويظهر أن قارناو قد استمر فيها السكن حتى القرن الثاني عشر الميلادي .

حركة الكشوف أثناء الحكم العثماني :

حدث بعد رحلة (هاليفي) تغير ملموس في وضع اليمن السياسي إذ استطاع العثمانيون أن يمدوا نفوذهم إلى داخل البلاد حتى استولوا على صنعاء عام ١٨٧٢م. على أن سيطرة الأتراك العثمانيين قد اقتصرت في الحقيقة على صنعاء التي أرسلت إليها حكومة اسطنبول حامية عسكرية ، كما خصص قسم من الجنود لحراسة الطريق بين صنعاء والحديدة. أما بقية أنحاء اليمن فقد صارت تابعة للدولة العثمانية بالاسم فقط ، لأن سلطة الوالي في صنعاء لم تكن تتعدى مسافة بضع كيلو مترات حول المدينة . وقد ظل السكان ينظرون إلى الحكم العثماني كنير أجنبي بغيض . وكانت الحكومة العثمانية مضطرة إلى إرسال الحملات العسكرية دون انقطاع لتستطيع إخضاع القبائل الثائرة وجباية الضرائب من السكان . وهكذا فقد ظلت الأماكن التي تحتوي على الآثار القديمة يصعب الوصول إليها في عهد الحكم العثماني كما في السابق . ولم يكن علم الآثار ليستفيد شيئاً مذكوراً من الأشخاص الذين كان يسمح لهم بالتجول في البلاد تحت حماية الجنود الأتراك لأن الجيش كان يهتم بأمور أخرى غير النقوش والقطع الأثرية .

لذلك فإن الرحلات التي قام بها المستشرق الألماني فون مالتزن H. Von Maltzen في الفترة ١٨٧٠-١٨٧١ ثم العالم الإيطالي مانزوني Manzoni بين سنة ١٨٧٧-١٨٨٠ بحماية السلطات العثمانية أحياناً والإنجليزية أحياناً أخرى لم تسفر عن اكتشاف نقوش جديدة . وإنما استطاع مالتزن أن يقوم بدراسة اللهجات العربية في جنوب الجزيرة وعلى الأخص اللهجة (المهرية) وهي التي يتكلم بها سكان مقاطعة (مهرة) في شرق حضرموت . وهذه اللهجة الحديثة كثيرة الشبه بلهجة حضرموت القديمة كما نجدها في النقوش ، بل يمكن القول إنها احتفظت بكثير من التعابير والصيغ القديمة بشكل عام .

على أن الموظفين الأتراك في صنعاء قد أخذوا يشترون من حين إلى آخر بعض الآثار

القديمة التي كان يأتي بها بعض رجال القبائل ، وقد اجتمع لديهم بذلك ما يقـــرب مـــن خمسين قطعة من الحجارة المنقوشة بالكتابات وكلها من العهود السبئية المتأخرة وضعــت في المتحف العثماني "تشينلي كوشك **Tchinili Kiosk** " باسطنبول.

إن اهتمام المحافل العلمية بآثار اليمن بعد رحلة هاليفي ثم حرص الموظفين الأتراك علـى شراء هذه الآثار كان من شأنهما أن تؤدي الى طغيان موجة عمياء علـى هـواة التحـف وتجارها في أوربا وأمريكا ، وشاعت بين الناس رغبة اقتنائها ، وانتشر من جراء ذلـك في كافة البلاد سماسرة الآثار يسلبونها آثارها ونفائسها بأسعار مغرية، مما شجع فئة من ابنـاء البلاد أن يقلدوا الكتابات والقطع القديمة ويبيعونها بأسعار باهظة إلى المتاحف ، وأخذ أبناء المدن والقرى ينقبون عن الآثار ليبيعوها الى هؤلاء التجار . وكان هؤلاء الناس أشد وطـأة على البلاد من الغريب وأعلم بخفاياها، ورب الدار أدرى بما فيها . وقد أتخموا بما صـدروه من الآثار متاحف البلاد الأجنبية، وأشبعوا نهم وجشع تجارها . ولكن الباحثين مـالبثوا أن اكتشفوا هذه الآثار التي كان قد تسرب بعضها إلى متحف اسطنبول، والبعض الآخـر إلى متحف اللوفر وبومباي . وقد أمكن معرفة التزييف عندما قرأت الكتابات فوجدت ناقصـة تتألف من جمل متقطعة على الرغم من أنها مكتوبة على حجارة أو لوحات ليس فيها شـيء من الكسر أو النقص . على أن هذه الكتابات المزيفة لاتخلو من قيمة "نسبية" لأنها تنقـل الينا مقاطع من نصوص أو أشكال حقيقية ... ومن الصعوبة بمكان أن تقدر مـا خسـرته اليمن من آثارها التي هوبت إلى الخارج .

رحلات جلازر Eduard Glaser :

لا جدال في أن أشهر الباحثين عن آثار اليمن القديمة هو المستشـرق النمسـاوي إدوارد جلازر الذي بدأ حياته العلمية بدارسة الفلك ، واشتغل مدة من الزمن في المرصـد الإمبراطوري – الملكي في فيينا ، إلى أن عهدت إليه أكاديميـة بـاريس في سـنة ١٨٨٠

بالذهاب إلى اليمن وجمع النقوش والآثار من هناك . وقد أراد جلازر قبل مباشرة هذا العمل أن يتقن التكلم بالعربية ويعرف عادات العرب وتقاليدهم ، فسافر لهذه الغاية إلى تونس ثم إلى مصر .

وبينما كان جلازر يتأهب هكذا لرحلته أقدم مستشرق شاب من فيينا أيضاً اسمه لانجر S. Langer على السفر إلى اليمن من تلقاء نفسه ، فوصل في سنة ١٨٨٢ إلى الحديدة بعد أن قضى مدة قصيرة في سوريا . وفي الطريق إلى صنعاء عثر قرب مدينة ضوران – آنس– على كتابة حميرية كبيرة ، كما اكتشف حول المدينة الصغيرة "ضاف" الأطلال والكتابات التي ذكرها نيبور ، والتي حاول سيتزن عبثاً الوصول إليها. وقد ورد ذكر ضاف كهجر في نقش Ja576/8,9 وما زالت تحمل نفس الاسم حتى اليوم ، وتقع في ناحية بلاد الروس شمال معبر وجنوب نقيل يسلح في قاع جهران . وبعد أن استنسخ لانجر هنالك (٨) نقوش ثم أربعة أخرى من صنعاء منعه الأتراك من التوغل في داخل البلاد وأعادوه إلى الحديدة، ولكنه سافر في زي عربي إلى داخل البلاد للتنقيب عن الآثار على مسؤوليته الخاصة . ويبدو أن القبائل قد اكتشفوا حقيقته بعد أيام قليلة فانتهزوا أول فرصة نزل فيها للاستحمام عند أحد الآبار فقتلوه ببندقيته . إلا أن النقوش التي جمعها ويبلغ عددها(٢٢) كان قد أرسلها قبل ذلك من عدن فنشرت في فيينا[٢١] .

في هذا الوقت وصل جلازر إلى صنعاء للتنقيب عن الآثار ، ولكن السلطات التركية منعته من التجول داخل البلاد خوفاً من أن تكون عاقبته مثل لانجر الذي ذهب ضحية العلم. فاضطر إلى الإقامة في هذه المدينة مدة من الزمن ، اتصل خلالها بكبار الموظفين الأتراك والأشخاص البارزين من السكان واكتسب صداقة بعضهم ، وبذلك استطاع أن

---

(٢١) Muller D.H., Sabaische Inschriften, endeckt und gesammelt von Siegfried Langer, ZDMG 37 (1883), P. 319-421.

ينال المساعدة اللازمة لتحقيق أهدافه العلمية ، فسمح له بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٨٤ بأن يرافق حملة عسكرية أرسلها الأتراك للاستيلاء على مدينة السودة – مركز الناحية المعروفة بنفس الاسم والتابعة لقضاء عمران– وقد استفاد جلازر من هذه الرحلة العسكرية فاطلع على حالة البلاد وعادات أهلها ، وتعرف على مشائخ القبائل الذين مهدوا له السبيل لزيارة الأماكن الأثرية في همدان وشبام كوكبان وعمران حيث استنسخ كثيراً من النقوش. ثم سنحت له فرصة نادرة بالوصول إلى أراضي حاشد ، وذلك أن القبيلتين الكبيرتين حاشد وبكيل اللتين ياتي ذكرهما كثيراً في النقوش كانت قد احتدمت الحرب بينهما منذ فترة طويلة وتوصل الوالي التركي إلى أن تقبل كلتاهما بوسطاته وحكمه . ولما تقرر إرسال وفد من صنعاء لعقد الصلح بين الطرفين انضم جلازر إلى أعضاء الوفد . وقد تعرض في هذه الرحلة عدة مرات إلى خطر الاغتيال . ولكن الحظ ساعده على النجاة، فاستطاع أن يحصل على أربعة أحجار منقوشة بالكتابات السبئية ، وأن يستنسخ (٢٨٠) كتابة أرسلها إلى أكاديمية باريس فنشرت في المدونة[٢٢] .

وفي سنة ١٨٨٥ عاد جلازر مرة ثانية إلى اليمن ، وقام على حسابه الخاص برحلة إلى المناطق الواقعة في الجنوب من صنعاء . وكان يهدف في الدرجة الأولى إلى الكشف عن الآثار التي ذكر نيبور بأنه شاهدها عند ذمار ويريم . وقد زار جلازر في هذه الرحلة عاصمة الحميريين القديمة ظفار ، وتقدم في اتجاه الشمال الشرقي حتى رداع ، واستطاع أن يستنسخ من هذه الأمكنة (١٥٠) نقشاً ، كما جمع (٣٧) حجارة منقوشة ، وهي التي انتقلت فيما بعد إلى حوزة المتحف البريطاني .

ثم قام جلازر برحلة ثالثة في سنة ١٨٨٧–١٨٨٨ وكان هدفه في هذه المرة زيارة مدينة مأرب عاصمة دولة سبأ القديمة . وللوصول إلى هذا المكان المحفوف بالأخطار تزيا

---

(٢٢) Muller D.H., Sabaische Inschriften, endeckt und gesammelt von Siegfried Langer, ZDMG 37 (1883), P. 319-421.

جلازر بزي الفقهاء المسلمين ، واستصحب معه بعض الأصدقاء من أهل اليمن ، وبينـــهم أحد الأشراف من مدينة مأرب نفسها . وقد لاقى في الطريق متاعب كثيرة قبل أن يبلـــغ المدينة التي أقام فيها مدة ستة أسابيع، تمكن خلالها من رسم مخطط لآثار السدود والأقنيـــة القديمة . كما استنسخ الكتابات المنقوشة على السدود وقام بمسح المعبد الخاص بإله القمـر . وعاد من هذه الرحلة بعدد من اللوحات والحجارة عليها نقوش سبئية ، وبكثـــير مـــن التماثيل والنقود التي انتقلت فيما بعد إلى متحف برلين . أما النقوش التي استنســـخها في هذه الرحلة فإنها تبلغ (٤٠٠) نقشاً تقريباً .

قضى جلازر بعد عودته إلى فيينا عدة سنوات في دراسة النقوش التي جمعها وفي تدويـن دراساته عن جزيرة العرب وآثارها وتاريخها .

وفي سنة ١٨٩٢ طلب إليه المجمع العلمي في براغ أن يسافر إلى اليمن للتنقيب عـــن الآثار ، ولكنه لما وصل هناك وجد الحالة السياسية مضطربة للغاية ، والثوارت قائمـــة في داخل البلاد على الحكم التركي . وكانت العاصمة صنعاء نفسها كأنها في حالة حصـــار ، فاضطر جلازر إلى اتباع طريقة جديدة في سبيل تحقيق أهدافه العلمية . وذلك أنه اتفق مـع بعض أفراد القبائل على أن يقوموا باستنساخ الكتابات من الأماكن التي يرسلهم إليها بعـد تدريبهم مدة من الزمن على هذا العمل (الاستنساخ). وقد نجحت هذه المحاولـــة بفضـــل الأجور العالية التي كان يدفعها . وكان رجال القبائل يتسللون بين ساحات القتال حـــتى يصلوا إلى الأمكنة الأثرية التي لم يكن أحد من الأوروبيين قد استطاع القرب منها قبلاً ، ثم يقومون في ظلام الليل باستنساخ النقوش . وهكذا حصل جلازر على كثير من النقـــوش السبئية بينها الكتابة الكبيرة من صرواح ، وصرواح ذكرت كهجر في عدة نقوش منـــها : CIH601/13,RES3951/4,Fa3/5 وهناك منطقتان غير هذه تحمل الاسم صـــرواح ، تقـــع الأولى شمال غرب ناعط في أرحب، والثانية في ناحية بني بهلول جنوب شرق صنعاء وشمال شرق غيمان . وهذا النقش الذي عثر عليه جلازر معروف لدى الدارسين باســـم نقـــش النصر والموسوم : GL 1000A, B=RES3954, 3946 هذه الكتابة التي ترجـــع إلى أقـــدم العهود المعروفة في تاريخ اليمن والتي يبلغ عدد كلماتها أكثر من ألف كلمة وفيها حوالي ٨٠ اسماً

لموضع وواد وقصر ونخل . فضلا عن نقشين يتحدثان عن انهيار سد مــأرب وإصلاحــه . وعدا ذلك فقد كان بين الكتابات ما يقارب من (١٠٠) نقش من مملكة قتبان ...

كان كتّاب اليونان القدماء يذكرون أسماء اربعة ممالك نشأت في جنوب جزيرة العرب وهي : سبأ وحضرموت ومعين وقتبان . على أن النقوش الكتابية التي عثر عليها البــاحثون قبل جلازر كانت تتعلق بالدرجة الأولى بمملكة معين وسبأ ، ثم ضمن نطاق ضيق بمملكـــة حضرموت . ولم يكن هناك سوى كتابة واحدة يرد فيها ذكر مملكة قتبــان واســـم أحـــد ملوكها، ولذلك اقتصرت دراسات المستشرقين حتى ذلك العهد على اللهجات الثـــلاث المعينية والسبئية والحضرمية . ولكن بعد أن جاء جلازر بالنقوش والآثار القتبانية اســتطاع العلماء معرفة الشيء الكثير عن هذه المملكة الرابعة ، وعن لهجة أهلها وحضـــارتهم . وفي الحقيقة فإن هذه الكتابات النقشية على الرغم من أنها لاتزيد على المئة تضمنت معلومـــات قيمة عن مملكة قتبان وحوادث تاريخها وشؤونها من مختلف أنحاء المملكة كما أنها ترجـــع إلى شتى العصور.

كذلك حصل جلازر في رحلته هذه التي دامت من سنة ١٨٩٢-١٨٩٤ على (٤٠) حجارة منقوشة وتماثيل متنوعة ، ومجموعة قيمة من النقود ،وطائفة من التحف الأخـــرى التي انتقلت كلها فيما بعد إلى المتحف الإمبراطوري-الملكي في فيينا.

وبالإجمال فإن رحلات جلازر المتعددة كانت على جانب كبير من الأهمية ، ومن المؤكـــد أن كشوفه كانت فاتحة عهد جديد في دراسة تاريخ وآثار العرب قبل الإسلام، وقـد زادت كثيراً من معلوماتنا عن اليمن القديم . وإذا رأينا بعض الكتاب يقارنون رحلاته في خطورتها الحفريات الأثرية التي تمت في بلاد ما بين النهرين وأدت إلى انقلاب أساســـي في معرفتنـــا بتاريخ البشرية ، فليس في ذلك أية مبالغة[٢٣] .

---

(٢٣) عن رحلات جلازر انظر . Weber. O. مصدر سابق ، وقارن .

-Komorzynski von., Zum hundertsten geburtsag des Osterreichischen Forsungsreisenden Dr. Eduard Glaser, ostrr. Lehrerzeitung (1955) no 5, P. 83-851, EduardGlaser, in:Grosse Osterreicher (Neue Osterr. Biographie ab 1815), 10 Wien (1957) P. 96-106.

وأثناء رحلة جلازر الأخيرة إلى اليمن (١٨٩٤) بدأ تيودور بنت T. Bent وزوجته رحلتهما الاستكشافية . وقد سجل عدداً من الملاحظات الأثرية الهامة في حضرموت وظفار عمان[٢٤] . وكان أول من اكتشف أطلال مدينة (يحا) في الحبشة وصور معبدها السبئي ونقل عدداً من النقوش العربية الجنوبية من هناك[٢٥] .

بعثة المجمع العلمي النمساوي :

وقد شجع نجاح جلازر المجمع العلمي في فيينا فأرسل في سنة ١٨٩٨ بعثة جديدة تحت إشراف الأستاذ موللر D.H.Muller والكونت لندبرج C. Landberg وسافرت البعثة على ظهر باخرة سويدية استأجرها المجمع لهذه الغاية خاصة . ولكن عندما وصلت البعثة إلى عدن منعتها السلطات الإنجليزية هناك من التوغل في داخل البلاد بحجة أنها لم تكن قد أخبرت حكومة لندن عن هذه الرحلة ، ولم تحصل على موافقتها من قبل . فاضطر اعضاء البعثة إلى استئناف السفر بمحاذاة شواطئ حضرموت ، وبعد أن فشلوا في محاولتهم لزيارة شبوه ، اكتفوا باستنساخ الكتابة الموجودة في نقب الهجر ، وهي التي ذكرها ولستد ، ثم نقش حصن الغراب .

وفي سنة ١٨٩٩ انتقلت البعثة إلى جزيرة سقطرة لدارسة اللهجة السائدة هناك، وقد ذكرت الجزيرة في نقشين حتى الآن هما : CIH621/6,BR-Yanbuq 247/5 .

ونشر أعضاء البعثة فيما بعد دراسات عن اللهجات الحديثة في المهرة وسقطرة التي احتفظت بعناصر من لغة اليمن القديمة ، والتي تساعدنا اليوم في فهم هذه اللغة[٢٦] .

---

(٢٤) - Bent J. T. and Mrs., Sauthern Arabia, London (1900), P. 129-144.

(٢٥) - Bent J. T., The Sacred City of The Ethiopians, London (1893), P.P. 134,

(٢٦) - Landberg C., Die Expedition nach Sudarabien, Bericht an die K. Ak. d. Wiss. Wien, Munchen (1899). 164,192 .

وانفتحت أبواب حضرموت أمام هيرش **Leo Hirsch** الذي زار آثار الحوطة وشبام التي جاء ذكرها في عدة نقوش كهجر ، منها : **Sh32/17,Ir32/25,26**. وكان يكتب (ش ب م) تميزاً لها عن شبام سخيم (شبام القصة ، شبام الغراس ، شبام بني حشيش) إذ كان اسم هذه الأخيرة يكتب بميمين أي (ش ب م م) في النقوش كما في **RES3991/8,RES4233/11** إلخ . وهناك شبام ثالثة تعرف في النقوش بشبام أقيان (**RES3945/15**) وهي شبام كوكبان أو شبام يعفر ، كما نعرف من النقوش شبام رابعة (**Masnat Mariya7**) وهي شبام حراز ، شبام هوزن ، شبام مسار الحالية . كما زار هيرش هجر تريم (**Ir32/3h32**) وتمكن بيوري **G.M.Bury** عام ١٨٩٩ من الوصول إلى بيحان ، ونقل من هناك عدداً من النقوش القتبانية والسبئية ، فضلاً عن وضعه لرسم تخطيطي للعاصمة القتبانية (تمنع) كما قام بتنظيف أحد أبواب المدينة[٢٧] . وفي نفس العام أيضاً (اي عام ١٨٩٩) قام باردي **A.Bardeys** برحلته إلى بلاد العرب الجنوبية ، وزار حضرموت ، وعثر على ستة نقوش ، ونقل معلومات أثرية مفيدة[٢٨] . وبعد سبعة سنوات (١٩٠٦) تمكنت بعثة أثرية ألمانية برئاسة ليثمان **E.Littmann** ليس فقط من دراسة أطلال (يحا) التي اكتشفها بنت ، بل درست أيضاً المواقع الأثرية الأخرى التي خلفها عرب الجنوب على الهضبة الحبشية في (أكسوم) ، (قوحيتو) ، (مطره) إلى جانب النقوش اليمنية القديمة هناك[٢٩] . وفي عام ١٩١١ اكتشف الكابتن شكسبير **W.H.Shakespear** شاهد قبر عليه كتابات يمنية قديمة ، وذلك بين أطلال مدينة تاج الواقعة جنوب شرق الكويت[٣٠] .

---

(٢٧) - Rohdokabakis N., Die Inschrifteu an der Mauer von Kahlan-Timna, (SBAWW 200/2. Abh.), Wien(1924), P.4 Abb. 1,2.

(٢٨) - Bardeys A., Repport sur El Yemen et partie du pays d'Hadramaut (Arabie) avec carte d'ensemble, Bulletin de geographie historique et descriptive, no.1 (1899), P. 19-63.

(٢٩) - Littmann E., Deutsche Aksum Expedition, I-IV, Berlin (1913).

(٣٠) - Carruthers D., Captain Shakespear's Last journey, the Geographical Jouranl 59 (1922), P.P. 321-334, 401-418.

وتمكن المبشر الدانماركي المشهور أولف هوير O.Hoyer عام ١٩١٤ من تصوير ونقل عدد من النقوش اليمنية القديمة، ونقل زوج ابنته جاكوب Jacob عدداً من القطع اليمنية إلى دلهي بالهند(٣١). وجمع الألماني بوركهات H.Burchardt عدداً من النصوص والآثار والصور القيمة فيرحلته الثانية (١٩٠٩) إلى جنوب بلاد العرب(٣٢).

تقدم الدرسات في حضارة اليمن :

واستغل حصيلة النقوش التي خرجت من مناطق الآثار البكر في جنوب الجزيرة حتى ذلك الحين ، باحثون منهجيون من جنسيات شتى ، فتقدمت بسرعة الدراسات الأثرية واللغوية والتاريخية عن حضارة اليمن ، وساهم كل من هاليفي Halevy وبردوكس W.F.Prideaux في وضع قواعد اللغة اليمنية القديمة(٣٣).

وقد اشتهر حين ذاك من الشخصيات العلمية في استخلاص قواعد اللغة العربية الجنوبية موللر السالف الذكر ، الذي حاول ترتيب النصوص القديمة المعروفة حتى وقته زمنياً (كرونولوجي Chronologie) وبحث في قواعدها ، واستعان في ذلك بالهمداني ، فترجم إلى اللغة الألمانية بعض فصول الجزء الثامن من الإكليل الخاص بوصف الآثار والقصور والمعابد والحصون وما يتصل بها من أساطير، وحققه وعلق عليه . وفي عام ١٩٢٦ نشر الأستاذ اغناطيوس غويدي كتابه "المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة " وقد ألفه

---

(٣١) نيلسن ، ديتلف التاريخ العربي القديم ، ترجمه فؤاد حسنين ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة (١٩٥٨) ، ص ٢٤

(٣٢) Hartmann M., Sudarabien, Orientalistische Literaturzeitung, 10 (1907), p. 246-605.

(٣٣) انظر:

- Halery J., Etudes sabeenes. Examen critique et philalogique des inscriptions sabeennes cannues jusqu'a ce jour, journal Asiatique 7e Serie, t.1 (1873), P.434-521, t.II(1873), P.305-365, et 388-393, t.IV (1874), P. 497-585.
- Prideaux W. F., A Sketch of Sabaean Grammar with Examples of Translatian, Transaction of the Society of Biblical Archaeology vol. 5, part I (1876), P. 177- 224, Part II (1877) P. 384-425.

باللاتينية والعربية وصدر عن الجامعة المصرية عام ١٩٣٠. وبعد خمس سنوات صدرت (مختارات من النقوش) اليمنية القديمة التي أصدرها الأستاذ كارلوكونتي روسيني C.Canti Rossini [٣٤]. وكان ضمن خطة مجموعة العلماء الذين ساهموا في كتابة الأبحاث التي أصدرها نيلسن في كوبنهاجن عام ١٩٢٧ - وهو الكتاب الذي ترجمه إلى العربية فؤاد حسنين علي وصدر في القاهرة عام ١٩٥٨ بعنوان: (التاريخ العربي القديم) - إصدار مجلدين آخرين يتناول الأول قواعد مفصلة عن اللغة اليمنية القديمة بقلم الأستاذ رودو كاناكيس، والثاني عبارة عن معجم للغة اليمنية القديمة لنفس الكاتب. إلا أن وفاة الأستاذين نيلسون ورودو كاناكيس قد حالا دون تحقيق هذه الرغبة، على أن الأستاذة ماريا هوفنر M.Hofner غطت العجز الذي كنا نعانيه بالنسبة لقواعد اللغة اليمنية القديمة باصدارها عام ١٩٤٣ في لايبزج كتابها الشامل عن هذه القواعد [٣٥].

ونظراً لازدياد عدد النقوش نتيجة لرحلات هاليفي قررت الأكاديمية الفرنسية للنصوص والآداب توسيع السلسلة التي كانت تصدرها منذ عام ١٨٨١ عن اللغات السامية (مدونة النقوش السامية) بإصدار جزء رابع بعنوان: (نصوص حميرية وسبئية Corpus Inocriptionum Semiticarum, Pars quarta. Inscriptiones himyariticas et sabaeas (= CIH) التي صدر منها ثلاثة مجلدات ضخمة، وقد أسس هذه السلسلة الأستاذ هارتفيج دورنبرج Hartwig Derenbarg وتولى الإشراف عليها بعد وفاته الأستاذ مايرلامبر Mayer Lamber ثم تلاه الاستاذ جونزاك رايكمانز G. Ryckmans.

وبازدياد عدد النقوش اليمنية التي وصلت الى قرابة ١٢ ألف نقش في ذلك الوقت، بما

---

(٣٤) -Conti Rossini Carlo, Chrestomathia Arabica Meridianalis Epigraphica, Roma (1931).

(٣٥) - Hofner M., Altsudarabische Grammatik, Leipzig (1943).

فيها عدد من المخربشات Graffiti فقد بدأ الاستاذ لامبرت منذ عـــام ١٩٠٠ بـــإصدار سلســـلة مدونـــة جديـــدة سميـــــت أيضـــاً (مدونـــة النقـــوش الســـامية) Repertoire d'Epigraphie Semitique (=RES) Acad. des Inscr. et Belles (Letters, Paris. (1929-1950) وهي المدونة التي واصل إصدارها الأســـتاذ ريكمـــانز أيضاً، وقد صدر منها خمسة مجلدات خلال الفترة من (١٩٠٠-١٩٠٥) وضمت حـــوالي (٥١٠٦) نقشٍ ساميٍ. وتختلف هذه المدونة عن سابقتها بأنها تورد النقش ثم ترجمة بنفـــس اللغة التي نشر بها صاحب أول ترجمة ، أما الأولى فإنها تورد النقش ثم ترجمة لاتينية لـــــه . هذا ونشر الأستاذ ريكمانز في المجلة المشهورة (المتحف) Le Museon عدداً آخـــر مـــن النقوش التي كانت تصل إلى أوروبا تباعاً .

كما أسهم عدد آخر من البـــاحثين في هـــذه الدراســـات امثـــال : ليـــدز بارســـكي M. Lidzbarski الذي أسس مجلة اهتمت بالنقوش السامية التي لم يصدر منها للأســـف الشديد سوى ثلاثة أعداد ، وكان في نية الأستاذ د . هـــ موللر في عام ١٩١٢ إصـــدار مدونة بعنوان (مدونة جلازر) ، وكانت ستضم حوالي ٢٠٠٠ نقش تقريباً ، إلا أن عـــدم توفر المال الكافي حال صدور هذه المدونة. وموردتمان J. H. Mordtmann وما ير لامبير اللذين قاما بنشر النصوص وترجمتها ودراستها . وقد أقدم الأستاذ هومل F.Hommel من جامعة ميونخ على إصدار كتاب في القواعد المعينية ، السبئية مع مجموعة مـــن النصـــوص وفهرس للمفردات من هذه اللهجات[٣٦]. أما جلازر فكان بعد عودته من اليمـــن قـــد انصرف إلى تأليف كتاب ضخم عن (تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها) الذي طبع منه المجلـــد الأول والثاني في سنة ١٨٨٩-١٨٩٠ وسنة ١٩٠٤ [٣٧] ، ثم في عـــام ١٩٠٧ نشـــر الاستاذ فيبر O. Weber كراسين يستعرض فيهما تاريخ اليمن القديم. ثم أصدر الاســـتاذ هرتمان M. Hartmann من جامعة برلين في سنة ١٩٠٩ مجلداً ضخماً بعنوان (المســـألة

---

(٣٦) Hommel F., Sudarabische Chrestomathie, Munchen (1893).

(٣٧) - Glaser E., Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, I, II Berlin (1890).

العربية) Dei Isalamiche Orient, Bd. II Die Arabishe Frage, mit einem
Versuch der Archaolagie Yemens Leipzig (1909) يشتمل على دراسة لتـــاريخ
اليمن تستند إلى ما اكتشفه المستشرقون حتى ذلك العهد من الآثار والنقوش . كذلك اهتم
الأستاذ فينكلر H.Winckler بدارسة الكتابات اليمنية التي اعتمد عليها في تكوين نظــرة
شاملة عن تاريخ الشرق الأدنى في العصور القديمة وعن حضارة شعوبه .

وقد ظهر للباحثين أن حضارة اليمن القديم لم تبق محصورة في بلاد العرب الجنوبية بــل
انتشرت في الأقطار المجاورة أيضاً ، لاسيما الحبشة والحجاز.

ومن المعروف انه كان هناك دوماً علاقات وثيقة بين اليمنيين والأحباش ، فقد هاجر عرب
اليمن منذ أقدم العصور إلى بلاد الحبشة ، حيث أسسوا المراكز التجارية. وتشير الظواهــر
الأثرية إلى أن الدولة العظيمة التي قامت بالحبشة ، وهيأت الأسباب لانتشار الحضارة هناك
إنما أنشأها المهاجرون من جنوب بلاد العرب.وفي الحقيقة فإن أقدم الكتابات الـــتي عــثر
عليها المنقبون في الحبشة كانت باللهجة السبنية، ونستدل من أسماء الآلهة القديمـــة عنــد
الأحباش أنها آلهة اليمن نفسها، كما أن الطراز المعماري واحد في البلدين

وبما أن الظروف ساعدت العلماء منذ وقت طويل على التقدم خطوات كبيرة في دراســـة
آثار الحبشة وكتاباتها القديمة ، فقد كان من الطبيعي أن يستفيدوا من ذلك في دراســـاتهم
عن حضارة اليمن . ولا شك في أن التشابه العظيم بين الكتابة الحبشية (الجعزية) والكتابــة
اليمنية هو الذي مهد السبيل لقراءة هذه الأخيرة . ومع تقدم الدراسات اللغوية برز مـــع
القرن العشرين لفيف من الباحثين الذي تتلمذوا على الرواد الأوائـــل ، وانكبـــوا علـــى
استقراء مضمون النصوص القديمة ، والمعالم الأثرية الظاهرة ، لتصوير حياة أهلها وعقائدهم
وتاريخ أحداثهم، مع الاستعانة بالدراسات المقارنة المناسبة. وهكذا على سبيل المثال أفاض

دتليف نيلسن Ditlef Nelson في تحليل العقائد والديانات العربية القديمة ، وجاراه أدولف جروهمان Adolf Grohmann في الحديث عن الديانة والعمارة والفنون والموارد الاقتصادية ، واهتم رودوكاناكيس N.Rhdokanakis بدراسة النصوص المتصلة بالأراضي والزراعة والري والنظم الإدارية والاقتصادية والضرائب ... وأرخ تتش J.Tatsch وزملاؤه لجنوب الجزيرة في دائرة المعارف الإسلامية وموسوعة باولي فيزوفا تاريخاً موسعاً .Paulys Realencyclopadie der Classischen Altertumswissenschaft

وارتبط نشاط البريطانيين المعنيين بشبه الجزيرة العربية بازدياد رغبة دولتهم في مد نفوذها إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية . واتخذ هذا النشاط صوراً مقنعة في القرن التاسع عشر عن طريق الرحلات البحرية والعلاقات الاقتصادية، ثم ازداد وضوحه خلال القرن العشرين ، وممن وضح أثرهم في هذا السبيل برترام توماس Bertram Thomas الذي أتاح له منصبه كمستشار مالي في مسقط أن يتجول آمناً في كثير من المناطق العربية المجاورة ، وأن يشبع ميله إلى المغامرة . وهكذا غدا في عام ١٩٣١ أول أوروبي يعبر حدود مفازة الربع الخالي، وقد اجتازها في مدة ٨٥ يوماً[٣٨] .

فلبي Harry st. J. Bridgrer Philby :

وقد شجعت هذه المغامرة هاري سان جون فلبي على أن يسلك نفس المسلك الخطر مستعيناً بالخارطة التي رسمها برترام توماس . وكانت له رحلاته المبكرة منذ عام ١٩١٧-١٩١٨ عبر طريق الحج الأوسط ، وخلال نجد وحجاز في شمال الجزيرة . ونبه إلى شواهد

---

(٣٨) Thomas B., Arabia Felix: London (1932), P.38; Among same - unknown Tribes of South-Arabia, journal of the Royal Antropological Institue, XIV (1929) P. 97-111; The South - Eastern Borderlands of Rub al-Khali, The Geographical journal, LXXIII, Januory to June (1929), P. 193-215.

حضارات قديمة في مثل واحة السيح وواحة الحوطة. وتوالت مغامراته ، فسلك في بداية عام ١٩٣٢ ما بين الهفوف وبين سلوى جنوب قطر ، واجتاز الربع الخالي ، وعثر على أدوات حجرية بدائية متناثرة على جزء من حافته الشرقية نسبها إلى جماعات مما قبل التاريخ.

وتعددت رحلات فلبي في شمال الجزيرة ووسطها وجنوبها ، كما تنوعت أهدافه منها وكتاباته عنها . فتنقل في الجنوب من نجران مخترقاً رملة السبعتين إلى هجر شبوة (ش ب و ت) النقوش RES2693/6,RES4912/1 والعقلة ، وهجر تريم (ت ر م) النقوش Ir32/31-32 ووصل إلى وادي الشحر ، وخرج بعديد من النقوش والصور، ونشر عن مشاهدته عدداً من الكتب والدراسات . وفي عام ١٩٤٩ قام فلبي بزيارة المنطقة الواقعة بين نجران والخليج فأشار إلى موقع قرية الفاو التي عثر فيها على عدد من النقوش اليمنية القديمة . وإذا تجاوزنا الترتيب الزمني لرحلات فلبي ، فإنه يكفي التنويه في هذا الصدد بانه رأس في أواخر حياته بعثة من الباحثين ليبنز Lippens ، و ج . ريكمانز G.Ryckmans وابن أخيه J. Ryckmans وتجول معهم باحثاً بين عسير ونجران (قضى أكثر من شهرين هناك خلال الفترة من ١٨ مايو -٢٥يوليو عام ١٩٣٦) وقد جمعت بعثته ما قدر بنحو تسعة آلاف نص ثمودي و ٧٥٠ نص سبئي وحياني . ولعل أهم ماأتت به من نصوص نقشية تلك التي تعود إلى ذي نواس (ي س ف / أ س أ ر / ي ث أ ر) المؤرخة في عام ٦٣٣ من التقويم الحميري الموافق لعام ٥١٨م[٣٩] .

---

(٣٩) عن نشاط فلبي وكتاباته انظر :

-Beston A. F. L., H. st. J. B. Philby, 1885-1960, Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland (1961), P. 71-73.

وقارن :

-Wissmann H. von, Abdallah H. st. J. B. Philby (1885-1960) Seine Leben und Werken, Die Welt des Islam, N.S.VII (1961), P. 100-141.

وأن للدراسات الأثرية أن تتخطى وصف المعالم الظاهرة ونسخ النصوص إلى التنقيب عن بقية الآثار الدفينة تحت الرمال وفي باطن الأرض . وتعددت على هذا السبيل وعلى فترات متفاوتة بعثات أثرية نمساوية وبريطانية وعربية وأمريكية وغيرها. فكشفت رويداً رويداً العديد من المعابد والمقابر والحصون والمساكن ، وما احتفظت به من آثار المصنوعات والفنون والنصوص المتنوعة .

وعن طريق تعاون الأثريين واللغويين والمؤرخين زاد التعرف على أسماء القبائل والامارات والمدن والمنشآت القديمة ..وتحديد مواقعها ، وكذا أسماء المعبودات والعبادات وخصائصها ، والعلاقات بين الممالك والصلات بين الحكام وتتابع عهودهم وما تم فيها من تغيرات سياسية وعمرانية ....

ومع هذه الاتجاهات هنا وهناك ، وعلى شيء من التردد أقدمت إمامة اليمن بالسماح للباحثين كارل راتيانز C. Rathjens. وفيسمان H. von Wissmann خلال عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ بإجراء أول حفرية أثرية في حقة همدان والنخلة الحمراء ، كما سمح لفيسمان وفان در مويلن Van der Meulen بزيارة حضرموت ، بل إن فيسمان زار اليمن الشمالي بإذن خاص عام ١٩٣١ ، ثم يعود مرة أخرى عام ١٩٣٩ ليضع خريطة تفصيلية عن المنطقة بين عدن وحضرموت. إن رحلات فون فيسمان قدمت معلومات جديدة عن أشكال الزراعة وأنواع النبات[٤٠] فضلاً عن نشرهم دراسة أثرية موثقة عن نتائج الحفرية التي أجريت في الحقة مع بعض القطع الأثرية. أما مجموعة النقوش التي كانت حصيلة هذه الرحلات فقد نشرها الباحثان موردتمان وميتفوخ[٤١] .هذا ومن ناحية أخرى فقد خلف لنا فون فيسمان عدة أعمال علمية عن جنوب بلاد العرب ، فقد دفعه تخصصه

---

(٤٠) - Rathjens C. und Wissmann H. von, Landeskundliche Ergebnisse, Rathjens-v. Wissmannsche Sudarabien-Reise, Bd.3 ,Hamburg (1934).

(٤١) - Mordtmann J. H. und Mittwock E. Sabaische Inschriften Hamburg (1931).

الجغرافي إلى الاهتمام بالآثار والتاريخ ، وبالتالي بالأحداث والوقائع التاريخية ، وأسماء الملوك وتسلسلهم الزمني ، وقد توج حياته العلمية بكتابه عن تاريخ سبأ الذي أصدر قسمه الأول، وخطفه الموت يوم ١٩٧٩/٩/٥ عن عمر يناهز أربعة وثمانين عاماً ، قبل أن يرسل قسمه الثاني إلى المطبعة ، وهو القسم الذي صدر عام ١٩٨٢بإشراف و.و. موللر[٤٢] .

وانبعثت من القاهرة بعثتان ، أولهما بعثة وصفية زار فيها الصحفي السوري الأصل نزيه مؤيد العظم اليمن أربع مرات(١٩٢٦ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٥-١٩٣٦) وصور ماوقعت عيناه عليه من الآثار والنقوش ، ثم نشر أخبار رحلته في جزأين بعنوان :" رحلة في بلاد العربية السعيدة : من مصر إلى صنعاء ، ج١ ، من صنعاء إلى مأرب ج٢" صدر في القاهرة عام ١٩٣٧ وفي الكتاب وصف رائع لسد مأرب والمدينة القديمة ومحرم بلقيس ، فقد مكث في مأرب من ٢٦ يناير وحتى منتصف فبراير عام ١٩٣٦.

أما البعثة الثانية فقد غلبت عليها الصبغة العلمية وأوفدها جامعة القاهرة من أربعة أعضاء : سليمان أحمد حزين ، وخليل يحيى نامي ، ونصري شكري درويش ، ومحمد توفيق الدسوقي ، بغية إجراء بحوث في الجغرافيا والآثار والانتروبولوجيا والجيولوجيا وعلم الحشرات. وبعد أن وصلت البعثة إلى صنعاء من عدن عن طريق لحج (مارة بتعز – التربة – المخاء – حيس – وادي نخلة – زبيد – بيت الفقيه – الحديدة باجل – مدينة العبيد – معبر) تنقلت خلال أكثر من ستة أشهر (من أبريل وحتى أكتوبر ١٩٣٦) بين مناطق

---

(٤٢) عن فون فيسمان ومؤلفاته انظر :

Hultenlocher F., Wege und Werken Hermann von Wismann, Hermann von Wissmann Festschrift,Greographisches Institut,Tubingen(1962), P.11-25.

Muller W.W., In memorim Hermann von Wissmann (2.9. 1895- 5.9. 1979), Raydan, 2(1979) P. 7-12.

وعن راثيانز انظر :

Wissmann H. von in verbindung mit Kelleman M., Carl Rathjens, Der Islam, 46, (1970) p. 55-63.

متعددة، فزارت وادي شرعة – ناعط ريدة – عمران – كحلان – وادي شرس – حجة، وعادت إلى الحديدة عبر مفحق. ثم اتجهت البعثة بعد ذلك إلى حضرموت التي وصلتها عبر المكلا ، فزارت تريم – وادي الخن – قبر النبي هود – سينون – شبام – القطن – حريضة – التي عادوا منها إلى المكلا عبر المشهد (في وادي دوعن) – غيل باوزير. وقد عثرت البعثة خلال تجوالها على مجموعات من أدوات العصور الحجرية (لما قبل التاريخ) ، وقد تبين أنها أقرب إلى أن ترتبط في صناعاتها بأمثالها في مناطق شرق أفريقيا. كما أجرى حزين حفرية قصيرة في ناعط ومريمة ونقل زهاء ١٤٥ نقشاً. بينما اكتشف نامي حوالي ٨٩ نقشاً (منها ٧٩ لم ينشر من قبل). وسمحت الحكومة اليمنية للبعثة بدراسة المجموعة الأثرية بصنعاء وتصويرها. وإلى جانب النصوص المنقوشة على الآثار وهي الغالبة ، عثرت البعثة على نقوش قصيرة على كسر من الفخار (أوستراكا) ، ومخربشات على بعض الصخور.

وترتب على الوقع الطيب الذي خلفته هذه البعثة في البلاد (إلى جانب ملابسات أخرى) ، أن أعاد أثنان من أعضائها رحلاتهما المتقطعة إلى اليمن ، كل في مجال تخصصه ، فزار محمد توفيق البلاد عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ لمعاودة دراسة آفات النباتات والمزروعات ومكافحة الجراد بخاصة ، والتعرف على ظروف توالده والعوامل المؤثرة في طريق هجرته ومواسم تكاثره. وهيأت له انتقالاته الميدانية بالمناطق الداخلية أن يشهد ويصور عدداً من آثار ونقوش دولة معين القديمة في خربة براقش (يثل القديمة) ، ودرس خليل نامي النصوص التي تضمنتها مجموعة محمد توفيق من خربة براقش. وكرر نامي رحلاته العلمية إلى ربوع اليمن عام ١٩٥٢ مستجيباً لدعوة إمامها وعضواً في بعثة جامعة الدول العربية إلى صنعاء ، ثم زارها عام ١٩٥٩ ، وأثمرت رحلاته فأظهرت حصيلة وافية من النقوش والآثار الصغيرة، وقدنشر دراساته اللغوية في بحوث متأنية متفرقة في مجلة كلية الآداب خلال الفترة من علم ١٩٤٨وحتى عام ١٩٥٦. وأهدى بعض مااشتراه من الآثار إلى جامعة القاهرة حيث

تعرض الآن في متحف كلية الآثار بها[٤٣] .

وفي شتاء ١٩٣٧/١٩٣٦ جمع بارتوكس **J. Bartaux** من صنعاء وما جاورها (بيت بوس – عمران – ريدة – ناعط) عدداً من النقوش[٤٤] ، وفي نوفمبر من عام ١٩٣٧ وصل براون **St, Perowne** إلى (أم عادية) وعثر على عدد من النقوش واقتنى نقشين أهداهما إلى متحف عدن[٤٥] .

ووجدت حضرموت من اهتمام الباحثات مالم يكن متوقعاً ، فبرعاية اللورد وكيفيلد **Lord Wakefield** اهتدت كل من ج. كيتون طمسون **C. Thompsan** وأ. جاردنر **E. A. Gradner** , و ف. اشتارك **F. Stark** في شتاء ١٩٣٨ إلى الكشف عن معبد حضرمي أقيم للمعبود (سين) قرب قرية حريضة الذي يرجع إلى الفترة من القرن السادس وحتى الرابع ق.م. وكشفن النقاب عن نقوشه ، ونظراً لاهتمام الأوليتين منهن بالدراسات

---

(٤٣) نامي ، خليل يحيى من اللهجات اليمنية الحديثة ١ ، ٢ ، مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) ١/٨ ، مايو (١٩٤٦) ص ١٦ و ١/١٥ ، مايو (١٩٥٣) ص ١٠٣–١١٣.

– مفردات من تعز وربة ودخان،مجلة كلية الآداب(جامعة فؤاد الأول)١/١٠، مايو(١٩٤٨)ص١–٩

– نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، القاهرة (١٩٤٣)

– نقوش خربة معين (مجموعة محمد توفيق) منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية – القاهرة (١٩٥٢) ص ١–٢١

– نقوش عربية جنوبية ، مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) ١/٩/١ (١٩٤٧) ص ١–١٣

– حزين ، سليمان احمد بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت (١٩٣٦) تقرير مبدئي عن نتائج أعمالها العلمية والثقافية ، مجلة كلية الآداب / الجامعة المصرية ، ٤ (١٩٣٦) ص ١٨٧–٢٢٠

– توفيق ، محمد . آثار الدولة المعينية في جوف اليمن ، الكاتب المصري ، ٢٣/٦ (١٩٤٧) ، ص٧

– آثار معين في جوف اليمن ، القاهرة (١٩٥١)

(٤٤) قارن ، عبدالعزيز صالح . الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ٤٢ (١٩٨١) ، ص ٥٢–٥٣

(٤٥) نشرت في مجلة . Le Museon 52 (1939), P. 97-112

الجيولوجية . وفقن كذلك إلى تتبع وسائل الري القديمة بوادي عمد ، وأجرين دراسة عن فخار وخزف المنطقة ، ثم أنفردت ف. اشتارك برحلات جابت فيها أرض العربية السعيدة(٤٦) .

وتزامن هذا العمل مع أعمال المسح والتنظيف التي أجراها الرائد هاميلتون R. Hamilton ومع ثلة من العمال في أطلال شبوة(٤٧) ، في الوقت الذي عاود فيه براون نشاطه على الضفة الشمالية الشرقية لوادي بيحان حيث صور عدداً من النقوش ، بينما أجرى الأثري كيروان L. Kirwan عام ١٩٣٩ بعض الدراسة الأثرية(٤٨) . أما الخبير البريطاني والمستشار المقيم في الشحر والمكلا انجرامز H. Ingrams فقد قام(٤٩) عام ١٩٣٩ برحلة من قنا إلى شبوة ، وسجل عدداً من الملاحظات الأثرية القيمة إلى جانب ماصوره من نقوش(٥٠) ، أما زوجته فقد قامت برحلة إلى داخل حضرموت ونقلت عدداً من النصوص(٥١) .

---

(٤٦) - Perwne Stewart, Im adiya and Beihan, Antiquity, 13 (1939) P.133-37.
Stark F., The Southern Gate of Arabia, London (1936); Same pre-Islamic Inscriptions on the Frankincense Route in Southern Arabia, Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland (1939), P. 480-498;
Thompson G.Caton and Gardner E.W.,Climate, inigation and early man in the Hadramaut,The Geographical Journal 93(1938), P. 18-39;Thompson G. Caton The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut) , Oxford (1944).

(٤٧) - Hamilton R.A.B., Six Weeks in shabwa, The Geographical journal, 100(1942), P. 107-142.

(٤٨) - Besston A.F.L.,Two Shabwa Inscriptions,Le museon,60(1947),P.51- 55

(٤٩) - Grohman A., Arabien, Muchen (1936), P. 103.

(٥٠) - Ingrams H. and Doreen, The Hadhramaut in Time of War, the Geographical journal, 105 (1945), P. 1-29.

(٥١) - Ingrams Mrs. H., Excursion into the Hajr province of Hadhramaut, the Geographical journal 93, (1941), P. 121-134.

وأقرب من تقرن اهتماماته باليمن من الباحثين المصريين اللغوي خليل يحيى نامي، والأثري أحمد فخري ، وقد بدأت صلاته بآثار اليمن في مارس عام ١٩٤٧ عندما وصل إلى عدن قادماً من السويس. وفي طريقه إلى صنعاء تنبه إلى آثار لحج وجبل تعكر ويريم وذمار. وفي ١ مايو غادر صنعاء متجهاً إلى مأرب ماراً بشعوب وادي السر – وادي الشرفة – الأحزوق – كولة صنعاء – نقيل شجاع – الأكمه – نقيل سلوت – فصرواح التي قضى فيها ٤ أيام (٤–٧ مايو) ثم وصل إلى مأرب ومكث فيها ٧ أيام (٧–١٣ مايو).

وفي مأرب خرج بصور وأبعاد تفصيلية جديدة لما بقى من سدها الكبير وبعض ما كان يحيط به من عمران ، واقترح تعديل تخطيط (آرنو) لمدينة مأرب القديمة وتعيين أبوابها، وصور البقايا الظاهرة من معابدها التي ألمَّ ببعضها من قبل (آرنو وجلازر). وفي يوم الثلاثاء ١٣ مايو غادر مأرب متجهاً إلى مدن الجوف ، وفي الطريق مرّ على رغوان – خربة سعود – الدريب ثم وصل إلى براقش فالحزم التي أقام فيها وجعلها مركزاً لدراسته. فزار معين – كمنة – البيضاء والسوداء. ثم عاد إلى صنعاء عبر طريق وادي هرّان – ديبين – عمران ، فوصلها يوم ٢٤ مايو.

وأتبع أحمد فخري رحلته الأولى برحلة قصيرة في عام ١٩٤٨. وتمثلت حصيلته العلمية بوصف وتصوير ورسم للآثار القائمة ، ونسخ وتصوير لنقوش لم يكن بعضها معروفاً للباحثين ، ومن بين اللقى التي عثر عليها قطع أثرية مصرية قديمة منها جعل (جعران) يحمل اسم الملك امنحوتب الثالث ، وتشير صناعته إلى أن تاريخه يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة ، أي حوالي القرن الخامس عشر ق.م. ، ومنها لوحة صغيرة من الحجر الاستيانيت ، مثل على أحد وجهيها رجل واقف يتقدمه ثعبان الكوبرا ، وعلى الوجه الآخر صقر يعلو رأسه قرص وهلال[٥٢] ، وقد تم نشر هذه الحصيلة في ثلاثة أجزاء.

(٥٢) فخري ، أحمد رحلة أثرية إلى اليمن . الطبعة الثانية (١٩٨٨) ، ص ١٦٠–١٦١.

وعاود فخري الرحلة إلى اليمن في عام ١٩٥٩ وكان أكثر اهتماماً فيها ببلدة المسلجد ، فقدم وصفاً لمعبدها (يرجع إلى القرن الثامن ق.م.) وذلك في دراسة بعنوان : (معبد المساجد ببلاد مراد) قدمت للمؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية الذي عقد بمدينة فاس من ٨-١٨ نوفمبر عام ١٩٥٩ ، كما زار أطلال صوانه[٥٣]. وقد خصص فصلين (الرابع والخامس) لتاريخ وآثار اليمن القديم في كتابه (دراسات في تاريخ الشرق القديم) الذي ظهرت له حتى الآن طبعتان ، الأولى عام ١٩٥٨ والثانية عام ١٩٦٣. ومعروف أن لفخري كتاب مشهور بعنوان : (اليمن ، ماضيها وحاضرها) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٧ ، وأعيد طبعه عام ١٩٨٨ بمراجعة وتعليق الأستاذ الدكتور عبدالحليم نورالدين. وفي نوفمبر عام ١٩٧١قام بريارته الأخيرة لليمن للمساهمة في التدريس بجامعة صنعاء. وظل فخري حتى آخر ايامه من الدعاة المتحمسين إلى ضرورة بذل المزيد من الاهتمام بآثار اليمن.

شهدت السنوات التالية عمليتين علميتين : الأولى قام بها القسم العلمي لشركة أرامكو
Arabian American Oil Company (Aramco)
والثانية قامت بها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان
American Fundation for the Study of Man (Arabian Expedition).

صحيح أن القسم العلمي لشركة أرامكوا كان يهتم بالأساس بالبحوث الجيولوجية ، غير أنهم قد أسهموا في حركة الكشوف الأثرية والنقشية والانتروبولوجية ، فقد اكتشف -على سبيل المثال- جيولوجيو الشركة بمعية فلبي عام ١٩٤٨ نقوشاً سبئية في قرية (الفاو) جنوب وادي الدواسر ، التي كانت تعد مركز مراقبة سبئي شمالي في هضبة نجد[٥٤]

---

(٥٣) فحري ، أحمد . اليمن ، كتاب المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ، القاهرة (١٩٦١) ، ص ٢٣٥-٢٣٧ ، أحدث الاكتشافات الأثرية في اليمن ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٥-٢٦٥

(٥٤) قارن .

-Philby H.st.B., Two Notes from Central Arabia, The Geographical Journal 113 (1949), P. 86-93.

وفي أغسطس من نفس العام (١٩٤٨)قام وندل فيلبس Wendell Philipps رئيس المؤسسة الأميركية لدراسة الإنسان برحلة استطلاعية في وادي بيحان ووادي حريب. وقد كان جلازر قد تمكن من استنساخ بعض النقوش القتبانية من حنو الزرير ومبلقة الذي ورد ذكرها في نقش قتباني ك (م ن ق ل ن / م ب ل ق ت) أي نقيل مبلقة كما في RES3550/3 وهجر كحلان في وادي بيحان ، كما أن بيوري استطاع في عام ١٨٩٩ من نقل النقش الذي كان على بوابة مدينة كحلان العاصمة القتبانية القديمة تمنع . وهكذا لم يعد يكفي الدارسين زيادة معرفتهم عن دولة قتبان عن طريق النقوش، بل كان لا بد من إجراء حفريات واسعة في المنطقة .

وبعثة فيلبس –وهو الاسم الذي عرفت به البعثة الأميركية في الأوساط العربية– وجدت التأييد المادي والعلمي من جامعة كاليفورنيا وعدد من الشركات الأميركية. وزاد رئيس البعثة من إمكانياتة عن طريق الإغراء بما يمكن أن تسفر عنه بعثته من نتائج في أرض البخور الأسطورية ، وعن طريق ضم عدد من ذوي التخصصات المتنوعة والجنسيات المتعددة إلى مجموعته ، ثم الدعوة إلى إدماج عمليات تصوير مخطوطات دير سانت كاترين في سيناء في خطته مستغلاً اهتمامات اصحاب التوراة والإنجيل بها . وكان فيلبس قبل هذا وذاك قد عقد أواصر الصداقة مع ذوي النفوذ من الشخصيات العربية الكبيرة ، وكان طبيعياً أن يتلمس العون من ذوي النفوذ في المناطق الخاضعة تحت النفوذ البريطاني في جنوب الجزيرة ، في عدن من ناحية ، ومسقط وعمان من ناحية أخرى .

وبدأ أعضاء البعثة و . البرايت W.F.Albright وشارل هـ . انجا Ch. H.Inge مدير الآثار في عدن ، وك . براون K.Brown في ٢٦ فبراير ١٩٥٠ حفرياتهم في البلب الجنوبي تمنع ، بينما شرع هونيمان A.M.Honeyman بحفر الجهة الجنوبية الغربية من التل الذي تقع عليه العاصمة ، وفي نفس الوقت كان يعمل وندل فيلبس والبرت جام A.Jamme في هجر بن حميد ، التي تبعد حوالي تسعة أميال جنوب تمنع، وهي التي يرد

أسمها في النقوش القتبانية والحضرمية كـــــ: (ذ غ ى ل م) و (ذ غ ى ل ن) كمـــا في RES3858/10,RES3688/11 و Ir13/5,10 إلخ . وقد اســـتطاع فرانـــك اولـــبرايب F.ALBRIGHT فيما بعد من تمييز أربع طبقات وسبع مراحل استيطانية تمتد من القـــرن العاشر الميلادي الى القرن الثالث قبل الميلاد. وفي موقع تآكل بفعل عوامل التعرية أظهرت دراسة مقطعه العرضي سبع طبقات أخرى، وترجع الى الألف الثاني ق . م. وفي العاصمـــة تمنع نفسها تم تحديد ثلاث طبقات ترجع إلى الفترة ما بين القرنـــين الرابـــع والســـادس الميلادي، والقرن الثاني ق .م. وقد اتضح أن المدينة نفسها قد دمرت بفعل حريق أصابهـــا خلال الفترة من ١٠-٢٠ م ، وذلك أثناء الحروب الطاحنة بين قتبان وحضرمـــوت[٥٥] وقد أنهت البعثة أعمالها في ٢٢ أبريل عام ١٩٥٠[٥٦] .

وفي موسم عملها الثاني (نوفمبر ١٩٥٠) استأنفت البعثة تنقيباتها في جبانة حيد بـــن عقيل وهجر حنو الزرير عند مدخل نقيل مبلقة ، وكشفت عن العديـــد مـــن التمـــاثيل والنصب وأدوات الزينة ، كما استكملت عملها في العاصمة تمنع وكشف م. شـــالكوب M.SHALKOP في الناحية الغربية من تل المدينة على معبد (رصافم) وواصلت البعثـة في ١٤ أبريل ١٩٥١ عملها في بيحان . ثم حصل وندل فيلبس إثر مفاوضات مضنية علـــى امتياز بالحفر في مأرب في مطلع عام ١٩٥٢ ، وبدأت البعثة -بعد جولة استكشـــافية - بالحفر في معبد (أوام) المعروف باسم محرم بلقيس ، وأظهرت من عناصره المعمارية ومـــن نصبه وتماثيله ونقوشه ما يجعله واحداً من أروع العمائر العربية القديمة ، وبعد مشـــكلات شاع ذكرها حينذاك ولا ضرورة للخوض فيها الآن ، توقفت البعثة عن العمل يـــوم ١٦ فبراير عام ١٩٥٢ بعد فترة عمل استغرقت زهاء أربعة أسابيع.

---

(٥٥) - Albright W.F., Zur Chronologie des vorislamischen Arabien, Festschrift fur Otto Eissfelt Berlin (1958), P.4.

(٥٦) - Le Baron Bowen Jr., Albright F.P., Archaeological Discoveriers in South Arabia, Baltimore (1958), P.3-34, 43-121, 133-212.

ومارست البعثة كشوف موسم عملها الأخير (عام ١٩٥٣) في "البليد" وخور روري في ظفار ، وهي الهجر التي يطلق عليها في النقوش الحضرمية اسم (س م هـ رم) و(س م ر م) كما في النقوش Kh.R.1/2-3,Kh.R.2/2-4,Kh.R.3/5 ....الخ. وقد كانت (سمهوم) نعتبر عاصمة المقاطعات الحضرمية الشرقية ، التي شملت ظفار والمناطق الجنوبية التي تليها حتى الصحراء ، كما تمكنت البعثة من اجراء دراسات في صلالة. وقد كشفت في خور روري ضمن ماكشفت عن معبد للإله (سين) واشادت نصوصه بالملك "إيل عزيلط" ملك حضرموت وعاصمته شبوة(٥٧) .

وكان للبعثة المصرية التي أرسلتها وزارة المعارف المكونة من : خليل يحيى نامي ، فؤاد السيد ، إحسان عثمان فهمي ، وعبدالفتاح علي عايد ، بهدف تصوير المخطوطات في صنعاء ، مساهمتها في حركة الكشوف هذه. فقد تمكنت خلال شهرين (يناير - فبراير ١٩٥١) من انجاز مهمتها على أكمل وجه. وخلال هذه الفترة سمح لنامي بتصوير الآثار في صنعاء ، كما تمكن من زيارة مأرب (٢٧-٢٩ مارس ١٩٥٢) ، حيث زار الموقع الذي نقبت فيه البعثة الأمريكية ، بل إن البعثة أجرت مفاوضات للحصول على تصريح باسم الجامعة المصرية للتنقيب في صرواح وظفار ، ولكننا لانعرف على وجه الدقة نتائج هذه المفاوضات.

وفي عام ١٩٥٣ تمكن الباحثان ا.ج.دريوس A. J. Drewes و د. فان درمويلن D. Van der Maulen من زيارة حضرموت عبر طريق يشبم ووادي عرمة ، حيث صورا عدداً من المخربشات وأجريا دراسة متأنية لنقش كان الجرمز قد اكتشفه. ثم تمكن الباحثان هـ. فون فيسمان و لايدلماير Leidlmair في شتاء ١٩٥٩/٥٨ من زيارة حضرموت.

---

(٥٧) Albright F.P., The Himyaritic Tempel at Khor Rory (Dhofor,Oman), Orientalia 22 (1953), P.284-287, Pl. IXXI-IXXII.

وقام أحمد فخري في مايو ١٩٥٩ بزيارته الثالثة لليمن ، بعد مضي أثني‌عشر عاماً على زيارته الأولى. ومن مأرب التي وصلها على متن طائرة خاصة اتجه في يوم ١١ مايو لزيارة معبد المساجد ، ونقل نقوشه وصوّر أجزاءه المختلفة ، بعد أن ظل مايقرب من خمسة وسبعين عاماً شبه أسطورة في الدراسات العربية الجنوبية.

إن معلوماتنا عن المساجد كانت تتلخص فيما عرفناه من نقشين سبئيين RES3947, RES3949, RES3950 نقلهما رجال القبائل لجلازر ، يدلان على أن المكرب (يدع إيل ذرح) الذي عاش في القرن الثامن ق.م. ، ذلك الرجل الذي شيد معبد صرواح الكبير وشيد أكبر معابد مأرب وهو محرم بلقيس ، هو الذي شيد معبد المساجد أيضاً. ويعد معبد المساجد – التي تبعد عن مأرب حوالي سبعة وعشرين كيلومتراً – من أقدم الآثار في جنوب جزيرة العرب ، وهو المعبد السبئي الوحيد الذي ظلت فيه الأعتاب في أماكنها الأصلية فوق الأعمدة وعليها نقوش – عندما زارها فخري – إذ أن بقية المعابد نرى فيها الأعمدة قائمة مثل محرم بلقيس والعمايد وصوانا في مأرب وكثير من المعابد الأخرى ، ولكننا لانرى الأعتاب في أماكنها ، بل نرى فقط في أعلى الأعمدة البروز الذي كان يدخل في تلك الأعتاب لتثبيتها.

والمعبد على عكس ما أعتقد فون فيسمان وهوفنر غير بيضاوي الشكل ، وسوره المحيط به مستطيل الشكل ؛ ومدخله يتجه نحو الجنوب الغربي ، والسور مشيد من كتل الأحجار المحلية (بعضها ١٥٠ سم في طوله) الموضوعة فوق بعضها دون استخدام المونة[٥٨] .

وعلى الرغم من زيارة و. دوستال W. Dostal لشبوة خلال الفترة من اكتوبر وحتى

---

(٥٨) فخري احمد . أحدث الاكتشافات الأثرية في اليمن ، مصدر سابق ، ص ٢٥٨ ، وقارن:
-Wissmann H. von und Hofner M., Beitrage zur historischen Geographie des vorislamischen Sundarabien, Wiesbaden (1953), P. 75.

ديسمبر عام ١٩٦٠ التي كانت تهدف بالدرجة الأولى الدرسات الاجتماعية، إلا انها لم تخل من الفائدة الأثرية أيضاً. وقد سجل دوستال التخريب الذي تعرضت لـــه الآثـــار . فالموقع الذي كان هامتلون قد نقب فيه عام ١٩٤٢ لم يبق فيــه أي أثــر . إذ اســتخدم السكان هنا أيضاً – كما هو الحال في بقية المناطق الأثرية في البلاد حتى يومنـــا هــذا – الأحجار الأثرية في بناء مساكنهم الحديثة.

يتضح مما سبق ، أن كل الدراسات السابقة كانت تهتم بالنقوش الكتابية بالدرجـــة الأولى. ويعد أرنست أوسيندر **E. Osiander** أول من اهتم بدراسة الآثار اليمنية القديمة بمعناهـــا الدقيق ، فقد قدم بحثاً عن الآثار اليمنية إلى مؤتمر الدراسات الشـــرقية الـــذي عقـــد في أوجسبورج يوم ٢٤ سبتمبر عام ١٨٦٢[٥٩]. وإذا ما أستثنينا الدراسات أو الإشـــارات التي وردت حول المواقع – الأطلال – الأثرية ، أو لبعض القطع الأخرى لـــذي ولســـتد وآرنو وهاليفي وجلازر . وتلك الدراسة المتأنية لبعض القطع السبئية التي قام بها هارتمـــان **M. Hartmann** ، فإن راتيانز وفون فيسمان يعدان بحق أول مـــن درس بعنايـــة الآثـــار اليمنية القديمة ، وهما أول من أجرى حفرية أثرية في البلاد عام ١٩٢٨ في حقة همدان ، ثم قامت كتون طمسون بحفريتها عام ١٩٣٨/٣٧ في الحريضة . تلا ذلك حفرية هـلمتلون في شبوة، وأهم حفرية في البلاد هي تلك التي قامت بها المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان في هجر كحلان ومأرب وظفار.

وفي وقت كان اليمن قد وصل الى نقطته التي نضجت فيها ظروفه ، واعتملت خلالهـــا مؤسساته . عقدت الحكومة اليمنية ممثلة بمؤسساتها : الهيئة العامة للآثار ، ودور الكتـــب في صنعاء ، والمركز اليمني للأبحاث الثقافية ، والآثار والمتاحف في عدن، اتفاقيات مع هيئـــات هي في الواقع تمثل دولها وتصوراتها السياسية.

---

(٥٩) انظر

-Osiander E., Uber eine Sammlung neuentdeckter himyarischer Inschriften, ZDMC XVII (1863), P. 789-798.

على أنه حتى الآن لم يتبلور أي تصور وطني للبحث عن آثار هذا البلد العتيق ، ولا ندخل في التنظير إن قلنا ، إن أجل خدمة يستطيع باحث أن يقدمها لمواطنيه. في مجال الدراسات الأثرية وبالتالي التاريخ القديم ، هي أن ينقل إليهم باللغة العربية أخبار الاكتشافات التي تتم. لأننا أمام واقع لا مفر من مواجهته ، ولايفيد تجاهله إلا الذين تزعجهم الحقيقة . والواقع الذي نقصده هو أن معظم مانشر عن مواقعنا الأثرية قد كتب باللغات الأجنبية . وبالتالي فقد بقي كل من ليس له إلمام بإحدى اللغات بعيداً عن الاطلاع على ماتسفر عنه الحفريات التي تجري عن مخلفات العصور الغابرة المدفونة في أرضنا.

إسهام عرب الجنوب في قيام وتطور اكسوم

يبدأ تاريخ الحبشة القديم منذ أن تمكن المهاجرون من جنوب بلاد العرب من بسط نفوذهم على السكان الأصليين في الحبشة بشكل محكم لدرجة قيام ثقافة (Kultur/Culture) خاصة وينتهي بسقوط مملكة آكسوم في القرن العاشر الميلادي .

ونحن لانعرف متى بدأ المهاجرون في بسط نفوذهم ، على أن هناك اجماعا بين الدارسين بأن أفضل وقت لانتشار هذه القبائل في شمال الحبشة كان بعد القرن العاشر ق .م. ذلك ان مصر التي كانت تسيطرعلى تجارة الساحل الغربي للبحر الاحمر من قفط (coptos) حتى عدوليس طوال عصر الدولة الحديثة ، اصبحت في الفترة الأخيرة من هذا العصر تعاني من الاضطرابات الداخلية الأمر الذي لم يمكنها من السيطرة على هذا البحر ، على أن هذا النفوذ لم يكن من القوة بحيث تم تكوين مستوطنات هناك فنقش المكرب-الملك السبئي"كرب ايل وتر بن ذمار علي" . المعروف لدى الدارسين باسم نقش النصر والموسوم بـ (GL 1000A/B = RES/3945/3946) والذي هو عبارة عن تقرير حربي يذكر فيه المكرب / الملك حملاته التي شنها لاخضاع المناطق ، لم يرد فيه ذكر لأية منطقة في الحبشة .

أما أسماء الأماكن التي وردت في السطرين ١٧و١٨من النقش (ي د هـ ن) (ج ز ب ت)،(ع ر ب م)،(س ب ل) ، (هـ ر م) ، (ف ن ن ن) ، التي كان يعتقد

---

(١)قرأ في ندوة "اليمن عبر التاريخ" جامعة عدن ٢٣-٢٥ سبتمبر ١٩٨٩ ونشر في كتاب "البحوث المقدمة الى الندوه العلمية حول اليمن عبر التاريخ ، ج٢، مطابع جامعة عدن ص ٨-٢٨.

الدارسون أنها في الحبشة [١] فقد تمكنا من تحديد بعض هذه المواقع في شبه الجزيرة العربية[٢] ، الأمر الذي يؤكد ضرورة البحث عن بقية الأماكن في الجزيرة العربية نفسها ، ولا علاقة لهذه الأسماء بشمال الحبشة. والاحتمال الذي أثاره البعض في ان التلف الذي لحق الاسطر ٧، ٨ ، ٩، من هذا النقش – لدرجة عدم وضوحه تماماً – ربما كان يحمل أسماء أماكن في الحبشة إن هذا الاحتمال ضعيف في نظرنا ، اذ لانتوقع في النقوش ذكر أسماء أماكن في منطقة ما ، ثم ذكر اسماء أماكن في منطقة اخرى ، ثم العودة مرة اخرى الى ذكر اسماء الأماكن التي ذكرت في المرة الاولى . ونفس هذا القول ينطبق على نقش المكرب السبئي "يثع أمر بين بن سمه عليّ" وهو عبارة عن تقرير أيضاً عن الانجازات التي قام بها هذا المكرب ، ويحمل الرقم (GL 418/419 = RES 3943) كما اننا لانعرف مدى تأثير ما يسمى بثقافة ولتون (Wilton - Cultur) في قيام الثقافة الحبشية [٣] .

ويبدو أن ثقافة السكان الاصليين في الحبشة كانت بدائية اذا ما قورنت بحضارة المهاجرين الجدد ، إذ أن كثيراً من الكتاب الكلاسيكيين يروون كيف أن هؤلاء السكان كانوا جامعين للثمار وصيادين ، وكيف انهم استعانوا بثقافة المهاجرين العقلية والتقنية ، كالدين واللغة واستخدام المحراث واستئناس بعض الحيوانات واستعمال الحديد واستخدام الحجارة في البناء [٤] .

---

(١) Wissman H. von, Die Mauer der SabaerhauptStadt Maryab (Nederl. Hist. Archaeol. Institute Istambul-Leiden 38) Leiden (1976) P. 48.

(٢) Al-SHIBAH A. Hassan, Die Ortsnamen in den Altsudarabischen Inschriften, Archaologischer Berichte aus dem Yemen, Bd. IV, Mainz am Rhein (1987), P. 33.

(٣) Cole S, The Prehistory of East Africa, London (1954), PP. 195,213-218;

(٤) Sergew H.S., Beziehungen Athiopiens zur Griechisch-Roemischen Welt, Diss. Bonn (1963) P. 8. Littmann E. Abessinier, Hamburg (1935) P.44; Ullendorff E., The Ethiopians, London (1960) P. 51.

فمن هم هؤلاء المهاجرين ؟ سبق أن اشرنا بأن هناك اجماعاً بين الدارسين على هجـــرة هؤلاء من جنوب جزيرة العرب إلى الساحل الافريقي من البحر الأحمر في وقت ما خــلال القرن العاشر ق.م. على أبعد تقدير . ونحن لانعرف أسماء هذه القبائل التي هاجرت في هذا التاريخ المبكر ، ولكننا نعرف أن أهم هذه الهجرات التي تمت في مراحل لاحقه كانت تضم قبيلة حبشت والاجاعز. واذا كان الأمر واضحاً بالنسبة للقبيلة الأولى(ح ب ش ت) الـتي ترد كثيراً في النقوش الجنوبية المتأخرة وصارت تطلق على الساحل الافريقي مـــن البحـــر الاحمر ، فإن الباحثين يختلفون حول قبيلة الأعاجز ، بل حول الاسم نفسه الذي أطلق فيمـا بعد أيضاً على اللغة الحبشية ، إذ تسمى باللغة الجعزية ، ويرجح اليوم بعض الدارســين (٥) ، أن هذا الاسم كان يطلق على قبيلة كانت تسكن المنطقة المحيطة بعدن الحاليـــة والـــتي يسميها بلينيوس (Plinus Secundus) في كتابه "التاريخ الطبيعي **Historia Naturalis** " **Cesania** .

صحيح أنه من الناحية اللغوية الصرفة أن عملية ابدال الجيم بحرف الكاف اللاتيني (C) مسألة واردة غير ان هناك كثيرا من المسائل التاريخية تحتاج الى بحث دقيق قبل الأخذ هـــذا الرأي ، منها ان هذا الاسم لم يرد حتى الآن سوى في النقوش التي وجدت في الحبشـــة ، اذ نعرف من النقش المعروف بالنصب التذكاري الأكسومي:(**Monumentum Adulitanum**) أن قبائل الجعز تقطن بالقرب من أكسوم.

أما سبب هجرة هذه القبائل فانه ربما يكمن في الصراع الذي ساد ممالك جنوب جزيرة العرب من جهة ، ولتأمين الطريق التجاري البحري من جهة أخرى ، بـــل وربمـــا كـــان الوصول الى مصادر بعض تلك التجارة هو الذي دفع الدولة السبئية الى ارسال جماعـــات الى الساحل

---

(٥) **Altheneim F. Und stiehl R., Die Araber in der alten Welt Bd. I Berlin (1964) P. 114.**

الافريقي لاقامة محطات تجارية في البداية ثم تتمكن هذه الجماعات من تأسيس مستوطنات هناك . وربما كان للظروف الديموغرافية أيضاً دور الا أننا لانعرفها على وجه الدقة الآن .

ونحن نوافق فون فيسمان ان اسم العلم (س م هـ ع ل ي) الذي ورد في النقش (JE 2825) الذي عثر عليه في مطرة ، شمال شرق أكسوم هو اللقب المقدس للمكرب السبئي سمه عليّ ينوف بن ذمار على الذي حكم عام ٥١٠ ق.م. تقريباً[٦]. تصنف الدراسات الباليوجرافية هذه النقوش ضمن المجموعة (I=1) أي أنها ترجع الى الفترة قبل عام ٤٥٠ ق.م. وهذا يعني أن شمال الحبشة كانت في القرن السادس ق.م. تابعة لسباء ، أي أن القبائل العربية الجنوبية قد تمكنت من بسط سيطرتها على السكان الاصليين للبلاد ، وهو أمر لابد أن يكون قد مر بعدة مراحل سابقة ، قضاها هؤلاء المهاجرون في التعرف على طبيعة البلاد وسكانها ، قبل أن يتمكنوا من تأسيس مستوطناتهم الجديدة .

أما عدم ذكر النقوش العربية الجنوبية لهذه المستوطنات فيمكن تفسيره ، بأن الدولة المركزية في مأرب كانت من القوة بحيث لم تكن بحاجة الى ذكرها ، اذ كانت تدفع الضرائب صاغرة ، ولم تكن بعد قد اصبحت ذات أهمية عسكرية كبيرة حتى تذكر في النقوش . وتتغير علاقة التبعية هذه بتدهور الأوضاع الداخلية في جنوب الجزيرة ، اذ نجد اسم الحبشة يتكرر كثيرا في النقوش المتأخرة ، اما كمنافس للممالك العربية الجنوبية أو كمتدخل في شؤونها الداخلية .

وتتضح علاقة التبعية هذه اذا ماقورنت بالعلاقات التي سادت الممالك العربية الجنوبية فيما بينها . فنحن نعرف ان الدولة العربية الجنوبية كانت ترتكز على صيغة " الاله + المكرب + الشعب = القبيلة " . وأن القبلية التي كانت تسود في التحالف القبلي تمثل

Wissmann H. von, Die Geschichte Von Saba.I, Wien (1975) P. 60. (٦)

الضلع الثالث لهذه الصيغة . بمعنى آخر فان التنظيم السياسي للدولة العربية الجنوبية كان يتكون من الاله + الحاكم + الشعب . فقد ساد في سبأ الثالوث : المقة + المكرب + سبأ . ونفس هذه الصيغة السبنية سادت ايضا في شمال الحبشة في هذه المرحلة ، كما يفهم من عدة نقوش .

فكل أسماء الالهة السبنية مثل المقة(ا ل م ق هـ)[٧] وهوبس(هـ و ب س)[٨] وهبس بحذف الواو[٩] وعثتر (ع ث ت ر) بحرف الثاء كما في النقوش : JE 13/2,JE 2771,JE 2964/2أو بإبدال الثاء بالسين أي(ع س ت ر)[١٠]، وذات بعدان (ذ ت ب ع د ن)[١١] وذات حميم (ذ ت ح م ي م)[١٢] على ان ذلك لا ينفي وجود آلهة أخرى في الحبشة ، فقد وجدت بعض الآثار التي تحمل أسماء آلهة اخرى أو رموزها : مثل رمز الحياة المصري عنخ وأخرى تشير الى وجود أتباع للديانة المصرية _ المروية القديمة في كل من اكسوم وعدوليس ومطرة في وقت ما[١٣]، أما التمثال الصغير لبوذا الذي وجد في اكسوم ، فأننا نعتقد أنه مما كان يحمله التجار الهنود معهم[١٤] .

ويبدو أن والياً أو نائباً كان يعين من مأرب هو الذي يقوم بتمثيل المكرب السبني أمام القبائل الكبيرة هنالك ، فـ (ل م ن) الذي يذكر في النقش (JE2825) انما هو نائب سمه

---

(٧) انظر النقوش:
JE63/2/ JE100/2-3/ JE 105/2JE110/13 JE111/3 JE112/2-3/JE214/2 JE1370/2

(٨) انظر النقش 14/2 .T.

(٩) انظر النقشين JE 4020/ JE1370/2.

(١٠) انظر النقشين JE 1370/2 JE 671/4.

(١١) انظر النقشين JE 1370/2 JE2525/2.

(١٢) انظر النقش JE 1370/2

(١٣) Anfray A., L'archeologie d'Axoumen en 1972/Paideuma 18/P. 71.

(١٤) de Contenson H., les fouilles de Haoulti en 1959/AE 5 P.P. 45-46.

عليّ (س م هــ ع ل ى) في الهضبة الحبشية . ولا بد هنا من التمييز بين (ل م ن) هـذا و (ل م ن) الذي يذكر في النقش (JE4)، إذ أن الفارق الزمني بين النقشين باليوجرافيــا يصل حوالي نصف قرن من الزمان .

أما ممالك جنوب الجزيرة التي كانت معاصرة لسبأ في هذه المرحلة (قتبان – حضرموت – أوسان) فقد سادت فيها أوضاع مختلفة عن تلك التي رأيناهــا في ســبأ ومســتوطناها الجديدة في شمال الحبشة ، وإن كانت تشترك معها في تعظيم الإله عثتر إلى جانب آلهتــها الخاصة التي تختلف عن الآلهة السبئية في أسمائها ورموزها .

فنحن نعرف من التقرير الحربي لــ (كرب ايل وتر بن ذمار عليّ) أن مملكــة قتبــان كانت تعظم الآلهة (عم) و (أ ن ب ى) ، وحضرموت عظمت الآلهة (سين) و (حــول) ، وأوسان (س م هــ ت) ، أما في نشان (السودة الحالية في الجوف) فقد تم تحطيم معبـد لاله لم يذكر اسمه واستبدل به معبد لإله الدولة السبئية المقة . إن هذا التمييز في العلاقة بين سبأ ومستوطناها في الحبشة من جهة ، وسبأ وقتبان وحضرموت وأوسان من جهة أخـرى ، برجع في الواقع إلى أن الممالك العربية الجنوبية كانت من القوة لدرجة أجبرت فيه مــأرب على منحها نوعاً من الإستقلال في هذه الفترة (مطلع القــرن الرابــع ق.م.) بعكــس المستوطنات في شمال الحبشة .

وتتضح الصورة أكثر إذا ما أخذنا بعين الإعتبار أن هذه الممالك العربية الجنوبية كانت تشكل حوالي ثلثي مساحة الدولة السبئية المكتظة بالسكان ، وما قد يترتب من نتــائج في حالة قيام حركة تمرد واسعة النطاق ضد الدولة المركزية التي كانت تمثلها مأرب ، وهــو الأمر الذي حدث بالفعل وأدى ليس فقط إلى أفول نجم الدولة السبئية ، بل إلى اســتقلال تلك المستوطنات الحبشية عن مأرب.

ففي وقت ما بين نهاية القرن الخامس ومطلع القرن الرابع ق.م. ساد الإضطراب جنـــوب جزيرة العرب كلها نتيجة لتمرد هذه الممالك ، ويبدو أن هـــذا العصيـــان شمـــل أيضـــاً المستوطنات السبئية في الحبشة ، وساعد الولاة على هذا الإستقلال عن مأرب، ولم تكـــن الدولة السبئية بقادرة على إعادة الأوضاع إلى طبيعتها . إذ أن حسم الصراع الداخلـــي ، الذي يعتبر المهمة المركزية الأولى ، والتدخل في إفريقيا في الوقت نفسه ، كانـــا يتطلبـــان قدرات عسكرية عالية لم يكن بمقدور الدولة السبئية التوفيق بينهما ، ثم تلقـــت الدولـــة السبئية الضربة القاضية في العقد الأخير من القرن الخامس ق.م.[١٥] .

وإلى هذه الفترة ترجع النقوش الحبشية التي كتبت بالأحرف واللهجة السبئية التي يرد فيها تعبير (م ل ك / د ع م ت / و س ب أ) ويبدو أن قبيلة (ي ج ع ذ ن) تمكنـــت من الإنفراد بالحكم هناك .

ولا نستغرب لذكر اسم سبأ هنا ، فالمقصود ليست سبأ العربية الجنوبية ، وإنما أحـــد ثلاثـــة موانـــئ حبشـــية تحمـــل نفـــس الإســـم ، وقـــد ذكرهـــا اســـترابون (Strabo XVI, IV, 770 -771) [١٦] نقلاً عن ارتميـــدورس **Artemidoros** واجاثـــا رخيديس **Agatharchides** أي من معلومات ترجع إلى القرن الثالث ق.م.

ومن هذه المرحلة المبكرة لانعرف نقشاً يرد فيه ذكر لاكسوم أو الحبشة التي كانت تعظـــم آلهة السبئية وتتخذ السبئية لغة لها ، ونستطيع القول إن هذه المرحلة السبئية يمكن أن نطلق عليها أيضاً مرحلة يحا .

---

(١٥) انظر النقشين **GL 1000 A/B = RES 3945 / 3946**.

(١٦) **Wissmann H. von, De Mari Erthrae, Stuttgarter Geographische Studien 69/Stuttagart (1957) P. 304-309.**

ويحا هو إسم قرية في شمال شرق أكسوم . كانت على مايبدو المركز الحضاري والديني الرئيسي للهضبة الحبشية خلال هذه المرحلة .. وإلى جانب النقوش نجد بالنسبة لهذه الفترة التاريخية المبكرة بعض المباني والمعابد وبعض اللقى البرونزية والآثار المصنوعة من قطعة واحدة من الحجر مثل أعمدة أكسوم الشهيرة .

لقد عثر الدارسون في يحا على معبد رائع وعلى اقدم نقش حبشي – حتى الآن – مكتوب بالحروف واللغة السبئية على شكل خط المحراث ، إلى جانب بعض شواهد القبور التي تعتبر تقليداً واضحاً لشبيهتها في جنوب جزيرة العرب.

ومن دراسة معبد يحا البيضاوي الشكل يتضح أنه يرجع إلى فترة الوجود السبئي هنالك ، ومن المحتمل أنه كان يحمل نفس اسم معبد المقة المركزي في مارب أوام (أوم)، ذلك أن اسم هذا المعبد يرد في النقش الذي عثر عليه في يحا (CIH651) ناقصاً حرف هكذا (– و م) ، وقد أضاف ناشر المدونة حرف (ب) ليصبح الاسم (ب و م) . وهذا الاسم غريب لمعبد حتى من الناحية اللغوية ، فقد كان المعبد مبنياً من الحجارة الموقوصة (المصقولة) والمرصوفة فوق بعضها بشكل دقيق ، وكان الأساس مستطيل الشكل وأبعاده (٢٠ × ١٥ م) . وللأسف الشديد لم تجر دراسات بالراديوكاربون ١٤ المشع (C14) ليتسنى لنا تحديد زمن بناء المعبد من ثم زمن كتابة النقوش (DAE 27-29) .

وفي نقوش هذه الفترة (JE 13/3;JE 100/1;JE 110/2;) يرد ذكر جماعة من قبيلة (ج ر ب ي ن) على أنهم (ذ م ر ي ب) أي الذين من مارب ، الأمر الذي يوحي بأن الولاة هناك أطلقوا اسم مارب على إحدى مستوطناهم تيمنا بمارب العاصمة السبئية ، أو أن هذه القبيلة ماربية الأصل . وفي نقش يحا ٤ يرد ذكر لجماعة على أنهم (ب ن / وع ر ن / ر ى د ن) أي (من وعران ريدان) والاسم (ر ي د ن) يذكرنا بعدد من المواقع في جنوب الجزيرة العرب التي تحمل الاسم (ريدان) . ولأن النقش باليوجرافيا يرجع الى

مرحلة مبكرة من التاريخ ، فان الارجح هنا أن أصحاب هذا النقش ربما كانوا من سكان منطقة ريدة الحالية (ر ي د ت : في النقوش المتأخرة) ، لأن ذكر الآلهة السبئية في نقوش هذه المرحلة يبعد احتمال أن ينسب هؤلاء القوم إلى قصر ريدان القتباني ، أما قصر ريدان الحميري فقد تأسس في فترة لاحقة .

بل إن كثيراً من اسماء المواقع في شمال الحبشة عبارة عن تكرار لأسماء مواقع أو أودية عربية جنوبية ، نذكر منها على سبيل المثال : مرب ، وهو اسم وادي إلى الشمال من أكسوم ، هوزن ، وهو اسم موقع أثري جنوب شرق أكسوم ويقابله في جنوب جزيرة العرب مخلاف هوزن – أي حراز الحالية[١٧] .

أما رسوم الوعل التي تتكرر كثيراً على جبال (يحا) و (هاولتي) وكذلك صور الثور المنقورة على جبال (مطرة) فضلاً عن تمثال الثور الجميل المصنوع من الألبستر الذي وجد في (هاولتي) ، كل هذه لم تكن سوى رموز للإله السبئي المقة التي نراها على عشرات القطع العربية الجنوبية[١٨] .

أما أعمدة أكسوم فإنها للأسف الشديد لايوجد عليها أي نقوش ، الأمر الذي يعقد معرفة بانيها والهدف من بنائها ، وإن كنا نعتقد أنها كانت تستعمل في الطقوس الدينية .

---

(١٧) Conti Rossini, Storia d,Ethiopia, Bergamo (1928), P. 103. Littamann E., Deutsche Aksum-Expedition, Berlin (1913), PP. 55-56.

بالنسبة لهوزن انظر: AL-Shibah A. Hassan Op. Cit /P. 151. والهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق قاضي الأكوع، الرياض (١٩٧٤) ، ص ١٠٨، ٢٢٣ الخ. والاكليل ، ج٢، تحقيق القاضي الأكوع ، القاهرة (١٩٦٦) ، ص ٤٢و٢٤٥. الاكليل ج١ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة (١٣٦٨هـ) ص ١٢٦.

(١٨) Hailemariam G., Objects found in the neighbourhood of Axum,AEI, P.50-51 /Pl. 15.

وقد كتب عن هذه الأعمدة الكثير ، فمن قائل أنها تمثل مرحلة متطورة للمنهير (Menheir) الذي كان عبارة عن صخرة توضع على شكل عمودي، وآخرون يرون أنها تشبه المسلات المصرية وأنها متأثرة بها ، وفريق ثالث يعتقد أن هذه الأعمدة ليست سوى تقليد للمعابد الهندية القديمة بل إن كرنكر (Krenker) ينفي وجود مثل هذه الأعمدة في جنوب بلاد العرب(١٩) .

والواقع أن هذه الأعمدة تعتبر واحدة من الشواهد على المستوى الحضاري والفني الذي بلغه سكان الحبشة . فحجم أطول عمود مازال قائما حتى الآن يبلغ ٢١ مترا ويرتكز على قاعدة مستطيلة طولها ٢,٦٥ × ١.١٨ مترا ، واساس هذا العامود مدفون تحت الأرض على عمق ٣ أمتار ، أي أن طول العمود الاصلي يبلغ ٢٤ مترا. وكان اطول عمود اكسومي يبلغ طوله ٣٤مترا، لم يبق لنا منه سوى أجزاء متناثرة . وقد استخدم البناء الأكسومي أحجار الجرانيت الضخمة التي لم تكن موقصة (مصقولة) وعلى رؤوس هذه الأعمدة الرائعة البناء والشكل نجد فتحات تشبه الشبابيك . وشكل هذه الأعمدة يرمز بدون شك إلى بيوت مكونة من عدة طوابق ، تماما على شكل البيوت التي مازلنا نراها اليوم في اليمن (منازل صنعاء القديمة وناطحات السحاب في شبام حضرموت) . أما الزخارف الجانبية للأعمدة فإنها تحاكي فن البناء العربي الجنوبي القديم والحديث في الوقت نفسه (انظر الشكل رقم ١).

إن هذه الأعمدة لا علاقة لها بالمسلات المصرية التي نعرفها جيدا فقد كانت هذه المسلات المصرية غالبا مغطاة بالنقوش الهيروغليفية التي تحدثنا عن انجازات الملك الذي نصبها . أما احتمال أن هذه الأعمدة الأكسومية متأثرة بالفن الهندي ، فهو رأي يغفل أن اتصال الحبشة بالهند كان في مرحلة لاحقة ، بينما الأعمدة الاكسومية في رأي أغلب الباحثين تعود إلى عصور ماقبل الميلاد ، وتشبه هذه الأعمدة إلى حد كبير الأشكال العربية

---

(١٩) Krenker D., DAE, P.30; Playne B., Suggestions on the Origin of the (fales Doors) of Axumite Stelae AE 6, PP. 279-280.

الجنوبية ، فقد تم العثور على مجموعة من خمسة أعمدة في منطقة (هترت) إلى الشرق من أكسوم ، أكبرها في الوسط وعلى عمودين أصغر منه حجما في الجانبين ، وهذه تشبه الأعمدة التي كانت قائمة حتى وقت قريب في منطقة المساجد بالقرب من مأرب .

بل أن مجموعة من شواهد القبور التي عثر عليها في جنوب الجزيرة والحبشة تتشابه إلى حد كبير . فالعمود الذي عثر عليه في جبل البلق الأوسط في مارب الذي يبلغ ارتفاعه ٣ أمتار لايختلف كثيرا عن شبيهه الذي عثرت عليه البعثة الألمانية في الحبشة[٢٠] . وعلى العموم ورغم نقص معلوماتنا عن الهدف من إقامة هذه الأعمدة وتاريخها والوسائل الفنية التي استخدمت في نصبها ، إلا أن هذه الأعمدة لها أهمية كبرى في التاريخ الحبشي ، فهي بشكل ما ، تمثل رمزا للحضارة الحبشية .

وهنالك عدد من اللقى الأثرية التي وجدت في الحبشة وتشبه نظيرتها التي وجدت في بلاد العرب الجنوبية . فبالنسبة للمباخر (م ق ط ر بالعربية الجنوبية) فإن القطعة التي وجدت في (عدى جلامو) عام ١٩٥٤ تشبه المباخر العربية الجنوبية العديدة (قارن الشكل رقم ٢) أما الأختام والقطع البرونزية التي وجدت في الحبشة وبلاد العرب فلا حاجة إلى القول بأنها كانت متطابقة تماما ..

وإذا كان عصر الملك عيزانا ، الذي شغل القرن الرابع الميلادي ، يعتبر من أزهى عصور الإمبروطورية الأكسومية ، فإليه يرجع الفضل أيضا في ازدهار الحركة الأدبية في البلاد ، ففي عهده نجد ولأول مرة نصا جعزيا مشكلا . وقد سبق أن أشرنا إلى أن مهاجرين من جنوب جزيرة العرب أتوا إلى الحبشة ، وأكبر تلك الهجرات قبائل (ح ب ش ت) حبشة التي سميت باسمهم البلاد وقد استقر هؤلاء المهاجرون في بداية الأمر في شمال الحبشة

---

(٢٠) انطر اللوحة رقم (٢) في: DAE, P.2, Abb2.

حيث أسسو المستوطنات وبنوا المعابد والحصون والمنشآت المائيـــة ، واســتعملوا في نقوشهم الخط السبئي . ومنذ القرن الأول الميلادي تقريبا أقام هؤلاء هناك مملكة توســعت شمالا وجنوبا ، وتم الإختلاط بين الساميين والسكان الأصليين ، ونتج عن ذلك الإختلاط اللغة الجعزية وما اشتق منها من لغات سامية فيما بعد وهي مازالت سائدة حـــتى الآن في الحبشة ، وهذه اللغة الجعزية التي تطورت من أصلها السبئي ، صارت لغة مملكة أكســوم ، ثم لغة الأدب والكنيسة في العصر المسيحي – أي بعد أن اعتنق عيزانا المســيحية – بــل مازالت حتى يومنا هذا لغة الكنيسة ، تماما كاللغة اللاتينية في الكنيسة الكاثولوكية .

وتظهر نتيجة هذا الإختلاط في إبتكار حرفين جديدين في متن اللغة من جهة وفي ترتيـب الجملة من جهة أخرى . ذلك أن كثيرا من أسماء النباتات والحيوانات في اللغـــة الجعزيـــة يرجع أصلها إلى الكوشية ، كما أن ترتيب الجملة قد تغير إذ يقدم المفعول به على الفعـــل والمجرور (المضاف إليه) قبل الاسم ، لانستطيع هنا أن نتابع كل اللغات السامية في الحبشـة ، لأن موضوعنا يقتصر على دراسة الفترة القديمة واللغة التي تحدث بها النـــاس في تلـك الفترة ، أي الجعزية ، وهي لغة تعتبر لدى الدارسين واحدة من اللغـــات الميتـــة ، حيـــث لاتستعمل كلغة تخاطب وكتابة منذ حوالي القرن العاشر الميلادي وإن بقيت كلغة لكنيسة الحبشية

ولقد اعتمد الأكسوميون في كتابة لغتهم على الحروف السبنية واقتبســوا منـــها ٢٤ حرفا فقط من أصل تسعة وعشرين حرفا ، وأضافوا ستة حروف جديدة منها أربعة حروف ذلقية. والحروف الخمسة السبنية التي لم تستعمل في الجعزية لعدم وجود الأصوات التي توازيـــها هي: الثاء ، الذال ، السين[٣]، الظاء والغين ،أما الحرفان الجديـــدان فـــهما **PTT** والأربعـة الحروف الذلقية التي أضافها الأحباش هي : قوا ، خوا ، كوا ، جوا (انظر الشكل رقم ٣)

إن أقدم ماوصلنا من الكتابة لم يكن مشكلا تماما كالعربية الجنوبية وكان يكتب مـــن الشمال إلى اليمين . ومن عصر الملك عيزانا لدينا عدة نقوش مشكلة، إذ استخدم لهـــذا

الغرض دوائر صغيرة تعلق على الحرف الأصلي في الجوانب أو بإطالة أحد أضلعه ، أمـــا الحروف الأربعة الذلقية فتكتفي بخمس حركات لكل حرف منها.

إن هذه الأشكال المختلفة للحروف الجعزية هي السبب في الإرتفاع النسبي في عـــدد حروفها ، فالجعزية فيها ٣٠ حرفا أصليا ، ستة وعشرون منـــها تحـــوي ســـبعة أشـــكال (حركات) وأربعة أخرى تحوي خمسة ، أي أن هذه اللغة تضم ٢٠٢ شكلا من الحـــروف (قارن الشكلين ٣و٤) وإلى جانب المادة النقشية فقد وصل إلينا عدد كبير من الأدبيـــات التي مكنتنا من دراسة هذه اللغة بشكل جيد.

ولا نود هنا الخوض في الناحية اللغوية الصرفة ، ولكن يهمنا فقط معرفة هذه اللغة من حيث جذورها الأصلية ، وقد تبين لنا مماسبق التأثير العربي الجنوبي في الحروف الجعزيـــة ، فماذا عن التأثير اللغوي ؟ للإجابة على ذلك لابد من التذكير بأننا نملك عددا كبيرا مـــن النقوش العربية الجنوبية –عدة آلاف – ولكنها للأسف الشديد هي الشواهد الوحيدة التي نملكها عن لغة جنوب الجزيرة . ويزيد الأمر تعقيدا إذا ما أخذنا بعين الإعتبـــار أن أربـــع لهجات قد سادت (إذا استثنيا اللهجتين الأوسانية والهرمية – نسبة إلى لهجة النقوش الـــتي وجدت في مدينة هرم بالجوف) في المنطقة هي السبئية والقتبانية والحضرمية والمعينيـــة ... ورغم أن الفوارق بين هذه اللهجات لاتهمنا كثيرا فكلها تشترك في أنها تتحدث بضمـــير الغائب أو الغائبة ، أي أن كثيرا من أشكال قواعد اللغة لم تصل إلينا بعد ، اضف إلى ذلك أن هذه اللهجات كتبت بدون تشكيل وهو الذي يعقد أمر نطقها ، بشكل صحيـــح . إذن فإن مسألة المقارنة تعتبر محدودة خاصة في مجال علم الصرف. وجدير بـــالذكر هنـــا أن الظروف ساعدت العلماء منذ وقت طويل على التقدم خطوات كبيرة في دراســـة آثـــار الحبشة وكتاباتها القديمة، وقد كان من الطبيعي أن يستفيدوا من ذلك كثيرا في دراســـاتهم عن حضارة جنوب الجزيرة .

ولا شك في أن التشابه الكبير بين الكتابة الحبشية (الجعزية) والكتابة العربية الجنوبية القديمة هو الذي مهد السبيل لقراءة هذه الأخيرة .

فبالنسبة للضمائر نذكر اسم الموصول المذكر (ذ) في اللغتين ، وربما ايضا إسم الإشارة المذكر (ذن) في العربي الجنوبي الذي يقابله تقريبا (ذ) الجعزية ، ولكن بدون حرف النون . وتذكرنا الضمائر الشخصية في اللغة الجعزية (ي إ ت – و إ ت) بأشكال العربية الجنوبية (هيأ ، هوأ) التي تكتب في النقوش عادة في الحالين (هـ أ) ، أو (هيت) و (هـوت) (هـ ي ت ، هـ و ت) وإن كانت ترد هنا كأسم إشارة فقط.

ومن ناحية أخرى فإن غياب الحركات في العربية الجنوبية يجعل من الصعوبة بمكان تقرير شكل الفعل المضارع ، هل كان يقتل أو يقتل ، ثم هل كان في العربية الجنوبية حالتان من حالات المضارع يقتل ويقتل (يقتل) لأن الحروف واحدة في كل هذه الحالات. ورغم ذلك فأنه يمكننا القول أن أشكال الأفعال العربية الجنوبية كانت قريبة الشبه من الجعزية أكثر من قربها من العربية الشمالية ، وهو الأمر الذي يتضح في اللغة المهرية التي تعتبر آخر بقايا مجموعة اللهجات العربية الجنوبية[٢١] .

وإذا انتقلنا إلى الجانب النحوي والصوتي والمعجمي فإننا نجد تشابها بين اللغتين. أما الكلمات فإن الدارسين للنقوش العربية الجنوبية يعتمدون بالأساس على معاجم اللغة الجعزية خاصة بالنسبة للكلمات التي ترد في النقوش القديمة . وقد لوحظ أن جذر ثلث تلك الكلمات العربية الجنوبية في الجعزية هي ألفاظ قانونية ، وهناك أيضا كلمات مشتركة بين اللغتين في مجال البناء والزراعة ...إلخ. ومعلوم أن النقوش العربية الجنوبية تستخدم خطا مستقيما للفصل بين الكلمات ، وقد استعار الأحباش أيضا هذا الخط الذي تحول لديهم إلى

(٢١) Hofner M., Das Sudarabische der Inschriften und der lebenaden Mundarten, Handbuch der Orientalistik, Bd. 3. (1954) P.33.

نقطتين(:) توضع بعد كل كلمة ، وأربعة نقاط (: :) توضع في نهاية الجملة ، أما الأرقام فقد استعاروا الأرقام الإغريقية مع وضع خطين صغيرين أعلى وأسفل كل رقم (أنظر شكل رقم٥) .

أما الكتابة فباستثناء الكتابة السامية المسمارية ، أي الأكادية والأوجاريتية ، تنفرد الحبشية بكونها تتجه من اليسار إلى اليمين ، خلافا للكتابات السامية الأخرى . والكتابة العربية الجنوبية التي منها أخذت الكتابة الحبشية تتجه من اليمين إلى اليسار، وإن كانت هذه الكتابة في المراحل الأولى تستخدم طريقة خط المحراث **Bustrophedon** وذلك بابتداء السطر الأول من اليمين إلى اليسار في الغالب ثم ابتداء الثاني من حيث انتهى الأول أي من اليسار إلى اليمين ، وهكذا . وتظهر النقوش الحبشية الأولى التي نعرفها أن الكتابة في تلك المرحلة كانت تتجه من اليمين إلى اليسار كما في الأصل العربي الجنوبي المشتقة منه ، ولكن الإتجاه الآخر طغى على الأصل تماما فأصبح هو المعتمد في النقوش . ويرجع هذا التغيير في اتجاه الكتابة الحبشية إلى الأثر الذي احدثته الكتابة اليونانية فيها ، إذ أن هذه تتجه من اليسار إلى اليمين .

ويبدو أن الشكل الوحيد الذي تغير تغيرا واضحا أثر تغير اتجاه الكتابة هو شكل الراء الذي انقلب على نفسه باتجاه اليمين ، غير ان فتحته ظلت من جهة الأحرف التي تليه لا الأحرف التي تسبقه نظرا لتغير اتجاه الكتابة نفسها ، أما الأشكال الأخرى فلا تظهر تغيرا في اتجاهها ، بل إن بعضها كان في الأصل مناسبا للأتجاه الجديد من اليسار إلى اليمين نحو الأشكال ج ، ن ، ك ، التي تفرض طبيعتها أن يبدأ بكتابتها من الجانب الأيسر (٢٢) .

صحيح أن اللغة الجعزية تعتبر من اللغات الميتة ، على أن اعتناق الأحباش

---

(٢٢) قارن رمزي البعلبكي : الكتابة العربية والسامية، بيروت (١٩٨١) ، ص ١٨٥-١٨٧.

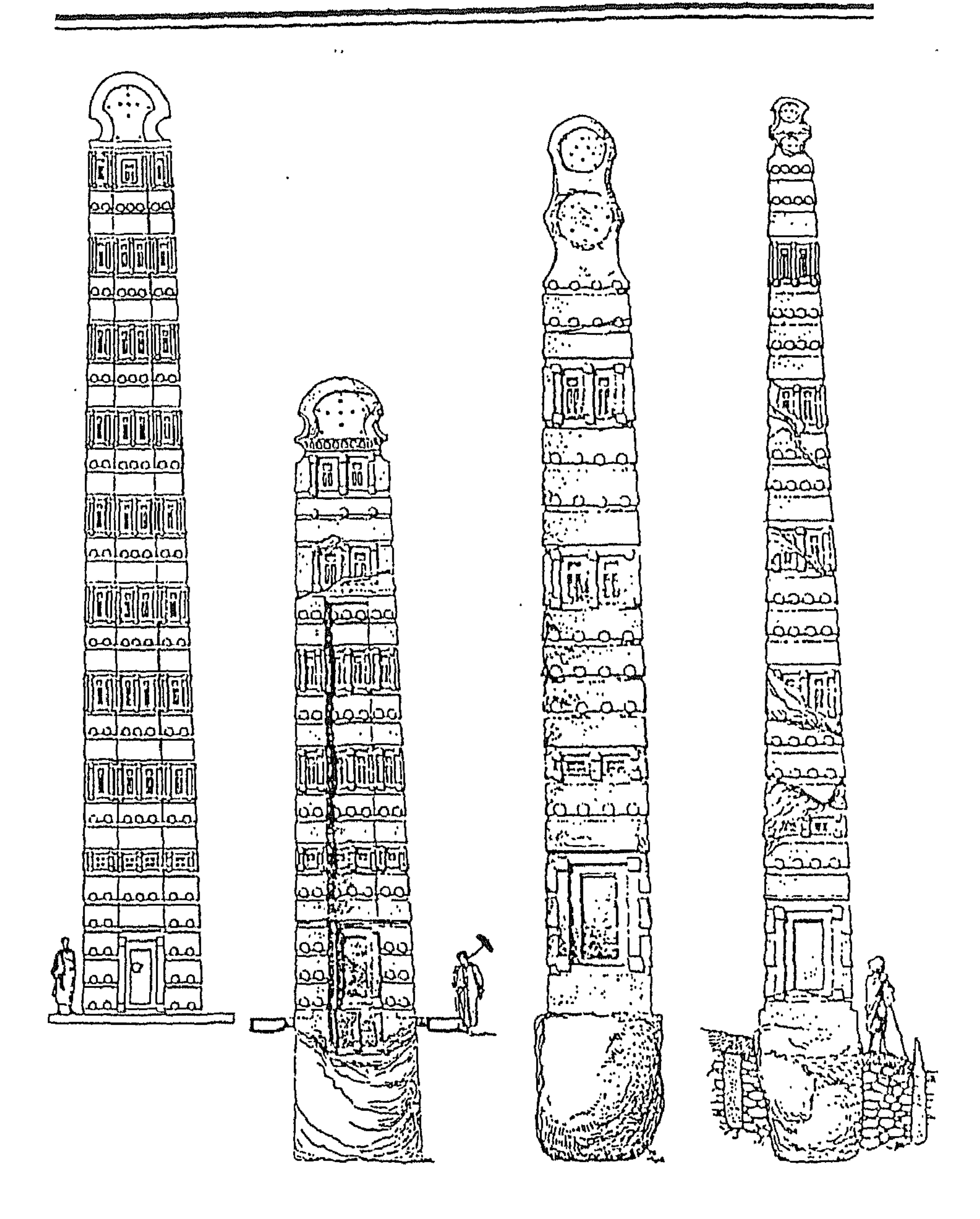
للمسيحية قد أدى إلى ازدهار حركة ترجمة لبعض الأعمال من اللغـــة الأغريقيـــة إلى الجعزية خلال الفترة ما بين القرن الخامس والسابع ، فترجمت بعض أسفار الكتاب المقــدس وبعض المؤلفات التي تعالج الشؤون الدينية وقوانين الأديرة . وحركة الترجمة هذه حــافظت على اللغة الجعزية من الإنقراض ، إذ لا يوجد أحد اليوم في الحبشة يتحدث بها باســـتثناء بعض الرهبان الذين تجبرهم وظائفهم الكنسية على تعلمها وذلك من أجل قراءة النصـوص الدينية ، كما يعرفها بعض علماء الساميات. غير أن تطور وانتشار اللغة الجعزية ومـــن ثم تأثرهاباللغات الكوشية كان السبب في ظهور عدة لغات سامية في الحبشة –كما أسـلفنا – إلى درجة أن مجموعتين من السكان تنتميان بالأصل إلى فرع لغوي واحد هــــي الجعزيــة لاتسيطع أن تتفاهم فيما بينها .

نخلص مما سبق ان المهاجرين الساميين قد تمكنوا من تأســـيس مســـتوطنات في شمـــال الحبشة وبدأت هذه المستوطنات تدريجيا في تنظيم نفسها على غرار ماكان سائدا في جنوب الجزيرة العرب ، ثم اختلط هؤلاء الساميون بالسكان الكوشيين ، وأحتلوا موقع الصـــدارة بحكم تفوقهم الحضاري. ومنذ بداية القرن الأول الميلادي تقريبا نلاحظ ظــــهور مملكـــة مستقلة قوية صار حكامها ينبون القصور(٢٣) ، أي أنه قد تم توحيد المناطق كلها بقيـــادة زعيم ما وأتخذ أكسوم مقرا لها.

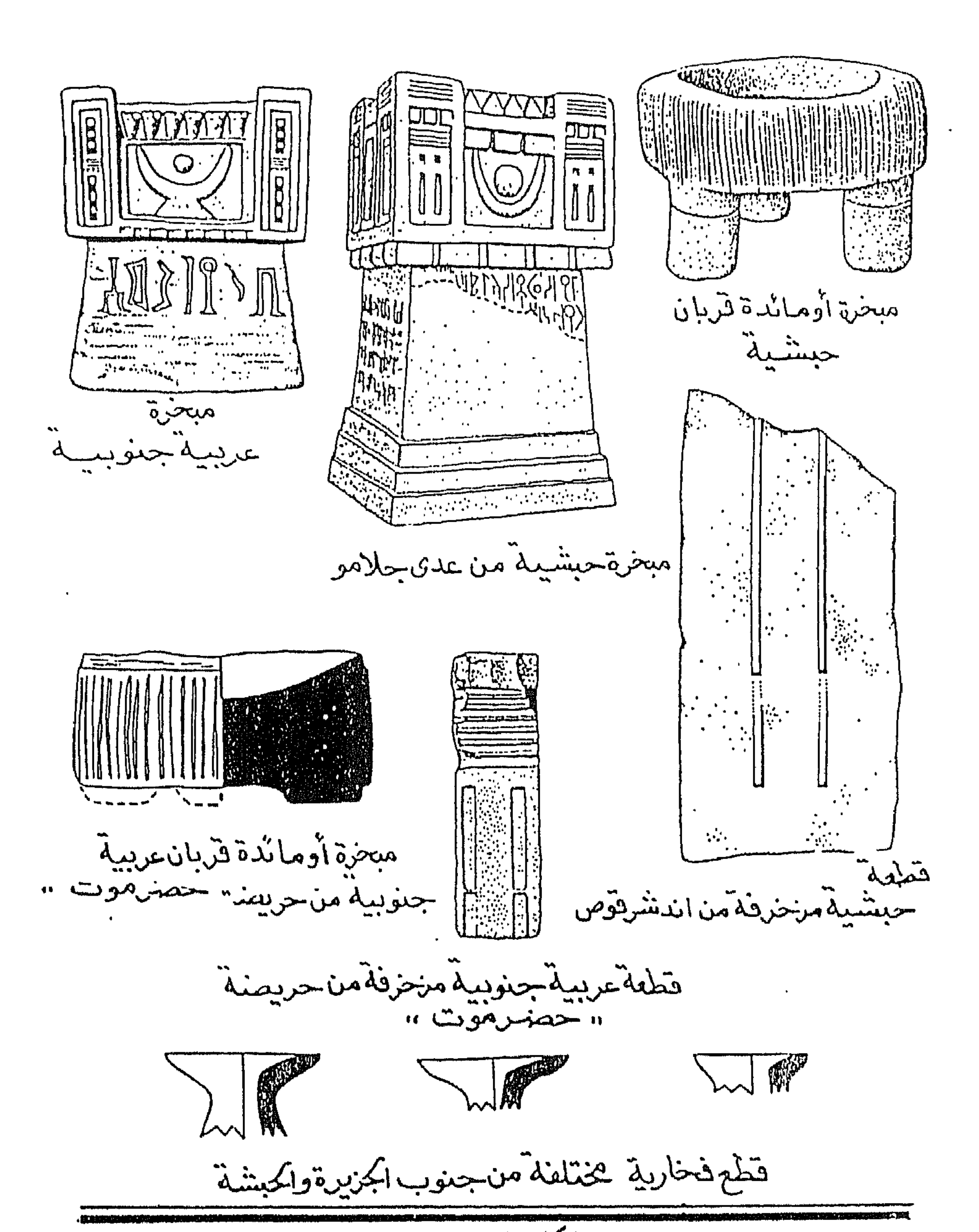
وأكسوم التي أصبحت تحتل مركز الصدارة بدلا عن يحا القديمة ، كانت تسيطر على رقعـة امتدت على شكل مستطيل طوله (٣٠٠كم) وعرضه (١٦٠كم) وتقع بين خطي العــوض ١٣ و ١٧ شمالا و ٣٠ و ٤٠ شرقا. وأصبحت عدو ليس واحدة من أهم الموانئ علـــى البحر الأحمر التي كانت تصدر منها أكسوم العبيد والذهب والحيوانات وبضائع أخرى ممـا كانت تنتجه الحبشة نفسها أو مناطق أخرى في أواسط أفريقيا.

---

(٢٣) Ptolemaius Claudius. Geographike Hyphegesis/4/7/25.



شكل رقم " ١ " أعمدة أكسوم


مبخرة أو مائدة قربان
حبشية
مبخرة
عربية جنوبية
مبخرة حبشية من عدى جلامو
مبخرة أو مائدة قربان عربية
جنوبية من حريضة " حضرموت "
قطعة
حبشية مزخرفة من اندشرقوص
قطعة عربية جنوبية مزخرفة من حريضة
" حضرموت "
قطع فخارية مختلفة من جنوب الجزيرة والحبشة

شكل رقم " ٣ "

جعزي	عربي جنوبي	عربي شمالي
		ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز سّ س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي
ETHIOPIC	S. ARABIAN	ARABIC

شكل رقم " ٣ "

شكل رقم «٤»

الأشكال - الحركات - الجعزية

ሀ	ሁ	ሂ	ሃ	ሄ	ህ	ሆ
ለ	ሉ	ሊ	ላ	ሌ	ል	ሎ
ሐ	ሑ	ሒ	ሓ	ሔ	ሕ	ሖ
መ	ሙ	ሚ	ማ	ሜ	ም	ሞ
ሠ	ሡ	ሢ	ሣ	ሤ	ሥ	ሦ
ረ	ሩ	ሪ	ራ	ሬ	ር	ሮ
ሰ	ሱ	ሲ	ሳ	ሴ	ስ	ሶ
ቀ	ቁ	ቂ	ቃ	ቄ	ቅ	ቆ
በ	ቡ	ቢ	ባ	ቤ	ብ	ቦ
ተ	ቱ	ቲ	ታ	ቴ	ት	ቶ
ኀ	ኁ	ኂ	ኃ	ኄ	ኅ	ኆ
ነ	ኑ	ኒ	ና	ኔ	ን	ኖ
አ	ኡ	ኢ	ኣ	ኤ	እ	ኦ
ከ	ኩ	ኪ	ካ	ኬ	ክ	ኮ
ወ	ዉ	ዊ	ዋ	ዌ	ው	ዎ
ዐ	ዑ	ዒ	ዓ	ዔ	ዕ	ዖ
ዘ	ዙ	ዚ	ዛ	ዜ	ዝ	ዞ
የ	ዩ	ዪ	ያ	ዬ	ይ	ዮ
ደ	ዱ	ዲ	ዳ	ዴ	ድ	ዶ
ገ	ጉ	ጊ	ጋ	ጌ	ግ	ጎ
ጠ	ጡ	ጢ	ጣ	ጤ	ጥ	ጦ
ጰ	ጱ	ጲ	ጳ	ጴ	ጵ	ጶ
ጸ	ጹ	ጺ	ጻ	ጼ	ጽ	ጾ
ፀ	ፁ	ፂ	ፃ	ፄ	ፅ	ፆ
ፈ	ፉ	ፊ	ፋ	ፌ	ፍ	ፎ
ፐ	ፑ	ፒ	ፓ	ፔ	ፕ	ፖ

ቈ	ቍ	ቋ	ቌ	ቊ
ኈ	ኍ	ኋ	ኌ	ኊ
ኰ	ኵ	ኳ	ኴ	ኲ
ጐ	ጕ	ጓ	ጔ	ጒ

1	፩	6	፮	11	፲፩	20	፳	70	፸
2	፪	7	፯	12	፲፪	30	፴	80	፹
3	፫	8	፰	13	፲፫	40	፵	90	፺
4	፬	9	፱	14	፲፬	50	፶	100	፻
5	፭	10	፲	15	፲፭	60	፷	200	፪፻

1000 ፲፻
10000 ፻፻
100000 ፲፻፻

الأرقام الجعزية

شكل رقم " ٥ "

الهجر - المدينة في اليمن القديم

إن كون المدن قد أصبحت منذ ظهورها المراكز الأساسية للحضارة من الأمور المعروفة منذ أمد بعيد . ولهذا كانت المدن باستمرار مادة دائمة للأبحاث الأثرية. وهذا ينطبق بشكل خاص على المدن القديمة اليونانية الرومانية ، ومدن أوروبا في عصر الإقطاع المتطور ...إلخ. وكانت مدن المجتمعات الطبقية المبكرة في الشرق وأفريقيا وأمريكا ما قبل كولومبوس أقل حظاً بكثير في هذا الخصوص. إن بعض الآثار قد درست هنا أيضاً وحققت بعض النجاح ، ولكن الإستيعاب النظري لدور المدينة في كل بنية المجتمع الاقتصادية - الاجتماعية ووظائفها وتخطيطها وتنظيمها الداخلي ، وأخيراً ، منشؤها وصفاتها الحاسمة ، هذه المسائل جميعاً لم ينظر فيها إلا من وقت قريب نسبياً ، وبالتحديد في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة .

ومن الواضح تماماً أن التعريف التمهيدي لمفهوم (المدينة) في أية تشكيلة اقتصادية - اجتماعية هو الخطوة الأولى لكل بحث علمي . فقد ظل التمييز بين القرية والمدينة غير معروف حتى العصور الأوروبية الوسطى ، حيث كانت المدينة مؤسسة إجتماعية واضحة المعالم لكنها على صلة وثيقة بالأرض وفعاليتها. فقد أكد ترافيليان[1] بأن المدينة الإنجليزية في القرن الرابع عشر كانت مجتمعاً ريفياً زراعياً بجانب كونها مركزاً

(*) نشر في مجلة دراسات يمنية ، العدد ٤٠ ، ابريل ، مايو ، يونيو (١٩٩٠) ص ٢٠-٣٥

(١) Trevelyan G.M. , English Social History, London (1942) PP. 38 f.

للتجارة والصناعة ، تحيط بتلك المدن غير المسورة الحقول حيث يزرع كل مواطن بريطاني أرضه ويرعى ماشيته في مرعى المدينة المشترك .

أما لويس ممفورد[٢] ، فيعتقد بأن الفرق بين القرية والمدينة يكمن في عنصرين .

أ – عنصر إجتماعي منظم (المعبد مثلاً) يستقطب جميع أركان المجتمع .
ب – مجموعة المباني المتميزة التي أوضحت قدرة الانسان ، وقللت اعتماده على الأرض ، وزادت سيطرته على البيئة ، كبنائه للطرق المعبدة ومشاريع الري وتنظيم مياه الشرب والحرف الصناعية .

كانت الفروق بين القرية المدينة في العصور القديمة ذات منحى متميز ، فآدمز[٣] يرى أن هناك خصائص مشتركة لبعض المدن القديمة :
أ – وجود المباني العامة كالمعابد والقصور في قلب المدينة التي تحتل المركز الأعلى مستوى من ناحية الخدمات ، والذي تتفرع منه شبكة الطرق العامة الرنيسية.
ب – دُور الطبقة الغنية من السكان التي تقع على امتداد الطرق الرنيسة ، وتمتاز بسعة مساحتها وتعدد غرفها ، بينما تقع أحياء الطبقة الفقيرة من السكان خلف الأحياء السكنية للطبقة الغنية ، وهي ذات مساكن صغيرة المساحة على جانبي أزقة ضيقة وملتوية .
ج – الأسوار : تحاط أغلب المدن بأسوار وخنادق لحمايتها من هجمات القبائل المتجولة وأطماع الحكام المجاورين .

---

(٢) ممفورد لويس : المدينة على مر العصور ، ترجمة الدكتور ابراهيم نصحي ، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة (١٩٦٤) ص ١٦٩-٢١١.
(٣) Adams Robert, The Origin of cities, Scientific American (September 1960) Rep. Pl.6-7.

د – منطقة الضواحي : وتقع خارج السور حيث تتواجد الحقول الزراعية والمراعي التي تحتضن المراعي كمراكز الاستيطان .

ولقد ذهب جوردون شايلد [٤] إلى اعتماد الاختراعات العلمية والكتابية ، وتقسيم العمل والمباني العامة . والتركيب الطبقي الاجتماعي ، وحجم السكان والتجارة الخارجية ، وجمع الضرائب كأساس للفرق بين القرية المدينة .

وقد وصف (شايلد) أوخر العصر الحجري الحديث للتفريق بين القرية والمدينة بأنه ثورة حضارية (**urban Rrevolution**) أو مولد الحضارة ، حيث اعتمد على الثورة الصناعية ، للإشارة إلى نقطة القمة في التغيرات السابقة الطويلة في بينة المجتمع الاقتصادية وتنظيمه الأجتماعي .

إن مصطلح (ثورة العصر الحجري الحديث) يعكس بدقة شديدة أهمية الانقلاب الذي حدث ويربطه – بالإضافة إلى ذلك – بعصر آثاري محدد ، بالعصر الحجري الحديث . إن (ثورة العصر الحجري الحديث) ، أو بالأحرى ذروتها تتسم قبل كل شيء بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة الناس : الزراعة وتربية الماشية (كأساس للاقتصاد) ، والمستوطنات الدائمة ، وصناعة الفخار . يعزى إلى الزراعة ، في غضون ذلك ، الدور الحاسم ، لأن الآنية الفخارية، التي كانت تعتبر سابقاً إحدى السمات الأساسية للعصر الحجري الحديث لم تكن توجد عند كل المزارعين مربي الماشية الأوائل ، في حين أنها كانت معروفة للكثير من قبائل الصيادين وجامعي النبات .

---

(٤) شايلد جوردن : ماذا حدث في التاريخ ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع (١٩٤٢).

إن كل الباحثين تقريباً متفقون على المغزى الكبير الذي تنطوي عليه (ثـــورة العصـــر الحجري الحديث) بالنسبة إلى تطور المجتمع البشري . . ولكن ما أن حاول العلماء الانتقال من المسلمات حتى ظهرت جملة من المسائل الجديدة . ما الذي جعل الصيادين وجـــامعي النبات في الشرق القديم يزرعون بعض النباتات النافعة ويدجنون الحيوانات؟ ...أين جـرى بالتحديد (انقلاب العصر الحجري الحديث) ، وفي أي وسط طبيعي – جغرافي ؟...كيـــف كانت الآلية الخاصة لهذا الانتقال من أشكال الاقتصاد التقليدية إلى أشكال جديدة أكـــثر تقدمية ؟ .... كم مركزاً للاقتصاد المنتج ظهر بصورة متوازية في المنطقة : مركز، إثنـــان ، عدة مراكز ؟

كان تطور المدن السريع من أهم السمات المميزة للفترة الأركيـــة والكتابيـــة الأولى مقارنة بالعبيد في بلاد الرفدين ، كانت المستوطنات في أزمنة العبيد متناثرة بـــلا انتظـــام بمحاذاة فروع الفرات الطبيعية التي كانت مياهها – على الأرجح – تستخدم لري الحقول جزئياً . لم تكن المحاصيل وفيرة ولا منتظمة ، وفي الفترة الكتابية الأولى بدأت المســـتوطنات تمتد هنا وهناك على خط بمحاذاة قناة اصطناعية قديمة .وفي غضون ذلك تقلـــص بعـــض الشيء عدد المستوطنات نفسه نتيجة نمو بعضها التي كانت على ما يبدو ذات أهمية أكـــبر لمنطقة كاملة ، أن تلك التي يوجد فيها المعبد الرئيس.

وبدأت الزراعة تقوم على الري الإصطناعي ، أنشئت أقنية رئيسة أطول ، وأقيم نظـام متشعب للري ، ومكان المعول اليدوي حل المحراث بأبسط أنواعه الذي كان يقرن بالحمـير ، على الأرجح . كل هذا مكن من زيادة مساحة الأراضي المزروعة ، وكـــانت الأقنيـــة المركزية تشكل كذلك طرقاً للتنقل ، حيث كان ينقل عبرها الناس والبضائع على قـــوارب من القصب . ويبدوا أن السومريين بدؤوا منذئذٍ الحصول على محاصيل وفيرة من حقولهـــم قياساً بالفترة نفسها . ومن ثم ازدادت رفاهية الناس بوتائر سريعة ، وازداد في الوقت نفسه تركز الناس حول مركز العبادة لكل المنطقة المتاخمة للقناة . إن انتقال السكان من القـــرى

الصغيرة إلى جوار المعبد المركزي لكل المنطقة أصبح عملية مميزة لكل الفترة الكتابية الأولى

وهكذا ، فلعل المدينة قد ظهرت في الشرق القديم – ما بين النهرين – على اساس الاتحاد (الإندماج) الطوعي أو القسري ، لعدة طوائف ريفية . هذه العملية لم تكن ،على ما يبدو ، صفة محلية خاصة ، بل حظيت بأوسع انتشار في كل الشرق القديم .

فما هي مقدمات (ثورة المدن) في ما بين النهرين وقواها المحركة ؟.. وما الذي ساعد على تحول قرى العبيد الزراعية الصغيرة إلى مدن كثيرة السكان ومحاطة بالأسوار في مستهل الألف الثالث ق.م. ؟

على أساس : فهم ما تم في بلاد الرافدين – الأقدم حضارة – من تحول وتطور هو المدخل الصحيح لفهم ما نبحث عنه في جنوب الجزيرة – اليمن – ، وذلك لاعتبارات منهجية أولية مفادها أن حضارة بلاد الرافدين قد درست – صحيح ليس بشكل موض – إلى حد كبير من الناحية الأثرية والفيلولوجية والتاريخية ، بدرجة تسمح باستنتاج نتائج أو خلاصات عامة يمكن تعميمها – مع بعض الخصوصيات – على الشرق القديم بأسره ، لأن حضارة ما بين الرافدين أقدم أصولاً من شبيهاتها في المنطقة .

ثمة في علم التاريخ جملة من النظريات التي تفسر منشأ وتطور المدينة القديمة. ففي الوقت الذي يبحث فيها البعض عن الأسباب الملموسة لظهور المدن المبكرة وأشكال وجودها (حول المعبد ، على الطرق التجارية ، مخافر أمامية عسكرية ، ملاجئ . . . إلخ) ويضخمون أحد جوانب القضية أو يطلقون صفة التعميم على هذا الشكل أو ذاك لولادة المدينة القديمة فإن عدداً آخر من الباحثين يحاول من خلال استشهاده بالتغيرات السريعة في ثقافة جنوب بلاد الرافدين في أواخر الألف الرابع ومستهل الألف الثالث ق.م. تفسيرها بهجوم قبائل أو مجموعة سلالية من الخارج حملت معها تقاليد جديدة ،

أرفع ، بالطبع ،مما لدى السكان الأصليين . ولكن لا يمكن القبول بهذا التحليل الآن ، لأنه يلاحظ هنا منذ أواخر الألف الخامس ق.م. ، على الأقل ، نعاقب أكيد في الثقافة المادية والمعتقدات من العبيديين إلى السومريين ضمناً .

أما فيتفوجل(٥) صاحب نظرية (الهيدروليكية) أو نظرية (الري) فيؤكد أن ظهور النظام المتشعب للأراضي المروية أعطى دفعاً لتطور (ثورة المدن) في ما بين النهرين . إن أنظمة الري كان لا بد أن تولد – على حد تعبيره – المدن والدولة (الاستبدادية) من حيث الشكل والحضارة ، بيد أن آدمز(٦) بيّن على نحو مقنع بأبحاثه الميدانية في جنوب ما بين النهرين أن المؤسسات السياسية والاجتماعية قد ظهرت في المنطقة قبل بناء أنظمة الري الكبيرة بكثير . وفي الوقت نفسه تستطيع المشاعيات البدائية أيضاً – أن تتحد في إطار أنواع التعاون – أن تنشئ أقنية كبيرة من حيث الطول .

وهنالك فريق رابع من الدراسين ينظر إلى تطور المدن كنتيجة لتطور القوى المنتجة ، وتعمق التقسيم الاجتماعي للعمل وتغير علاقات الانتاج . هذه العمليات المعقدة كلها تتجلى بوضوح لدى انتقال البشرية من النظام المشاعي البدائي إلى النظام الطبقي المبكر ، على عتبة ولادة الدولة والحضارة .

وهكذا يمكن القول : إن عملية ولادة المدينة ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بعملية نشوء الدولة ، فالمدينة المحاطة بأسوار حجرية تغدو مركز القبيلة أو اتحاد القبائل . ثم حدث التقسيم الكبير الثاني للعمل : فقد انفصلت الحرفة عن الزراعة ، ومع انقسام الإنتاج إلى فرعين رئيسيين

---

(٥) Wittfogel K.A., Die Orientalische Despotie, Frankfur/M. S. 35f (1977).

(٦) Adams Robert, Survey of Ancient water Courses and Settlements in entral Iraq. Sumer, 14 (1958) PP. 101-104.

كبيرين هما الزراعة والحرفة ، يظهر الإنتاج ، ومعه تظهر التجارة ، كل هذا بشكل بدائي . . . إلى جانب ذلك ، إن التعارض بين المدينة والقرية يبدأ مع الإنتقال من النظام القبلي إلى الدولة .

وعليه لا يجوز نفي أو استصغار الجانب الاجتماعي في أصل المدينة . إذ ينبغي في هذه المسألة أن يراعى في وقت واحد الأساس الاجتماعي والاقتصادي لعملية نشوء المدينة ، ولا جدال في أن مقدمات (ثورة المدن) الأخرى هي النجاحات في ميدان اقتصاد المجتمع القديم: الزراعة الرفيعة التطور (بما في ذلك الزراعة المروية) وتربية الماشية اللتان تعطيان منتوجاً إضافياً ثابتاً ومنتظماً وتطور معالجة المعادن وغيرها من أصناف الحرف ، والتجارة إلى مسافات بعيدة ...إلخ.

وكذلك اضطلع ، على ما يبدو ، بدور إيجابي في هذه العملية المعقدة والطويلة العامل الاقتصادي : توفر الظروف المناخية المواتية في مناطق نشوء المدن المبكرة، إذ أن المناخ الدافئ وأودية الطمي الخصبة ساعدت على تطور الزراعة ذات المردود ، وعلى نيل فيض من المحصولات الزراعية (ولا سيما الحبوب) وفي الوقت نفسه كانت هذه المناطق محرومة من الخشب والمعادن ، مما ساعد منذ القديم على التبادل والتجارة مع الجيران . ولدى الحديث عن السمات المادية (الأثرية) لمدينة ما بين النهرين القديمة ، ينبغي أن نذكر هنا قبل كل شئ العمارة الضخمة للمعابد والكتابة والفن التشكيلي .

صحيح أننا لا نستطيع من خلال النصوص الكتابية المسمارية أن نفرز من الكتلة العامة للمستوطنات السومرية مدناً محددة ، لكن هذا ليس غريباً ولا عرضياً ،فقد كانت تلك النصوص تطلق على كل المستوطنات من المدينة – المتروبول– العملاقة إلى القرية المكونة من عدة أكواخ هزيلة ، لفظاً واحداً (**uru** بالسومرية و **alu** بالأكادية) وهو مصطلح يقابل على ما يبدو مفهوم المشاعية الريفية . والسبب في ذلك يكمن –في الغالب – بأن

الامر لم يصل بعد إلى درجة الانتقال التام لكل سكان المنطقة إلى (مدينة) واحدة ، التي ظهرت إثر إنشاء شبكة الأقنية الرئيسية ، وهي التي كانت ترتبط بها المراكز الأساسية لتشكل الدول ، أي (المدن) . إن انتقال الناس التام إلى مركز واحد (مدينة) كان يعني ترك زراعة الحقول على امتداد أكثر من ١٥ كم وهي المسافة القصوى التي يستطيع الماشي – في هذه الحالة المزارع ساكن المدينة – اجتيازها ذهاباً وإياباً في غضون يوم . ولهذا كانت تظهر عادة في المنطقة الواحدة ثلاث مدن أو أربع أو أكثر مترابطة فيما بينها ، ولكن واحدة منها هي الرئيسية دوماً، حيث توجد مراكز الأديان المشتركة وإدارة المنطقة بأسرها .

بمعنى آخر ظلت طلائع المدن القديمة في بلاد الرافدين محافظة على علاقتها التقليدية بالزراعة . والتي يمكن أن نسميها (بالمدن الزراعية) ،وكان إقليمها الظهير مصدراً لقوتها وغذائها ، إلى أن بدأت طلائع التطور التكنولوجي في العصر الحجري المعدني ، وتقدمت وسائل النقل والتعدين . إن تلك الأسباب أدت إلى توسيع نفوذ المستوطنة البشرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حيث أدى هذا التطور إلى التقليل من اعتمادها على مواردها المحلية ، فظهرت نتيجة لذلك المراكز الحضرية التي أطلق عليها اسم (المدن).

وبعد ، فإذا كان المصطلح السومري والأكادي لم يفرق بين القرية والمدينة ، فإن سكان جنوب الجزيرة ميزوا بين القرية والمدينة ، فأطلقوا لفظ (هـ ج ر) قبل ذكر اسم المستوطنة المدينة ، بينما ذكروا القرى بدون هذا اللفظ .

ولفظ (هـ ج ر) يعني في اللغة اليمنية القديمة المدينة ، كما يرد في النقوش لفظ (ح و ر وجمعها ح و ر و) بمعنى (ساكن أو مستوطن) المدينة[٧] . وإذا كان الأمر سهلاً من الناحية الفيلولوجية فإنه معقد جداً إذا ما حاولنا تعريف أو تحديد الوظائف

---

(٧) قارن لفظ (ح و ر) و (ح ر) في الجعزية.

والخصائص التي يجب توفرها في المستوطنة حتى يطلق عليها لفظ (هـ ج ر) انطلاقاً من المفاهيم سالفة الذكر .

ومن الضروري أن يقرر المرء منذ البداية أن الأبحاث الأثرية والتاريخية والاجتماعية في هذا المجال لا تزال في أول أمرها ، وأبرز الجهود التي بذلت في هذا السبيل تعد بأصابع اليد الواحدة[٨] . ومعظم هذه الدراسات لا تعنى مباشرة بالمدينة اليمنية القديمة وموقعها وخطتها وفن عمارتها ، وإنما تلمس هذه الأمور لمساً خفيفاً لدى الحديث عن الآثار والنقوش القديمة في اليمن ، وقد تعرض لموقع ما وعوامل ازدهاره ومعالم آثاره ، ولكن ينقص ذلك كله تنقيب علمي وأبحاث ميدانية مكثفة وفي مواقع متفرقة ، وحينها قد تتكامل الشواهد والقرائن ويسهل وضع تصور مفصل مزود بالخطط والصور والرسوم ليكون أساساً يعتمد عليه لدى الحديث عن المدينة اليمنية القديمة . . . على أن ذلك لا يمنع من رصد بعض ما توصلت إليه – من خلال استقراء النقوش وبعض الشواهد الأثرية – بالنسبة للمدينة اليمنية القديمة في السياق السابق .

يرجح أن معظم المدن اليمنية القديمة كانت قد نشأت في أول لأمر على الوديان، وغالباً ما كانت تقوم على مرتفع في وسط الوادي أو على إحدى ضفتيه ، مثل مدينة مارب وبراقش وتمنع . وإذا ما ألقى المرء نظرة فاحصة على الخارطة التاريخية لليمن القديم لوجد أن معظم مراكز الحضارة اليمنية القديمة كانت قد تركزت في الوديان الشرقية ، أي في المناطق الخصبة حيث تلتقي سفوح الجبال بمشارف فلاة اليمن (الربع الخالي) وخاصة حول ذلك (الخليج الصحراوي) الداخل في مرتفعات اليمن الشرقية ، والذي عرف في الموروث بمفازة صيهد ويُعرف اليوم برملة السبعتين وتدخل هذه المنطقة

(٨) Groham A., Sudarabien als wirtschaftsgebie(1.Teil) Wien (1922), (2. Teil), Wien (1933), Ibid Arabien, Munchen (1963).
- Von Wissman H., Zur Geschichte und Landeskunde von Alt - Sudarabien, Wien (1964).

ضمن المناطق الجافة في اليمن ، والتي يقل فيها المطر عادة ، أو يأتي دون انتظام ، ويتراوح نزوله بين (٥٠ - ١٠٠ مم) بينما يصل الحد الأقصى لنزول المطر عموماً في اليمن حوالي ١٨٠٠ مم ، إلا أن وديانها تستفيد من السيول التي تتجمع في المساقط الشرقية للنطاق الجبلي الضخم الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال مكوناً الهضبة اليمنية ، والذي يمتد عبره خط تقسيم المياه الذي يفصل بين المساقط الشرقية والغربية .

وقد اكتشف الإنسان في اليمن القديم غزارة تلك السيول وأهميتها فهي تأتي موسمياً ، مما يتيح له زراعة الأرض بعد أن تغمر وهي تخصب التربة بالغرين الذي تحمله معها ، على أن أهم ما اهتدى إليه الإنسان في اليمن قديماً هو ضرورة المحافظة على التربة التي تجرفها السيول . وضرورة السيطرة على كمية أكبر من المياه ، فكان أن فكر في بناء السدود التي تطورت لتشكل بعد ذلك شبكة منظمة من وسائل الري ، وهي نقلة هامة في توفير أسس المعيشة لتجمعات حضرية راقية .

وكان من اسباب قيام المدن على ضفاف الوديان الشرقية أيضاً هو مرور الطريق التجاري البري المعروف بطريق اللبان عبرها ، إذ أن أنسب طريق للقوافل هو ذلك الذي يمر على موارد المياه ، وخاصة حيث تسيل الوديان الهابطة من الجبال الشرقية باتجاه الصحراء ، كما أن هذه المناطق الصحراوية السهلة ذات مناخ جاف صحي يخفف من انتشار الأوبئة التي تعهد في المناطق الساحلية الرطبة ، وهكذا قامت على وادي أذنة مدينة مارب ، وعلى وادي الجوف مدن مثل : قرنا وكمنا ونشق ونشان، وعلى وادي بيحان مدينة تمنع ، وعلى وادي عرمة - العطف - مدينة شبوه ، وعلى وادي الدواسر مدينة (قرية) وغيرها .

وكان لهذه المدن وظيفتان رئيسيتان : أولاً هي عواصم أو حواضر رئيسية لكيانات سياسية كبيرة أو صغيرة : فمثلاً كانت مارب عاصمة لدولة سبأ ، وكانت شبوة عاصمة

لدولة حضرموت ، وكانت قرناو عاصمة لدولة معين . ثانياً : هي محطات أساسية على طريق التجارة تستلم ضرائب وتقدم الحماية والخدمات للقوافل وتمتلك جزءاً من التجارة[٩] .

ولكن كيف يمكن التمييز في اليمن القديم بين المدينة والقرية ؟... وهل هنالك خصائص مادية (أثرية) معينة تميز المدينة اليمنية القديمة عن القرية؟...في الواقع إذا كانت النقوش لسومرية والأكادية لا تفرق بين المدينة والقرية فإن النقوش اليمنية القديمة قد فرقت بينهما استعمال لفظ (هـ ج ر) الذي نعتت به عشرات المدن اليمنية القديمة ، فيقال (هـ ج ر ن / ص ن ع و)كما في CIH 314/13; GL 452 A/4,1 . . . ألخ ، أي المدينة صنعاء ، و (هـ ج ر ن / م ر ب) ويرد الإسم أيضاً (بالياء) أي (هـ ج ر ن / م ر ي ب) كما في CIH 19/16, CIH 389/41 RES 3197/4 أي مدينة مأرب، و (هـ ج ر ن / ت م ن ع) كما في RES 3566/4,8, RES 3691/8, أي مدينة تمنع ، و(هـ ج ر ن / ش ب م) كما في Sh 32/17; Jr 32/25,26 أي مدينة شبام في حضرموت . على أنه من الصعوبة بمكان تعريف الهجر من خلال ما وصلنا من مصادر نقشية نظراً لغياب الحفريات الأثرية في البلاد، لذا فإننا سنحاول تتبع معنى هذه الكلمة من خلال المصادر الأخرى .

فالهمداني مثلاً كأول دارس للآثار اليمنية ومن ثم تاريخها القديم ، يذكر في موسوعته الإكليل[١٠] بأن (الهجر بالحميرية القرية والقصور الملتفة) . واستناداً إلى مفهوم الهمداني هذا يصعب استخلاص تعريف محدد فهو حيناً يستعمل لفظة (هجر)[١١] ليصف مدينة أو

---

(٩) قارن :

Al-Scheiba A.H., Die Ortsnamen in den alt sudarabischen Inschrifpten, Marburg (1982), pp. 2-4.

(١٠) ابو محمد الحسن الهمداني · الاكليل ، ج٢ ، تحقيق القاضي الأكوع ، القاهرة (١٩٦٦) ص ٣١٧، وقارن الهمداني صفة جزيرة العرب ، تحقبق القاضي الأكوع ،الرياض (١٩٧٤) ص٧٦ هامش ٢

(١١) الهمداني الاكليل ، ج٨ ، تحقيق القضي الأكوع دمشق (١٩٧٩) ص ١١٠.

هجر بينون (هـ ج ر ن / ب ي ن ن) (YM 1695/2) وأخرى لفظة (قصر)[١٢] كما في علمان ، عصام ، وعلان ، عمران وشعوب . . . إلخ ، وهي أسماء ذكرت في النقوش كهجر[١٣] ، وثالثة يستخدم فيها الهمداني كلمة (مدينة) كما هو الحال في هرم وهجر صنعاء[١٤] .

وإذا تتبعنا المدلول اللغوي ، وبالأخص المدلول الديني لهذا اللفظ (هـ ج ر) في اللغة العربية، فإننا نجد أن لفظة (هجرة) تعني انتقال المؤمن من بلد الفتنة والخوف على دينه إلى حيث يأمن . وغلب هذا المعنى في الهجرة من مكة إلى المدينة في حياة الرسول ﷺ ، حين كانت مكة بلد كفر وشرك قبل الفتح . ومن ذلك جاء لقب المهاجرين الذي يذكر مقابل لقب الأنصار ، وهم أصحاب المدينة من المؤمنين . ويدخل في هذا المدلول المعنى الكبير للهجرة النبوية كحدث فاصل ونقطة تحول في حتى تنقطع التوبة[١٥] .

تاريخ المسلمين . وقد اكتسب لفظ (الهجرة) بذلك ثوبا إسلاميا زاهيا ، وصارت كلمة هجرة ثرية المعنى نتيجة ذلك الحدث الهام الذي نقل المسلمين من دار الشرك إلى دار الإيمان . . . فكان أن سميت يثرب دار الهجرة بالمدينة . . . والمدينة هي الحاضرة ، وعكس البادية، وفي الموروث لا تعرب بعد الهجرة ، أي لا تبدي بعد التحضر ، كما قد يفهم من

---

(١٢) المصدر نفسه : ص ١٢٢، ١٢٧، ١٦٣

(١٣) انظر بالنسبة لـ (ع ل م ن) النقوش JA 2115/3, CIH 140/ 2-3 ، وبالنسبة لـ (ع ص م م) GI 1441/2، وبالنسبة لـ (و ع ل ن) CIH 347/8, JA 629/19, YMN 3/5 etc.، وبالنسبة ل (ع م ر ن) CIH 102/4، وبالنسبة لـ (ش ع ب م) CIH 609/1, 3, 4, RES 4009/5, GLA 452/2, 4,5 .

(١٤) قارن بالنسبة لـ (ص ن ع و) النقوش CIH 314/13, RY 539/3، وبالنسبة لـ (هـ ر م) CIH 516/26, CIH 546/2 RES 3945/17.

(١٥) انظر مثلا ، الزبيدي ، تاج العروس ، مادة هجر.

السياق . وتهجر فلان أي تشبه بالمهاجرين . قال عمر بن الخطاب : هاجروا ولا تهجروا . أي أخلصوا الهجرة لله ولا تتشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم . والهجرتان هجرة إلى الحبشة ،وهجرة إلى المدينة . وفي الحديث : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. وفي حديث آخر لا تنقطع الهجرة أما المعنى اللغوي للفظة (الهجرة) فيأتي من صيغة الفعل الماضي المجرد بمعنى صرم وقطع ، والشيء تركه وأعرض عنه ، ومن الجذر نفسه اشتقت صيغة فاعل ، هاجر من بلدة مهاجرة ، أي خرج منها إلى بلدة أخرى .

ويستفاد من كتب اللغة أن الأصل في معنى الهجرة هو أن يخرج البدوي من باديته إلى المدن، ثم توسع المدلول ليشمل معاني عدة . وفي المدلول الديني للهجرة نجد مثل هذا المعنى الخاص، حيث اعتبر كل من أقاموا في البوادي ولم يلحقوا بالنبيﷺ غير مهاجرين ، حتى وإن كانوا مسلمين . مما يؤيد هذا الأصل اللغوي للفظ الهجرة بمعنى الإقامة في الحضر بدلا من البوادي ، تلك التسمية التي أطلقت على واحة الهفوف منذ فجر التاريخ . فقد عرفت تلك الواحة المستوطنة ، والتي أضحت محطة هامة على طريق القوافل باسم (هجر) ، وورد اسمها في النقوش الأكادية بهذا الاسم وعرفت بعد الإسلام بهذا الاسم أيضا ، وفي المثل (كمستبضع تمر إلى هجر) إشارة إلى زراعة النخيل فيها وكثرة محاصيلها .

وفي المصادر الكلاسيكية نجد أكثر من لفظ يطلق على المدينة اليمنية القديمة ، فبليني **plinus** صاحب الكتاب المعروف باسم (التاريخ الطبيعي) وأولى أن يسمى (تاريخ الطبيعة) **Naturalis Historia** يستعمل كلمة **Oppidum**(١٦) عند الحديث عن ظفار الحاضرة الحميرية . ويرد في كتاب (دليل البحر الأرتيري) كلمة **Metropolis** أثناء حديثه عن نفس

---

(١٦) **Plinius Secundus, Naturaslis Historia, with an English translation by H. Reckhen (The Loeb Classical Library),London(1969)VI,26, 104.**

المدينة[١٧] .

ربما يمكننا هنا أن نقرر بأن كلا من بليني وصاحب (الدليل) كان يستعمل اللفظ الذي ساد في ثقافته عند الحديث عن شيء مناظر له خارج هذه الثقافة . فصاحب (الدليل) كانت ماثلة أمامه صورة المدينة اليونانية ، أي الـ **Metropolis** المكونة من المعبد والسوق **Stoa** وساحة المناظرة **Agora** ثم المباني العامة **Guria** إلى جانب الأكروبوليس ، أي المدينة الأصلية ثم القلعة ، بينما كانت صورة المدينة الهلينستية ماثلة أما بليني ، وهي التي كانت تتكون من الميدان الرئيسي **Forum** والمسرح الدائري **Amphitheatre** ويتركز في الميدان والمعبد والأسواق ومراكز الحكم والإدارة ، وكان أغلب هذه المدن مسورا . فإلى أي مدى ينطبق هذا القول على (الهجر) في اليمن القديم ؟

لقد تطوع أحدهم فحدد بصورة تهكمية وظيفة علم الآثار ، بأنها طريقة لمعرفة الماضي من الأشياء المادية بدلا من الكلمات . وهذا تبسيط يدعو للسخرية من حالة الشرق بشكل عام حيث عثر الآثاريون على كمية هامة من اللقى المادية عن الذين كتبوا الوثائق . ومن جهة أخرى فإن الفائدة التي قدمتها هذه الوثائق لم تقتصر على تاريخ الأحداث ، بل ضمت مهمة أكثر سعة أبرزت نتيجة له شرحا مفصلا للمدينة. وقد أسهمت النصوص المدونة

---

(١٧) Huntingford, The Perplus of the Erythrean Sea, Hakluyt Society, 2nd Series, 151, London (1980) P. 23.

قارن نقد بيستون على هذه الترجمة في:

Beeston A.F.L., Bull, of the school of Orient and African Studies 44,2, London (1981), PP. 353-358.

ولهذا الكتاب عدة ترجمات بلغات أوروبية مختلفة منها:

Fabricius B., Der Periplus des Erythraischen Meeres von einem Unbekannten, Leipzig (1883), Schoff W.H., The Periplus of the Erythraean Sea, Travel and Trade in the Indian Ocean by a Merchant of the first Century , Translated from the Greek and annotaed, New York (1912 rep. 1974).Frisk B., Le Periple de la Mer Erythree, Goteborg (1972).

ثم قارن ماجاء لدى الجغرافي بطليميوس في .

Sprenger A., Die alte Geographie Arabiens, Bern (1875), (Neudruk, Amesterdam 1966), P. 103, 105, 250 etc..

كثيرا إلى هذا الإنجاز الرائع الذي أدى إلى استكمال الصور المعروفة للتنظيم الإجتماعي والإقتصادي والتقدم الفكري في عصور الكتابة . وبقدر تعلق الأمر بالحفريات فإن البقايا الآثارية للبينة التي كتبت تحت تأثيرها الوثائق نفسها قد أكملت إظهار التطور البشري وتكيفه لتأثيرات البيئة . وباختصار فإن معرفتنا الواسعة والمدهشة بحضارة بلاد الوافدين ووادي النيل في العصور التاريخية كانت نتيجة لمصدرين مختلفين بنسب متساوية : الكتابات القديمة من ناحية ، ودراسة البقايا المادية من ناحية أخرى . ويجب أن لا يغيب عن البال ، أن هذه العصور التاريخية قد سبقتها فترة طويلة لم تكن خلالها الكتابة معروفة ، وهي فترة تكوينية بالنسبة للتقدم البشري ، تحفزنا لمعرفة حالتها الجنينية من خلال علم الآثار المستند على الحفر والتنقيب فقط **Spade Archaeology** والحالة هذه إذن فنحن بالنسبة لليمن أمام النقوش اليمنية القديمة فقط – نظرا لغياب الحفريات الأثرية – نستقرؤها لتحديد بعض الملامح الأساسية للمدينة القديمة .

أثناء البحث توصلت إلى بعض العلامات المميزة للهجر والتي يمكن رصدها فيما يلي :

أ – مواقع وردت في النصوص النقشية كـ (هـ ج ر) وكانت محاطة بالأسوار مثل (و ع ل ن) كما في النقش **CIH 347** وهو اسم موقع ما زال قائما حتى اليوم (وعلان) ويقع في وادي المعسال بناحية السوادية محافظة البيضاء[١٨] .

ب – مواقع ذكرت في النصوص النقشية كـ (هـ ج ر) ولكن لم يصل إلينا حتى الآن نص صريح بأنها كانت مسورة ، على أنه يفهم من بعض النصوص بأن هذه المواقع كان عليها أكثر من باب ، أي بمعنى آخر سور ، إذ لا يوضع الباب على مدينة إلا في حالة وجود سور. من هذه المواقع (د ل ج) والمعروفة اليوم باسم (دلج) والواقعة بالقرب من الكبس حصن الظبيتين في خولان[١٩] .فقد جاء في النقش الموسوم **CIH 350/6** (ب خ ل ف / د ل ج) أي على أبواب دلج ولم يوفق جام ومن وقبله ريكمانز في قراءة اسم المدينة بشكل

---

(١٨) انظر التقرير الذي كتبه رات عن هذا الموقع.

Radt W., Bericht uber eine Forschungsreise in die A.R. Jemen, Archaologischer Anzeiger (1971), S. 289.

(١٩) Glaser E.,Die Abessiner in Arabien und Afrika,Munchen(1895), s.101.

صحيح ، فقد جاء لديهم (د ل ل)[٢٠] على أن قراءة (د ل ج) هي الأصح لاعتبـــارين : فمن ناحية أن الملك (إيل شرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) صاحبي النقش Ja 576 عادا إلى معسكرهم في (ب أ س ن) – أي بوسان الواقعة جنوب دلج – على أثر حملة ناجحة على صاحب ريدان ، ويرد في النقش CIH 350 ذكر (ن ع ض) أي نعض التي تقع جنـــوب شرق دلج من ناحية أخرى ، ويضاف إلى ذلك أن النقش سالف الذكر وهو نفس نقـــش RY 535 قد أعاد نشره زيد عنان وجاء فيه اسم المدينة بحرف (الجيم)[٢١] ، بل أكثر مـــن ذلك أن الأستاذ و.و.موللر التقط صورة لهذا النقش المكون من سطرين – والذي سبق أن نقله جلازر ويحمل الرقم GL 1195 – وهي صورة واضحة يقرأ فيها الحرف الأخـــير (ج) ، وقد نشرت الصورة ضمن السلسلة الأخيرة لمجموعة جلازر التي أشرفت عليها الأســـتاذة هوفنر[٢٢] .

وما قيل عن (د ل ج) بشأن السور يقال أيضا عن (ذ غ ي ل م) ، فقد جاء في نقـــش Jr13§ 5 (خ ل ف / ذ غ ي ل م) وذوغيل هو الاسم القديم للموقع الأثري المعـــروف لدى الدارسين باسم هجر بن حميد في وادي بيحان .

جـــ – مواقع ذكرت في النصوص النقشية بأنها كانت مسورة ، أو كان عليها باب أو أبواب ، وإن لم يرد فيما وصل إلينا من تلك النصوص نص صريح يذكرها كـــ (هـــــ ج ر) ، مثل (ح د ق ن GL 1209/11) وهو الموقع الذي مازال يحتفظ باسمه حـــــتى اليـــوم (حدقان) على سفح جبل سامع شمال شبام سخيم (شبام الغراس) . فقد جـــاء في النـــص

---

(٢٠) Jamme A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis(marib) Baltimore (1962), P. 67, Ryckmans G., Inscriptions Sud-Arabes, Treizieme Serie, Le Museon 96 (1956), P. 139-163.

(٢١) زيد عنان : تاريخ حضارات اليمن ، القاهرة (١٣٩٦هـــ) (نقش لايحمل رقما، ومنشور على صفحة غـــير مرقمة ولعلها صفحة ٣٥٨).

(٢٢) Hofner M., Sabaische Inschriften (Letzte Folge) Wien (1981), P. 10 f und tafel 1,2.

السابق (أ خ ل ف / ح د ق ن) (أبواب حدقان) ، أو كان عليها سور مثل : (ع ر ر ت م Ph 77/2) وهو الاسم القديم لقرية الأساحل الحالية في واحة رغوان ، فـالنص يذكـر (. . ./ ج ن أ / ع ر ر ت م) أي (. . /سور/ ع ر ر ت م)، ونفس الشيء ينسحب على (م ح ر ث م RES 3946/2) فقـد ورد في النقـش (. . . / و ج ن أ / م ح ر ث م) ، والهمداني يذكر (. . . مخلاف السحول بن سوادة . . . وكانت به مدينة المحرث القديمـة) وهي قرية كبيرة تقع شمال علقان بنحو نصف ميل[٢٣] . . . وغيرها كثير .

د–مواقع ذكرت كـ (هـ ج ر) وكان بها معبد مثـل : (م د رم CIH 339/3-4) أي مدر وهو الموقع الذي نجد بقايا أطلاله جنوب ظفار زيبين وشمال ناعط أما معبدها فقد كان للمعبود تألب (ت أ ل ب) ، و (ع ص م م GL 1439/2-2) وهي قرية عصام الـتي مـا زالت عامرة حتى اليوم ، وتقع جنوب مدر وشمال بيت مران في أرحب ، وقد كـان بهـا أيضا معبد لتألب (ت أ ل ب/ ب ع ل / رأس/ ع ص م م) أي (تألب ريام ، بعـل رأس (جبل) عصام) ، وهي التي يقول عنها الهمداني : " ومن محافد همدان . . . قصر عصـام بناحية ناعط من شرقها "[٢٤] .

يضاف إلى ذلك أن هناك مدن (هـ ج ر) يفترض أنها كانت مسـورة بحكـم وضعـها كحواضر لممالك مثل : (ق ر ن و) العاصمة المعينية في الجوف ، والمعروفـة منـذ زمـن الهمداني وحتى اليوم باسم معين ، و(ش ب و ت) أي شبوة العاصمة الحضرمية[٢٥] ، وقس على ذلك (ص ر و ح) صرواح ، و(ش ب م) شبام حضرموت . . . إلخ .

---

(٢٣) الهمداني ، الصفة ، ص٢١٢ والهامش ٥ في نفس الصفحة

(٢٤) الإكليل ، ج٨ ، ص١٦٠.

(٢٥) قارن بليني ، مصدر سابق، الكتاب السادس ، الفقرات ٣٢، ١٥٥، والكتاب الثاني عشر الفقـرات ٣٠، ٥١ . . الخ

وهكذا يمكن القول إن الهجر في اليمن القديم كان يشمل ما سمي بـــالبوليس Polis أو البو PO في الحضارة الإغريقية ، أي مدينة الدولة ، على الأقل ضمن مجموعـــة مـــدن الجـــوف : (ن ش ق م CIH 610/2) أي نشـــق - البيضـــاء الحاليـــة - و (ن ش ن RES 2902/1) أي نشان - السوداء الحالية - و (ي ث ل CIH 609/4) أي يثيل براقش الحالية . كما أن الهجر كان يعني أيضا الكومي Kome ، أي أنها كانت تمارس وظيفة إدارية توجيهية ، بعد أن توسعت المدينة الأم ، لأن الهجر كان مقر الحاكم - وهـــو في هذه الحالة القيل أو الكبير - والموظفون والقضاة ... إلخ . والهجر بصفتـــها عاصمـــة المدينة الدولة كانت مكان معبد الإله الأعلى ، حامي كل أفراد مشاعية المدينـــة والدولـــة عموما، كما أنها كانت مركزا دفاعيا ، فهي حصن وملجا ، وهي -أخيرا- سوق للمدينة الدولة ، وخير مثال على ذلك هجـــر (ت م ن ع RES 3946/2) أي تمنـــع الحـــاضرة القتبانية على وادي بيحان والتي تعرف اليوم باسم هجر كحلان[٢٦] .

---

(٢٦) المصدر السابق : الكتاب السادس ، الفقرات ٣٢، ١٥٣

محاولات تأريخ كتاب (دليل البحر الأرتيري)

كان (السلام الروماني) **Pax Romana** أهم شرط لقيام النشاط التجاري الذي امتد في الإمبراطورية الرومانية من الجزر البريطانية إلى بلاد الرافدين ، ومن بحر الشمال إلى جبال الأطلس وبلاد النوبة . كما وجدت التجارة التي كانت تقوم داخل حدود الإمبراطورية اتصالا لها برا وبحرا بالمناطق المجاورة . وهكذا كانت تنطلق الاتصالات التجارية – على سبيل المثال – من شرق وجنوب شرق الإمبراطورية إلى الهند والصين . ولم يكن القائمون على تلك التجارة تجارا آسيويين فقط ، بل كانوا أوروبيين أيضا . وإذا كانت الحضارة اليونانية قد تغلغلت في آسيا نتيجة لحملة الإسكندر على بلاد الشرق حتى الهند. فقد تميزت القرون القريبة من ميلاد المسيح (قبله وبعده) بالاتصال المباشر بين عالم الشرق والغرب بشكل خاص . وقد كان ذلك التقارب بين الدول والشعوب والحضارات ممكنا بسبب التجارة التي كانت تزدهر في أوقات السلم. وقد بقي من المعلومات المتصلة بها والتي تعود إلى ذلك العصر القديم نسخة يبدو أنها غير كاملة لكتاب يدعى (دليل البحر الإرتيري). فكلمة **(Periplus)** تعني رحلة أو دورة ، وكلمة إرتري **(Erythraei)** يونانية معناها الأحمر. ومع أن هناك بحرا هو البحر الأحمر ، فالكلمة اليونانية لم يقصد بها ذلك البحر في تلك الأزمنة . إذ أن البحر الأحمر كان يسمى عند الكثرة من الجغرافيين الكلاسيكيين: خليج العرب أو الخليج العربي **(Sinus Arabicus)** ، فالكلمة اليونانية إرتري كانت تعني – في العهد الذي نتحدث عنه – القسم الشمالي من المحيط الهندي ، أجزاءه ومتفرعاته .

(*) نشر في مجلة دراسات يمنية العدد ٤٣ ، يناير – يونيو ١٩٩١، ص ١٠٨–١٢٢.

وقد فضلنا استعمال الكلمة اليونانية معربة، كما فضلنا كلمة (دليل) على رحلة أو دورة ، لأنها على طبيعة الكتاب أدلّ وإلى المقصود منه أقرب.ومن هنا استعملنا (دليل البحر الإرتيري) . وهذا الكتاب ألّفه تاجر يوناني من أصل مصري مجهول الاسم لزملائه التجار عن الملاحة البحرية بواسطة السفن الشراعية . وعن طريقه اطلع الغرب على الأحوال الجغرافية والجوية والمناخية والإقتصادية ، وما يتصل بالأجناس البشرية، وإلى حدّ ما على الأحوال السياسية كذلك في البلدان الواقعة على شواطئ البحر الأحمر ، والخليج والمحيط الهندي . إن (دليل البحر الإرتيري) أحسن مصدر كتابي قديم يقدم لنا وصفاً جغرافياً لشواطئ البحر الأحمر وإفريقيا وفيما وراء باب المندب ، إلى حيث عرفها الناس يومئذ ، وشواطئ الجزيرة العربية الجنوبية والجزء الغربي من الهند . ويعني بالموانئ : والميناء في نظره ما وجد فيه مكان لرسو السفن وسوق ومخازن للسلع الكثيرة .

والكتاب مؤلف من ٦٦ فصلاً قصيراً . ومجموع صفحاته في الترجمة الألمانية (Fabricius 1883) تقع في ٣٩ صفحة ، وتتباين عدد صفحات الترجمة الإنجليزية ، فهي ٢٨ صفحة لدى شوف (Schoff 1912) ، و٣٧ صفحة عند هانتيجنفورد (Huntingford 1980) .

والذي أودّ أن أفعله هنا هو تتبع المحاولات التي بذلت لتأريخ – تحديد زمن – كتابة هذا الكتاب ، لأن ذلك يمهّد الطريق لتأريخ عدّة مسائل تاريخية واقتصادية وسياسية على ساحلي البحر الأحمر ، العربي والإفريقي .

اختلفت آراء العلماء حول تحديد تاريخ تأليف (دليل البحر الإرتيري) وما زالت اليوم متضاربة ، من محاولة لتحديد تاريخه بالزمن السابق لميلاد المسيح قام بها سيجسموند وجلازر في البداية ، وهي محاولة غير ناجحة (انظر : Sigismund, 1884/182 , Glaser:1890,I,28 pp.) ، إلى اقتراحات لتأريخه بالفترة

الواقعة في النصف الثاني للقرن الأول الميلادي ، إلى تحديد ذلك بالقرنين الثاني والثالث الميلاديين .

الفئة الأولى من المؤلفين هي التي ترى أن زمن تأليف الكتاب كان حوالي منتصف القرن الأول الميلادي ، أو بالأحرى في بداية النصف الثاني منه . وترى فئة ثانية أن تأليف الكتاب كان في حوالي النصف الثاني من القرن نفسه ، وفي الثمانينات بالتحديد . ويرى عدد من الباحثين أن تأليفه يعود إلى وقت متأخر بشكل ظاهر وذلك في القرنين الثاني أو الثالث الميلاديين . ويمكن لنا أن نضيف فئة رابعة من الباحثين تفيد من معلومات الكتاب في أعمالها ولكنها لا تستطيع أن تقرر زمناً دقيقاً لتأليفه . ويجمع شوف الباحثين الذين شغلوا أنفسهم بمسألة تأريخ الكتاب حتى بداية قرننا في ثلاث فئات هي الفئات الثلاث الأولى التي ذكرناها آنفاً (Schoff : 19/12/290 pp.) . وسوف نذكر فيما يلي ممثلين لآراء كل الفئات المذكورة ، حيث نعرض آراءهم ثم نبيِّن حججهم .

كان سلماسيوس واحداً من أقدم الباحثين الذين انصرفوا إلى مسألة تحديد تاريخ (الدليل) . وقد أعاد تأليف النص إلى منتصف القرن الأول الميلادي ، زمن بليني تقريباً (Salmasius: 1689/835) وبذلك يحسب ضمن الفئة الأولى المذكورة أعلاه . ثم يعدّ من أفرادها كذلك مانرت الذي يعيد التأليف إلى الزمن السابق لبليني تقريباً(Mannert: 1788/25) ، وفنسنت الذي يرى زمن التأليف في عام ٦٤ م(Vincent: 1807/11/59) . شفانبك يرى أنَّ مؤلف (الدليل) معاصراً لبليني ، بحيث استفاد هذا من (وصف البحر الإرتيري) الذي قدّمه المؤلف من قبل ، إذ كان سلفه المباشر (Schwanbeck: 1850/368) . ويعتقد بونسن استناداً إلى رأي شفانبك بأن زمن التأليف كان في عام ٧٥ م (Bunsen: 1852/7) . وعبَّر لاسن عن رأيه بزمن التأليف على الشكل التالي : " إن كتاب دليل البحر الأحمر الذي ينسب خطأً إلى أريانوس Arrianos والذي ألّف بعد منتصف القرن الأول الميلادي بزمن قصير ، يقدِّم معلومات دقيقة وغنية عن التجارة اليونانية – الرومانية مع الهند "

(Lassen: 1852/II/583) . ويرى ديلمان أنه من المعتقد " أن الكتاب قد ألّف حوالي عام ٧٠ أو ٧٥ " (Dillmann: 1880/429) وانظــر كذلــك (Dilmann: 1879/194) . ويعد " فابريسيوس واحداً من الباحثين الذين يجتمعون في الفئة الأولى هذه ، إذ أنه يؤكـد " أن مؤلف الدليل كان معاصراً لبليني وأن هذا الكتاب وصل إلى يــد بليــني كذلــك " (Fabricius: 1883/27) . بينما يرى جلازر عكس ما سبق " وأن كتاب دليــل البحــر الإرتيري يعود تاريخه إلى زمن غير الزمن الذي يعبّر عنه بليني، بحيث تبدو معلوماته أحـدث من المعلومات التي يعطيها بليني ، وبذلك يبدو أن زمن تأليفه يقع بين عــامي ٥٦ و ٧١ ميلاديين ، وأنه يمكننا أن نتخلى عن الفرضية القائلة (بأن تأليفه كان عــام ٢٦ ق.م.)" (Glaser: 1890/II/6p وانظر كذلك 164) . وبعد ذلك بزمن قصير يعتقد جــلازر أنــه يستطيع أن يكون متأكداً من زمن التأليف استناداً إلى ذكر المملكة المرويــة في الدليــل ، وكذلك من ذكر رجال الاستكشاف التابعين للامبراطور الروماني نيرون بمحــاذاة النيــل باتجاه الجنوب المذكورين لدى بليني وســنيكا Seneca : Quaestiones Naturales, VI/VIII/3/4. Pliius: Naturalis Historia ,VI, XXXV/184) فيحدده في الأعــوام الواقعة بين ٧٦ و ٦٧ ميلادية (Glaser: 1891/45) .

وكان جلازر يعتقد خطــأ بأن الدولة المروية كانت نهايتها بعد هذا الوقت بزمن قصــير (Glaser: 1891/45) . وبعد سنوات قليلة يؤكد الباحث رأيه في تاريخ تأليف الدليل مرة أخــرى إذ يقــول : "ألّــف كتــاب الدليــل عــامي ٥٦ و ٦٧ بعـــد الميـــلاد" (Glaser: 1895/33). ويمكن أن نضيف إلى مجموعة الباحثين الذين يــرون أن تــأليف الدليل كان في الربع الثالث من القرن الأول الميلادي عدداً من أبناء قرننا الحالي . فــهذا شوف يصل إلى رأي يقول بأن تأليف الدليل يجب أن يكون قد تمّ في عــام ٦٠ مــيلادي استناداً إلى الأحوال الرومانية والعربية والفرتية (الفارسية) (Schoff: 1912/7pp., 198pp.) ، ولكنه يعود بعد ذلك بوقت قصير ليقرّر بأن النص يجب أن يكون قد ألّف بعد الزمــن الــذي حدّده (Schoff: 1917/830) . وحسب رأي تكاج يعود زمن التأليف إلى سنة ٤٠ أو ٥١ في

أقصى حد ، وقد يكون ذلك على الأغلب بين عامي ٤٠ و ٤٥ (Tkac: 1920/1465) . ويحدّد شارلسورث زمنه في الفترة الواقعة بين ٤٠ و ٧٠ ، أو بالأحرى بين ٥٠ إلى ٦٥م (Charlesworth:1928/93/100). ويرى ساراسين أن زمن حكم نيرون يوافق زمن التأليف تماماً (Sarasin: 1930/20) . أما بيكر فيحدده في السنوات الواقعة حوالي عام٦٠م (Baker: 1931/20) . وأندرسون من منتصف القرن الأول الميلادي إلى عام ٧٠ م (Anderson: 1934/882)، وتارن في منتصف القرن الأول الميلادي (Tarn: 1951/148)، وكذلك دورس التي ترى أن زمن تأليفه يقع في منتصف القرن الأول من تاريخنا الميلادي (Doresse: 1956/30) . ومثلها تومسون الذي يرى أن ذلك كان على الأقرب حوالي عام ٥٠م (Thomson: 1948/228) ، وكذلك فيسمان وهوفنر يريان في مؤلفهما (أبحاث في الجغرافيا التاريخية لبلاد العرب الجنوبية قبل الإسلام) أن تأليف الدليل كان في عام ٥٠ (Wissmann und Hofner: 1952/33) . والأمر نفسه لدى السبرايت (Albright:1950/10/14)،ولدى بوون وبيك (Bowen:1958/3/40, Beek: 1958/141) وكذلك لدى جروهمان (Grohmann: 1963/25) . ويرى كيركمن رأياً مشابهاً فيما يتصل بزمن كتابة النص إذ يقول: "إنه ألّف من قبل يوناني اسكندراني زمن حكم الامبراطور نيرون" (Kirkman: 1966/15) ، ويعتقد هبل سلاسي أن مؤلف الدليل كان سفره حوالي عام ٥٠ م (Hable - Selassie: 1964/55) ، أما كاري و وارمنجتون فهما لا يحدّدان زمناً معيناً لتأليف الكتاب ، وإنما يريان أن المؤلف كان في عام٥٠ في طريقه إلى الهند (Cary and Warmington:1966/151/468)، ويقولان إن الكتاب ألّف في النصف الثاني من القرن الأول ،وهو التاريخ الذي يمكن التوصل إليه : (Cary and Warmington: 1966/9/427).

وترى فئة ثانية من الباحثين أن تأليف الدليل كان حوالي ٨٠ م . ويذكر هنا موللر الذي يعدّ أقدمهم ، ويستند في ذلك إلى ورود إسم الملك الاكسومي زوسكالس في الفصل الخامس من الكتاب نفسه (Muler: 1855/I/96) حيث يرى سالت أن زوسكالس كان

حكمه بين ٧٧و ٨٩ م (Salt: 1814/463p) . ويقول موللر مستنداً إلى تحديـــد حكـــم الملك الاكسومي: "إن تأليف الكتاب كان بعد بليني في السنوات الواقعة بـــين ٧٩ – ٨٩ م" (Muller: 1855/I/97) . وتفكر فيفان دي سانت مارتن في الوقت نفسه الذي حـــدده موللر ، أي " السنوات الواقعة بين ٧٩و٨٥ الميلادية لتأليف كتاب الدليل علـــى وجـــه التقريب " (Saint Martin : 1863 / 197) ، وتؤكد ذلك في مكان آخر إذ تقـــول : " يقـــع تـــأليف الكتـــاب بعـــد ســـنوات قليلـــة فقـــط مـــن مـــــوت بليـــــني " (Saint Martin: 1873/189). ويرى ذلك أيضـــاً مـــاك كرينـــدل الـــذي يقـــول : "كتـــب الدليـــــل بعـــــد مـــــوت بليـــــني بقليـــــل بـــــين ٨٠ – ٨٩ م " (Mc Crindel: 1879a/108 and 1879b/5) . ويعتقد توزر أن تحديد تـــاريخ تـــأليف " وثيقتنـــا الهامـــة يجـــب أن يكـــون بعـــد عشـــر ســـنوات مـــن مـــوت بليـــــني " (Tozer: 1897/2/ed,1935/274) ، ويرى شورر أن "ملك الأنبـــاط مـــالك Malchus الثاني الذي حكم بين ٤٨ – ٧١ م ورد ذكره في كتاب الدليل الذي ألّف في عام ٧٠ م " (Schurer: 1901/I/735pp and 739) . ويقول شوف: " التأريخ الذي يلقى القبول هو ماورد لدى الجنرال م.ر. هيج في كتابه (بلد الدلتا الهندية) ، ص٢٨: قام المؤلف برحـــلات عدّة بين ٦٥و ٧٥ م . ووضع الكتاب في الربع الأخير مـــن القـــرن الأول الميـــلادي " (Schoff: 1917/830) . وفي رأي روستوفزف كتب النص زمن حكم روميتيـــان ٨١ – ٩٦ (Rostovtzeff: 1926/91/ and 93) بينما يرى كرونمان أن النص كتب في السنوات الأخيرة لحكم دوميتيان (Kornemann: 1921/59) ويذكر سميث أن عام ٧٠ يمكـــن أن يكون زمن التأليف (Smith: 1924/245). ونذكر من الباحثين الذين يرون أن زمن تأليف الدليل يعود إلى الثمانينات من القرن الأول هينج ومورس اللذين يقدران ذلك بـــين ٨٩ و ٩٠م (Moraes: 1964/36) . ثم فيســـمان الـــذي يوافـــق علـــى رأي موردتمـــــان في البـــدء ، وهـــو الـــذي يـــرى أن التـــأليف كـــان زمـــــن حكـــــم دومتيـــــان (Mordtmann:1931/4,Wissmann: 1958/311,u 313) ثم يميل إلى رأي جونســـتون الذي يؤكد أن تأليف الكتاب الذي قام به تاجر يوناني من الاسكندرية كان حوالي عـــام

٨٠م (Johnston: 1966/44) .

وبعد أن ذكرنا عدداً من ممثلي الفئتين الكبيرتين الأولى والثانية ، نذكر فيما يلي عدداً من الباحثين الذين لم يذكروا حتى الآن لأنهم لا علاقة لهم بالفئتين السابقتين ، ولا يمكن أن يحسبوا على الفئة الثالثة لأنهم لا يريدون أن يتخذوا قراراً نهائياً حول سنة تأليف كتاب الدليل . ويذكر في هذا الصدد من الباحثين القدماء هيرن ، الذي يقول إن كتاب الدليل "يعود تأليفه إلى القرن الأول الميلادي ، أو إلى القرن الثاني الميلادي على أبعد تقدير" (Heeren: 1824/I/III/Abt.316) . ويجعله شوف من جماعة الفئة الثالثة الأساسية من غير تدقيق ، وبكل بساطة ، انظر (Schoff: 1912/293) ويتهرب ريتر من تحديد تاريخ دقيق للنص ،وقد اعتقد في البداية خطأ أن المؤلف هو أريانوس (Ritter: 1835/IV/I,Abthlg, 516ff, 1836: IV/2, Abthlg/17f) وأن النص قد وضع في القرن الأول ، بل والأصح في قرن لاحق للميلاد (Ritter: 1846, VIII/1. Abthlg/14) ثم يقول بعد ذلك أن الكتاب وضعه تاجر من القرن الثاني الميلادي (Ritter: 1861/124) . ونذكر من قرننا الحالي ليتمان الذي يحدّد تاريخ تأليف الكتاب ببساطة في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي (Littmannn:1926/411) ثم نذكر مايور مدارشاستري الذي يرى أن التأليف حدث في القرن الأول الميلادي وذلك في إصداره طبعة عام ١٩٧٢ لكتاب ماك كريندل (الهند القديمة كما وصفها بطليموس(Majumdor Sastri: 1927/XVIII) ، وكذلك فريسك الذي لا يقرّر عاماً محدداً إذ يقول : " لقد انتهينا إلى الإجماع على أن التأليف يقع في النصف الثاني من القرن الأول على الرغم من وجود اختلاف في الرأي اليوم بخصوص تحديد تاريخ دقيق " (Frisk: 1927/36) . كما أن لوهيزن دي لو يتوخى الحذر بشأن التاريخ الصحيح، ويميل إلى التفكير في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي (Lohuizen-de Leeuw: 1949/384) ويرى فريمان – جرنفيل أن "لدليل ربما كتب في الاسكندرية حوالي عام ١٠٠م" (Freeman-Grenville: 1962. 1) ولا يعبّر كذلك ويلر

عن عام محدّد للتأليف إذ يقول :" في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول أبحـــر تـــاجر روماني ...في البحر الأحمر والمحيط الهندي" (Weehler: 1965/117) ويفعل الشيء ذاتـــه اجيرمونت الذي يعتمد رأي فريسك (Eggermont: 1966/257) وغـــيره كثـــير مـــن الدارسين .

ونذكر فيما يلي بعض ممثلي الفئة الثالثة والأخيرة ، بعد أن تعرضنا لذكر عـــدد مـــن ممثلي الفئة الانتقالية ، على سبيل المثال ، وهي الفئة التي ترى أن زمن تأليف الكتاب جـــاء في وقت متأخر بشكل ملحوظ ، وذلك في القرنين الثاني أو الثالث الميلاديين . ورأى شوف في هذه الفئة أنها تستدعي الاهتمام والنقد لأن أصحابها يقيمون آرائهم على تاريخ أبـــاطرة الفصل ٣٣ من الكتاب (Schoff: 1912/292) . وهذا يعني أن معلومات الدليل تتعلـــق بعصر اثنين من الحكام الرومانيين. وبذلك يصبح ممكنا أن يكون التأليف قـــد جـــرى في القرنين الثاني أو الثالث الميلاديين (انظر بهذا الشأن Schoff: 1912/109f) . وقد ازدادت الآراء المتصلة بتحديد تاريخ تأليف الدليل منذ شوف ، واعتقد بعض الباحثين أن لديـــهم قرائن جديدة تؤكد على تأليف الكتاب في القرنين الثاني والثالث الميلاديين .

ولسوف نذكر في البداية بعض الباحثين القدماء . ونرى أن دودول ينتقد سلماسيوس ، ويعتقد أن تأليف الدليل كان بعد عام ١٦١م (Dodwell: 1698/88) . ويتبعه في هـــذا الرأي فوربيجر ، وذلك لأنه فهم من الفصل٣٣ أن حاكمين كانا يحكمان في آن واحد ، وهما مارك أوريل ولوسيوس فروس (Forbiger: 1877/2 ed. I/443) . رينو حدد تـــاريخ كتابة النص من بعد بحثه (مذكرات حول بداية ونهاية مملكة ميسين وخراسين) اســـتنادا إلى الفصل ٣٣ المذكورة في عام " ٢٤٦ أو ٢٤٧ من تقويمنا في زمن حكم الامبراطور فيليـــب وابنه" (Reinaud: 1861/226) . ثم يشير بعد ذلك بزمن قصير إشارة طفيفة إلى أنه ليـــس من الضروري أن يتعلق الأمر بحكم قيصرين يحكمان في وقت واحد ، وذلك في بحث لـــه بعنوان (مذكرات عن دليل البحر الإرتري) (Reinaud: 1864/232) . أما بشيل فإنـــه لم

يستطع أن يتخذ قرارا واضحا ، ولكنه مـــال بعـــد ذلـــك إلى رأي رينـــو :Peschel)
(1865/53. ونذكر من الباحثين الذين تطرقوا في قرننا الحالي بالمر ، هنتيجفورد ، بـــيرين ،
مايو مدار ، فيسمان ، ألتهايم واشتيل الذي حددوا زمن تأليف الكتاب في زمن متـــأخر .
وهكـــذا يجـــد بـــالمر أن الزمـــن المحتمـــل هـــو عـــام (١١٠) الميـــلادي :Palmer)
(1947/140/1949/62 . ويرى هنتيجفورد أن النص يجب أن يكون قد ألف بعد بطليمـــوس ،
لكنه لا يعبر عن ذلك بدقة ، إذ يقول : " من الجائز استنادا إلى القرائن التي لدينا أن نعطي تاريخـــا
تقريبيا للكتاب ، التي توحي أنه وضع ما بين عامي ٩٥ و ١٣٠ ميلاديـــة " :Huntingford)
(1940/41-211 ، ويعيد مايو مدار تاريخ كتابة نصنا إلى ما بعـــد عصـــر بطليمـــوس أيضـــا
(Majumdar: 1962/90) . وتتصرف بيرين فيما يتصل بتحديد التاريخ بحذر ، وتعتقـــد
أن ذلك كان في نهاية القرن الثاني على الأقل ، ولكن الغالب أنه وقـــع في بدايـــة القـــرن
الثالث الميلادي (Pirenne: 1961a/193) [وعد كذلك إلى رأيها الذي عبرت عنـــه في
كتاب التهايم (١٩٦٢ ، ص ١٥]. ويفكر فيسمان بهذه المسألة على عكس رأيه الســـابق
بالأعوام السابقة واللاحقة لعـــام ٢١٠ م Wissmsnn: 1964/62/71ff/Taf.III und)
(IIIa أما التهايم وشتيل فإنهما ينتصران أخيرا بقوة لهذا التاريخ .

ويتبين من نتائج البحوث والآراء التي عرضناها أن المناقشات المتعلقة بتحديد تـــاريخ تأليف كتاب الدليل لم تمتد عبر القرون فقط ،بل ما زالت نشطة وحيوية إلى اليـــوم ، ولا يبدو أن المسألة ستجد حلا قريبا ، لأن الآراء تضاربت في الأعوام الأخيرة حولها كثيرا كما كان الحال في السابق . وسنتطرق فيما يلي لبعض الأسباب الحقيقية الوجيهة التي جعلـــت الباحثين الواحد منهم بعد الآخر ، يتوصل إلى نتائج مختلفة كل الاختلاف .

وتشير بيرين إلى أن التوصل إلى نتيجة مرضية لا يتم إلى بتعاون اثنين مـــن البـــاحثين المختصين على الأقل لتحديد تاريخ كتابة النص ، وأن مراعاة واقعة تاريخية واحدة يقـــود حتما إلى نتيجة خاطئة . ومن اللازم أن يتعاون مختص واحد في المجال الإفريقي العربي مـــع

مختص في المجال الفارسي – الهندي . "إن الباحثين الذين تبنوا تاريخا محددا لكتابة نص دليل البحر الإرتري انصرفوا قبل كل شيء إلى تحديد شخصية الملوك الذين ورد ذكرهم في النص . . . وأن خطأ هذه الدراسات يتمثل في كونها متفرقة منفصلة عن بعضها ، إذ أن الرؤية لدى كل اختصاصي محدودة" (Pirene: 1961a/167) . وعلى الرغم من أن بيرين على حق فيما تطالب به فإنه ينبغي لنا أن لا نتجاهل أن كثيرا من الباحثين قبلها كانوا حريصين على أن يعالجوا المسألة من وجهات نظر مختلفة . فالاحتمالات المتفرقة التي يمكن توظيفها لتحديد تاريخ كتابة الدليل ، تأتي بنتائج مختلفة تماما ، بحيث لا يمكن أن تعوض كثرة هذه الاحتمالات نوعيتها . وهذا يعني بكلمة أخرى ، ، أن ذكر الملك النبطي مالك في الفصل ١٩ من النص ، على سبيل المثال ، يفيد في تحديد تاريخ الكتاب أكثر من المعلومات الخاصة غير المؤكدة للأحداث التاريخية في الهند ، وبلاد العرب الجنوبية أو الحبشة . ونستخلص ذلك على سبيل المثال ، من أقوال شارلسورت ، الذي لا يستطيع أن يثق بالترتيب الزمني للأحداث التاريخية **Chronologie** لجنوب الهند والحبشة ، ولكنه يستطيع أن يعتمد على ذكر الملك مالك (Charlesworth: 1928/93) ، على عكس بالمر الذي يعتقد أن " شارلسورث متشككا جدا" فيما يتصل من ذكر لأسماء الملوك الهنود وللأحوال السياسية التي ذكرت في الدليل (Palmer: 1947/137) . لأن ذكر حكام سنيابارس في الفقرتين ٤١ و ٥٢ (حسب النص عند (Fabricius: 1883/83/93) ، ونمبانوس ، وسراجانوس ، وسندانس أو ممباروس (حسب النص عند (Schoff: 1912/39/43/127) أو ذكر الملك هبانا الذي يصادف موته عام ١٢٥ م ، إن ذكر ذلك يعطي الحق إضافة إلى المعلومات الواردة في الفصول ٤١ ، ٥١ – ٥٣ ، بأن تاريخ النص يعود إلى السنوات بين ١١٠ – ١١٥ م ، إذا كان كتاب الدليل بكامله من تأليف كاتب واحد (Palmer: 1947/138pp., 1949/62) ، كما يبدو ذلك من تحليل فريسك اللغوي (Frisk: 1927/38pp.) ، وعلى العكس من ذلك يرى شوف أن ذكر هبانا إنما هو قرينة على أن تأليف الدليل يقع في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي (Schoff: 1912/197pp.) . وأما ما جاء في الفصل ٣٨ من معلومات عن حكم الملوك البارثيين (الفرس) في ميناجارا فإنه يقول : "إن

الظروف السياسية الموصوفة في كتاب الدليل كانت تلك التي جاءت بعد موت جوندوفارس، آخر حكام الهند البارثيين الأقوياء في البنجاب وقد حدث ذلك حوالي عام ٥١م (Schoff: 1912/167) . وعلى هذا يستند مارشال الذي يقول بخصوص هذه الفقرة : " كان خليفة جندوفارس حوالي ٥٠ باكورس " ، ولكن كان واضحا " أنه بعد موت جوندوفارس بدأت امبراطورية البارثيين بالتراجع سريعا وقد فتح ذلك الطريق لغزو الكوشان الذي تبعه مباشرة بعد عام ٦٠ م " (Marshall: 1960/30) . ويرى ثاران من جهة أخرى بناء على معلومات الدليل في الفصل ٤٧ التي تتعلق بأحوال شمال غربي الهند أن بإمكانه تأريخ نص الكتاب بمنتصف القرن الأول الميلادي (Tarn: 1951/148) . ومايو مدار الذي يعتقد أن تأليف الكتاب كان في القرن الثالث الميلادي ، وإن كان يشير إلى عدم دقة تاريخ حكم البارثيين في الهند ، إلا أن ذكر كتاب الدليل لهذا الحكم في الفصل ٣٨ في وادي الهندوس يعني ويؤكد أن وضع الكتاب كان في القرن الثالث الميلادي (Majumdar: 1962/93) .

إن المحاولات التي تستند إلى ما جاء في كتاب الدليل من معلومات عن الهند لتحديد تاريخ تأليفه هي محاولات قابلة بحق للرد . وفي هذا الاتجاه يبدي ديله رأيه على سبيل المثال في حل بالمر قائلا :" إن محاولة بالمر فاشلة بسبب عدم مصداقية التواريخ المستقاة من التسلسل الزمني للأحداث الهندية التي تحتاج بدورها إلى ما يوثقها من خارج الهند " (Dihle: 1965/9) . وإن الأحداث السياسية التي جرت عند مصب الهندوس والتي ذكرت في الفصل ٣٨ من نص الدليل ، والتي تبدو البلاد من خلالها تحت حكم الملوك البارثيين " الذين لا ينفكون يطردون بعضهم الواحد منهم للآخر " (حسب النص عند فبريسيوس (Fabricius: 1883/79) تشير بحسب رأي ديله إلى العصر الذي جاء بعد موت جوندوفارس . وبما أنه "من الصعوبة بمكان أن نجد سلالات تحكم بعد منطقة الهندوس في القرن الثالث الميلادي ، فإن النتيجة لذلك هي وجود قرائن واضحة على أن القرن الثالث يجب أن يغفل تماما" (Dihle: 1965/34) . وكذلك ذكر نُهبانا لا يفيد شيئا ،

ذلك أن منطقة سكا ـــ أرا المذكورة في الوثيقة لا يمكن تحديدها إلى اليوم في الهند . ويمكن الرجوع بصدد هذه الآراء إلى النقد القاسي الذي صادفته من ألتـــهايم وشـــتيل اللذيـــن ينتصران بشدة للرأي القائل بأن تاريخ النص يعود إلى بداية القـــرن الثـــالث الميـــلادي (Althiem-und stihl: 1967/501) وتبدو مصاعب تحديد التاريخ هذا واضحـــة لـــدى بـــيرين الـــتي تـــرى أيضـــا أن كتابـــة النـــص تعـــود إلى وقـــت متـــأخر (Pirenne: 1961a/182pp, 1961b/455pp.) .

وإذا ما التفتنا إلى معلومات كتاب الدليل عن الأحوال السياسية في جنـــوب جزيـــرة العرب ، فإننا سنصطدم هنا أيضاً لدى محاولة تحديد تاريخ الكتاب من خلالها بالعديد مـــن المصاعب . ويتبين ذلك من خلال الدراسات التي قام بها الباحثون القدمـــاء والمحدثـــون . وعلى المرء أن يلاحظ ما قامت به بيرين ، على سبيل المثال، من محاولات لمقارنـــة أسمـــاء الملوك التي وردت في كتاب الدليل مع تلك التي نقشت على الكتابات اليمنيـــة القديمـــة (Pirenne 1961a/20pp, 173pp.) وبرأي البرايت تتوافق الأحداث السياسية المعروفـــة حتى اليوم في اليمن القديم مع تاريخ نص الدليل في السنوات التي تقع حوالي عـــام ٥٠ م (Albright: 1950/10/14) . ويعتبر عدد من الباحثين المعلومات الورادة في كتاب الدليـــل ذات وزن بدرجة كافية لاعتمادها في تحديد تاريخ كتابته . وهكذا يعتقد فيسمان على الرغم مـــن التشكك الذي أبداه تجاه محاولات بيرين وألتهايم (Althiem: 1962/15) لتحديد تـــاريخ النص ، بناء على ما جاء فيه من معلومات عن اليمن أن بإمكانـــه تحديـــد تـــاريخ هـــذه المعلومات ببداية القرن الثالث الميلادي (Wissmann: 1964/72) وهو في ذلك لا يخفـــي المصاعب التي تتأتى عن ذلك أبدا (Wissmann: 1964/399) . تماما كما يشير ألتـــهايم وشتيل بحق إليها (Althiem and Stiehl: 1967/294) . وكذلك يؤكد ديله ، الذي يرى أن وضع النص كان في القرن الأول الميلادي ، الصعوبات التي تتأتى عن تاريخه استنادا إلى ما جاء فيه من معلومات عن اليمن (Dihle: 1965/10p) ، فيقول : " إن معلوماتنا عـــن النقوش اليمنية القديمة تتوقف على عثورنا بالصدفة عليها ، وهذا له من المعنى ماله بالنسبة

لبلد ما زالت أعمال التنقيب فيه عن الآثـــار في بداياهـا الأولى " (Dihle:1965/12) . ويمكن الرجوع كذلك إلى أراء جرومان (Grohmann: 1963/28) .

ثم يشير ديله أيضاً إلى قلة الفائدة المرجوة من معلومات كتاب الدليـل عـن منطقـة الخليج كيما يتم تأريخ كتابته عن طريقها ،كما تحاول بيرين ، على سبيل المثال ، أن تفعـل (Pirenne:;1961b/445f.,453 pp.) ، وكذلك مايومدار (1962/91) ، فالمعلومات عـن هذه المنطقة ضئيلة بسبب مكانة التجار القوية في الامبراطورية البرثية، والتي لا تسمح بمثل هذا التجول الذي قام به صاحب الدليل (Dihle: 1965/28) . وبحسب رأي مـايومدار بدأت السيطرة على الجزر الزنوبية التي ورد ذكرها في كتـاب الدليـل في الفصـل ٣٣ (= كوريا موريا ٢٠ َ ١٧ ْ شمالاً ، ٣٠ َ ٥٦ ْ شرقاً) في القرن الثالث الميلادي وليس قبـل ذلك . (Majumda: 1962/91) .

أما محاولات تحديد تاريخ كتابة الدليل بناء على ذكر الملك (زوســكالس) ، ملـك أكسوم ، لا تستند كذلك على أساس متين ، ولا يمكن الإفادة من التاريخ الحبشي المتدوال إلى الدرجة التي يعمـد بعـض البـاحثين إلى اسـتخدامه ، كالبـاحث شـوف مثـلاً (Shoff: 1917/827 pp.) . وقد أشار إلى ذلك ديلمان ناقداً سالت (1814/461) ، ورينو (1861/237,1864/237) والباحثين القدماء الآخرين الذين كانوا يعتقدون بأنهم وجدوا في القوائم الملكية اسم زوسكالس ، ويقول ديلمان إن زوسكالس الدليل لا يصلح لتحديـد تاريخ الكتاب ، بل على العكس إن ذكر زوسكالس في الكتاب يحـدد تـاريخ حكمـه (Dillmann: 1879,104,1880,429) . سالت الذي ألـف تاريخـاً مختصـراً للحبشـة (Salt: 1814,457,pp.) ، بذكر (زا ــ هاكاله) ضمن قائمته لأسماء ملوك أكسوم ، الذي يقدر أنه حكم بين ٧٦ و ٩٩ م (Salt; 1814/461) . وبري سالت (ص ٣٦٣) إشـارة إلى ما سبق أن هذا التاريخ يتطابق مع تحديد تاريخ كتابة الدليل من قبل فنسنت الذي حـدده في السنة العاشرة من حكم القيصر نيرون ، أي في عام ٦٤م (Vincent: 1807,11,59) . وقـد

استند إلى مطابقة اسم زا – هاكاله مع زوسكالس ، التي توصل إليها سالت ، وكثير من الباحثين . وهذا مثلاً سانت مارتين (1863,197) ، وماك كريندل الذي يعتقد أنه يمكن الاستفادة من ذكر زوسكالس لتأريخ الدليل (Mc Crindle: 1879a, 108). وكذلك كورنمان (Kornemann: 1921/64) ، ودوريس التي تشير إلى سمات زوسكالس الواردة في كتاب الدليل الذي ترى أنه ألف في القرن الأول الميلادي (Doresse: 1956/30) . أما بيرين فإنها ترى عكس ذلك أن ليس من الممكن تحديد تاريخ تأليف الكتاب استناداً إلى ذكر زوسكالس حيث تقول : "إن كتاب الدليل هو الذي يحدد تاريخ ظهور مملكة أكسوم ، وليس ملك أكسوم هو الذي يحدد تأريخ الدليل (Pirenne: 1961a , 181) . ويرى مايومدار الذي يعتمد دائماً على أقوال بيرين أنه من الممكن استخلاص ما يفيد بأن النص كان تأليفه في القرن الثالث الميلادي من لقى النقود المعدنية الأكسومية (Majumdar: 1962/92) .

إن تحديد تاريخ كتابة نصٍ استناداً إلى الإمكانيات التي ذكرت حتى الآن يبقى بحكم المشروع الذي لا يوثق به ، لأن الأحوال الخاصة بالهند وإيران واليمن والحبشة التي أخذت بعين الاعتبار في أثناء ذلك لا تستطيع أن تقدم معلومات واضحة بشكل كاف . ولكن المرء يتوصل عن طريق الفصل ١٩ من النص على أرض ثابتة ـــ إلى حدّ ما ـــ حين يقرأ : " ولكن عندما يبحر المرء بالسفينة الشراعية إلى اليسار من برينكي مسافراً مدة يومين أو ثلاثة أيام من ميوس هورموس باتجاه الشرق عبر الرأس البحري الممتد هناك فإنه سيجد مكاناً آخر للرسو (مرفأ) ومكاناً محصناً وهو لوكي كومي (القرية البيضاء)الذي تتجه طريق منه تقود إلى البتراء ، إلى ملك الأنباط مالك" . النص عن فابريسيوس (Fabricius: 1883/57) . وتشير الدلائل إلى أن الملك المذكور هنا هو نفسه الذي ذكره يوسفوس حليفاً للرومان في حربهم ضد اليهود . وهذا الملك ، مالك الثاني ، هو الذي ساند الرومان في حربهم تلك بإرسال ١٠٠٠ فارس و ٥٠٠ من المشاة . إن مالك الأول الذي حكم حسب الدراسات الحديثة بين ٦٣ – ٣٠ ق. م ليس الحديث عنه وارداً هنا . ويرى أندرسون فيما يتصل بمالك

المذكور في الدليل : " إن الملك الوحيد الذي يرد ذكره إنما هو مالك الثاني الـذي كـان حكمه بين ٤٠ ـ ٧١ (أو ٧٥) تقريباً . وكان خليفته رب إيل الثاني الذي حكم حتى ٩٦ (أو ١٠١) وربما حتى ١٠٦ م ، ولذلك لا شك أن كتاب الدليل ألف زمن حكم مالك الثاني " (Anderson: 1934/882) . واستناداً إلى زمن حكم مالك الثاني بين منتصف القرن الأول الميلادي إلى عام ٧٠ يحدد الباحثون الأوائل تأليف كتاب الدليل في هذا الوقت غير الثابت. ومن هؤلاء فابريسيوس (1883/137)، ماك كريندل (1879a,108)، شورر(Schurer:1901/I/735ff.,739) وشوف (Schoff/1912/11/103) وكثير غيرهم . وإن كان هذا يبدو مقنعاً إلى حد ما ، فإن بعض الباحثين المحدثين يشك في أحسن إمكانلت التأريخ هذه . فهذه بيرين تعتقد مستندة في ذلك إلى فريسك (Frisk: 1927 32 p.) أن ما ورد في النص من أن مالك هو (ملك الأنباط) إنما هو إضافة في زمن لاحق يقع غالباً في القرن ١٤ أو ١٥ ، ولم تكن هذه العبارة في النص الأصلي (Pirenne: 1961 a/185 pp., 1961 b/450). إن محاولة بيرين التوضيحية هذه ممكنة بشكل عام والتهايم وشتيل يوافقانها في هذه المحاولة ويحاولان أن يدعما هذا الرأي بأمثلة من أماكن أخرى مشابهة (Altheim: 1962/11/Altheim und Stiehl: 1967/493) . ومايومدار يوافق على رأي بيرين وينضم إليها إذ يقول : " . . . تؤكد الكتابات وجود ملك يحمل اسم مالك في المنطقة المحيطة بالبتراء حوالي القرن الثالث الميلادي " .(Majumdar: 1962/93)

ويعتقد عدد من الباحثين أن عدم ذكر كتاب الدليل في مؤلف بليني (Naturalis Historia ـ تاريخ الطبيعة) الذي صنف حوالي عام ٧٧ م إنما هو قرينة على أن تأليفه كان في الوقت اللاحق لبليني . وهكذا يرى بعضهم أن بليني لو عرف كتاب الدليل لكان استفاد منه حتماً . والجواب عل ذلك أن بليني قد يكون عرف كتاب الدليل كما يعتقد بعض الباحثين ولكنه مع ذلك لم يسم مؤلف الكتاب . ويمكن الرجوع بهذا الخصوص إلى ملاحظات فابريسيوس وشوف (Fabricius: 1883/27 Schoff: 1912/15).

ويعتقد شفانبك بأن بليني استفاد من نص الدليل (Schwanbeck: 1850/368) . ويعبر عن ذلك جلازر بقوله : " إن كتاب (تاريخ الطبيعة) لبليني يبين أن كتاب الدليل كان مصدراً من مصادره " . (مؤلف الكتاب بحسب رأي جلازر الخاطئ هو بازيلس) (Glaser: 1891/45) . ولكن ماك كريندل يعارض هذا الرأي بشدة ويؤكد أن بليني لم يعرف كتاب الدليل (Mc Crindle: 1879 a/108 1879 b/ 5) ، ثم كورنمان الذي يرى أن بليني أدق من الدليل (Kornemann: 1921/56 pp.) . وكما بيّنا أعلاه هناك باحثون آخرون كثيرون غيرهم .

وباعتقاد رينو أن علاقة بليني وبطليموس بالدليل تسوغ تأريخه بزمن متأخر (Reinaud: 1861/263pp.) . وهتم بيرين بعلاقة المعلومات الواردة في كتاب الدليل بمعلومات كتاب تاريخ الطبيعة وتصل إلى نتيجة صائبة مفادها أن معلومات كتاب الدليل أدقّ من معلومات بليني ، وتخلص بعد ذلك إلى القول : " وهذا يعني ، في كل الأحوال ، أن النص يعود تاريخه إلى زمن متأخر عن ٧٠م" (Pirenne: 1961a/177).

عندما نقارن معلومات الدليل مع معلومات غيره من مؤلفات القدماء ، كما أشرنا إشارة سريعة فما سبق ، يجب ذكر بطليموس قبل غيره . وهكذا نجد لاسن ، مثلاً ، يعتقد أن بطليموس استفاد من نصنا (Lassen: 1852/II/538) . ويقول ماك كريندل منبهاً إن جغرافي العصر القديم الكبير كان يعرف من المعلومات عن المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الجانجا المقدس أكثر من مؤلف الدليل (Mc Crindle: 1879b/4). وتلفت بيرين النظر إلى معلومات الدليل الأفضل عن جغرافية إفريقيا الجنوبية عن طريق المقارنة مع مارينوس (Pirenne: 1961a/178) . ويعدّ مايومدار من الباحثين الذين يعتقدون بتأخر كتابة الدليل بسبب معلوماته الأفضل بالمقارنة مع معلومات بطليموس . ويظهر ذلك من رسم بطليموس الخاطئ لخارطة شبه القارة الهندية على عكس الدليل ، كذلك تسمية الصين باسم واحد مقابل إطلاق تسميات مختلفة عليها من قبل بطليموس يدلّ على تأخر كتاب الدليل

(Majumdar: 1962/90/91). ويستنتج مايومدار أن مؤلف الدليل علـــى علـــم دقيـــق بأحوال البلد من خلال إطلاق اسم واحد على الصين . وكذلك يشيد باحثون مختلفـــون بمعلومات الدليل عن الهند ، من دون أن يستخلصوا من ذلك أن الدليـــل كتـــب بعـــد بطليموس . ويلفت النظر في هذا السياق ، مثلاً ، مالاحظه هاينه-جلدرن مـــن وصـــف كتاب الدليل للمنطقة الساحلية الواقعة بين عقدة بلمير ومصب نهر الجانجا الغربي حيـــث يقول : " إن معلومات الدليل تطابق الواقع تماماً " (Hdine - Geldern: 1927/165) . وبخصوص ما يتصل بالخيل التي تفترس البشر أو ذوي الوجوه الطويلة الـــتي ذكـــرت في الدليل يقول: " وتتبدى ، حتى في هذه الحالة ، أمانة معلوماته بشكل مثير للدهشة ، حيـــث يتصف بجدية أخباره ، وإن انزلق بشكل استثنائي في عالم الخيال : (Heine - Geldern: 1927/171) .

إن عدد الحجج الورادة بشأن إمكانية تحديد التاريخ تتزايد ، ولكن دون أن تجد مسألة التاريخ حلاً نهائياً . ولكن يبدو على الرغم من التحفظات الجدية فإن كفة الحجـــج الـــتي تتبنى تأريخ النص في النصف الثاني من القرن الاول لها ما يرجحها . وعلى أية حال ، فـــإن الحلّ النهاتي للمشكلة ما زال قائماً ، حتى وإن حرص بعض الباحثين على تـــأريخ النـــص مبكراً ، وبعضهم الآخر عل العكس في وقت متأخر.

المصـــــــــــــادر

- Albright, William F., The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the First Compaign of Excavation in Qataban, in :Bill. of the Americ. Schools of Oriental Research. Nr. 119, Jerusalem-Baghdad Oct. 1950.
- Arachaeological Discoveries in south Arabia, Baltimore 1958.
- Altheim, F.: Geschichte der Hunnen, vol. V, Berlin 1962.
- und R. Stiehl : Die Araber in der Alten Welt, vol. VI, Berlin 1967.
- Anderson, J.G. C.: The policy of Nero in the south-east and north-east, in : Cambridge Ancient History, vol. X, Cambridge 1934.
- Baker, J. N. L. : A History of geographical Discovery and Exploration, 1st ed. London-Bombay-Sydney 1931, 2nd ed. London 1948.
- Beek, G. W. van: Ancient Frankicense-producing Areas, in: Albright William F., Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore 1958.
- Bowen, R. jr.: Archeaological Survey of Beihan, in: Albright William F., Archheaological Discoveries in South Arabia, Baltimore 1958.
- Bunsen, G.F. von: De Azania Africae littore orientali, Bonn 1852.
- Cary, M. and E. H. Warmington: Die Entdeckungen der Antike, Zurich 1966.
- Charlesworth, M.P. : Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, 1st ed. Cambridge 1924, 2nd 1926 (Hildesheim 1961).
- Some Notes on the Periplus Maris Erythraei, in: The Classical Quarterly, XXII, 1928.
- Dihle, A.: Umstrittene daten, Koln 1965.
- Dillmann, M.: Uber die Anfange des Axumitischen Reiches, in: Abhandlungen der konigl. Akad. d. Wissensch. zu Berlina 1878, philos. histor. klasse, Berlin 1879.
- Zu der Frage uber die Abfassungszeit des Periplus maris erythraei, in: Monatsbericht der konigl. preuss. Akad . d. Wissensch. zu Berlin, Mai 1879, Berlin , 1880.
- Dodwell, H. : De aetate peripli maris Erythraei , in: Hudson Jo. Geographiae veteris scriptores Graeci minores, Oxonia 1698.
- Doresse, J.: Au pays de la Reine de Saba, L'Ethiopie antique et moderne, 3e ed. Paris 1956.
- Eggermont, P. H. L. : The Murundas and the ancient trade - route from

Taxila to Ujjain, in: Journal of the economic and social history of the orient, vol. IX, part III, Leiden 1966.
- Fabricius, B.: Der Periplus des Erythraeischen Meeres von einem Unbekannten, Leipzig 1883.
- Forbiger , A.: Handbuch der alten Geographie , vol. I, Leipzig 1842.
- Freeman - Grenville G. S. P. : The East - African Coast , select documents from the first to the earlier 19th century , Oxford 1962.
- Frisk , H.: Le Periple de la mer Erythree suivi d une etude sur la tradition et la langue , in : Goteborgs Hogskolas Arsskrift, Bd . XXXIII, Goteborg 1927.
- Glaser , E.: Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens von den altesten Zeiten bis zum Propheten Muhammad , Bde . I, II, Berlin 1890.
- Abfassungszeit und Autor des Periplus Maris Erythraei , in: Ausland, 64. Jahrgang , Munchen 1891.
- Die Abessinier in Arabien und Afrika , Munchen 1895.
- Grohmann , A.: Kulturgeschichte des Alten Orients , in: Handbuch der Altertumswissenschaft , 3. Abteilg ., I. Teil, 3. Bd ., 3. Unterabschnitt, Munchen 1963.
- Hable - Selassie , S.: Beziehungen Athiopiens zur griechisch - romischen Welt , Habelt s Diss.- Drucke, Reih : Alte Geschichte , Heft 2, Bonn 1964.
- Haig , M. R .: The Indus Delta Country , London 1894.
- Heeren , A. H. L. : Ideen uber die politik , den und den Handel der vornehmsten Volker der alten Welt , II, 1. -Carthager , ethiopier, 4. Auflage , Gottingen 1824-26.
- Heine - Geldern , R. von: Orissa und die Mundavolker im "Periplus des Erythraischen Meeres" in: Beitrage zur historischen Geographie , Kulturgeographie , Ethnographie und Kartographie vornehmlich des Orients , Leipzig und Wien 1927.
- Herrmann , A.: Ein alter Seeverkehr zwischen Abessinien und Sud - China bis zum Beginn unserer Zeitrechnung , in :Zeitschrift d. Gesellsch . fur Erdkunde, Berlin 1913.

- Hofner , M.: Siehe Herrmann von Wissmann.
- Huntingford , G. W. B.: The Periplus of the Erythraean Sea (Hakluyt Society) London 1980.
- Johnston , H. H. : A History of the Colonization of Africa by alien races, New York 1966.

- Kirkman , J. S. : Men and Monuments on the East African Coast , New York 1966.
- Kornemann , E.: Die historischen Nachrichten des Periplus maris Erythraei uber Arabien - ein Beitrag zur neronischen Orientpolitik , in : Festschrif zu C. F. Lehmann - Haupts sechzigstem Geburtstage , Wien und Leipzig 1921.
- Lassen , Ch.: Indische Alterthumskunde , Bd. II, Bonn 1852. Bd. III, Liepzig 1858.
- Littmann , E.: Indien und Abessinien , in :Beitrage zur Literaturwissenchaft und Geistesgeschichte Indiens , Festgabe Herrmann Jacobi, Bonn 1926.
- Lohuizen - de Leeuw, J. E. van : The " Scythian " period . An approach to the history, art epigraphy and palaeogrphy of North - India from the Ist century B. C. to the 3rd century A. D., Leiden 1949.
- Majumdar , R. C.: The Date of the Periplus of the Erythraean Sea , in : The Indian Quarterly , vol . 36, 2 und 3, June and September 1962.
- Majumdar , S. S.: see Sastri Surendranath Majumdar .
- Mannert , K.: Geographie der Griechen und Romer aus ihren Schriften dargestellt, 10 Bde. Nurnberg 1788 -1825.
- Marshall , J.: A Guide to Taxila , 4th ed . Cambridge 1960.
- McCrindle , J. W.: Anonymi (Arriani ut Fertur) Periplus Maris Erythraei , in : Indian Antiquary, vol. VIII, April 1879, cit. als 1879a.
- The Commerce and Navigation of the Erthraean Sea,Calcutta - Bombay - London 1879, cit, als 1879b.
- Ancient India as described by Megasthenes and Arrian, Calcutta, Ausgabe 1927.
- Mittwoch, E.: siehe J. H. Mordtmann.
- Moraes, G. M.: A history of Chrustuanity in India. From ealry times to Francis Xavier A. D. 52-1542, Bombay 1964.
- Mordtmann, J. H. und E. Mittwoch: Sabaische Inschriften, in: Hamburgische Universitat. Abhandlungen aus Gebiete der Auslandskunde, Bd. 36, Hamburg 1931.
- Muller, C.: Gographi Graeci Minores, 2 Bde., Paris 1855.
- Palmer, J. A. B.: Periplus Maris Erythraei : The Indian evidence as to the date, in : The Classical Quarterly, vol. XLI, Oxford 1947.
- Periplus Masris Erythraei, Remarks on Chapter 47, in The Classical Quarterly, vol. XLIII, Oxford 1949.

und Carl Ritter, 2 Auflage, Munchen 1877.
- Pirenne, J.: Le Royaume Sud-Arabe de Quataban et sa Datation d'apres L'Archeologie et les Sources Classiques jusqu'au Periple de la Mer Erythree, in : Biblioteque du Museon, vol. 48 Louvain 1961 cit. als 1961a.
- La date du "Periple de la mer Erthree" in : Journal Asiatique, tom CCXLIX, Paris 1961, cit als 1961b.

- Reinaud, M.: Memoire sur le commencement et la fin du Royaume de la Mesene et de la Kharacene, in : Journal Asiatque, series V, vol. 18, Paris (aout-sept) 1861.
- Memoire sur le Periple de la mer Erythree et sur la navigation des mers orientales au milieu du troisieme siecle de L'ere chretienne d'apres les temoignages Grecs, Latins, Arabes, Persans, Indiens et Chinois, in: Memorises de L'institut imperial de France Academie des inscriptions et bells letters, vol. XXIV,2ieme partie, Paris 1864.
- Ritter, C.: Die Erdkunde von Asien, Bd. IV, I. Abtheilung, Berlin 1835, 2. Abtheilung , Berlin 1836 . Bd. VIII, I. Abtheilung , Berlin 1846
- Geschichte der Erdkunde und der Entdeckungen , Berlin 1861.
- Rostovtzeff , M. I.: The social and economic history of the Roman Empire , Oxford 1926.
- Saint -Martin , L. Vivien de : Le Nord de l Afrique dans l antiquite greeque et romaine, Paris 1863.
- Histoire de la geographie et des decouvertes geographiques depuis les temps les plus recules jusqu a nos jours , Paris 1873.
- Salmasius , C.: Exercitationes Plinianae in Caji Julii Solini Polyhistora 2 vols, Trai. ad Rhen . 1689.
- Salt , H.: A Voyage to Abyssinia and Travels into the interior of the country ... London 1814.
- Sarasin , A.: Der Handel zwischen Indien und Rom , Basel 1930.
- Sastri , S.M.: Hrsg . von McCrindles Ancients India as described by Ptolemy , Calcutta 1927.
- Schoff , W. H. : The Periplus of the Erythraean Sea , London , Bombay and Calcutta 1912.
- As to the date of the Periplus , in : The Journal of the Royal Asiatic Society of Gr. Br. a. Irld ., 1917.
- Schurer , E.: Geschichte des judischen Volkes in Zeitalter Jesu Christi Bd. I, Leipzig, 1901.

- Schwanbeck , E.: Uber den Periplus des Erythraischen Meeres in : Rheinisches Museium , VII, Frankfurt a. M. 1850.
- Sigismund , R.: Die Aromata in ihrer Bedeutung fur Religion, Sitten , Gebrauche , Handel und Geographie des Altertums bis zu den ersten Jahrhunderten unserer Zeitrechnung , Leipzig 1884.
- Smith , B. A.: The Early History of India from 600 BC. to the Muhammadan conquest , 4th ed . Oxford 1924.
- Stiehl, R.: siehe F. Altheim.
- Tarn , W.W.: The Greeks in Bactria and India , Ist ed . 1938, 2nd ed. Cambridge 1951.
- Thomson , J. O.: History of ancient Geography , Cambridge 1984.
- Tkac, J.: "Saba" in : Pauly s Real - Encyclopadie der class. Altertumswiss., zweite Reihe, zweiter Halbband, Stuttgrat 1920, 1298ff.
- Tozer , H. F.: A History of Ancient Geography , Cambridge , Ist ed . 1897, 2nd ed. 1935.
- Vincent , W.: The Commerce and Navigation of the Ancients in the indian Ocean, 2 vols, vol. 2:The Periplus of the Erythraean Sea , London 1807.
- Warmington , E. H.: see M. Cary .
- Wheeler , M.: Der Fernhandel des Romischen Reiches in Europa , Afrika und Asien , Munchen - Wien 1965.
- Wissmann, H. von: Die Sudgrenze der Terra Cognita von Juba und Plinius bis Ptolemaus , in : Schlern Schriften 190, geograph . Forschungen , Festschrift , zum 60. Geburtstag von Hans Kinzl, Innsbruck 1958.
- Zur Geschichte und Landeskunde von Alt - Sudarabien (Sammlung Eduard Glaser III) , in : Sitzungsberichte der osterr . Akad . d. Wissenschaften, Phil . - hist. Klasses , Bd . 246, Wien 1964.
- und M . Hofner : Beitrage zur historischen Geographie des vorislamischaen Sudarabien , in : Akademie der Wissenschaften und der Literatur, Abhandlungen der geistes - und sozialwissenschaftelichen Klasse , Nr. 4, Mainz 1952.

أهمية كتاب دليل البحر الأرتيري لإفريقيا

لم تتوافر المعلومات الكتابية عن القارة السوداء فيما يتصل بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من مصر وإلى الجنوب من المناطق الواقعة على شواطئ البحر المتوسط مباشرة، كما هو معروف ، حتى زمن الاكتشافات الكبرى ، إلاّ نادراً ، وكذلك الحال بالنسبة للمعلومات التي وصلت بعد ذلك بعدة قرون إذ كانت في غالبيتها تتصل بأحوال المناطق المتاخمة للشواطئ ، وبعض المعلومات الطفيفة عما يقع خلفها من أمكنة ، وعلى الرغم من ذلك فإنها ذات قيمة لا تقدر من حيث الفائدة لدى محاولة توضيح تاريخ إفريقيا ، ولا يمكن الاستغناء عنها كذلك عند دراسة أثنولوجيا هذه القارة .

أما فيما يتصل بالمعلومات القليلة التي يعود تاريخها إلى ما قبل القرن السادس عشر ، فإنها تعود كلها أو على الأقل الجزء الأكبر منها إلى مصادر عربية ترجع إلى القرون الوسطى[١] . ويتبين أن المصادر العربية ذات فائدة كبيرة للأثنولوجيا لكثرة ما يجد فيها

(*) نشر في مجلة كلية الآداب / جامعة صنعاء / العدد ١٤ لسنة ١٩٩٣م ، ص ١٣٩-١٥٠.

(١) انظر على سبيل المثال : اليعقوبي (احمد بن أبي يعقوب) : كتاب البلدان ، نشره دي غويه مع الأعلاق النفيسة لابن رسته ، في الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، لبدن (١٨٩٢)، المسعودي (أبوالحسن علي بن حسن) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة (١٩٥٨) ؛ الادريسي (الشريف أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من "كتاب نزهة المتناق في اختراق الآفاق" نشره دوزي ودي غويه ، ليدن (١٨٩٣) ؛ ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي): رحلة ابن بطوطه ، دار صادر ، بيروت (١٩٦٠) الخ

الباحث من تفصيلات يستطيع أن يوظفها خير توظيف في أبحاثه . لذلك يؤمل أن لا يتجاهلها ويمر بها مرور الكرام ، كما ينبغي عليه أن لا يبالغ في أهميتها ، بل أن يحرص على الإفادة منها بعد نقد موضوعي وترو .

وإذا سددنا النظر إلى الفترة السابقة لنصل إلى العصر القديم فإننا سنجد أن المصادر الكتابية عن الجزء الأسود من إفريقيا قليلة من حيث العدد وأقل منها من حيث النوعية ، على الرغم من توافر أخبار ذات منشأ يوناني وروماني بينها [٢] وتستند أغلب تلك الأخبار إلى أقوال أناس غير معروفي الهوية وليس إلى واقع عاشه أصحابها أو أحداث شاهدوها بأنفسهم . ويستثنى من ذلك ، وإن كان بدرجة صغيرة مع الأسف ، أرتميدوروس الأفسوسي (حوالي ١٠٠ ق.م) وسترابون (حوالي ٦٦ ق.م ـــ ٢٤ ق.م) ووصلتنا بعض المعلومات عن الطريق التي مر بها أيضاً قائدان رومانيان في إفريقيا حيث تقدما في عصر نيرون (٥٤ ـــ ٦٨ م) حتى مستنقعات بحر الغزال كما يبدو (Seneca; Questiones naturales VI, 8, 3, 5) ، وكذلك بعض المعلومات من أعضاء البعثة الرومانية التي توجهت في القرن السادس الميلادي من عدوليس إلى أكسوم [٣] .

لقد أبحر أرتميدوروس بنفسه في البحر الأحمر ، ولكن أخباره عن سكان الحبشة استقاها في الواقع من أجاثرخيدس الكندوسي (حوالي ١٢٠ ق.م) ، وأخباره هذه نفسها أصبحت مصدراً لسترابون . وكما تبين لباوليتشكه حقيقة فإن معلومات سترابون تعتبر أفضلها من

(٢) نذكر هنا على سبيل المثال . أجاثرخيدس ، أرتميدوروس ، أسسترابون ، بليني ، بطليموس وكوسماس انظر الدراسة القيمة لهانتينجفورد ، التي لخص فيها ماجاء لدى حوالي ٢٦ كاتب يوناني ولاتيني عن الحبشة وشرق افريقيا بشكل عام

Huntingford : "Azania" , Anthropos 35 - 36/1940/41/218 FF.

(٣) Bent Theodore: The Sacred City of the Ethiopians , p. 14 Londone(1893)

بين غيرها من المعلومات التي تعود إلى العصر القديم بشكل عام [٤] . ولكـــن ســـترابون ، كما ذكرنا تقدم بنفسه بصحبة الحملة العسكرية التي قادها صديقه جايوس بـتروينوس إلى نبته العاصمـــــة المرويــــة في عــــام (٣٣ ق.م) حــــتى الفيلـــة (الفنتــين) علـــى الأقـــل . (Starbo: Geogr. VII., Plinius: Nat. Hist. VI, 35)

ولكن معلومات أرتميدوروس وكذلك سترابون الشخصية وخبراهما في هذا الشـــأن لا تذكر لدى المقارنة مع معلومات ذلك التاجر الإسكندراني الذي يتحـــدث اليونانيـــة، ولا يعرف اسمه، مؤلف كتاب " دليل البحر الأرتري" وهو الذي رحل بحراً بدءاً مـــن ميـــوس هورموس (القصير) على طول الساحل الإفريقي حتى أوبونة (رأس هافون باي) الواقعـــــة على القرن الإفريقي ، وكذلك على طول الساحل العربي أيضاً . وربما امتـــدت رحلاتـــه وشملت كذلك ساحل إفريقيا الشرقي حتى رهاباتا (في نطاق زنجبار) ووصلت بـــه إلى رأس شبه الجزيرة الهندية في الجنوب ثم باتجاه الشمال على طول الساحل الشرقي للـــهند حـــتى مصب نهر الجانجا ، ولكن هذا أمر يختلف حوله الباحثون ، ولا يمكن لنا أن ندعيه بشـــكل مؤكد ، على الرغم من أنه يعطينا معلومات عن هذه المناطق ، على كل حال ، إن "كتـاب دليل البحر الأرتري" يمثل مصدراً مكتوباً فريداً من نوعه من حيث زمنــــه ومـــن حيـــث معلوماته عن تلك المناطق .

ملاحظات نقدية حول المصدر :

يبرز هنا سؤال ، كما ألمحنا قبلاً ، حول قيمة وصف هذه الرحلة البحرية وما تشمل عليه من معلومات عن أحوال المناطق الساحلية ، وتقدير دورها بشكل صحيح . وستبرز مـــن خلال النقد اللازم الذي سنتبعه هنا جوانب إيجابية وأخرى سلبية . وهذه بعضها :

(٤) Paulitschke , Philipp: Ethnographie Nardost - Afrikas, p. 227, Berlin (1896)

لعله من المفيد أن نلفت النظر في البداية إلى أن كتاب "الدليل" وصلنا بنسخ متعــــددة تختلف في عدد من النقاط فيما يتصل بالمضمون ويدعو وضعها الإجمالي من حيث الشـكل ، بسبب الظروف المختلفة التي مرت بها ، إلى عدم الإرتياح [٥] . وأما ما يتعلـــق بمؤلـــف الكتاب فهو تاجر ذو أصل يوناني لا يُعرف اسمه ، كما يبدو لنا ، ولكنه لا يتمتـــع برؤيـــا هلنستية ، على حد تعبير فابريسيوس (Fabricuis: 1883/28) لأنه لا يهتم بغير ما يـــراه مفيداً في الواقع للتاجر والبحار في ذلك الوقت . لذلك نلاحظ أنه لا يذكر مـــن المـــدن والأمكنة التي وصلها والتي تقع إلى الخلف من السواحل التي زارها غير التي تتميز بأهميـــة تجارية خاصة ، ولا يتطرق إلى ذكر معلومات ذات صلة بالثقافة الخاصة بتلك المـــدن ولا بأحوال سكانها إلا بشكل هامشي . وكذلك يلاحظ أن الكتـــاب يفتقـــر إلى الحـــوادث التاريخية بشكل خاص .

وإن المرء ليأسف فعلاً لهذا الأمر ، حتى أن فابريسيوس يسمي مؤلف كتاب الدليل بالمراقب ذي النظرة الواحدة والجاهل (Fabricuis: 1883/28) ولكننا سوف نرى فيما بعد إذا كـــان ذلك يمثل جانباً سلبياً فقط . وسنذكر هنا كلمة ناقدة تتصل بالطريق الذي هو موضـــوع الكتاب في البدء . أنه مما يلفت النظر عند تتبع المعلومات الخاصة بالمناطق الساحلية كـــل واحدة منها على حدة. إن المعلومات المتعلقة بإفريقيا وبخاصة إلى الجنـــوب مـــن أوبونـــة Opone ، وكذلك المعلومات المتعلقة بالهند وبخاصة الساحل الجنوبي والشرقي منها ، هذه

---

(٥) بخصوص هذا الأمر انظر ملاحظات :

Fabricius , B., : Der periplus des Erythraischen Meeres von einm Unbekannten . Griechisch und deutsh mit Kritischen und erklarenden Anmerkungan nebst vollstandigem Worterverzeichnisse " Leipzig " (1833)

وكذلك ملاحظات :

Schoff , Wilfrd H .: " The Periplus of the Erythraean Sea . Travel and Trade in the Indian Ocean by a Marchand of the first Century" London - Bombay - Calcutta (1912). Huntingford , G. W. B.: The Periplus of the Erythraen Sea, The Haklugt society , London (1980) .

المعلومات ذات وضع خاص . إذ تبدو المعلومات عن ساحل إفريقيا من مصر حتى أوبونة وما يقابله من ساحل شبه الجزيرة العربية ، وكذلك المعلومات عن سواحل الهند في معظمها غنية وواضحة ، بينما تبدو المعلومات عن المناطق الواقعة إلى الجنوب من أوبونه والمعلومات عن جنوب الهند وسواحلها الشرقية فقيرة وغير دقيقة . لذلك يميل كثير من الباحثين إلى الاعتقاد بأن معلومات مؤلف كتاب الدليل المتعلقة بهذه المناطق الأخيرة ، أخذها عن تجار آخرين وليست نتيجة لملاحظاته الخاصة ولا لأحداث عاشها بنفسه . على كل حال نستنتج من ذلك أن تجار العصر القديم كانوا يتجهون من مصر على طول الساحل الإفريقي وطبعاً على طول سواحل الهند حتى أقصى الجنوب .

إن وصفه الدقيق والمفصل للمناطق التي يراها ذات أهمية ويُعد عملاً إيجابياً، إلى جلنب ما ذكرنا عن حجم هذا الكتاب الإخباري القديم . فهو كتاب شامل ويوضح أشياء كثيرة، من مثل : تكوين العديد من الأمكنة ، والأحوال المناخية ، وطرق السفن ، وأماكن رسوها، وأهمية أماكن السوق التجارية الواقعة على الساحل ، ونوع البضائع المستوردة والمصدرة ، وردود فعل المواطنين تجاه التجار وغيرها من الأمور الكثيرة ، مما يهم تجار البحر ، كل ذلك يذكر بشكل مفصل وموضح إلى حد كبير . وهو يتحدث بلغة بسيطة وأسلوب لغوي واقعي ، يتميز به مؤلف الكتاب ، إذ يقدم نفسه في كتابه كتاجر عملي يضع نصب عينيه كل ما له علاقة بالتجار وخبراته في التجارة البحرية . وبذلك تخف شدة النقد الموجهة إليه والمتصلة بقلة أهليته الثقافية وعدم اهتمامه بأمور ليست لها علاقة بالتجارة ، أمام هدفه من كتابه "الدليل" ، مما يزيد الثقة في معلوماته ويعززها إلى حد كبير . وهذا ما وصل إليه فابريسيوس نفسه الذي لم يتورع عن كيل النقد الشديد للمؤلف إذ قدّر فيه طريقته في إيصال المعلومات بأسلوب مميز " من دون تنميق للحديث الذي جاء متناسقاً في أسلوبه" ومن "دون ثقافة شخصية إذ يبدو الجانب الإيجابي واضحاً في ثنايا الكتاب" **(Fabricuis: 1883/30)** .

وأما ما يتصل بالمعلومات عن المناطق التي ـــ كما يبدو لنا ـــ لم يزرها بنفسه، كسواحل شرقي إفريقيا وجنوب الهند وسواحلها الشرقية ، فإن المؤلف كما يلاحظ، لم يهمل أخبارها وإنما انصرف إلى الاهتمام بها كاهتمامه بالمناطق الأخرى واتبع الأسلوب نفسه في الكتابة عنها ، بحيث يحق له أن ينال الثقة كاملة .

طريق الرحلة :

يتألف كتاب "دليل البحر الأرتري" من قسمين كبيرين ، من دون أن يراعي ذلك في الكتاب ذاته أو يقصد ، ويتوزع القسم الأول منهما في ١٨ فقرة تتضمن الحديث عن الرحلة بدءاً من الميناء المصري ميوس هورموس الواقع على البحر الأحمر، وبمحاذاة الساحل الإفريقي حتى رهايتا (بنجاني ٢٥ ، ٥ْ شمالاً ، ٣٩ ، ٣٨ْ شرقاً ، أوبجامويو ٣١ ، ٦ْ شمالا ، ٥٠ ، ٣٨ْ شرقاً ، أو دار السلام ٤٢ ، ٦ْ شمالاً ، ٥َ ، ٣٩ْ شرقاً) بينما يقدم القسم الثاني ويتألف من ٤٨ فقرة وصفاً للطريق الأطول الذي يبدأ كذلك من ميوس هورموس ثم يتجه إلى لويكة كومة ومنها بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية حتى خليج عمان ومنه إلى سواحل الهند الغربية والشرقية حتى مصب نهر الجانجا تقريباً ، ويقدم وصفاً لذلك كله . ويتألف بذلك الكتاب من ٦٦ فقرة إجمالاً . ويختلف حجم الفقرات ، فبينما ترد معلومات بتفصيلات كثيرة وذات مضمون متعدد في بعضها ، انسجاماً مع ما يراه المؤلف من فائدة ، ثمة فقرات لا تشتمل إلى على بعض الملاحظات .

وسنذكر هنا المحطات التجارية الواحدة بعد الأخرى ، التي يمر بها التاجر القادم من مصر ، الواقعة على طول الساحل الإفريقي بحسب ما جاء في كتاب الدليل (انظر من أجل ذلك الخارطة) ، ولسوف أبتعد عن ذكر التفصيلات المذكورة في الكتاب المتصلة بطبيعة الساحل والتي يهتم بها البحارة ولكنها لا تهمنا مباشرة بقدر اهتمامنا بالتجارة نفسها .

إذا تتبعنا ما يذكر الكتاب فإننا ننطلق في البداية من الميناء التي تعتبر بمثابة الميناء

الوطني للكاتب وهي ميوس هورموس ونعدد الأمكنة الواقعة على الساحل الإفريقي أولاً ، فثمة بيرنيكة (برينكي) التي من المفترض أن تكون في منطقة فول بابي ، ثم يأتي بعدها جنوباً بتوليميوس على الضفة الجنوبية لخليج عقيق (بدر عقيق) والمركز التجاري الهام عدوليس الواقع كذلك في خليج بالقرب من زولا اليوم (جنوب شرق مصوع) ، وأمامه "جزيرة ديودوروس وجزيرة أورينة Oreine ". والمكان التالي الذي لم يذكر باسمه من أمكنة رسو السفن الذي على التاجر في ذلك الوقت أن يقصده ويهمه أمره لوقوعه قرب مكان استخراج الابسيديان (زجاج بركاني ، كان يستخدم في صناعة الأدوات الحجرية والأسلحة مثل رؤوس السهام) كان موقعه في خليج هواكيل Hauakil .

يتحدث مؤلف كتاب الدليل مرتين عن مراكز هامة تقع في مجال البحر الأحمر من الجهة الإفريقية وإلى الداخل منها . فيذكر في أثناء ذلك المدن الواقعة في العمق الداخلي للبلاد : مدينة مرو على نهر النيل والمدن الداخلية أكسوم وكولي Koloe ، التي ترتبط بمدينة عدوليس الساحلية بطريق تجارية . ثم يتبع ذلك الأمكنة الواقعة على الساحل الصومالي وأولها أواليتس Aualites (=زيلع ٢٠َ ، ١١ْ شمالاً ، ٢٨َ ، ٤٣ْ شرقاً) . وبعدها مالاو ، موندو ، موسيلون وبعد تجاوز رأس كاردفو أروماتا Guardafui Aromata تاباي التي يقصدها الناس قادمين من أروماتا عندما تهب العاصفة وتقع إلى الداخل قليلاً ، ثم بانو وأخيراً أوبونة Opone في رأس هافون باي. وكذلك سقطرة (٣٠َ ، ١٢ْ شمالاً و ٠َ ، ٥٤ شرقاً) التي كانت تعرف عند مؤلف كتاب الدليل باسم "جزيرة ديوسكوريدس" وقد كتب عنها في الفقرتين ٣٠ و ٣١ فهي تقع على الطريق البحرية إلى الهند وكان يقصدها اليونان منذ القدم وبحسب رأي جلازر منذ حملة الإسكندر أو منذ عصر البطالمة [٦] .

---

(٦) Glaser , Eduard : Skizze der Geschichite und Geographie Arabiens von den Altesten Zeiten bis zum Propheten Muhammad, p. 183, Berlin (1890) .

وتفتقر المعلومات المتصلة بمواقع ومسافات المناطق الواقعة علـــى الســـاحل الإفريقـــي الشرقي إلى الجنوب من الأمكان المذكورة أعلاه مع الأسف ، كما ذكرنا سابقا ، إلى الدقة التي تتميز بها المعلومات الخاصة بالأمكنة السابقة والتي تتطابق مع الواقع من حيث صحتـها . وتذكر منطقة أبوكوبا الصغرى (الساحل الشديد الإنحدار) وأزانيا الكبرى (Fabricius: 1883/53) كمراكز هامة على الساحل باتجاه الجنوب في المقام الأول ، ثم يذكـــر مؤلـــف كتاب الدليل "بعد سفر عدة أيام (من) أزانيا ، (نجد) في البداية ما يدعى بسرابيون[٧] ، ثم نيكون[٨] "، ويذكر أخيرا "جزر بيرالاوي" (=لامو ، بتا ، ومنـــــدا) و "جـــوار المنطقـــة الساحلية الأوسينية حيث جزر مينوتيـــاس" (Fabricius: 1883/53 ff.) الـــتي تنطبـــق أوصافها إلى حد ما على زنجبار ، كما تنطبق جزنيا كذلك علـــى بمبـــا ، مفيـــا (علـــى ساحـــــــــل تانزانيا) ، ومدغشقر. ثم يذكر رهابتا " التي استمدت اسمها من تركيـــب وسائل النقل. . ." كآخر مركز تجاري يقع في أقصى جنوب الساحل الأزاني (Fabricuis: 1883/55) ولكن لم تنجح محاولات تحديد مكانها حتى الآن.

يبدأ وصف الرحلة بالفقرة ١٩ مرة ثانية انطلاقا من ميوس هورموس في البحر الأحمـر ولكن هذه المرة بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية حتى مضيق باب المندب . ثم تتابع مســـيرها بمحاذاة الساحل الجنوبي حتى مدخل خليج عمان تقريبا . وتتوضح صورة التجارة في ذلـــك الوقت من خلال الوصف الخاص بمناطق الهند الساحلية بشكل جيد ، كما ينطبق ذلـــــك على وضع الجزيرة العربية طبعا التي كانت سواحلها تلعب دورا تجاريا هاما في العصر القديم .

البضائع التجارية :

ونورد في آخر البحث أسماء البضائع التي كانت تمثل أهمية خاصة في عمليات الاستيراد

---

(٧) ربما يقصد بذلك مقديشو ٢٥ شمالا ٢٥ ٤٥ شرقا .

(٨) يحتمل أنها بارفا ١٠ ١ شمالا ، ٥ ٤٤ شرقا على الساحل الصومالي

والتصدير في كل ميناء من الموانئ التجارية الإفريقية .

من مصر كانت تصدر من الأقمشة والملابس إلى تلك الموانئ البضائع التالية [٩]:

" أنواع مختلفة من الأقمشة المنسوجة .

ملابس خارجية غير منسوجة .

أردية (من دون أكمام) منشاة .

أردية (معاطف ، شراشف) ملونة غير أصلية .

أقمشة كتانية مزدوجة الأطراف .

معاطف منشاة منسوجة وملونة وملابس داخلية "

ومن المعادن والمواد المعدنية :

" الحديد لصناعة رؤوس الرماح لاصطياد الفيلة وغيرها .

الحديد لصناعة الأدوات الحربية .

البلطات الصغيرة ، الخناجر ، الأسياخ (أدوات لثقب الحديد) .

أواني الشرب النحاسية الكبيرة والمستديرة .

النحاس الأصفر (البرونزي) لاستخدامه في الزينة (وبعد تقطيعه) لاستخدامه كنقود .

قطع النحاس ذات اللون الأبيض - الأصفر لإذابتها والإفادة منها في عمل الأساور النسائية للأيدي والأرجل .

القصدير " .

ومن الزجاج :

"أنواع مختلفة من الأواني الزجاجية" .

إضافة إلى ذلك كان التجار يصدرون من مصر كذلك "العصي الخشبية والدنانير الرومانية" .

---

(٩) اعتمدت في ذكر هذه البضائع على ترجمة فابريسيوس ، وقد استعنت عند الضرورة بترجمات أخرى لكتاب الدليل

ومن المواد الغذائية :

" الحبوب ، النبيذ ، عصير العنب ، الرز ، زبت السمسم ، ، عسل قصب السكر ، السكر (على شكل حبيبات) " .

ويذكر فابريسيوس كذلك نوعا من الحبوب الهندية ذات الحبيبات الصغيرة المسماة "بوسموروس" (Fabricuis: 1883/53) .

وهو يخطئ هنا إذ أن المقصود من ذلك هو الـ "جاهي Ghi" المعروف ، كما يذكر باسمه اليوناني Boutyron ، وهو من المواد التي كانت تصدر إلى إفريقيا[١٠]

وكانت الهند إلى جانب مصر البلد الرئيسي في تصدير المواد الغذائية إلى الأمكنة الواقعة على الساحل الإفريقي ، كما كان الوضع نفسه فيما يتصل بالهدايا ذات النوعية الممتازة التي قدمت إلى "الملك" زوسكاليس ، صاحب أكسوم ، والتي يذكرها مؤلف كتاب الدليل، وهي :

"أواني فضية ونحاسية مصنوعة بطريقة خاصة في موطنها الأصلي ، أردية ، (معاطف، شراشف) ،

فرو فارسي ،

حديد هندي ، فولاذ هندي ،

منسوجات قطنية ، أحزمة ،

بعض الملابس القطنية " .

أما أفريقيا فكانت تقدم للتجار مواد قليلة ولكنها ثمينة وقيمة :

---

(١٠) Huntingford, G. W. B. op. cit. p. 133.

"العاج ، أغلفة السلاحف البرية والبحرية ،
أنياب وحيد القرن ، وقرونه ،
البخور الأصلي ،
اللبان ، القرفة ،
الدواكا **Duaka** (نوع خاص من البخور) ،

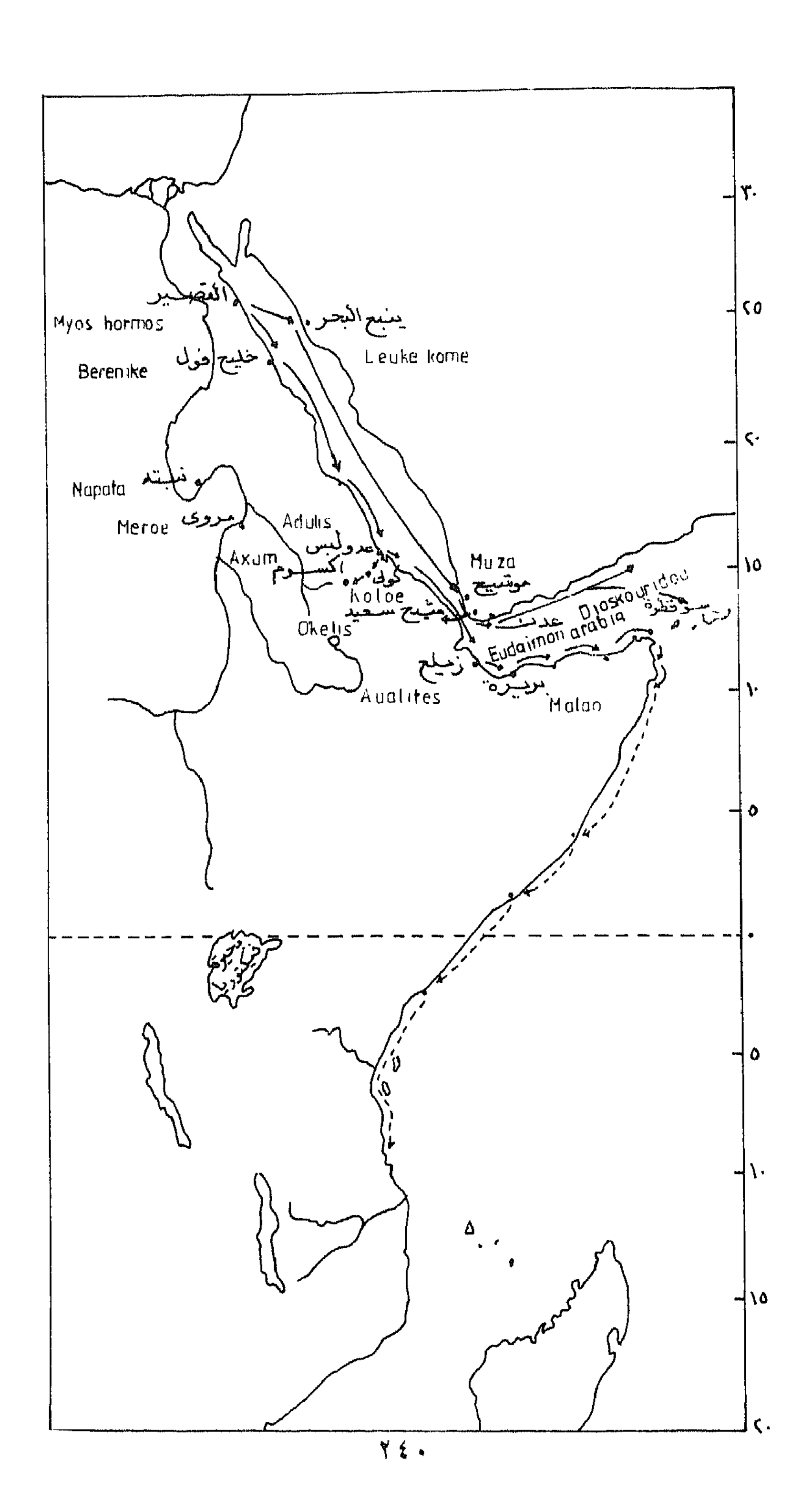
مكروتوس **Makrotos** ، كنكامون **Kankamon** (قشور من الأشجار تستخدم كالبخور) ،
ماكير **Makeir** (نوع من الجذور) ،

الأوبسيديان (زجاج بركاني) ،

الرقيق " **(Fabricius: 1883/39 ff.)** .

لقد عرضنا هنا من خلال الصفحات القليلة وبشكل وجيز الفقرات الثماني عشرة الأولى فقط من كتاب "دليل البحر الأرتري" التي تتعرض لأوصاف السواحل الإفريقية الشرقية . ونشير هنا مرة أخرى إلى أنه لا ينبغي الاكتفاء بمقارنة المعلومات الواردة في الكتاب المتعلقة بطبوغرفيا المنطقة ومناخها بأحوالها اليوم ، بل على الدارس أن يستفيد من المعلومات المتعلقة بحضارة تلك المناطق ومقارنتها بالمعطيات الراهنة كما ينبغي إعطاء الجانب الاقتصادي ما يستحق من انتباه لأهميته بين المسائل الأخرى .

ويمكن لنا أن نتوصل إلى صورة واضحة للحضارة التي كانت سائدة آنذاك في المناطق المذكورة من خلال الاعتماد على معلومات كتاب الدليل إضافة إلى المصادر الأخرى ، وبمساعدة فروع العلم الأخرى ، حيث يكون للأثنولوجيا دور بارز في الوقت الذي تستفيد هي نفسها من تلك المعلومات.



٣٠
٢٥
٢٠
١٥
١٠
٥
٥
١٠
١٥
٢٠
القصير
Myos hormos
ينبع البحر
خليج فول
Leuke kome
Berenike
نبتة
Napata
مروى
Meroe
Adulis
عدوليس
Axum
اكسوم
Muza
Koloe
شيخ سعيد
Okelis
عدن
Dioskouridou
سقطرة
Eudaimon arabia
زيلع
بربرة
Avalites
Malao

أوضاع التابعين في جنوب بلاد العرب
في العصر السبئي الوسيط
(القرن الأول ق.م - القرن الرابع الميلادي)

موضوع هذه الدراسة هو "علاقة التبعية في اليمن القديم" استناداً إلى تحليل تفصيلي للنقوش اليمنية القديمة . والتابع لغة : الجنّيُ ، قيل : يكون مع الإنسان ويتبعه حيث ذهب ، والخادم لاتباعه ، مولاه (جمعه) تبعٌ وتَبَعةُ وتوابع .

والنصوص المدروسة تتكون من الشواهد النقشية التي تغطي الفترة من القرن الأول ق.م وحتى القرن الرابع الميلادي ، وهي تمثل مجمل الشواهد الكتابية المعروفة إلى الآن ، كما تتضمن أكثر المعلومات عن الموضوع . ومعظم هذه الكتابات تعود إلى المنطقة السبئية حيث ظهرت في واحتي صرواح ومأرب – وهي من المراكز السياسية والدينية الهامة – لقى غنية ووفيرة . واستكمالاً للمعلومات والمقارنة فقد استخدمت احياناً نصوص عهود أخرى تعود إلى عصور متأخرة (القرنين الخامس والسادس).

ولعله من المفيد قبل الخوض في التفاصيل التأكيد على أن علاقات الإنسان بوسائل الإنتاج أساسية ، ولكنها لا تستطيع وحدها أن تحدد الطبقة ، وبالأحرى علاقة التبعية . فإلى جانب السمات الاقتصادية الأولية ثمة سمات حقوقية واجتماعية وثقافية ثانوية ، وهي على علاقة

(*) نشر في مجلة دراسات يمنية ، العدد ٤٥ يناير – مارس ١٩٩٢ ، ص ٧٩-٩٠.

بالمسألة الأساسية . وهذه كلها تكوّن بتفاعلها مع بعضها البعض وبتراكمها طبقة فوق أخرى تشكل كلا واحداً .

وتتيح المادة الكتابية المتوافرة ، ولكن من غير أن تكون كافية ، استنباط معالم أولية . وضمن هذه الشروط ، تكتسب السمات الثانوية أهمية خاصة في التحليل . وتقود هذه الظاهرة إلى ضرورة توضيح الفروق بين فئات مختلفة لأفراد وجماعات تابعة **abhangig** وذلك من حيث السمات الظاهرة وقد تغفل (هذه السمات الظاهرة) العلاقات الحقيقية ، وقد تفصل بين هذه الفئات المختلفة عندما تقوم بينهم علاقات واتصالات ، كما أنها توحد بينهم حيث تقوم جوامع مشتركة بينهم تقتضيها الممارسات الاجتماعية المختلفة .

ولأن اللغة اليمنية القديمة محددة السمات والأسلوب وصيغ الألفاظ ، فإنه من الصعوبة بمكان تحديد معاني كثير من الألفاظ ، وخاصة تلك الكتابات ذات المحتوى الحقوقي — والتي لا تشكل في الواقع سوى عدد قليل — لأن مضمونها غالباً ما يذكر لمرة واحدة ، وصياغتها النحوية وتركيبها اللغوي معقد، ولكنها تلقي الضوء عل حياة عرب الجنوب الحقوقية بحيث لا يمكن الاستغناء عنها .

لا يختلف مضمون النقوش وأسلوبها وطولها فيما بينها من حيث المكان والزمان واللذين تعود إليهما فحسب ، بل ثمة علاقة مباشرة بينها وبين منزلة المؤلف في الحياة الاجتماعية ، وكذلك بينها وبين الموضوع من حيث أهميته الاجتماعية .

تستخدم هذه الوثائق الكتابية عبارة (و ت ف) كمفهوم مميز ودال على الوضع القانوني . وتشتمل هذه المصادر الحقوقية على مراسيم ملكية ، وبيانات قانونية وأخرى ذات طابع إلزامي قانونياً ، يمكن التمييز بينها بوضوح من حيث صياغتها .

ومن بين هذه الوثائق نقف هنا على Fa 30bis, Fa 30, Fa 3, CIH376[**] للتعليق عليها وتفسير بعضها من وجهة نظر تبدو لي جديدة . وفيما يتصل ببيانات الإلتزام القانونية ترد وجهة النظر السائدة التي تقول أنها تمثل " إيصالات ديون" وذلك استنادا إلى دراسة شاملة لدورها ، ولمضمونها ، ولكل اصطلاح على حدة . أنها ترد أكثر من ذلك على كل ادعاء بأن الدين قد تم سداده .

وثمة كتابات الأبنية والقبور ، وكتابات طلب التوبة والتكفير ، التي تمثل مجموعة أخرى من النصوص ، والتي تسهم في تفسير مسائل حقوقية ودينية ، ومسائل اقتصادية إلى حد ما.

وقد تخليت في أثناء دراسة النصوص بشكل كامل ــ أو عند الوقوف أمام المحاور الأساسية للمفاهيم ــ عن الطريقة التي ما زالت متبعة إلى حد ما في الدراسات اليمنية القديمة، والتي تعتمد على انتزاع الألفاظ اليمنية من النصوص ، ومقارنتها من حيث الأصل اللغوي باللغات السامية الأخرى ، ولاسيما بالعربية الشمالية ، بغرض فهم دلالتها . لأن هذا المنهج يفقد النص صلته بالمسائل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية الحضارية التي وضع من أجلها، ومن ثم بسياقها الاجتماعي والتاريخي أيضا ، ولنقل يفقدها تاريخيتها الصارمة.

وقد تم حصر كل التسميات التي تخص الأشخاص في الفترة موضوع الدراسة الذين تربطهم تبعية لأشخاص آخرين ، أو جماعات ذات طابع اقتصادي . وتشمل هذه التسميات على معان ذات اتساع ملحوظ ، حتى ليصعب إيجاد ما يطابقها . كما تخفي الكتابة اليمنية ذات الحروف الصامتة **Konsonants** احتمال وجود اختلافات في معاني الألفاظ الواردة التي لا تحدد إلا من خلال الحركات (الحروف الصائتة) .

إن التسميات الدالة عل التبعية المستخدمة في الفترة التي نحن بصددها هي :

(**) انظر الملحق

١- (أ د م) ، (أ د و م ت) ، (أ د ي م ت) جمعها (ع ب د) مؤنث (أ م ت) جمعها (أ م هـ) .

٢- (م ق ت و ي) ، جمعها (م ق ت ت) ، (م ق ت و ت) ، (م ق ت و ي ي) .

٣ - (م أ د ب ت) ، جمعها (أ د ي ب ت) .

أما العبارات التي تدل على التبعية التي تستخدم الأسماء(ق ن ي) و (أ ذ ن) فهي تدل على معنى (الملكية) ـ باستثناء الإنسان ـ وعلى لقب يخص شخصيات رفيعة في مملكة حضرموت .

هؤلاء التابعون يظهرون في قطاعي الاقتصاد اليمني القديم كليهما : الملكية المشتركة (المشاعة) ومجال الملكية ، ولما كانوا يحتلون منزلة مختلفة في كل من القطاعين ، فإن التمييز بينهم يتم بدقة .

ليس للتابعين ـ استنادا إلى النقوش ـ واجبات فقط ، بل لهم حقوق ، ولقسم منهم على الأقل أن يعبر عن رأيه كتابة . ولا يختلف التابعون عن غير التابعين ، بصورة إجمالية ، من حيث الظاهر إلا بشكل طفيف غالبا . ويرد ذكر أغلب التابعين (أ د م) في قطاع الجماعة (المجتمع الصغير) ، ولكنه يختفي في نصوص العصر السبئي المتأخر ، وذلك بسبب من التغيرات التي طرأت على طرق ومحتوى الكتابة ، إنهم لا يتبعون أفرادا ، بل عائلات ولهم عائلاتهم الخاصة بهم ، وهم وأسرهم يخضعون لسادة تحالف المجتمع المحلي .

إن حرية الحركة لدى التابعين محدودة ، فهم لا يتحدثون في نصوصهم عن رحلات وحملات كثيرا ما يرد ذكرها عادة . وذلك واضح في النقوش ، إنهم لا يدعون للاشتراك

في المعارك الحربية الأمر الذي يمكن تفسيره على أنه لا يحق لهم حمل السلاح ، وهم مضطرون للخضوع إلى حماية سيدهم . وإن هذا الحظر كان له وقع شديد عليهم ، ولا سيما وهم يعيشون في مجتمع يعتبر فيه حمل السلاح والاشتراك في المعارك المسلحة من السمات الرئيسبة للرجل الحر الذي يتمتع بكامل الحقوق .

أولئك الـ (أ د م) الذين يظهرون مؤلفين للكتابات يمتلكون غالبا البيوت الخاصة ويدفنون في مقابر مستقلة ، وذلك لأن عائلات السادة ينصون على عدم السماح للـ (أ د م) بدفن موتاهم في مدافنهم .

أما نشاط هؤلاء الـ (أ د م) فقد ارتكز على الزراعة ، ونجد بعضهم يملك قطعة أرض ، وبعض المواشي . ويفهم من النقشين **CIH435,CIH605** ، أن سادهم يمنحوهم أرضا ولكننا للأسف لا نعرف شروط هذه الهبة ، لأن العبارات المستخدمة في النقشين لا تسمح باعطاء فكرة واضحة . ففي **CIH435** نقرأ ما يلي :

١- ي ن ع م / و ب ن ي هـ و / ب ن و / أ ع ز ز / ج ز م / ج ز م و / ع ث ت ر / ذ ذ ب ن/ ك ذ م / ي ت
٢- ع ل م ن ن / ب ن ح ل ت م / و م ح ر ت م/ ل ب ن / أ د م/ و أ م هـ/ ب ن ي/ أ ع ز ز / ب ب ي ت
٣- ن / و ج ب ل ت ن / أ ل ي / ي س م ي ن ن / ذ ي ن ع م / ب خ م س ن/ ر ب ع ن/ ذ ب ق ر ن/ب ي ت/ و ج ب ل ت
٤- ش أ م/ي ن ع م/ ع م ن/ب ن ي/ ك ش ح ت/ ك ي ل ك ن ن / هـ أ / ب ي ت ن / و ج ب ل ت ن / ب ي ت م /] و . . . .

فهنا (يعترف السيد ينعم) وابناؤه من قبيلة أعزاز بعطائه (نحلة) لعبيد وأموات بني أعزاز من البيت والأرض الزراعية (ج ب ل ت ن) التي تسمى (ذي ينعم) ، وهنا لا بد

من التنويه ــ مرة أخرى ــ بأن التفسيرات التي تعتمد على الاشتقاق اللغوي لمثل هــذه المصطلحات لا تعطي وحدها أجوبة مقنعة . أما ذلك العشر الذي كان يقدمه الــ (أ د م) إلى المعبد . فقد ذكر في النصوص مرة واحدة ، CIH369 ويمكن فهمه على أســاس أنــه حالة استثنائية ، وأنه نوع من النذور التي كانت تقدم إلى المعبد بصفة شخصية . حيث ورد فيه :

١- خ ل أ م ر/ ب ن / أ س٣ خ م/ ع س ى / أ ح ت / أ ص ب ع م

٢- ب ن / ث ت ي / ي د / ع ش ر / ق ب ر ن / س٣ ن ح / ب ن / ث ع/
ح م ع ث

٣ - ت / ب ن / ح ر ع هــ ر / ب أ ل م ق هــ

ويحتمل أن يشتغل الــ (أ د م) بالصناعــة اليدويــة ، كمــا تشــير دلالــة لفــظ (ج ر ب ي ن) التي تعني (حجار) وما عدا ذلك لا تتطرق النصوص إلى مجــال الصناعــة اليدوية عموما . وفي المجال الحقوقي يظهر الــ (أ د م) مدعي عليهم ومدعين. والــــ (أ د م) يعدون من ضمن أملاك أسيادهم ، وهم يشترون ويبــاعون ، ويملكــون للعــائلات الأرســتقراطية بواســطة مراســيم ملكيــة معروفــة ، كمــا يتبــين مثــلا مــن Fa3 و Fa76 . وفي هذه الحالات يعادل الــ (أ د م) العبد ، وربما تحمل صيغ الجمع (أ د و م ت) و (أ د ي م ت) هذه الدلالة الخاصة غالبا . وهم من الناحية القانونيــة فــاعلون أيضا ، أي شخصيات قانونية ، وإن بالاشتراك مع سادهم فعليهم اســتنادا إلى CIH609 التزامات أمام أشخاص آخرين :

١- . . . . / ك ل / أ ب ي ت هــ م و / و .

٢- أ ر ض هــ م و / و أ ن خ ل هــ م و / و أ ق ن ي هــ م و / و أ د ي م ت هــ م و / و ا م هــ هــــ م و / و ك ل / ذ ق ن ي و / و ي ق ن ي ن ن / ب ن و / ذ م ع هــ ر م / و أ و ل د هــــ م و / و أ ل / ب ع ب ر /و ب ع ل ي / ك ل / أ ب و ت هــ م و / و ش ع ب هــ م و / م ع ن م / ب ن ك ل / أ س ط ر / و ش أ م ت .

كما أهم يقترضون بأنفسهم ، كما يتبين من Fa30 و Fa30bis من شخص ثــالث

غير سيدهم لغرض مجهول ، ويسددون القرض أيضا . عندما يقترفون الجنح يقاضون عليها RES4964 ، في مثل هذه الأحوال لا يمكن استبعاد فكرة أنهم يعاملون معاملة العبيد إلى حد ما .

اما بالنسبة لمصدر الـ (أ د م) لا تقدم الكتابات معلومات وافية ، فقد يكون بينهم أسرى حروب ، وأفراد من القبائل تستوطن أطراف منطقة الحضارة اليمنية . ويتعذر وجود شواهد على كيفية التخلص من شكل التبعية هذا .

وإذا ما انتقلنا إلى وضع التابعين من الإناث (أ م ت) فإن إمكانات التعبير لديهم في هذا المجتمع الأبوي (حيث للرجل الكلمة العليا) محدودة أكثر مما هي لدى النساء الحرائر . ولكن يشتركن معهن في الاهتمام بالأسرة ، ويلاحظ أن لهن الحق في الاتجار، وقد أظهرن كفاءة عالية في هذا المجال . ففي CIH581 يساومن حجارا على تسليم تمثال نذري دون تدخل سيدهن أو رجال آخرين ، ولأمر ما يرفضن دفع ثمنه. وحتى تحل المسألة الخلافية ، كان لا بد من تدخل المعبد عن طريق القداح . وكان عليهن الالتزام بتعاليم الطهارة الصارمة مثل بقية السكان ، وهي عادة متبعة لدى الشعوب السامية . وعليهن عند المخالفة، التي قد تتسبب في نجاسة آخرين من المجتمع لا ذنب لهم ، أن يقمن بالتكفير علنا وأمام الجميع ، مع ذكر موضوع (المخالفة) كتابة وبكل دقة ، ومن ثم ما يجب دفعه غرامة على تلك المخالفة. كما في النقوش : CIH523, CHI532, CHI533, CHI547, RES3956

كان الـ (أ د م) منتشرين في كل المناطق السبئية . وعلى الرغم من أن النصوص التي تنسب إليهم محدودة ، إلا أنها تظهر اختلافات محلية ، ربما بسبب اختلاف الأوضاع من مكان إلى آخر. فبينما يظهرون في شبام سخيم (شبام الغراس) لدى بني سخيم ملاكا للبيوت ومقدمين لنقوش تتحدث عن الأبنية غالبا ، فإنهم يبدون في أماكن أخرى متقدمين بالقرابين في نصوص النذور (التقدمة) بخاصة . ويفهم من Fa3 و Fa76 بأن عددهم في

بعض العشائر الأرستقراطية قد يصل إلى بضع مئات من الأشخاص .

وأما فيما يتصل باللغة والأسماء الشخصية والنواحي الثقافية فإن لهم سمات مختلفة تخصهم على الرغم من تأقلمهم مع محيطهم السبئي بشكل عام . فالآلهة التي يعبدونها تخصهم وليس لها نفس الوظيفة عند غيرهم ، مثل (ق ي ن ن) في شبام سخيم . ويلاحظ أن نسبة أسماء العلم المركبة عندهم أكثر من عند سواهم. وفي النصوص التي ألفوها نلاحظ تأثيرات لغوية – لعلها من اللغة الدراجة أو من لهجات أخرى – فهي تختلف في أسلوبها عن لغة الكتابة السبئية التي تحددت معالمها الأساسية قبل مئات السنين .

إلى جانب هؤلاء التابعين في قطاع الجماعات (المجتمع الصغير) يظهر نوع آخر منهم عرفوا في النصوص بـ(أ د م / م ل ك ن) وجمعها (ع ب د / م ل ك ن) تابعين للملك . وحيث إنهم في النصوص التي وصلت إلينا لا يحملون اسم الملك التابعين له في تسميتهم باستثناء واحد ، فإن ذلك يفتح الاحتمال بأن التزامهم لا يتعلق بالملك شخصيا وإنما بالمؤسسة الملكية نفسها . وقد خلف هؤلاء عدة نقوش نذرية في منطقتي الثقل السياسي والديني لسبأ (صرواح ومأرب) منذ بداية القرن الأول ق.م. بينما يظهرون في مملكة قتبان المجاورة في حوالي القرن الثالث ق.م.

يختلف هؤلاء عن التابعين الآخرين للملك الذين لا يدعون(أ د م/ م ل ك ن) والذين يعتنون بشكل خاص بالخيل التي تعد ملكية غالية ونادرة للحاكم ، بتنظيمهم الأسري ، وكذلك باستقلالية شخصية إلى حد ما .

كان جزء كبير منهم ينتمي في أصوله إلى المناطق الحدودية لسبأ ، وكانوا يعيشون رعاة للجمال ، ومنهم من عمل في الزراعة ، بل إن منهم من كان يملك بستان نخيل عن طريق الوراثة ، كما كان في صرواح مثلا . وهم يحملون إلى جانب اسمهم الشخصي لقبا على

غير المألوف في اللهجة السبئية ، لأنهم ينزلون غالبا خارج منطقة القبيلة الأساسية . أنهم يتبعون الملك ، ولكنهم يعدون من جهة أخرى من أفراد المجموعة التي ينزلون فيها . وقد كانوا يرافقون الملك في حملاته الحربية ويصيبون الغنائم ، ويبدو أنهم كانوا يشكلون نوعاً من الحرس الملكي الخاص ، الذي تقع على عاتقه واجبات جديدة ، قد تكون عسكرية أو سياسية واقتصادية أيضاً تجاه سيدهم .

وهناك في السبئية مصطلح (م ق ت و ي) **Ry513 ، Ja646** الذي يدل غالباً على التبعية الشخصية ، إنه لقب قائد عسكري ، أو لقب خادم أو نائب أو مدير عند ملك أو قيل أو قبيلة ، كما يعتقد حتى الآن من خلال وروده في الأدب السبئي، إذ لم يدرس بشكل كاف . والمصطلح يفسر هنا كأنه صيغة أسم المفعول من الوزن الثاني (افتعل) من جذر (ق و ي) بمعنى الذي هو (مُقْتَنى) أي الخادم أو العبد .

وهذا المصطلح لا يستخدم بكثرة مثل (أ د م) إلا أنه يشتمل على معان مختلفة ، وقد استبعدت هنا المواضع التي كانت العبارة فيها تدل على الرابطة التي تصل بين ممثلي أرستقراطية المجتمع بالملك . وفي وظيفتهم هذه يظهرون خدماً للملك الذي يذكر اسمه دائماً **Ja579 Ja580** فيشاركون قادة في المشاريع الحربية. (م ق ت و ي) يعني في هذه الحال وظيفة محددة ذات أبعاد سياسية ـــ عسكرية في المملكة السبئية منذ نهاية القرن الثاني ق. م، إلى بداية القرن الثالث الميلادي .

ويبدو أن هؤلاء لم يمارسوا أي نشاط اقتصادي (كالأدم) إذا ما استثنينا اهتماهم المحدود بالزراعة ، التي يذكرونها في نصوصهم ، كذلك لم يخلفوا كتابات أبنية . ولكنهم كانو يقومون بالسفارات السلمية ويشتركون في الحملات الحربية ، ويحصلون على الغنائم والأسرى . ويبدو أنه لم يكن لهم اقتصاد خاص (منزلي ـــ أو عام) بعكس (الأدم) كما رأينا ، وسبب ذلك أنهم كانوا مرافقين مسلحين لسادتهم كما هو الحال اليوم لدى شيوخ

القبائل في بعض المناطق اليمنية ، فإن هؤلاء يتكفلون بإعالتهم . ويكلفون من قبلهم بالقيام بأعمال البناء للمصلحة العامة . وهذا الوضع منحهم شيئاً من الحرية ، ومنحهم حق حمل السلاح .

وتحدثنا الوثيقة Ja 700 ذات المحتوى القانوني والتاريخ الحضاري والتي تعود إلى النصف الثاني للقرن الرابع الميلادي أن أل (م ق ت و ي ي) ـ حالة الجمع ـ كانوا يتورطون في قضايا قانونية كغيرهم . فهي تخبرنا عن عمل يتصل بالشرف ، كانت نتيجته أن قتل المهاجِم وهو المدعو (ر ب س ل م) أما المهُاجم (س ع د م) وهو (م ق ت و ي) سرق خنجره (و خ ر ط / ر ب س ل م / ش ز ب / س ع د م) ، فإنه يكفر عن فعلته دون أن يتدخل سيده أو جهة قانونية ، بتقدمة قربان للمعبد الأمر الذي يؤكد كونه شخصية قانونية في هذا السياق :

١- ع ب ي د م / و س ع د م / ب ن ي / ح ي و م / م ق

٢- ت و ي ي / ن س ر م / أ ح ص ن / ب ن / م ق ر م /

٣- هـ ق ن ي و / أ ل م ق هـ ب ع ل أ و م / ص ل م ن / ص ر ف

٤- م / و ص ل م م / ذ هـ ب م / ح م د م / ب ذ ت / خ م

٥- ر هـ و / أ ل م ق هـ ب ع ل أ و م / ع ب د هـ و / س ع

٦- د م / خ ل ي ن / و ح ظ . . . . م ن / ن ف س / ع ب د هـ

٧- و / س ع د م / ل ق ب ل ي / ذ س ت و ش ع ت هـ و / أ ث ت ن / ب

٨- ر ل ت / ن ش ن ي ت ن / أ م ت / ب ن / م ق ر م / ل أ و ل ن

٩- ل هـ و / ب ن هـ و / ع م ن / أ س ح و / ر ب س ل م / و ب هـ أ

١٠- ل ع ب ر/ ر ب س ل م / س ع د م / ح ج ن / س ت و ش ع / و س ب

١١- ب ي ن هـ م ي / ل خ م م / ب ع ل ي / هـ و ت / و ل د ن / و ي س

١٢- ب ط/ س ع د م / ر ب س ل م / ب ق ض ب م / و خ ر ط / ر ب س ل

١٣- م/ ش ز ب / س ع د م / ب ن / ح ق و ي هـ و /و ت ع ص ر و/ ب

١٤- ي ن هـ م ي/ب ش ز ب ن / و ت ل ف / ر ب س ل م / ب ن / ي د
١٥- ي هـ و/ب ي ت ن/س ب ت/ي د/س ع د م/ ب ع ل م / ر ب س ل
١٦- م / و أ ل م ق هـ ب ع ل أ و م / ل ز أ ن / هـ ع ن/و ر ف أ/و هـ ع
١٧- ن/ ع ب د هـ و / س ع د م

تلك هي الصورة التي توصلت إليها ، ويتضح منها أنه من الصعوبة بمكان الإجابة بثقة عن السؤال المتصل بطابع تكوين المجتمع في اليمن القديم ، لنقص المصادر ، فضلاً عن قلة الدراسات في هذا المجال . ولكن يمكن ان نستنتج من الوثائق الكتابية التي ترجع إلى الفترة الممتدة من منتصف القرن الأول ق. م وحتى القرن الرابع الميلادي بوجود مجتمع طبقي قديم ارتكز في معظمه على اقتصاد الواحة الذي يعتمد طريقة الري الاصطناعية ، وكانت لصلات القربى بين أفراده ومواقفهم جذور عميقة فيه . وقد طرأت تطورات في هذا الصدد في المجال السياسي والديني والثقافي من الممكن متابعتها . ويمكن العثور بشكل عام على أحوال مشابهة كثيرة لما كانت عليه الحال هنا في تلك الأوضاع التي سادت شبه الجزيرة العربية منذ القرن السادس .

ومن الصعوبة بمكان ، والحالة هذه تحديد دور التابعين وعلاقات التبعية المتعددة في مثل هذه الظروف ، وخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار علاقاتهم المتداخلة ، ولكن الواضح أن عبودية المجتمع الأبوي كانت معروفة ، وأن غير الأحرار يمكن العثور عليهم ربما في كل التسميات التي عولجت هنا ، والبحث عنهم يجب أن يبدأ بتسمية (أ د م) . ويبدو أن (الأدم) يحتلون ــ لا سيما عندما يقدمون هم أنفسهم النقوش الكتابية بأسمائهم ــ منزلة الموالي. هم إذن أحرار ، ولكنهم فيما يتصل بحقوقهم أمام جماهير السكان ، أمام أعضاء المجتمع الأحرار، فإنها تبدو منتقصة . قد يكونون عبيداً أعتقهم سادتهم من نير العبودية وظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء ، أو هم من الأحرار خلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها ، فلجؤوا إلى قبائل أخرى طالبين الحماية ، أو انتسبوا إليها على أساس الموالاة

بالجوار . على أن المصدر الأساسي للـ (أ د م) كان من السبي ، والنخاسة (التجارة) وعبودية الدّين ، والأرقاء من مصدر الأسر ، وهم أولئك القوم الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها

تبين النتائج المستخلصة هنا من خلال مثال التابعين مجالات وآفاق الدراسات اليمنية القديمة وحدودها . وأن البحث في مجالات العلاقات الاجتماعية الأخرى ، مثل : مكانة الأسرة ، والعشيرة ، والمجتمع . . . إلخ ، سيكمل الموضوع المعالج ، ويزيده وضوحاً . إذ لا يكفي أن تدرس النقوش اليمنية من الناحية الفيلولوجية ــ اللغوية ــ لإعطاء صورة عن تاريخ وحضارة اليمن القديم . ذلك أن مثل هذه الدراسات لا تقدم سوى سرد للأحداث وقائمة بأسماء الأشخاص ومعجم للمفرادات ، دون الغوص للبحث عن الأسباب التي كانت وراء تلك الأحداث . لأن تتبع التطور (الفيلولوجي) الاشتقاقي يعين بلا شك على تفسير جوانب من الحياة الاجتماعية ، ولكن – وحده – لا يمكن أن يكفي لفهم تلك الجوانب ، ومن ثم لا بدّ من استكمال المنهج الفيلولوجي بتقصي تاريخي اجتماعي يوضح الصورة برمتها . ولعلّ ما سيعثر عليه في المستقبل من آثار سيقدم الدليل على صحة هذه المعلومات أو يعمل على تعديلها ، فما أقل ما اكتشف منها حتى الآن .

Fa3

١ــ ن ش أ ك ر ب / ي أ م ن / ي هــ ر ح ب / م ل ك /س ب أ / و ذ ر ي د ن / ب ن / أ ل ش ر ح / ي ح ض ب / و ي أ ز ل / ب ي ن / م ل ك ي / س ب أ / و ذ ر ي د ن / خ م ر / و ق ن ي ن / و ب ر ج ن / و ب ع ل ن / و ظ ر ب ن / ل أ د م هــ م و / ع م ر م

٢ــ و ب ن ي هــ و / أ ب ش م ر / و ر ب ع ت / و ح ي و ع ث ت ر / و ش ر ح و د م / ب ن ي / ذ ح ب ب / أ ق و ل / ش ع ب ن / ص ر و ح / و خ و ل ن / خ ب ل م / و خ ي ن ن / ح و ر ن / أ ل و / ي س ت م ي ن ن / ر ب ب ت / و ب ي هــ و / ي ف ر ع / و م

٣ــ ر ت ذ أ و م/ و أ ب أ م ن / و ب ن ي هــ و / ت ز أ د / و و ف ي م / و أ ح س س / و ح ي و / و أ ب أ م ر / و ح م د م / و ن ع م ل ت / و ب ن ي هــ و / و هــ ب ع ز ي ن / و ر ث د ع ز ي ن / و ر ب ب ع ز / و ض ب ع ن / و ك ر ب أ ل / و ر ث د

٤- و ي ز د / و أ ب ن هــ ك / و ح ق ب م / و أ و ل د هــ و / و هــ ب ث و ن / و س م ر ت / و ن ع م ج د / و ح م ي ع ز / و ر ب ب ع ز / و م ع ن ل ت / و ش ر ح ع ز / (و) و ل د س ع د / و أ و ل د هــ و / ذ ر ح ن / و ش ر ح و د / و ذ ر ح أ ل

٥- و أ ح د ب / و هــ ش ف ق / و س م ي ت / و ك ل / أ ح ي هــ م و / و ب ن ي هــ م و / و ذ أ ع ذ ر هــ م و / أ ص ر ح ن / ح و ر و / هــ ج ر ن /ص ر و ح / ل ك و ن / أ ل ن / أ س د ن / و أ ن ث ن / و ك ل / أ و ل د هــ ن / و أ و ل د / أ

٦- و ل د هــ ن / و ذ أ ع ذ ر هــ ن / أ ل و / س ط ر و / و س م ي / ب ذ ن/ و ت ف ن / ل ب ي ت / و ظ ب ر / و ر ب ع / ب ي ت / ذ ح ب ب / ظ ر ب م

/ ل ر ج م / ب ع ل ( ) م / ل و ل د / و ل د م / و ع ذ ر / ع ذ ر م / ح ج ن
/ ك خ م ر و / ب ن ي / ذ ح

٧- ب ب / أ م ر أ هـ م و / أ م ل ك م ن / و ل ي ك ن ن / أ ل ن / أ س د ن / و أ ن
ث ن / و ك ل / أ و ل د هـ ن / و أ و ل د / أ و ل د هـ ن / و ذ أ ع د ر هـ ن / م
ث ل / و م ك ن ت / أ د م / ذ ذ ب ب / أ ت ل د ن / أ س د / أ ب ي ت ن

٨- و م خ ت ن ت ن / ب هـ ج ر ن/ ص ر و ح / و ل هـ ي ع / و هـ و ص ل ن / ل
ك ل / ح ش ك / و م و ص ت / و ق هـ ت / أ م ر أ هـ م و / ب ن ي/ ذ (ح) ب
ب / ب هـ ج ر ن / و ب ر ر م / ب ك ل / ب ر ث م / ق ر ب م/ و ر (ح) ق م /
م ث ل

٩- و م ك ن ت / أ ح ص ن هـ م و / أ د م / ذ ح ب ب / ع ل م و / ذ ح ب ب / ل
ي و ف ي ن / أ م ت / و ب ن ي هـ و / ر ب ك ر ب / و ت ب ع / و أ س خ م
/ و ن ش و ن / و أ ب ك ر ب / و ع ل م / و أ و

١٠- ل د هـ و / . . .

Fa30

١- ذ ك ر / (ض) ب ي م / ف ا ف ا ن / ك ر ا / ك و هــ ب ي هــ و/ و س ب أ ن هــ

٢- و/ و و ف ي ن هــ و / أ س و ع / ذ ي ك ر ب / و ي هــ ع ن / ب ن ص ر و ح /
ع ب

٣- د ي / ع ن ن ن / ذ ذ ر أ ن / ك ل / ب ل (ط) / ب ع ل م م / و ش ن ق ت م
/ ذ م ل أ هــ / ش ل ث ي

٤- ب ل ط م / ذ ر ض ي م / ع ل م / و ش ن ق ت /ب هــ و /ت ع ل م ي /أ س و
ع / و ي هــ ع ن / ل

٥- ز ب ي م / ف ا ف أ ن / و ل / ي ك ن ن / هــ أ / ع ل م ن / و ش ن ق ت ن / خ
(ي) د م / و ب ذ ل م / و ح ق ق

٦- م / و ش ص ص م / و خ د ع م / و ذ أ ل / ي هــ ك ن ن / (أ) ل ن / ب ن ي / ذ
ي ك ر ب / و ب ن ي / ص

٧- ر و ح / و أ و ل د هــ م ي / و ذ أ ع ذ ر هــ م ي / أ هــ ن م / ع ك ر / و ل / ي ي
ف ع ن / و

٨- ح ج / ع ل م / و ش ي م م / و ك و ن / ذ ن / و ت ف ن / ب و ر (خ) / ذ ن
ي ل م / ذ خ ر ف / س

٩- م ك هــ ر ب / ب ن / و د د أ ل / ب ن / ح ز ف ر م / ذ ض م ر ن /ث ك م ت ن

Fa30bis

١ــ أ ل / ب ع ل ي / ب ن ي / أ ل ع هــ ر / أ ص ر ح ن / أ د

٢ــ م/ ذ ح ب ب/ و أ و ل د هــ م و / ب ن / ظ هــ ر م / ذ ع م د / ذ م ل

٣ــ أ هــ و/ ث ت ي/ م أ ت (م)/ ب ل ط م/ ذ ر ض ي م/ذ ب هــ و/ ت ع ل م

٤ــ أ ل ع هــ ر/ ل ب ن ي/ ش هــ ر ع ل ي/ ذ أ ل ذ ر أ / أ هــ ن م/ (ع)

٥ــ ك ر ي ي ف ع ن / هــ أ / (ظ) هــ ر ن/

CIH376

١ــ و س خ ل ي/ و ع هــ د / هــ ل ك أ م ر / ب ن / ع .

٢ــ ن م ت ن / و ح م ع ث ت / ع ب د / ذ ر ح أ ل / ب ن .

٣ــ ي د ع أ ب / ل ي هــ ف ر ع / ب ن / ذ ر ح أ ل / أ ل .

٤ــ ف م / ب ل ط م / م ص ع م / ح ي أ ل ي ت م / ب ل ط .

٥ــ ع هــ د ي / أ ب ع ي / و ي هــ ف ر ع / ب ن / ذ ر ح أ .

٦ــ ل / هــ ل ك أ م ر / ب ن / ع ن م ت ن / و ح م ع ث ت / ع .

٧ــ ب د / ذ ر ح أ ل / ب ن / ي د ع أ ب / ب أ ر ض / و ع ب و.

٨ــ ت / و س و و د ت / و هــ ب / أ ل م ق هــ / أ ب ع ل ي / و.

٩ــ ي هــ ف ر ع / ب س ي ر ن هــ ن / م ش و / و م ص ي ح م .

١٠ــ و أ ب ع ل ي / و ي هــ ف ر ع / ر أ / هــ ج ب أ ي / ل أ ل م .

١١ــ ق هــ / هــ و ت / أ ر ض ن / و ل / ي هــ ق ب ل ن / ل أ ل م ق.

١٢ــ هــ / و ظ هــ ر ن / ذ هــ ظ هــ ر / ب ع ل ي / هــ ل ك أ م ر / و .

١٣ــ ح م ع ث ت / س خ ل م / و ن ف ق م / ب ن ع ل ي هــ م ي.

١٤ــ ذ ب هــ و / هــ ظ هــ ر ي / هــ ن / ب ل ط ن / أ ل ف ن / أ هــ .

١٥ــ ن ن / ع ك ر / و ل / ي ف ع ن / ك ع د / هــ أ / ظ هــ ر ن / ب.

١٦ــ ع م / ي هــ ف ر ع / ت ع ل م / ي هــ ف ر ع / ب ذ ن / م .

١٧ــ ص د ق ن / .

طبيعة الاستيطان في اليمن القديم

يتردد في النقوش اليمنية القديمة عدد من الألفاظ التي احتار الدارسون في ترجمتها، لأن أغلبهم يعتمد في هذه الترجمات على الاشتقاق اللغوي أكثر من اعتمادهم على فهم النص في إطاره التاريخي ـــ الاجتماعي ، لذا نرى هذا الاختلاف الواضح في ترجمة كلمات مثل :

(ح و ر) ، (ع م ر) ، (ع ر) ، (ب ك ل) ، (ب ض ع) ، (ع ب ر) ، (ذ هـ ب) . . . إلخ .

وفي هذه الدراسة سأحاول ـ بقدر ما تسمح به النصوص النقشية ـ أن أقدم ترجمات لمثل هذه الكلمات التي ترتبط في الواقع على فهم النص في إطاره التاريخي ـــ الاجتماعي الاقتصادي ـــ حتى نتمكن من رسم صورة ولو أولية عن الحياة الاجتماعية لهؤلاء الذين كتبوا هذه النصوص . وسأعتمد بالدرجة الأولى على النقش الموسوم بـ **RES 4230 A,B** مع الاستشهاد بنصوص أخرى عند الضرورة توضح الصورة ، التي سأحاول رسمها لهذا المجتمع .

وسبب اعتمادي على النص المذكور يرجع إلى أنه من النصوص التي تحمل بعض تلك الألفاظ التي دار حولها الاختلاف ، فضلا عن أن النص قد نشر منذ مدة

(*) نشر في مجلة كلية الآداب / جامعة صنعاء / العدد ١٥ سنة ١٩٩٣، ص ٣٧-٦٣.

طويلة، ولم يحاول أحد إعادة قراءته. فقد نشر لأول مرة عام ١٩٢٧م[١]، وعلـــق عليـــه موردتمان وميفوخ[٢]، وتناوله في أطروحته للدكتوراه بيستون[٣]، وأعاد جام[٤] نشـــره مع صورة له . وحسب علمي فإن أحداً لم يحاول من بعدهما قراءة النص مـــــن جديـــد . والنقش المذكور مرقوم على مبخرة ، صنعت بطريقة غير متقنـــــة ، وتعـــود إلى العصـــور المتأخرة (حوالي القرن الثالث الميلادي) ووزع نصه على ثلاثة جوانب منها . ويلفت النظر في رسمه أن حرف التاء فيه يتطابق في شكله مع مثيله في اللغة الجعزية .

نص النقش

(أ) الجانب الأمامي

١ـــ ل ح ي ع ت / ب ن / ذ ب ر / أ ن / هـــ ق ن ي / م ق ط ر م

٢ـــ و ث م ر م / ل ع ث ت ر / ش ر ق ن / ب ى م / ك و ن / ع ق

٣ـــ ب م / ب ب ت / ب ن / ث أ ر ن/ ذ س ل ي ت / و ع م ر

٤ـــ ل و ف ي / م ر أ (هـــ م / ش) م ر / ي هـــ ر ع ش / م ل ك / س ب

(ب) الجانب الأيسر

٥ـــ أ / و ذ ر ي د ن / و ل و ف ي / ع ب د هـــ م و / ل

٦ـــ ح ي ع ث ت / ب ن ب ر أ ن / و ل و ف ي / م أ د

٧ـــ ب ت هـــ م و / ش ع ب ن / ح و ر / هـــ ج ر ن / س ل ي ت / و

---

(١) Cantineau , J.: Nouvelles inscriptions sud - Arabique de Musee Borely a Marseill , RAA 14(1927) p. 135ff .

(٢) Mordtmann , J. H. und Mittwoch, E.: Bemerkungen zu altsudarabischen Inschriften , Orientalia , N.S. 3(1934) p. 42 ff.

(٣) Beeston , A. F. L.: Sabaean Inscriptions , Oxford (1937) p. 85 .

(٤) Jamme , A.: Les antiquites sudarabes du Musee Borely a Marseeille, C B 8 (1958) p.149ff.p1.x1/2,x1 .

٨ـ أ هـ ل هـ و / و أ ر ض هـ م و / ص ر ب م / و ق ي ظ

(جـ) الجانب الأيمن

٩ـ و أ ي و ن م / ذ ك و ن / ب ع ش ق ت

١٠ـ و ل ي أ خ ر ن / ق ل م م / و م ق ص م

١١ـ و ب ر د م / و ح ب ر م / و ش ن أ م

يلاحظ في الحجر عدم الدقة عند وضع الفواصل بين الكلمات ، وقد وضعنا خطاً مائلاً (/) في الأماكن التي لم يرد فيها الفاصل. ويرى الخط الفاصل بين (ذ ب ر) و (أ ن) في السطر الأول وهو خطأ ومن المفروض أن يلغى .

وإذا ما نقلنا النص إلى اللغة العربية (الشمالية) فإن النص يعني :

١ – لحيعت ابن ذو برأن ، قدم مقطراً (مبخرة)

٢ – وثماراً (للإله) عثتر الشارق في اليوم الذي عين فيه مشرفاً (وكيلا عاماً)

٣– في مزرعة (السيد) من (قبيلة) ثأران ، سيد (مدينة) س ل ي ت ، ومستوطينها[٥]

٤ – من أجل سلامة سيده شمر يهرعش ، ملك سبأ

٥ – وذو ريدان ، ومن أجل سلامة عبده لـ

٦ – حيعت ابن برأن ، ومن أجل سلامة مرؤو

٧ – سيهم (الذين) هم من سكان مدينة س ل ي ت و (ومن أجل سلامة)

٨ – أهله وبلده أثناء موسم الحصاد والصيف

٩ – وكروم العنب ، التي في المزارع

(٥)سلْية   قرية تقع على سفح جبل شحب عمار في ناحية النادرة ، لمزيد من التفاصيل عن هذا الموقع انظر.

Al - sheiba, A.Hassan: Die Ortsnamen in den altsud - arabischen Inschriften, Archaologische Berichte aus dem Yemen, IV (1987) p.34.

١٠- وليبعد (الرب عثتر الشارق) الضرر والتلف
١١- والبرد والسحر و (كل) عدو

نستخلص من النص الوقائع التالية :
في أثناء حكم الملك شمر يهرعش عين رجل لم يكن حراً ، اسمه لحيعت وكيلاً ـ رئيساً ـ في مزرعة قبيلة ثأران ، التي كان شيخها صاحب السلطة على مدينة (س ل ي ت) ومستوطنيها ، وقد تأتى عن هذا التعيين مناسبة تقديم المبخرة والكتابة المنقوشة عليها . والسبب في تقديمها مع الثمار هو طلب السلامة للملك ولمقدمها ولسكان مدينة (س ل ي ت) الذين يعملون مزارعين في تلك المزرعة ، والحفاظ على المزرعة وسلامة كروم العنب فيها .

ومن هنا نرى أن السلم الاجتماعي الذي يتدرج من الطبقة الدنيا إلى الملك، الذي يعتبر المالك الاسمي أو الحقيقي للمزرعة ، يشتمل على طبقتين : قبيلة الأشراف وأتباعها في المدينة. وبينهما يقف الرجل الذي قدم المبخرة وأهله ، مشرفاً ووسيطاً. وسيكون الحديث فيما يلي عن الأتباع فقط من حيث هم عمال سخرة ، وعن استيطانهم المدني .

سيد مدينة (س ل ي ت) هو أيضاً سيد سكانها (ع م ر) ـ السطر ٣ ـ ، اسم المكان فيه (م ع م ر) يعني قطعة الأرض التي تزرع . ويقابله في العربية الشمالية معمر ، الذي يقسم بحسب رأي اللغويين العرب القدماء قياساً على المناطق الفقيرة بالمياه ، بتوافر الماء والكلأ الكثير . ومن حيث طبيعة الأمر ، فإن المعنى يشتمل على شيئين : زراعة المكان واستيطانه بملحقاته من المباني وصوامع الغلال والمنشآت المائية وما يشبه ذلك . ونجد لذلك شواهد في اللغة العربية الشمالية ، ولذلك يفضل ترجمة الفعل (ع م ر) بعبارة (استعمر الأرض ، وبناها، واستوطنها . . .) وبنفس هذا المعنى تستخدم لفظة (معمر) حتى اليوم في المغرب العربي ـ وخاصة الجزائر ـ بدلاً من (تذكار) التي أوردها أصحاب المعجم السبئي

وعندما نقول أن (عمر) تعني (عاش طويلاً) ايضا ، فإن (أحيى الموات) التي تعني (استصلاح الأرض) نعني كذلك جعلها تحيا . أما الاستيطان – بمعنى الاستقرار – فإن خير تعبير لـه في العربية الجنوبية – اللغة اليمنية القديمة– هو (م ع م ر) (قبر) الذي يقول عنـــه صـــاحب الموعظة (سفر الجامعة : الإصحاح ١٢، ٥) أنه بيته الأبدي (بيت عولمو) في العبرية .

إن الناس أنفسهم الذي يرد ذكرهم في السطر ٣ بصيغة (ع م ر) يدعـــون في الســـطرين ٦/٧ (م أ د ب ت) (تابعين) للقبيلة ويعتبرون من (ح و ر) (سكان) مدينـــة (س ل ي ت) وأن الــ (م أ د ب ت) هؤلاء يرد ذكرهم في نقش سبئي متـــأخر (RES4194/5) . يتحدث عن أعمال تتصل بالبناء والسقاية وبالزراعة في أرض زراعية واسعة . ويبدو هؤلاء وهم يعملون ضمن القوى (العاملة) التي تقوم بالعمل اللازم ، ويحلون محل أفراد القبيلـــة حيث من المفترض أن يذكر هؤلاء . وعلى كل ، لا ينبغي التفكير إلا بحذر شديد بـــإبدال الباء من الميم فيما يتعلق بلفظة (م أ د ب ت) ، وفي هذا السياق بعلاقة (م أ د ب ت) مع لفظة (أ د م) التي تعني عبد(٦) ، وإنما ينبغي التفكير بلفظة (أدب) ، ولكن ليـــــس بمعـــنى العبارة الدارج ذي الدلالة على (التربية والأدب وسواهما) . فاللغويون والمعجميون العرب يذكرون معنى (دعا) ، بهذا الخصوص ، إلى الطعام ، أو إلى مأدبة عامرة . . . وما شـــابه ذلك، وأن اللفظة (مأدبة) لا تدل مع ذلك على (المدعوين) إنما – ولا سيما مع الأخذ بعين الاعتبار ما يضيفه اللغويون من لفظة (إلى الأكل) إلى كلمة (مأدبة) – تعني (المطعـــمين) . وهكذا يكون جماعة (مأدبت) من حيث المعنى هم (أ ر ب ي) في اللهجة القتبانية ، هنـــا وفي RES 4194 عمال تابعون (غير أحرار) في الحقل ، يخضعون للعشيرة وللقبيلة (٧) .هـــؤلاء الأتباع كانوا (سكان مدينة س ل ي ت) . ولم يكن من الغريب أن تستوطن القبائل المدن في اليمن القديم ، وتضاف في هذه الحالة نسبتهم سياسياً إلى المدينة ، ولكن مسؤولية (القبيلة) والإقامة

---

(٦) انظر دراستنا.أوضاع التابعين في اليمن القديم

(٧) Rhodakanakis, N.: Katabanische Texte zur Bodenwirtschft I, wien (1919) p.21ff., II(1922) p.72,
Muller,W.W., Warzeln Mediae und Tertiae Y/W im Altsudarabeschen, Tubingen (1962) p.54.

والانتساب إليهما لا يتطابقان دائماً[٨] .

وفيما يتصل بالمسؤولية ، فإن ثمة تسميات قبلية متدرجة اجتماعيا هي :

(١) القبيلة التي من مدينة س (ش ع ب ن / ذ هـ ج ر ن / أ ك ن ط ...) كما في النقش CIH 291/2 ويستطيع المرء أن يعرف القبيلة ، وفي مثالنا أكانط (وهو اليوم ما يسمى كانط في خارف) والعشيرة همدان ، إنها قبيلة حاشد إذن .

(٢) قبيلتهم ، التي من مدينة س (ش ع ب ن هـ م و / ذ هـ ج ر ن / . .) الضمير (هـ م و) على عشيرة السادة. ويمكن استنتاج ذلك ، من الاسم الخاص بالقبيلة مثلاً في النقوش CIH 292/1,3, CIH 224/2, CIH 290/8, RES 4198/ 2,5 إن هذه القبائل تحمل أسماء خاصة تتطابق مع أسماء المناطق التي تسيطر عليها ، كما سنوضح فيما بعد . وهي تتبع للعشيرة السيدة . ولا يمكن أن تعتبر ، عندما تقرن بأسماء المدن من سكان المدن، إذ هي العشيرة السيدة للمدينة . ففي النقش RES 4198/2,5 يدور الحديث عن (ب هـ ج ر هـ (م و/ ن م ر ن /) و (ش ع ب هـ م و / ذ هـ ج ر ن/ ن م ر ن) ونمران هو الذي يعرف اليوم باسم بيت نمران في الجوف . وهكذا نجد حيث يسود إقطاع المعبد ، قبيلة ومدينة الإله أيضاً[٩] .ويعلمنا النقشRES 4329 أن القبائل لا تسكن دائماً في المدينة التي تُعد تابعة لها . ومركزاً إدارياً لها كما سنرى لاحقاً . إذ يمكن لأفرادها أن يعملوا خارج مدينتهم ، بل بشكل عام خارج المدن ، عندما يعملون في بناء الطرقات مثلاً . وكانت

---

(٨) لم تكن كل القبائل ترتبط بمدينة ما ، فقبائل سمعي ، خولان وردمان مثلاً لم يرد في النصوص ما يشير إلى ارتباطهم بمدينة ،بل إن بعض القبائل كان لها ملكها الخاص كما فيCIH37/1-2 الذي جاء فيه (يهعان ذبيان بن يسمع إيل بن كرب ملك سمعي) بل إن هذه القبيلة (سمعي) التي كانت في الأصل بعظم إله الهمدانيين (تألب) نجدها في مرحلة لاحقة تحت رعاية السبنيين ، ثم نراهم مقسمون إلى أثلاث ثلاثة حولان، حملان ، وهجر ، أي أنهم وزعوا على مناطق ثلاثة .

(٩) Rhodokanakis, N.: Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen II, wien (1917) p.173.

القبائل قابلة للانقسام ومتحركة ، كما يلائمها ، من حيث القيام بأعمال اقتصادية محددة ، ومن حيث العمل في السخرة ، والاشتراك في الحرب عندما يدعوها إلى ذلك داع . مثال ذلك قبيلة بكيل التي كانت مقسمة إلى ربوع (أحياء) وإننا نعرف منها على سبيل المثال حيين (ربعين) : مرثد بكيل ، ربع عمران (ش ع ب هـ م و/ ب ك ل م / ر ب ع ن / ذ هـ ج ر ن / ع م ر ن) CHI 95/1[١٠] الى جانب ريدت (ش ع ب ن / ب ك ل م / ر ب ع ن / ذ ر ي د ت) CIH 314/2 وهي ريدة عمران[١١] . ولكن عندما يعكس المرء الصيغة في إحدى الكتابات القتبانية RES 3878 ويقرأ (مدينة قبائل الإله عم) فإن من المحتمل أن يفكر المرء بمعسكرات شعوب عاملة ، شبيهة بالمعسكرات الإسلامية أو بمدن الجيوش (الفسطاط ، البصرة ، الكوفة) التي اندمجت فيها القبائل.

(٣) قبيلة س ، اسم القبيلة يتطابق مع اسم المدينة (ن ب ط ع ل ي/ م ل ك / ك م ن هـ و / و ك م ن هـ و) نبط على ملك كمنا ، وقبيلة كمنا ، (كمنا في الجوف) . هذه القبيلة تكون مع ضواحيها وسكانها مدينة ـــــ مملكة ، CIH377/2, RES3945/17 كانت تعيش في ظل دول مجاورة كبيرة ، ومثلها مدينة هرم (في الجوف بالقرب من الحزم) RES3945/17، وكذلك مدينة نشان (السوداء في الجوف أيضاً) RES3945/15 التي كونت لها لمدة وجيزة مملكة كبيرة ، كانت لها ممالك مدن ، فالدولة والمدينة والشعب كانوا يحملون الاسم نفسه (س ملك نشان ونشان)[١٢] يلاحظ هنا أن اسم الشعب –القبيلة– يذكر في المركز الثاني، ولكن عند ذكر الإله المركزي فإن الشعب يحتل المركز الثالث . ومثل ذلك نجد اسماً واحداً يجمع بين المكان(هو حصن) والقبيلة (ش ع ب) والعشيرة(ب ن و)، وهو اسم غيمان الواقع على بعد نحو ٢٠ كم جنوب شرق صنعاء ، لان هؤلاء الثلاثة يكونون

---

(١٠) انظر أيضاً النقوش : CIH102/4 , CIH73/2

(١١) انظر أيضاً النقوش : Ja578/12,32, RY533/17,CIH282/2,CIH506/5,Ir6/,16/1,25/ 1 RES3858/9-10 ثم قارن النص القتباني (و ر ب ع / ب ي ت / ب ن / ع ج ل م / ب هـ ج ر ن / ح د ص م) .

(١٢) Rhodokanakis, N.: Altsabaische Texte I, Wien (1927) p.30 Anm. 1, p.54ff.

المجتمع المشترك ، بحيث يغطي الاسم الواحد الثلاثة معاً . بما فيها المكان : ذ غ ي م ن = الذي من غيمان ، ش ع ب ن / غ ي م ن = قبيلة غيمان ، ب ن ي / غ ي م ن= عشيرة غيمان ، وفي CIH30/2 , CIH67/21-22, Ir22/1 , Ja 567/2,26 , Ja577/7,11, Ja626/3,8 اللغة التجرية يعني (عد) القبيلة والموقع والقرية.

وتخبرنا الكتابة CIH601 عن كيفية نشوء قبيلة المدينة في وسط المملكة السبئية . وكانت مدينة صرواح قد أسسها الملك السبئي (يكرب ملك وتر بن يدع إيل بين) مع أشرافه وقبيلة (ى هـ ب ل ح) ، وبعد جيلين نجد هناك قبيلة صرواح (ش ع ب ن / ص ر و ح) التي كما يبدو نشأت مع اندماج سكانها القدماء مع سكانها الجدد[١٣] .وهي قبيلة لم يكن لها كامل الحق – في أن تكون كغيرها من القبائل– ولكن عند فرض الضرائب عليها كان لها مجلس يمثلها ، أي أنها كانت تتمتع بحق التقرير المستقل في شئونها الضريبية . وكانت تعيش في مدينة يسكنها إقطاعيون من علية القوم بإدارة مجلس المسود . وبعد بضعة قرون نعثر على اسم هذه القبيلة ثانية في نقش وجد في المدينة CIH398 وتحمله عشيرة (ب ن و) ، بشكل يناسب العصر في سماته الإقطاعيه ، وترأسها عشيرة قيادية – رناسية (ب ن و / ع ن ن ن) فهنا نقرأ في السطر ١٨ (ش ع ب هـ م و/ ص ر و ح) . وكان للعشيرة امتيازات داخلية خاصة وصلاحيات واسعة ، وكانت الرئاسة – الزعامة – وراثية فيها[١٤] .

ويمكننا أن نعتبر القبائل التي ذكرناها هنا ومن يشبهها من القبائل الأخرى وحدها قبائل المدن بالمعنى الضيق . إن صياغة الاسم من دون أداة الإضافة – التي يعبر عنها

---

(١٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

(١٤) Hartman, M.: Der Islamische Orient, Bd.II. die Arabische Frage, mit einem Versuche der Archaologie Yemens , Leipzig (1909) p.229.

ثم قارن:

Rhodokanakis,N.: Katabanische Texte.II, Wien (1922) p.69 Anm.5.

اسم الإشارة ذ— ، أي أن اسم المدينة واسم القبيلة متطابقان فيها، وهذا يعني ان اسم القبيلة ليس نسبا يقوم على القرابة ، وإنما على صلة – بالمكان – المدينة. وبذلك يمكن لنا أن نرى أن المسؤولية القبلية ومكان الإقامة يتطابقان في هذه الحالة ويصبحان أمرا واحدا . وأن هي باستثناء صرواح أسماء لقبائل محلية ، لم يتطور وضعها فتصبح أسماؤها أسماء لممالك كبيرة .

(٤) اسماء القبائل المهيمنة التي عرفت دول اليمن القديمة بأسمائها ، وهي سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وأوسان ، وكلها ذات دلالة قبيلة واضحة . ثلاثة منها تسمي نفسها قبيلة س: ش ع ب ن/ أ و س ن **RY533/6,Ja629/31** ش ع ب ن / ق ت ب ن **RES3854/1, RES3879/2, RES3566/3,8,** ش ع ب س م / م ع ن **RES2954, RES3050/3, RES3025/2** أما سبأ فقد اتخذت هذه الدلالة فيما بعد ، ويبدو أنهم كانوا يتخذون مقراتهم الأساسية في عواصم الممالك ، مع أنهم لا ينسبون أنفسهم إليها باستثناء يثل . وتبدو مكانتهم القيادية فيها في الوثائق أحيانا بشكل واضح ، كما في الوثيقة **RES3910/2** حيث نجد العبارة (ش ع ب ن / س ب أ / أ ب ع ل / هـ ج ر ن/ م ر ب / و أ س ر ر هـ و = قبيلة سبأ ، سادة (أ ب ع ل) مدينة مأرب ووديانها (الخصبة). وتدل كلمة أبعل على أن السبئيين هم الذين يستثمرون الحقول المجاورة وهم الذين يديرونها ، وهم الذين يشكلون في المدينة الطبقة المتميزة . ونجد في الوثيقة **RES3566** القتبانية ما يشبه ذلك أيضا ، حيث يرد بصيغة قاطعة أن القبيلة القاندة قتبان تستوطن العاصمة (تمنع) والمناطق الخصبة (و ذ ب ن / ش ع ب ن / ق ت ب ن / ذ ت م ن ع / و ذ أ س ر ر ن) ، أما القبائل المنضمة إليها فإقامتها محددة في الأراضي الزارعية والمراعي . ولبست لهذه القبائل أية صلة بالمدينة الرئيسية .

ويختلف الأمر بالنسبة لعلاقة القبيلة الرئيسية في معين . فنجد أحيانا التعبير عن ذلك على الوجه التالي : قبيلة معين ويثل (ش ع ب ن / م ع ن / و ي ث ل) كما في

RES3025/2 ، واسم القبيلة هو اسم الدولة كذلك ، كما نجد في اللقب المعروف (ملك معين) ، أما يثل (تسمى براقش اليوم) فهي اسم المدينة الرئيسية الثانية في المملكة ، ومنه نستطيع أن نقول أن قرناو (العاصمة المعينية) لم تكن سوى مقر للقبيلة معين ، لذلك يحتفظ حتى الآن باسم معين . وانطلاقا من هذه المدينة العاصمة تم استيطان المدينة الثانية يثل التي أعطت اسمها لسكانها. ومن كثرة ذكر المدينتين معا ولا سيما في النقوش الملكية (م ل ك / م ع ن / و م ع ن/ و ي ث ل) كما في RES2952/4a, RES2980/2-3 مثلا ، أو ذكر آلهة المدينتين (أ ل أ ل ت/ م ع ن / و ي ث ل) كما في RES2980bis/7, RES2975/7، نخلص إلى أن تطور استيطان المدينتين معا أدى إلى نشوء قبيلتين قائدتين توزعتا على المدينتين.

وهنا شيء أساسي آخر ألا وهو صياغة اسم القبيلة باستخدام ضمير الملكية (قبيلته معين) بحيث يختلف تماما عن أسماء القبائل ذات المستوى نفسه . مثل الذي مر بنا عند الحديث عن المدينة – المملكة كمنا التي تشكل نسبيا مجتمعا صغيرا مغلقا مع العشيرة والقبيلة ، نجد فيه طبقة أعلى وأخرى تنضوي تحتها ، ونفس الشيء يقال عن العشيرة والقبيلة غيمان . أما مملكة معين فإنها تذكر هنا، كما في أحوال أخرى ، ببداياتها ، وتحتفظ كذلك بأصولها القديمة .

ونجد قبيلة معين بعد قرون من سقوط مملكتها في إحدى الوثائق السبئية من العصر الوسيط CIH609/1,4 حيث تنظم عشيرة سبئية مكان إقامة (قبيلتها معين) في المدن قرنلو ويثل وشعوب (. . . / و ش أ م ت/ ذ ب ن / ح و ر / و أ د ي م (ت) / ب ن ي/ ذ م ع هـ ر م / و ش أ م ت / و ج د ي ت/ أ ب ي ت هـ م و / و ذ ق ن ي و / ب هـ ج ر ن (ق ر) ن و / و ي ث ل / و ش ع ب م) ومكان الإقامة (المستوطنة) هذه : أرض وبيوت مستأجرة بالوراثة ويديرها شيخ العشيرة الذي يتحمل عبء المسؤولية الكاملة . وكي تنفذ عقود الشراء كان على العشيرة والقبيلة ضمان ذلك وراثيا ، بما تملكانه من بيت ونخل وأرض وعبيد وإماء . وزيادة على ذلك تتكفل بدفع ثمن الشراء مع الفائدة (أجرة الأرض) وضريبة من نوع خاص لصالح الجيش . وشيخ العشيرة هو الذي يوقع العقود ، وملك سبأ

وذو ريدان يوقع على سند التمليك[١٥] .وهكذا نرى قبيلة معين وقد انحلت في مملكة سبأ وذو ريدان الكبيرة . فهي تقوم بأعمال السخرة والخدمة تحت الحكم السبئي في المدن المذكورة في الحقول الواقعة ضمن أملاكها ، وقد سقطت سياسيا واجتماعيا . ولكن الصيغة الخاصة باسم القبيلة لازمتها كما يبدو طوال تاريخها .

إن لفظتا (ح و ر، ح و ر و) أي : ساكن ، سكان ، التي تقابل العبارات اليونانية Katoikoi, Katoi Koyntes ، وتعني لفظة الفعل الثلاثي حور في الكتابات اليمنية القديمة (سكن ، استوطن) . ويشتق منه الفعل المضعف الدال على المبالغة بمعنى سكن ، أسكن (ي ح و ر/ س ب أ/ ب هـ ج ر ن/ ن ش ن) كما في RES 3045/15. ويبدو لي أن ذلك يعني السكن في المدن (أهـ ج ر ، المفرد : هـ ج ر ن)، مع الانتباه إلى أن ترجمة هذه الكلمة التي تعني (مدينة) في النصوص المتأخرة يجب أن لا يؤخذ بها من دون قيد أو شرط . ويقابل ذلك في العربية الشمالية : حار (رجع)، حور (أرجع) . وقد يفهم منها كذلك إلى جانب هذا المعنى ما يدل على تغيير الحال أحيانا . وفي الجعزية يعني حورا (عاد) إذن المعني هو : أرجع، من التجوال في المراعي ، مع المواشي نهارا ، للراحة مساء في المخيم ، تعني اللفظة في مناطق البدو الإرجاع القسري إلى حيث الإقامة غير الدائمة .

وإننا نجد في الوثيقة CIH609/1 ما كتب (مستوطنو (سكان) مدينة قرناو وشعوب) ، وفي سطر ٣ وما بعده (ش أ م ت) المشترين ، أي المستأجرين بالوراثة . وإلى جانب قبيلة بكيل ، وربع (حي) عمران (ش ع ب هـ م و / ب ك ل م / ر ب ع ن / ذ ع م ر ن) المذكورين في CIH95 نجد في CIH102/4 (أ ب ك ل ن/ ح و ر و / هـ ج ر ن / ع م ر ن) البكيليين سكان (مستوطني) مدينة عمران. وكذلك القبيلة التي تسكن مع صرواح في المدينة – التي سبق

(١٥) Rhodokanakis, N.: ibidim, I,P.72ff., Altsabaishe Text I, p.103ff.

ذكرها – تبدو ، وهي تقيم فيها ولها أملاك وعمل تؤديه (حور وبكل) ، قارن كذلك نقشنا سطر ٧ حيث نقرأ : . . .ب ن/ ح و ر / هـ ج ر ن/ س ل ي ت) سكان مدينة س ل ي ت ، هم الذين كان عليهم أن يقدموا العمال للبلاط وكذلك للمزارع الخاصة بالعشيرة (أ هـ ' ، هـ و / و أ ر ض هـ م و) سطر ٨ من النقش . وهكذا نرى أن الحديث هو عن القبائل . أما في النقش RES3945/16 فإننا نجد أن الملك السبئي الظافر كرب إيل وتر يفرض على ملك نشان توطين (يحور) السبئيين في عاصمته ذاهد(ك ذ / ي ح و ر/ س ب أ / ب هـ ج ر ن/ ن ش ن) ، وطبعاً موقع هؤلاء هو موقع السادة على المغلوبين .

وفي سياق التوطين ترد عبارة (ب ك ل) التي تعني في الواقع : أرض مضمومة (ملحقة) ، أو إعطاء منطقة خاصة بالمدينة لمستثمرين يديروها ويستغلوها بإشراف القبيلة السيدة لمصلحة الدولة ، مرة لقبيلة تنضم ضمن الاتحاد السبئي ، ومرة للمغلوبين (. . ./ ل س ب أ / و ب ك ل / هـ ر و ح ت/ هـ ر و ح/ أ و د / هـ ج ر ن / ن ش ق م) CIH610/1-2 (. . . : هـ ر و ح / ن ش ق م / ع د / أ ل ن / أ و ث ن ن) CIH637/2-3 . وبهذه العملية تم الاختلاط (بين سكان المدن القدماء وبين المستوطنين الجدد) على حد تعبير روستوفزيف [١٦] .

ويعني فعل (ب ك ل) في صيغة الثلاثي المجرد : الحصول على أرض أو منطقة في المدينة كمستوطن ، واكتساب ملكية مع واجب العمل فيها ، ويشمل ذلك القيام بعمليات البنك CIH610 و CIH399 ونجد لفظة (ب ك ل) بمعنى اسم الجمع (اسم الجنس) (الخلضعين) منذ زمن قديم في المدينة التي احتلها السبئيون نشق (البيضاء في الجوف) ,CIH349 RES3945/4,17 . ولقد كان الآثاري والجغرافي الهمداني على علم بأن جماعة (ب ك ل)

---

(١٦) Rostovtzeff, M.: Geschichte der Alten Welt, I, Darmstadt (1970) p. 257.

يقيمون في نشق . وأن لاسم قبيلة بكيل علاقة بالجذر نفسه التي تتخذ من عمران مركزا لها، وهو مقر عشيرة مرثد وأنه ليمكننا أن نستخلص من تتبع لقب القبيلة التي يذكرها ما يلي: إن عائلة نشق تنتسب إلى بكيل ، وقد رحلت إلى عمران بعد ذلك (١٧) .وهذه هي الطريقة التي كانت تتبع في تفسير الظواهر التاريخية والآثارية القديمة . ولكن من المستبعد أن يكون قد قام الهمداني بالتأثيل ، مع أنه يحق للمرء أن يفعل ذلك . وأن لفظة بكل في اللغة العربية الشمالية مع الفعل إبْتَكَل ، وفعل تَبكّل بمعانيها (غنيمة ، غنم ، تعامل بالشيء وكأنه غنيمة) تناسب جداً معنى (فئة–طبقة–الخاضعين) ، التي يعبر عنها بلفظة (ب ك ل) التي لا نعرف حركاتها حتى نلفظها بشكل صحيح . وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن قبيلة بكيل القوية التي تخضع لعشيرة مرثد ، وهي التي خرج منها كذلك الملوك ، قد أخذت اسمها من أولئك (الخاضعين) الذين انبثقت عنهم .

وكما أشرنا ، فإنا المدينة التي تعيش فيها القبيلة لم تكن دائماً هي نفس المدينة التي تتمركز فيها القيادة القبلية السياسية والعسكرية. وتخبرنا الوثيقة القتبانية RES3507A/1-2 عن طريقة الاتصال بين مقر إقامة القبيلة ومركز قيادتها . فالقبيلة هنا تعيد بناء البرج الخاص بمدينة (هـ ر ب ت) (هي حنو الزرير في وادي حريب) وهو الذي يتقدم سور المدينة ، بينما كانت إقامة القبيلة في مدينة (س٣ و م) (يعرف الموقع اليوم باسم حصن القدم ويقع في عزلة السوا، ناحية المواسط بالحجرية) ، (ش ع ب ن / ذ هـ ر ب ت / ح و ر / هـ ج ر ن/ س٣ و م / ب ر أ و / و س و ث ر/ و ش ق ر / ذ ن / م ح ف د ن/ ي ح ض ر / ذ م/ ب ش هـ د / ج ن أ / هـ ج ر س م/ هـ ر ب ت) .

واللفظة المستعملة هنا في الوثيقة والتي ترجمناها بعبارة (مدينة) هي لفظة (هـ ج ر = هَجَر) . إنه يحق لنا ، وحتى تظهر في النقوش اليمنية القديمة كلمات أخرى أن

---

(١٧) الهمداني : الإكليل ، جـ ٨ ، ص ١٥٨ (تحقيق الأكوع)

نتصور نماذج للمدن مختلفة من مثل : بوليس Polis (مدينة) ، على الأقل فيما يتصل بالاتساع ، ذلك أننا لا نعرف إلا القليل عن قوانين هذه المدن اليمنية ، وكذلك كومي Kome (قرية) ، ينطبق عليها كلها اسم هجر . إذن : علينا أن نفكر في هذا الصدد بحواضر ملكية مثل : مأرب ، تمنع ، قرناو ، شبوة، ومراكز إدراية مثل : صرواح ، صنعاء ، نشق ، يثل ، عمران ، أكانط . . . إلخ . كانت كلها محصنة ، كما نفكر كذلك بمدن الأرياف ، وربما كانت (س٣وم) واحدة منها ، وبتجمعات زراعية وقرى ، حيث يهدد الأرض المزروعة رمل الصحراء الزاحف ، فضلا عن غزو القبائل المتبدية ، ولم تكن بالتأكيد بدون حماية . وما زلنا نبحث في الوثائق الكتابية عن اسم ذي دلالة على مدن الريف ، أو حيث يتمتع السكان بحق الملكية دون حرية سياسية Perioiko كما كان الحال في اسبرطة مثلا ، ولكن دون طائل .

وقد وردت في العهد القديم مثل هذه التسميات الدالة على المدن ، بحسب أحجامها في فلسطين[١٨] .وربما تستطيع أن تغني معلوماتنا عن ظروف الاستيطان في اليمن القديم ، فنتقدم خطوة إلى الأمام في هذا المجال . فإلى جانب المدن المحصنة المسماة (عريم) ترد في العهد القديم تسمية (بنات المدن) بنوت هاعير أيضا ، أي المدن الصغيرة التي تتبع ما يسمى (عريم) ، كما يتبين مثلا في : سفر العدد : أصحاح ٢١(٢٥و٣٢) ، وسفر القضاة: أصحاح ١١(٢٦) ، وسفر يشوع أصحاح ١٥(٤٥) . وتترجم التوراة السبعينية Septuaginta اليونانية لفظة (عريم) العبرية بعبارة بوليس Polis (مدينة) ونفس الشيء أيضا في الترجمة العربية . أما (بنات المدن) التي ترد مثلا في سفر يشوع : أصحاح ١٥(٤٥)، وسفر العدد : أصحاح ٢١(٣٢) فتترجمها بعبارة Kome (قرية) ، وفي سفر العدد : اصحاح ٢١(٢٦) بعبارة Sygkyroysai ayte أي (المجاورة) وفي سفر القضاة : أصحاح ١١(٢٦) بعبارة dria . وهذه اللفظة اليونانية الأخيرة التي تعني (حدود) إن هي

---

(١٨) Jirku, A.: Die Welt der Bibel , funf Jahrtausende in Palastina - Syrien (Grosse Kulturen der Fruhzeit) Stuttgart 5. Auf. (1965), S.130; Wright, G.: Biblische Archaologie, Gottingen (1958), S.145 .

إلا عبارة عن تسمية لــ (منطقة) ، حيث تعبر اللغة اليمنية القديمة عنــهاغالبا بــالمصطلح الإداري (ب ض ع) التي ترجمها أصحاب المعجم السبئي بــ (أرض تابعة لمدينة) . إذن إن (بنات المدن) كانت تقع على أطراف المدينة ، على حدود ، بجوار المدينة .

ويرد في سفر يشوع : أصحاح ١٥(٤٥) كذلك عبارة حصيري بالعبرية التي تترجمــها التوراة السبعينية بعبارة **Epayleis** اليونانية ،إنها تمثل المزارع في الـــريف ، وفي الترجمــة العربية (قراها وضياعها) وفي اللغة اليمنية القديمة يتطابق مع هذه العبارة لفظــة (ب ي ت، ب ت). وترجمت التوراة السبعينية العبارة العبرية الــواردة في ســفر صموئيــل الأول . الأصحاح ٢٧(٥) عار هسادي بعبارة **xn miaton psleon tonkot agron** (مدينــة ريفية) . إن تحديد تسميات المدن على هذه الشاكلة ــــ بواســـطة تركيــب المضــاف والمضاف إليه ــــ لاتعرفه اللغة اليمنية القديمة حسب علمي .

ولكن الكتابات اليمنية القديمة تعرف ذكر المدن ومناطقها ، أو بالأحرى تذكر منطقــة كذا وكذا (و هــ ب ع ل / ن ش ق م / و ب ض ع هــ/) **RES3945/14** ، (. . ./ و ك ل / ذ ق ن ي/ ب ب ض ع / . . . / و ك ل / أ هــ ج ر هـــ و / ... /و أ ع ر ر هــ و/و أ س ر ر هــ و/و م ر ع ي ت / أ هــ ج هــ و) **RES3946/8** . وهذا يعــني أنه ينبغي علينا أن نبحث في اليمن القديم أيضا عن مدن من الدرجة الثانية ، وعن قـــرى ومزارع محصنة ، علينا أن لا نعتبر كل مايرد في الكتابات تحت اســـم (هجــر) مباشــرة (مدينة) ، أو يتطابق مع بوليس في اليونانية ، والأمر بحاجة إلى التفكير الطويــل في ماهيــة الاستيطان ، كذلك عند المقارنة مع اللفظة الجعزية هجر ذات الدلالة القريبة ، ويجب على المرء من ناحية أخرى أن لايعتقد بأن اليمن القديم كانت تقوم فيها الأكواخ والقرى فقط ، فالخرائب قد عثر فيها على نقوش تتحدث عن مدن زاهرة .

ولكن يبدو أن ثروة اللغة اليمنية القديمة كانت تفرق بين تسميات مدن الجبال الـــتي

يصعب الوصول إليها ، والتي كانت تتكون من حصون شـــيوخ القبـــائل واتباعـــهم، ثم تطورت إلى حصون عسكرية أو إلى مركز للعبادة ، وبين المدن الواقعة في الوديان، حيـــث الطرقات والمجاري المائية . ولعل هذه كانت قد نشأت من مستوطنات محصنة ، ثم مـــالبثت بعد ذلك أن ضمت إليها سوقا وخانا لاستقبال القوافل التجارية ، ومعبدا . . . إلخ . أمـــا الألفاظ الدالة عليها فهي بصيغة التعريف: عرن (بتشديد الراء) او بالأحرى هجرن الـــتي كان الحديث عنها .

وأما ما يتعلق بالناحية الآثارية فإن الفائدة تنحصر بأخبار الرحالة التي تعد فقيرة بمعلوماتهـــا وضنينة بشكل عام . واستنادا لأوصاف هاليفي Halivy[١٩]. تبدو المدن التي اندثرت من على سطح الأرض كما لو كانت حصنا أو تحيط بالحصن وتقع على أطرافه ، وقد بقيـــت منه أجزاء غالبا ما تمثل السور وبقايا الأبنية وبعض الكتابـــات والألـــواح . وذلـــك لأن المقاييس التي يذكرها هاليفي لا يمكن أن تنطبق على غير الحصون ، ويستحيل أن تكـــون مناسبة لوصف مدن في أهمية قرناو (معين) ، نشق (البيضاء) . . .إلخ . وهكذا يصف معين وكأنها خربة جاثمة على هضبة حصينة ، طولها ٢٨٠ مترا ، وعرضها ٢٤٠ مترا ، ويثـــل (براقش) بمساحة أصغر ، ولكنهما تحتويان كلاهما على ألواح عليها كتابة ناقصة داخـــل المدينة وخارجها . ومدينة هرم تمتد على هضبة بطول ٢٥٠ مترا وعرض ١٨٠ مـــترا[٢٠] .ولكن سرعان ما تتضح الصورة عندما يقع المرء على ملاحظاته عن صرواح : أنها خربـــة واسعة ذات حصن يقوم على هضبة مقابل الخرائب . أو بعبارة أوضح عن حصن غـــردان حيث يقول : قصر . . . جاثم على هضبة تحيط بها خرائب مدينة قديمة[٢١] .وعند البيضاء (نشق) يجد نفسه مضطرا للملاحظة أن الخربة على عكس ما رآه في آماكن أخرى ، لا تقـــع

---

(١٩) Halevy, J.: Repport sur un Mission archeologique dans le Yemen, JA, 6 Serie XIX (1872) p.66ff.

(٢٠) Garbini, G.: Haram: Una citta minea alleata di Saba, Semitiac 23 (1973) p.128f.

(٢١) Ebenda p.67f.72,95.

على هضبة وإنما على كومة من الرمال المجتمعة ، والقلعة ذات قطر يتروواح طولــــه بــين ٣٠٠ ـــــ ٣١٠ متر [٢٢] .إنها إذن ليست حصونا على قمم الجبال، مثل ذو مرمر وريام ، بل مدن أنشئت في السهل وفي الوادي ، واختير موقعها بحيث يكون مناسبا لهــا لتقــوم على هضبة حصينة ، وكانت محاطة بسور خارجي . ومع جلازر **Glaser** تصبح معلوماتنــا أكثر دقة وهي تتعلق بالعاصمة السبئية مأرب [٢٣] ، كما نستطيع كذلك أن نســتخلص معلومات أدق من وصف بيوري **Bury** للعاصمة القتبانية تمنع [٢٤] ومن صور لأســوارها وأخرى لبوابتها مما له علاقة بالكتابات التي عثر عليها في الأمكنة ذاتها . وكانت المدينتــان تقعان على واد كبير ، وهما وادي ذنة ، ووادي بيحان .

وكما يوضح جلازر ،فإن مأرب كانت تحتل مساحة قدرها بنحو كيلو متر مربع، وقــد نوه إلى وجود كومة كبيرة في الجزء الشرقي من المدينة القديمة حيث تقوم اليوم قرية بهــذا الاسم . وإنني اتوقع متفقا في ذلك مع جلازر أن تكون القلعة التي هي مركــز العاصمــة اللاحقة ومنافسة صرواح في هذا الموقع .

وفي تمنع نجد بقايا السور الجرانيتية قرب الطرف الأيسر لوادي بيحان الذي يتجه مســاره من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي ، وهي باتجاه شمال غربي تقريبا . وعلى بعد حــوالي ٣٠٠ مترا باتجاه الوادي يقوم بيت حجري مهجور مباشرة إلى جانب طرف الــوادي ذي الانحدار الحاد . ويمثل هذا البيت بارتفاعه البالغ نحو ٢٠ مترا عن مستوى الوادي أعلــى نقطة في مرتفع كحلان ، الذي يبدأ من هذه النقطة بــالانحدار في جميــع الاتجاهــات إلى مستوى السهل المحيط به . نصفه الشرقي مزروع ببقايا الخرائــب والبقايــا الفخاريــة ، النصف الغربي تغطيه

---

(٢٢) Ibidim p.80.

(٢٣) Muller, D.H. und Rhodokanakis, N.: Edurad. Glasser Reise nach Marirb, Wien (1913), p.48ff., p.73.

(٢٤) Bury, G.W.: The Land of UZ , London (1911) p.55.

كثبان رملية ، تبرز منها في موقع شمال السور وعلى بعد ٢٠٠ متر مسلة سوق شمر المشهورة . ويتفرع من الوادي طريق يقود إلى المدينة ، وكان هذا المكان بالذات مغطى ببوابة ذات أبراج .

وهكذا نرى إذن استنادا إلى ما ساقه الدراسون المحدثون من أوصاف [٢٥] أن مأرب وتمنع مدينتان ينطبق عليهما اصطلاح (هجرن) الذي تحملانه في الكتابات النقشية .

ونستطيع أن نتصور مدن الحصون (عرن) من خلال الكتابات النقشية ومن خلال المصادر التاريخية الأخرى . فالهمداني يقول عن شبام سخيم (شبام الغراس) (وفوق شبام جبل ذي مرمر وهو جبلها ومعقلها) [٢٦]. وكذلك كانت ريام ، التي كانت مركزا دينيا لهذه المنطقة على جبل اتوه (في أرحب) حيث قدمت الطاعة للإله تألب، مستوطنة نشأت في الأصل من حصن هو في الواقع حصن – معبد . وكما جاء في تعريف جلازر للكتابات التي عثر عليها في مذكراته ،فإنه رأى في ريام بنائين كبيرين ، أحدهما قصر يعتقد أنه معبد تألب، أما الآخر فيصفه مستخدما عبارة قبة. وقد عثر في ذلك (القصر) على الألواح المنصوبة التي عليها كتابات والتي يعود تاريخها إلى عصر الهمدانيين الذهبي ، بصفتهم من سلالة الملوك

---

(٢٥) انظر بالنسبة لمأرب :

Wissmann, H. von: Die Muer der Sabaerhauptstdt Marib, Leiden (1976) p.3.
- Geographische Grundlagen und Fruhzeit der Geschite Sudarabien, Saeculum 4(1953) , p..87f.f.
Sprenger , A.: Die alte Geographie Arabiens (Neudruck) Amsterdam (1963), p. 331.

وبالنسبة لتمنع :

Deo , B.: Sudarabien , Bergisch Gladbach (1970), p. 220.; Grohmann, A.: Arabien, Munchen (1963), p. 132ff.; Wissmann , H. von :Al- Barira in Girdan im Vergleich mit anderen stadtfestungen Altsudarabiens , Le Museon 75 (1962) , p.193, Anm(b). ; Albright , W.F.: The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the first Campain of Excavation in Qataban , BASOR119 (1950), p. 5f. f. Muller , W. W. : Timna und Qataban , Jemen Report 9 (1978), p. 14f. f.

(٢٦) الهمداني ، الإكليل ، جـ٨ ، تحقيق الاكوع ، ص ١٥٠ – ١٥١

السبنيين ، وتنبيءعن نجاحاتهم الخارجية . ويعود إلى زمن أقدم بكثير نقشان على الصخر بالقرب من ريام GL1209 GL1210 نقشتا على صخرة . وهذان النصان شاهدان فعليان على وجود قوة دينية ذات سيطرة واسعة كان مقرها في الحصن وتتحكم في قبيلة تدعى في النقوش (سمعي) . وإذا كان النص الموسوم GL1209 = CIH338 لم يذكر اسم ريام ، ولكنه يتحدث في مكانين من النص عن الحصن عرن:(سطر٧، ١٢) ، فإنه استنادا إلى المضمون وإلى مكان العثور عل الوثيقة المرقومة لابد أن يكون المقصود بذلك ريام وحدها. وكذلك كان لإله السبئيين الرئيسي (أوم = أوام) معبد في حصن (أ ل و)كما يفهم من النقوش (أ ل م ق هـ/ ب ع ل/أ و م/ذ ع ر ن/أ ل و) CIH74/3-4 و (ع د ي/ ذ ع ر ن/ ذ أ ل و) CIH80/9 وهو الحصن الذي كان قائما عل الجبل الواقع جنوب غرب شبام أقيان ، حيث تقع اليوم مدينة كوكبان .

وأما بصدد ورود التسميتين (هجرن) و (عرن) فإن عرن ترد مرات أقل في الكتابات اليمنية القديمة إذا ما قورنت بالمرات التي ترد فيها (هجرن) . ولكننا لا نستطيع بناء على ذلك أن نستخلص النتائج بسهولة . فقد تكون المصادفة سبب قلة الشواهد الكتابية المتبقية. ومع ذلك فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن تسمية (هجرن) قد شملت الحصون أيضا في حال توسعها وتطورها إلى مستوطنات بحصنها بحيث طغت على (عرن) وأبعدتها عن الاستعمال . وهذا أمر يستدعي بحث التطور الذي لحق بالحصون فأدى إلى هذه النتيجة ، وهذه مسألة تخرج عن نطاق ما نحن بصدده هنا .

ويتحدث الهمداني[٢٧] عن المحافد والقصور اليمنية ، ويجعل بينها المدن المسماة (هجرن) ومن بينها : صرواح ، شبام ، يثل ، قرناو ، وبين هذه أيضا يذكر : ناعط، قصر سلحين ، ريام . وإن عبارة محفد اليمنية تعني كما يرى نشوان (قصور الملوك) التي يقيم فيها الحرس

(٢٧) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق الأكوع ، ص ٣٦٥ .

الملكي والخدم[٢٨] . ولكن في النقوش اليمنية التي تعود إلى زمن أقدم بكثير تعني عبارة محفد (برج) وفي الجعزية أيضا (بيت ، قصر) . وبالنسبة للجغرافي والآثاري الهمداني كانت القلاع والبروج والقصور أهم مافي المدن القديمة وأكثر ما يسترعي انتباهه ، لذا أطلق الكلمتين على كل ذلك ، على الرغم من أنه كان على علم بأن عبارة هجر الحميرية – على حد تعبيره – تعني مدينة[٢٩] .

إذن لقد تصرف على عكس ما ظننت فيما يتصل باستخدام عبارة (هجرن) في النقوش. وبالفعل تصنف النقوش الموسومة بـ CIH290/ CIH292/ CIH295 ناعط بأنها (هجر) (هـ ج ر ن/ ن ع ط م) وليس بأنها (عرن) ، بينما يتحدث الهمداني في البداية عن (مصنعة بيضاء مدورة منقطعة في رأس جبل تنين ، وهو أحد جبال البون) ثم يذكر بعده (فمن قصور ناعط قصر المملكة الكبير الذي يسمى يعرق ومنها قصر ذي لعوة المكعب . . . . وبها سوى هذين القصرين ما يزيد على عشرين قصرا سوى أماكن الحاشية)[٣٠] محاطة كلها بسور ، وهذا يعني أنه يتحدث عن مدينة جبلية (عران) نشأت بداية بالحصن ثم تطورت إلى مدينة وبشكل واضح. ولم يتناه إلى علمي شيء عن إمكان استخدام التسميتين : مرة عرن ، ومرة هجرن في النقوش اليمنية القديمة ، لوصف مكان واحد ، مدينة أو مستوطنة .

وحتى نصل أخيرا إلى تأثيل etymology (عرن) و (هجرن) نذكر ركائز سد مأرب كما جاء في النقشين CIH540/21,27, CIH541/69,102 حيث يذكر (عرن) صخرة الأساس أو الأساس الصخري (و ك ع د ب هـ و/ ب ن/ ع ر ن/ ع د ي/ ش ق ر م = عندما

---

(٢٨) نشوان بن سعيد الحميري منتخبات في أخبار اليمن من كتاب . شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، وقد اعتنى بنسخها وتصحيحها عظيم الدين أحمد ، ليدن (١٩١٦) ص ٢٧ .

(٢٩) انظر هنا الهجر = المدينة في اليمن القديم ، وقارن الهمداني : الصفة ، ص١٧٠

(٣٠) الهمداني الإكليل ، جـ٨ ، ص ٨٢– ٨٣

أصلحه من – صخرة الأساس حتى قمته) الذي يقوم عليها السد ، ونجد في الوثيقة السبئية القديمة RES3945 (أعرار) إلى جانب (أسرار) (بصيغة الجمع) كثيرا ، عندما تعدد الأجزاء واحدة بعد الأخرى، أنواع الأرض في البلاد التي تم الاستيلاء عليها : الجبال ، المراعي ، والوديان . لكن عندما يكون الحديث في وثيقة سبئية قديمة أخرى CIH418/1,2 عن الطرقات التي تقود من (بوابة عرن عملان إلى بوابة (مدينة) مأرب) (و ع ذ ب ت/ ك ل / م ن ق ل ت ن / و ك ل / م س ب أ / س ب أ / ل ن / خ ل ف / ع ر ن / ع م ل ن م /ع د / خ ل ف / م ر ي ب)[٣١] ، فهنا لا بد أن يكون المقصود بذلك الحصن ، كما هو الحال في الوثيقة المذكورة أعلاه ذات العلاقة بريام ، وبخاصة ما يتعلق بـ (ذو مرمر) . ومازالت عبارة (عر) مستخدمة إلى اليوم . وإنني لا أشك في أن (عرن) تأتي بمعنى (جبل) كما تأتي بمعنى (حصن) حتى فيما يتصل بالحركة الأساسية التي كانت واحدة ، وأن معنى (الجبل) كان هو الأصل . وأن ورود العبارة في الألواح المنقوشة ذات العلاقة بخواب السد ، أي عبارة (صخرة الأساس) . يشير إلى حصن صخري يصعب الوصول إليه ، وتستخدم عبارة صخرة (صور) في العبرية بلاغيا بمعنى (ملجأ) .

أما ما يتعلق بعبارة هجر التي ترد كثيرا في الكتابات اليمنية القديمة وفي الجعزية (الحبشية القديمة) فإنها تعني في الكتابات الجعزية دولة – بلد ، كما تعني (مدينة) وثمة تمييز بين (مدن من قصب) و (مدن من حجر) ، إذ تحدد مادة البناء التسمية . وتحل كلمة (هجر) الجعزية في العهد القديم والعهد الجديد المترجمين من اليونانية محل (عيمق) العبرية (وادي – وادي ضيق) : سفر أرميا : الأصحاح ٨ (٣٠). وترد (عيمق) العبرانية في سفر الملوك الأول : الأصحاح ٢١(٢٨) بمعنى مضاد للجبال ، كما في السبئية القديمة (أسرار) مقابل (أعرار) ، سفر أشعيا : الأصحاح ٤٢(١١). ومن خلال المقارنة مع الأكادية (أجر) التي تعني (الحقل

---

(٣١) Hofner , M.: Inschriften aus Sirwah Hawlan (II. teil) , Sammlung E. Glaser XII, Wien (1976), p.8,.

الذي يخص المدينة ، الحقل المحاط بالقنوات) [٣٢] نصل إلى ما لقيته في الجعزية من تطـــور دلالي ، حيث أصبحت تعني (الحقل الزراعي والأرض) بكل معنى الكلمة وبالتدريج كل ما يشتمل عليه الحقل وماله من علاقة به ويحيط به : مزرعة ، أو قرية ، أو مدينـــة ، وعلـــى الأخص المدينة الواقعة في السهل ذاته ، وفي الوادي . ولكن اليمنية القديمة – في تقديـــري – تعرف في مقابل الجعزية معنى محدداً مع التأكيد على المستوطنات المحصنة . وتستخدم من أجل الدلالة على الأراضي المزروعة ، مسميات دقيقـــة في تدرجـــها : س ي ر = أرض زراعية، (ملحقة بمدينة) ، ذ هـــ ب = أرض غرينية ، ع ب ر = أرض مدرجة للزراعـة ، ح ق ل = حقل ، أرض = أرض (فلاحة) ، م ش ي م ت = أرض زراعية ، م ح م ي ت = أرض تسقى من مسناة وهي التي تعرف اليوم في لحج باسم سانية وتجمع على ســـواني ، ع ش ق = بناء مصطبات زراعية ، م هـــ و ك ب = مزرعة مغـــرس . . . إلخ . ومنـــها لفظتان سنحللهما فيما يلي .

اللغة العربية الشمالية تعرف لفظة (هجر) ضمن الألفاظ الجغرافية المتخصصة ، وذلـــك في الدلالات المرتبطة بأسماء الأعلام ، وكذلك في أسماء العلـــم المركبـــة والـــتي تعـــرف بالإضافة[٣٣] .وقد اشتق منها فعل بمعنى (هاجر) والهجرة هجرة البدو من البادية إلى المدن . والمهاجرة مثل المقاتلة ، هم الذين هاجروا إلى المعسكرات الكبيرة التي منها كانت تنطلـــق الحرب . لأن الهجرة تعني . . . الهجرة (بالمرأة والولد) إلى مركز سياسي عسكري لتلقـــي المهمات . ولم يكن حق المواطنة يعطى للمسلم كاملاً إلا في العواصم ومدن الجنـــد . أمـــا البدو الذين بقوا سلبيين في وطنهم مع قطيعهم فإنهم لم يعتبروا في عداد المواطنـــين الذيـــن يتمتعون بالحقوق الكاملة [٣٤] .وكانت المدينة هي دار الهجرة ودار الإسلام الأساســـية ،

---

(٣٢) انظر المعجم الأكادي :

Von Sodin , W.: Akkadisches Handworterbuch , Wiesbadin (1959) .

(٣٣) انظر الهمداني · صفة جزيرة العرب ، ص١٧٠

(٣٤) فقد ورد حديث عن النبي _صلى الله عليه وسلم – في أمر أعراب المسلمين أنه ليس لهم في الفئ والغنيمـــة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فمن لم يجاهد ولم يك فقيراً أو شغل بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شـــيء لـــه في القسمة والفيء ، إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل الحاجة ،انظر كتاب الخراج ليحي بن آدم: ص٥٩،٥) .

وإلى هناك كان توجه المسلمين العاملين في البداية . ثم ظهرت بعد ذلك العواصم المحلية . واختيرت في سورية مدن قديمة كانت قائمة من قبل ، وفي الأماكن الأخرى اقيمت مستوطنات عسكرية ، مثل الفسطاط في مصر ، والقيروان في شمال إفريقيا ، والبصرة والكوفة [٣٥] . من هنا يتبين لنا أن اللفظة التي تستخدمها العربية الشمالية بمعنى الهجرة إلى المدن والتنظيمات المدنية للمهاجرين مشتقة من (هجر) المدينة . والآن في حال استخدام كلمة هجر في الشمال اسماً ذا دلالة ، فإن العصر الإسلامي عرف استخدامها لألفاظ أخرى حلت محلها مثل : المدينة ، بلد ، قصبة . إذن لا يمكن اعتبار العبارة (مهاجرة، هجرة) إلا عبارة استخدمت قبل الإسلام حتى لو كانت غير متداولة في الشمال وليست أصيلة هناك ، فإنها قدمت من جنوب الجزيرة الأقدم حضارة .

إلى جانب ما يشار إليه في النص من أشياء تجمع في كلمة أرض يرد في عبارات الدعاء ، التي تأتي في نهاية النقش عادة (كرمات العنب في (ع ش ق ت) ، المساحات المزروعة ، وهذا يعني إذن (كروم العنب) . ونحن نعرف لهذه العبارة ما يرادفها وهو (م هـ و ك ب) التي تحمل معني (نباتات الأفاويه – ط ي ب ، ص ر ف) ويتصل بهما صيغ فعلية تدل على معنى (عمل) في الحقل أو البناء سواء بسواء . وإلى جانب ذلك اكتسبت معنى عقلانياً بحيث أصبحت تعني (اهتمام الإله بالإنسان) وغالباً ما نجد في العربية الفصحى معاني ثانوية وعامة يصعب من خلالها استخلاص التطور الدلالي على أية صورة من الصور . أما الآرامية فإنها تؤكد معنى (صعوبة أمر ما والشقاء الذي يعانيه المرء) للفظة (ع ش ق) وهو ماتصل به العبرية إلى معنى (الاقتتال ، الاختصام)، الذي يعبر عن التحمس الشديد من أجل شيء ما والذي لا بد أن ينتهي حسب الطبيعة البشرية إلى نهاية تظهر فيه الانفعالات المتبادلة .

---

(٣٥) فلهوزن ، بوليوس : تاريخ الدولة العربية ، من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، القاهرة (١٩٦٨) ص ٢٥ ، وقارن دراستنا : الهجر = المدينة في اليمن القديم.

ولو أراد المرء أن يصدر حكمه بناء على مانعرفه من أنماط العمل وأشكال النشاط الاقتصادي في الشرق القديم وبلاد اليمن جزء منه فإنه لن يخطئ عموماً إذا قبل بالتوضيح الذي ينص على أن معنى اللفظين (عشق ، وكب) يخص العمل الذي يقوم به السادة . وإننا لنرى لفظة (مبنى) التي تعني (البناء ، المبني) مرتبطة دائماً بعبارة (عشق) التي تسبقها في الوثائق الخاصة بالابنية : (. . ./ ت ق د م / و ح ر ج / و س هـ ل ك / ك ل / ع ش ق / و م ب ن ي/ م ح ف د ن) RES3552/2-3 وفي الإنتاج الزراعي : (. . . / و ع ش ق/ و س ق ح م / و س ع هـ د م/ ظ ب ر ت س) RES3854/5,7 . وقد احتفظ المعجميون القدماء بذكر المعنى (القريب) إذ يقولون :(عشق) المصلحون غروس الرياحين ... ومفردها (عشيق أو عشوق) . وفي مجال آخر أعلى شأناً تستخدم اللفظة في الوثيقة RES3688-9/12-13 حيث ترد (في صيغة التعدية) (و ت ق د م/ و ش ع س ق/ أ ش ط ر / ذ ن / ب ر ت ن / ن ب ط ع م) بمعنى العمل في المحفوظات الرسمية ، الاهتمام بإصدار المراسيم وما يشابهها .

وكذلك سارت لفظة (وكب: مهوكب) بصورة متوازية في تطور معناها كما ترد في الوثيقة CIH308/5 (و ك ل/ م هـ و ك ب هـ م و / و ك ل / م س ق ي هـ م و) حيث تعني بالتأكيد (مزرعة ، مغرس) وهنا لابد من ذكر ما سمعه لندبرج **Landberg** في حضرموت (ياكب) – وهي صيغة الفعل المضارع – حيث يقول : توضع الغرسة في الأرض بعد إعداد الحفر بالوكبة[٣٦] . وربما نستخلص من هذا العمل البداني المعنى المقصود لعملية العناية الفائقة للمزارع – الخاصة بالبخور – ، وفي مجال آخر يختلف تماماً ترد اللفظة في الوثيقة CIH609/4 التي وصفنا خطوطها العامة ، حيث ترد صيغة (يهوكبن) التي تشير إلى مسؤولية شيخ العشيرة في تنفيذ العقود من قبل المستوطنين وذلك بناء على تعميده للوثيقة بتوقيعه (. . . / و أ ل / ب ن ك ل / أ س ط ر / و ش أ م ت / . . . ب هـ م و / ي هـ

---

(٣٦) Londberg , Le Comte de Etude sur les dialectes de l' Arabie Meridianale: vol.I: Hadramout (1901) p. 298.

و ك ب ن/ ك ت ع ل م / ي ت ع ل م ن / و س ت س أ ل ن) . وقريب من هـذا ، من دون أن يكون هناك تطابق ، ترد عبـارة (س ع ش ق) في الوثيقـة RES3688/12 (. . . / و ت ق د م/ و س ع ش ق / أ س ط ر / ذ ن / ب ر ث ن / ن ب ط ع م / ب ن / أ ل س م ع) ، فهنا يدور العمل في مجال التوثيق الحكومي الصـرف ، ذلـك أن مهمة الموقع كانت تنحصر في توثيق العقود فقط ، دون أية التزامات أخرى أثناء التنفيـذ . وهكذا يجد المرء بسهولة الصلة بمعنى (الوصول إلى الشيء ببذل الجهود المضنية من قبـل السيد أو خدم الملك) كما في الوثيقة CIH314/11 (.../ و و ك ب و / ب هـ ي ت/ ص ح ف ت ن)، وكذلك بمعنى (عناية الرب بالإنسان) CIH398/11 وقد احتفظـت اللغة العربية الشمالية إلى جانب المعنى المذكور هنا بالدلالة العامة (اهتم بحماس شـديد) ، وكذلك اللغة الجعزية (بئي وكيبو توما) مع النفي . . .

كانت الاعمال كلها من شأن غير الأحرار والتابعين ، كما مر بنا ، ولكن بتطور نظـام المجتمع نشأت الحاجات الإدراية ذات الجوانب المختلفة ، وما يتبعها من مؤسسات محددة ، والتي كانت تذكر بعد الأعمال البدائية ذات المستوى المتدني . وهكذا أخـذت الكلمـة تتدرج في الارتفاع درجة بعد أخرى في فم المتكلم من حيث القيمة وتتسـلق إلى مرتبـة العمل الذي يتمتع باحترام أكثر كلما كان مركز الموظف عالياً . وقد احتفظـت لفظـة (ناجش) العبرية ، وبالأحرى صيغة اسم الفاعل منها بالمعنى البدوي (اصطـاد الحيوانـات البرية ، طارد الحيوانات ودفعها أمامه) سفر أيوب: الأصحاح ٣٩(٧) . ولكـن اللفظـة ذاتها تعبر في مكان آخر عن جابي الجزية والضرائب ، وذلك في شكل الحيوانـات الـتي يسوقها بعيداً كضريبة من المواشي ، ثم عمم ذلك فيما بعد على الذهب والفضة ، كمـا في سفر الملوك الثاني : الأصحاح ٣٣ (٣٥) . وقد دعي المسؤول عن إعمال السخرة باللفظة نفسها ، سفر الخروج : الأصحاح ٣(٧)والأصحاح ٥(١٠) وكذلك طريقته في معاملـة المكلفين بالسخرة، سفر أشعياء : الاصحاح ٥٨(٣) . وهكذا يتحول في النهاية إلى مستبد ، وكذلك إلى حاكم للشعب ومسيطر عليه . سفر أشعياء: الأصحـاح٣(١٢) ، فملـك

الحبشة (نجش، نجاشي) هو ابن عم سايس الحيوانات من حيث المعنى، وهنا يظهر مدى ارتفاع المنزلة الاجتماعية الكبيرة .

وهكذا يمكن القول : إن الظروف والتغيرات الاجتماعية الثقافية هي التي تؤثر في التطور الدلالي ، حيث تتجذر شجرة النسب في الأرض الزراعية وتقود من العمل في الأرض ووجوب العمل فيها إلى الالتزام بالعمل ، الشعور بالواجب ، العلاقة في العمل ، الادارة ، الوظيفة.

ترى هل تحمل لفظة (ع ش ق) في اللغة اليمنية القديمة مثل (و ك ب) أيضاً معنى قيام الفلاح بعملية خاصة، كعملية البذّارة ، وتشمل كل المعاني المعروفة لدينا؟ على كل حال ، لا أعتقد أن المرء يستطيع أن يعيد هذا المعنى أو سواه إلى معنى (الحب الجارف وبكل الجوارح) في اللغة العربية الشمالية التي احتفظت به في لفظة (عشق) دون غيره .

المختصرات

استخدمت المختصرات التالية لبعض المصادر والدوريات التي ذكرت في البحث :-

BASOR = Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

CB = Cahiers de Byrsa.

CIH = Corpus Inscriptionum Semiticarum.

GL = مجموعة نقوش جلازر

IR = مجموعة نقوش مطهر الارياني

Ja = مجموعة نقوش جام

JA = Journal Asiatique

RAA = Revne d'Assyriologie et d'Archeologie Orientale.

RES = Repertoire d'Epigraphie Semitique

Ry = مجموعة نقوش ج. ريكمانز

قصة ملكة سبأ
بين
الأسطورة والتاريخ

تنص المادة الثالثة من دستور أثيوبيا الذي صدر في سنة ١٩٣١ على ما يأتي:
"يقرر القانون أن الشرف الامبراطوري سيظل بصفة دائمة متصلاً بأسرة هيلاسلاسي الأول سليل الملك سهلا سلاسي الذي يتسلسل نسبه بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن الملك سليمان ملك بيت المقدس وملكة أثيوبيا المعروفة باسم ملكة سبأ"

ولم تكن هذه المادة إلا ترديداً لما يعتقده الشعب ـــ دون أن يخالجه أي شك في هذا الاعتقاد ـــ بأن ملوكه يتسلسلون من منليك الأول ابن ملكة سبأ .

وفي سنة ١٩٥٥ استبدل بالدستور القديم دستور آخر نصت المادة الثانية منه على أن "يظل العرش بصفة دائمة محصورا في نسل هيلاسلاسي الأول المتسلسل من الملك سهلاسلاسي االذي هو بدون توقف أو انقطاع من نسل أسرة منليك الأول ابن ملكة أثيوبيا ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس" .

(*) دراسة أعدت لكتاب . (من ملكة سبا الى قيام الدولة اليمنية الحديثة ، ٣٠٠٠ عام من الحضارة في جنوب الجزيرة) الذي سيصدر باللغة العربية

Three Thousand Years of Art and Civilization, ed. W. Daum, Handbook of Yemeni exhibition, Munich (1987).

ويلاحظ من نص المادتين أن المحافظة على العرش في أسرة الامبراطور هيلاسلاسي الأول كانت لكونه سليلا مباشرا للملك منليك الأول ابن ملكة سبأ الذي انجبته من سليمان ملك بيت المقدس حين زارته في مقر ملكه .

ويروي الأثيوبيون لهذه الزيارة قصة تعتبرها الحكومة قصة رسمية ، ضمنتها مع غيرها من قصص الملوك وسيرهم كتابا هو " كبرانجست " أي عظمة الملوك ، وتقول هذه القصة :

" كانت ماكيدا ملكة أثيوبيا تحكم الحبشة واليمن فترامى لهذه الملكة العظيمة صيت بعيد في أنحاء العالم ، وكانت هذه الملكة واسعة الثروة والغنى تملك الكثير من الذهب والفضة ، والعدد الهائل من الجمال والعبيد الذين يعملون بإرشادها ، وتحت أمرها في نقل التجارة إلى الهند وإيران . وكان هناك تاجر كبير يدعى تامارين أو تمر الدين يملك خمسمائة وعشرين جملا ، وثلاثمائة وسبعين سفينة ، وعندما سمع به سليمان الذي كان يحكم بيت المقدس أرسل إليه يدعوه ليحمل له شيئاً من تجارة الحبشة والجزيرة العربية ومن الذهب الأحمر والخشب الأحمر الذي يعز على السوس ،فلبى التاجر الدعوة ، وذهب إلى هناك فاشترى منه الملك كل ماعرضه عليه من ثمين العروض ، وأجزل له العطاء. وكان من الطبيعي أن تمكث تامارين في بيت المقدس بضعة أسابيع فشاهد فيها عظمة سليمان وسمع حكمته واعجب به ، كما أعجب بطريقة حكمه لشعبه . وحب الشعب له . حتى إذا عاد التاجر إلى ملكته ماكيدا ، في الجنوب أخذ يقص عليها بعض ما شاهده وأعجب به من حكمة سليمان الذي كانت كلماته كالماء للعطشان ، والخبز للجائع ، والدواء للمريض والكساء للعاري. كما قص عليها أمر هيكله الذي بناه في بيت المقدس . وكيف كان يستخدم في بنائه سبعمائة نجار وثمانمائة بنّاء حتى جعله تحفة تروق للعين ولاتسأم التطلع إليه .

أخذت الملكة تستمع إليه في سأم أولاً ، ثم لم يلبث أن مالت إلى سماع حديثه وأنصتت إليه . وتطور الحال إلى أن صارت تسأله عن هذا الملك العظيم وتلح في السؤال ، وقد ازداد اعجابها به وزرع الله في قلبها الرغبة في أن تذهب إلى بيت المقدس لترى هذا الملك

العظيم وتتزود من حكمته ، ولم يكن يثنيها عن عزمها إلا ما تعرفه عن طول الرحلة ومشاقها وما يتعرض له المسافرون من أخطار الطريق ، على أنها لم تلبث أن أعلنت رغبتها إلى شعبها فوافقها على ماتريد ، فأمرت ثمر الدين أن يقوم بأمر الرحلة . فأعد سبعمائة وسبعة وتسعين جملاً وعدداً لا يحصى من الحمير والبغال ، وبدأت الملكة ذات الجاه رحلتها الخطيرة محاطة بكل أسباب العظمة والفخامة .

ولما وصلت إلى هناك استقبلها الملك العظيم ، وأحاطها بكل أسباب الترحيب ، وأفرد لها جناحاً خاصاً في قصره ، وامر خدمه وطهاته أن يقوموا على خدمتها وأن يجهزوا لها ولأفراد قافلتها كل ما يحتاجون إليه من أسباب الراحة ، حتى لايشعروا بألم الاغتراب وخصص لها فرقة مكونة من خمس وعشرين مغنية ، وخمس عشرين راقصة ، لتقدم لها من ألوان التسلية ما يروح عن نفسها . وزارها سليمان كثيراً في قصرها . وأكثر من هذه الزيارة ، لما كان يحسه من متعه الجلوس إليها. والاستماع إلى حديثها . كما جلست هي إليه واستمعت إلى حديثه ، فشكرت الرب الذي هداها إلى أن تقوم بهذه الزيارة لتسمع حديثه ، وتمتلئ من حكمته ، ولمست كيف تشعّب علمه ، وشمل جميع أنواع الفنون ، واكتشفت أنه كان يعرف لغة الحيوان والطيور ، وأنه كان يملك قوى يسيطر بها على الأرواح والشياطين التي كانت تُأمر بأمره . وكل ذلك أعطاه الله إياه ،لأنه لم يكن يبغي الشهرة أو الانتصار في الحرب أو الثروة بل الحكمة وحدها .

استمعت ماكيدا إلى سليمان العظيم وامتلأت من حكمه ، ونزلت كلماته على قلبها ، وأخيراً وجدت في نفسها الجرأة لأن تكلمه عن ديانتها ، إذ أنها كانت وشعبها تعبد الشمس ، وأنها سمعت عن الله الواحد ، وعن تابوت العهد ، وعن لوح موسى النبي . فشرح لها سليمان قوة الله تعالى خالق كل شئ مبدع كل شيء فسرعان ما اعترفت بقوة الله الأحد ، خالق السماء والأرض.

وأمضت ماكيدا في هذه الضيافة ستة أشهر زارت في أثنائها سليمان كثيرا في قصره . وزارها سليمان في جناحها . وأخيرا أرسلت إلى الملك من ينبئه برغبتها في العودة إلى مملكتها ولو أنها تود أن تمكث مدة أطول . وجالت في خاطر سليمان فكرة الزواج بهذه الملكة الجميلة الممتلئة بالحكمة ،فأرسل إليها يقول أنها انتوت العودة دون أن ترى طريقة حياته في قصره . ودعاها لأن تقيم في هذا القصر لتتم حكمتها ، فلبت ماكيدا الدعوة وانتقلت إلى القصرحيث هيأ لها مكانا تستطيع أن ترقب منه كل ما يجري في القصر دون أن تزعج أحدا أو يزعجها أحد .

وكانت غرفتها مزينة بأبهج وأجمل وأغلى ما عرفه العالم من الجواهر الكريمة والطنافس الفاخرة والأستار الثمينة والذهب الذي كان يجلبه من أوفير ، كما كان الهواء معطرا بالعطور والبخور وزيت المر . وكان الطعام يحمل إليها محتويا كل ما في الدنيا من أطايب الطعام والشراب . مما جعلها تقبل عليه بنهم كبير ، وزاد في إقبالها عليه ماكانت تحويه المائدة من النبيذ الفاخر والأفاويه التي تفتح الشهوة وتزيد العطش الذي لا يطفئه إلا الإقبال مرة أخرى على الطعام والشراب .

وبعد ذلك جمع سليمان الطهاة في قصره ، وأمرهم أن يجهزوا طعاما لكل من بالقصر . وأعطاهم من مخازنه كل ما هو شهي من الطعام والتوابل النفاذة الرائحة ، وامتثل الطهاة لأمره . وعندما أكلت الملكة من هذه التوابل أكثرت من شرب الماء البارد ليلا نهارا دون أن تروى ويطفأ ظمأها ، وفي الليلة الثالثة أمر سليمان سرا جميع من بالقصر وخارجه ألا يقدموا لها من الماء شيئا ، وإلا كانوا عرضة للموت ، وإذا سألتهم عن مكانه فليجيبوها أنه بجوار سرير الملك .

وفي الليل شعرت الملكة بالحرارة في جوفها . بسبب ماأكلته من توابل كثيرة وأمرت خادمتها بصوت عال أن تأتيها بالماء . ولكنها لم تستطيع أن تقدمه لها . مما جعلها تدخل

القصر وتسأل كل إنسان عن الماء وكان كل واحد يجيبها بقوله : إنه بجوار سرير الملك فعادت ورفيقتها إلى سريريهما . ولكنها لم تستطع صبرا ، وكادت روحها تزهق . فأسرعت إلى القصر مرة أخرى ودخلت حجرة الملك وكان يتظاهر بالنوم فشربت الملكة حتى ارتوت واستعادت روحها ، وشعرت أن قوتها قد ردت إليها بعد أن كادت تموت .

وعندما أرادت الملكة أن تعود أدراجها قفز إليها الملك مسرعاً وأمسكها وقال لها لقد أصبحتِ زوجتي وفقاً لقانون الملوك ، فقد جئت إلى حجرة نومي وحصلت على شيء ليس لك ، هو الماء الذي هو أغلى شيء في الوجود وعليه تقوم الحياة فوهبت له نفسها عن إرادة وحرية .

ونام سليمان فرأى في الحلم شمسا ساطعة ظهرت في السماء وسارت حتى وصلت إلى اثيوبيا واستقرت هناك . فسبب له هذا الحلم اضطرابا كبيراً . ولما استأذنت ماكيدا في العودة إلى شعبها أعطاها سليمان هدايا كثيرة وستة آلاف جمل لقطع الصحراء وسفينة لعبور البحر ، وأخرى لتسافر بها في الهواء ، كان سليمان قد صنعها بارشاد من الله وودعها سليمان بعد أن أعطاها الخاتم الذي كان في اصبعه كي لا تنساه .

عادت الملكة إلى مملكتها وشعبها ، وهناك ولدت ولداً أطلقت عليه اسم ابن الحكيم ، ونشأ الولد صحيح البدن قويا، وعاقلا حكيماً كأبيه .

وحدث أن تحدث يوماً إلى أمه ، وسألها عن أبيه : هل مات في أثناء طفولته؟ فأجابته الملكة : أبوك حي : إنه سليمان بن داود نبي الله وملك أورشليم . وخاتم مملكة أبيك في حوزتي . سأعطيك إياه حين تكون ملكاً ، هذه إرادة الله، وهي لا تنصب علي ، فالدولة لم تعد لي ، ولكنها لك ، ولك وحدك ، لأنك ابن ملك ، فسُرّ الابن بذلك كثيرا وشكر أمه التي قالت له : ابني العزيز ، اجمع لنفسك الجند والهدايا، وكل ما هو غال وثمين ، واذهب

إلى أروشليم تجد أباك وتسمع حكمته ، وهو ينصبك ملكاً . ووضعت في يده الخاتم الـذي أخذته من سليمان .

وخرج الشاب على رأس قافلة كبيرة مجهزة بالجند يقصد قصر أبيه . وعندما أدخل إلى غرفة سليمان عرفه أبوه وقبله في جبهته وفمه وبين عينيه ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأهـدى إليه حزاما ، ووضع على مفرقيه تاجاً ، وفي اصبعه خاتماً، وأجلسه معه علـى العـرش ، وجعله مساوياً له ، وأطلق عليه اسم منليك . . .

ولم يكن في نية سليمان أن يعيد ابنه إلى امه ، فجعل يغريه بالبقاء معه في بيت المقدس ، حيث تابوت العهد ولوح موسى ، ولكن ذلك كله لم يرغب ابن الحكيم في الاقامة ، بـل صمم على العودة إلى وطنه ومملكته وشعبه ، بعد أن يحمل قطعة من غطاء تابوت العهد .

وعندما تبين سليمان تصميم ابنه على الرحيل جمع أعيان دولته وطلب منهم - مـادام ابنه مصمماً على العودة إلى اثيوبيا ليكون ملكها - أن يرسل كل منهم ابنه الأكبر معـه ليخدموه هناك كما يخدمون هم أباه . فوافقوا جيمعاً على ذلك ، وأخذ الكهنة منليـك إلى الهيكل ، وأدخلوه قدس الأقداس حيث لمس المذبح ، وأعلنه صادوق الكاهن ملكاً باسـم منليك ، ثم أركبوه بغلة أبيه سليمان ، وطافوا بين هتافات الشـعب وأصـوات المزامـير والطبول .

وأخذ صادوق يعلمه كيف يحكم شعبه ، كما زوده بأهم ما جاء في الشـرائع، كمـا زوده الملك بكل ما يستطيع أن يحمله معه من الخيول والعربات والجمال والبغال والحمـير محملة كلها بالذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة ، وبكل ماكـان ضرورياً أن يحمله معه ليستعين به في حكم مملكته كما تجمع الأبناء الأبكار ليصحبوا ابـن ملكهم ويكونوا عوناً له في حكم مملكته .

وبينما كانت التجهيزات تجرى كان هؤلاء الأبناء يجتمعون ليدبروا معا أمر مملكتهم الجديدة . فسرعان ماظهرت لهم الحقيقة الكبرى ، وهي أن هذه المرحلة بمثابة فراق نهائي لأهلهم ووطنهم ، وهاب أكثرهم أن يترك مدينته أورشليم التي تحتفظ بتابوت العهد والتي يبسط عليها الرب حمايته ، فاقترح عليهم عازار ابن صادوق أن يحملوه معهم دون أن يدري أحد بفعلتهم أو يفطن إليهم ، وهون عليهم كل تضحية في سبيل غرضهم . وجمع منهم عازار في الحال مالاً ، وذهب إلى نجار وطلب منه أن يصنع له صندوقاً من الخشب أبعاده أبعاد تابوت العهد حتى إذا أتم صنعه حملوه سراً إلى منزل أحدهم واستأذن ابن الحكيم والده أن يقدم ذبيحة إلى الإله قبل أن يترك بيت المقدس ، ففرح سليمان برغبة ابنه ، وقدم له مائة ثور ومائة بقرة وعشرة آلاف عنزة ، وكمية هائلة من الدقيق وخبز الشعير . وفي أثناء تقديم الذبيحة حمل عازار وأصحابه الصندوق الخشبي الذي صنعوه إلى المذبح وهناك استطاعوا أن يستبدلوا به التابوت الحقيقي ويحملوه سراً إلى منزل عازار فحفر له وخبأه وجعل على مكانه علامة يستدل بها عليه .

إذ تم كل شيء استأذن منليك أباه في الرحلة فقبله ومنحه بركته ، وتذكر سليمان في اللحظة الأخيرة أن زوجته كانت قد طلبت منه أن يزود ابنه بقطعة من غطاء تابوت العهد ، فأمر صادوق أن يذهب إلى الهيكل ويأتي بغطاء التابوت القديم ويضع بدله غطاء جديداً ، ففعل ذلك صادوق دون أن يكشف الخديعة ، وأعطى سليمان ولده الغطاء ففرح به كثيراً

وسارت القافلة تقودها الملائكة وتمهد لها الطريق الطويل في البر والبحر وتظللهم بأجنحتها لتمنع عنهم أذى الشمس المحرقة ، ولم يجرؤ حيوان أو إنسان على أن يتعرض لهم بسوء كما لم يشك أحد منهم متاعب الرحلة ، أو حر النهار أو برد الليل ، بل كانوا يقطعون في يوم واحد ما تقطعه القوافل العادية في ثلاثة وعشرين يوماً . وفي مصر علم ابن الحكيم بأمر السرقة وأتوه بالتابوت فسجد له في حين وقف رفاقه يصفقون ويرقصون من حوله ، وقد كشفوا التابوت ورفعوا عنه ما كان يخفيه ووضعوا عليه الأغطية الثمينة .

وساروا به فرحين يهللون ويزمرون حتى لقد تعجب منهم المصريون وزاد عجبهم حين وجدوا تماثيلهم تنحني وتسجد له إذا ما اقترب منها وعند عبورهم البحر حملتهم الملائكة على أجنحتها ، وكانت الأسماك تخرج من الماء وتتجمع حولهم ، وطيور السماء تغني لهم أغاني الفرح والسرور حتى وصلوا سالمين إلى حدود أثيوبيا .

ولم يلبث سليمان أن روى لصادق قصة الحلم الذي رآه وخاف منه خوفاً شديداً، فلما سمعه هذا الرجل العجوز اصطكت ركبتاه هلعاً ، وخاف أن يكون التابوت قد مسه ضر أو خرج من بيت المقدس إلى اثيوبيا ، فسأله سليمان عما إذا كان قد رأى التابوت بعينيه يوم استبدل الغطاء الجديد بالقديم ، فإجابه بأنه لم يفعل، فأمره الملك بأن يسرع ليراه . وهناك تبينت له الحقيقة المؤلمة ، حيث لم يجد إلا صندوقاً خشبياً فارغاً ، فأغمي عليه وخر على وجهه . ولما علم سليمان أمر أن يطارد ابنه وجماعته حتى يسترد التابوت . وسار سليمان بنفسه مع القوة المطاردة بعض الطريق . فلما وصلت القوة إلى مصر ، عرفت من شعبها أن من يبحثون عنهم قد رحلوا عنها منذ تسعة أيام ، فأيقنوا أنهم قد أخفقوا ، وأن التابوت قد خرج من يدهم إلى الأبد ، فعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة .

ولم يكد ابن الحكيم يصل إلى أثيوبيا . حتى كانت الرسل قد سبقته إليها حاملة إلى أمه أخبار وصوله ومعه تابوت العهد ، فأرسلت إليه من يستقبله ويحمل إليه تحية أمه ، وسارت هي إلى اكسوم مدينة الملك لتستقبله هناك .

وعندما رأت الملكة التابوت يسطع كالشمس في كبد السماء خرت على الأرض ساجدة ، وكشفت عن صدرها ، وصفقت بيديها ، وضحكت بصوت عال ، ودارت ترقص حوله رقصة الفرح والسرور ، وأمرت بالذبائح تنحر ، فذبح في هذا اليوم اثنان وثلاثون ألفاً بين ثور وبقرة وخروف وماعز ، وحمل التابوت إلى حصن قريب ورتب له ألف وثلاثمائة رجل لحراسته .

وبعد ثلاثة أيام استدعت الملكة ابنها ونصبته قائدا ووهبت له سبعة عشر ألفا وسبعمائة فارس ، وسبعة آلاف وسبعمائة مهر وألفا وسبعمائة بغل ، وكلها مطهمة مجهزة بالذهب والفضة ، كما جعلت أعيان الدولة ووجهائها يقسمون أمامها أن لا ينصبوا عليهم في المستقبل ملكة ، وأن لايقبلوا عليهم ملكا إلا من نسل داود، فأقسم الجميع فرحين ، ونصبت الملكة عازار كاهنا أعظم . وتقبل الناس عبادة الإله الواحد ، وصارت منذ هذا اليوم ديانة لأثيوبيا .

وبرغم أنها جعلت أعيان الدولة يقسمون أن لايضعوا على عرشهم امرأة ابدا فإنها لم تترك العرش بل ظلت محتفظة به ، وجعلت همها نشر الشريعة ، وسحق الديانة السبتية القديمة . واستمر حكمها بعد ذلك خمسا وعشرون سنة مملوءة بأنواع المجد ، مما جعل الأثيوبيين يعدونها أعظم ملوكهم ، ويرفعونها إلى مرتبة القديسات ، وماتت ولها من العمر ستون سنة ، وكان ابن الحكيم ابنها الوحيد .

وبعد وفاتها جدد عازار ومن معه العهد لابن الحكيم ، ونصبوه ملكا عليهم وأوصلوه إلى المعبد الذي بنته والدته وحفظت به تابوت العهد ، وهناك مسحه بالزيت المقدس وأعلنه ملكا على كل بلاد أثيوبيا فقابله الشعب بالتهليل والغناء ورقصوا ولعبوا ألعاب الفروسية ، وهذه الاحتفالات أقيمت على نفقة الملك واستمرت عدة أيام .

واختار ابن الحكيم لنفسه اسم منليك ، وهو الاسم الذي اطلقه عليه أبوه ، وجعل ينظم مملكته على نحو مملكة أبيه في بيت المقدس ، فعين اثني عشر قاضيا ليجعل مملكته مثالا لمملكة أبيه .

وتصور لنا الأساطير الأثيوبية منليك هذا ملكا شجاعا اشترك في حروب كثيرة خرج منها جميعا منتصرا ، فهاجم أعداء في زاديا وهاديا . وانتصر عليهم. وقتل منهم عددا كبيرا

وخرب بلادهم . وسار إلى جعيزا حيث خرب المدينة التي كان يسكنها أناس لهم ذيول كذيول الحمير . وعاد إلى أكسوم منتصرا .

ثم سار ومعه جيشة إلى سبأ فوصل إليها في يوم واحد والرحلة إليها في العادة لاتقطع في أقل من ثلاثين يوما . وخرب بلاد النوبة حتى حدود مصر وقد أوقعت انتصاراته الرعب في قلوب ملوك مديام ومصر حتى لقد أرسلوا له الرسل والهدايا.

وفي حملة ثالثة تقدم إلى الهند ، فخاف ملوكها منه ، فساروا إليه وقدموا له الهدايا بعد أن سجدوا له وقبلوا دفع الجزية .

وتقول الأساطير أن منليك حكم اربعا وعشرين سنة ، ومات بالغا من العمر خمسين سنة بعد أن تزوج سيدة رزق منها ولدا ارتقى العرش من بعده .

– ٢ –

وإذا كانت هذه القصة الرسمية التي كانت تعترف بها الحكومة والتي ضمنتها – كما ذكرنا – كتاب (كبرانجست) التي يؤمن بها شعب أثيوبيا – وخاصة في شوا وجود جام – إلا أن هذا لا يمنع أن هناك قصصا أخرى تؤمن بها شعوب مقاطعات أخرى مثال تجري ولا ستا وهذه القصص الأخرى تتفق في كثير من أحداث هذه القصة التي أوردناها وتختلف معها في مواضع أخرى . إلا أنه اختلاف له مغزى ولابد لنا نورد أكثر هذه القصص شيوعا لنرى مبلغ هذا الاختلاف والغرض منه ، وحينئذ نصل إلى مانريد من أن نبين نصيب الأسطورة ونصيب التاريخ من هذا كله.

وتقول هذه القصة : لما أراد الله – له المجد – أن يبني سليمان هيكل الرب في أورشليم

بعد موت ابيه داود – بدأ سليمان فأمر بقطع الأحجار في أحجام كبيرة، ولكن العمال لم يكونوا قادرين على نحتها بالحجم الكبير الذي أراده سليمان إذ انكسرت آلاتهم في العمل وصرخوا إلى سليمان طالبين إليه أن يهديهم بحكمته . ولجأ سليمان إلى الله – مانح الحكمة ليرشده إلى بعض الوسائل ، ثم جمع سليمان الصيادين وامرهم أن يأتوه برخ فأحضروه له – فأمر بإناء من النحاس بثلاثة أرجل يسع هذا الرخ وأمرهم بأن يضعوا الرخ في فناء القصر والإناء النحاسي فوقه . وكانت أجنحة الرخ ظاهرة من تحت الإناء . عندما عادت أم الرخ إلى عشها في أعلى الجبال لم تجد ابنها ، جعلت تطير فوق الأرض باحثة عنه ، وجاءت إلى أورشليم حين رأت ابنها تحت الإناء في فناء القصر – ولكنها لم تتمكن من الإمساك به – وطارت حتى أتت الفردوس في الجهة الشرقية من عدن ، ورأت فيه قطعة من الخشب كأنما وضعت هناك لتقف عليها فأمسكت أم الرخ بها . واستمدت من حزنها قوة جعلتها تحملها وتطير بها ولا تتركها حتى اتت أورشليم وأسقطتها على الإناء النحاسي ، بقوة الله العلي انشق الإناء ورأت الأم ولدها وأمسكت به وحملته إلى عشها .

عندما رأى سليمان ورجال دولته ذلك صرخوا بصوت عال ومجدوا الرب لأنه منح الطير معجزة لا يستطيع بشر أن يفعلها ، وأمر النحاتين أن يأخذوا هذه القطعة الخشبية ويقيسوا عليها أحجام الأحجار التي يريدون قطعها . وحيثما أشارت الخشبة انكسر الحجر كما أراد النحاتون ، وبذلك أصبح عمله سهلا ، فأيقن سليمان أن الرب قد وهبه بركة ، ولما أكمل البناء ظلت قطعة الخشب في الحجرة الأمامية من الهيكل ، ولكن بطل سحرها وإن ظلت موضع الاحترام والتقديس من سليمان وشعبه . ولأن الله – له المجد – أراد أن تنتقل مملكة داود وابنه سليمان إلى أثيوبيا المباركة أوعز إلى ملكة تلك البلاد أن ترحل إلى أورشليم لتسمع بعض حكمة سليمان ، كما يقول الإنجيل : – ملكة التيمن ستقوم في الدين مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان " .

وكانت هذه الملكة فتاة من تجري تسمى أتيجى أزب ، وهي كلمة معناها ملكة

الجنوب وكان شعبها يعبدون الثعبان ، وكان على كل واحد من أفراد الشعب أن يهبه ابنته الكبرى. وكميات كبيرة من الخمر واللبن كل عام في ميعاد معين ، فلما جاء دور هذه الفتاة ليفعل ذلك قيدها إلى شجرة خارج المدينة ، ووضع بجانبها كميات الخمر واللبن في انتظار مجيء الثعبان ، وهناك قدم القديسون السبعة ، وجلسوا تحت الشجرة طلبا للظل ، فسقطت على أحدهم دمعة أرسلتها هذه الفتاة هي تبكي ، فتطلع إلى أعلى وتطلع بقية القديسين ، فوجدوا الفتاة مقيدة إلى أحد فروع الشجرة ، ففكوا وثاقها وأنزلوها، وراحوا يسألونها عما إذا كانت إنسانا أم جنيا ، فأخبرتهم بقصتها وهي تبكي فصمموا على إنقاذها ، فجلسوا في انتظار الثعبان حتى إذا ما رأوه قادما هجموا عليه ، فأمسك أحدهم بذقنه وقال الثاني : لقد أخافني ، وصرخ الثالث فلنقبض عليه ، وهجم عليه هذا الأخير وساعده الباقون، وقتلوه بصليب كان معهم .

وبينما هم يفعلون ذلك طارت نقطة من الدم ووقعت على كعب الفتاة فصارت قدمها قدم حمار . وأسرع القديسون إليها وهيأوها وأرسلوها إلى أهلها في القرية . ولكن الناس ومعهم أبوها طردوها ظنا منهم أنها قد هربت من الثعبان ، فعادت إلى الشجرة فصعدت مكانها حيث أمضت الليل وفي الصباح الثاني ذهبت ثانية إلى القرية حتى إذا هموا بطردها من جديد قصت عليهم قصة الثعبان والقديسين ، وأتت جماعة منهم إلى حيث كان الثعبان مقتولا ، ففرحوا فرحا شديدا ، لم يجدوا أمامهم اعترافا بجميلها عليهم إلا أن ينصبوها ملكة عليهم ، وجعلوا فتاة أخرى رئيسة لحرسها .

وسمعت أتيجي أزب بعد ذلك عن سليمان وعن مقدرته الطبية ، وعن قدرته على أن يفعل العجائب فصممت على أن تذهب إليه ليعيد قدمها إلى حالتها الأولى .

وكانت شهرة سليمان قد طارت إلى أقصى الأرض لأنه كان يعامل تجارا كثيرين يأتون إليه من جميع بلاد العالم ومن هذه البلاد التي تقع على شواطئ البحر الأحمر وقد جلبوا إليه

من هناك الأحجار الثمينة والعطور الغالية والبهارات والأقمشة الرفيعة الغالية بل أتوا إليه بكل ماهو ثمين ليزين به هيكله وقصره وعندما كانت هذه القوافل تعود إلى بلادها أو غيرها من البلاد أخذ من اشترك فيها يصفون لأهلهم ومستمعيهم العمل العظيم الذي كان سليمان يقوم به في أورشليم ومن بين رؤساء هذه القوافل تاجر يدعى تامارين ، كان متعهدا بمطالب ملكة الجنوب يحملها إليها من كل البلاد التي يذهب إليها ، وكما يحمل إليها بعض أخبار هذه البلاد ، فسمعت ما رواه تامارين قائد قافلتها عن سليمان، فصممت على أن تذهب إليه .

فقامت قافلة كبيرة تنكرت فيها الملكة ورئيسة حرسها في زي غلامين وسافرا إلى بلاط سليمان في أورشليم .

وعندما وصلت الملكة إلى أورشليم وسمع سليمان بوصولها – وكان قد سمع عن مقدمها، دبر حيلة ماكرة يستطيع بها أن يرى هذه القدم دون أن يسألها أن تريه إياها ، فوضع عرشه في أحد جوانب البهو في الهيكل ، وأمر أحد عبيده أن يفتح ميازيب المياه حتى غمر أرض المكان بالماء . ووضع فوقها الخشبة التي حملها الرخ من الفردوس . ولم يفهم أحد ممن حوله حكمة هذا العمل . فلما وصلت الملكة إلى باب الهيكل ترجلت عن دابتها وهمت بالتقدم إلى بابه ولكنها تراجعت وكادت تعاود امتطاء دابتها ظنا أنها أخطأت المكان . ولكن من معها أفهموها أن هذا هو باب الهيكل الذي لا يدخله أحد راكبا . وعاونها خدمها على الدخول ، ومدت يدها وشمرت عن ساقيها ،وبذلك رأى سليمان القدم دون أن يسألها . ثم مدت قدمها فمست قطعة الخشب ، فتحولت بقوة الله إلى قدم طبيعية كالأخرى . فحل بها خوف عظيم ، ولكنها فرحت وتقدمت وخاضت الماء رافعة أثوابها ، حتى وصلت إلى حضرة سليمان ، فأخبرها أنه أمر بوضع الماء عمدا ليجعلها تكشف عن سلقها فيرى قدمها . وأمر سليمان الماء أن يجف فظهرت الخشبة السحرية فقص سليمان قصتها على الملكة فقدمت لها احترامها ، وخلعت عقدا غاليا من جيدها وزينتها به ، مما جعل

سليمان يزينها بعقد آخر ، ويجعل لها مكانا خاصا في الهيكل ، وأصبح من عـــادة خلفــاء سليمان كلما أتوا إلى الهيكل للصلاة أن يزينوا قطعة الخشب بحلقة من فضة .

وبدأ سليمان فقدم للملكة كل فروض الاحترام وجعلها ورفيقتها وحاشيتها وجنودهـا يقيمون في قصر بجوار قصره ، وكان يزورها كل يوم كما تزوره ، لتسمع مـــن حكمتـه وتتعلم منه .

وتمضي القصة بعد ذلك متفقة مع القصة الأولى حتىتصل إلى زواجها من ســـليمان ، وتذكر كما ذكرت القصة الأولى أن هذا الزواج تم عن إرادة وحرية طبقا لقانون الملـوك . ولكنها تختلف عنها في ذكر أن سليمان قد اضطجع مع خادمتها كما اضطجـــع معـــها ، وأعطى كلا منهما قطعة من الفضة وخاتما ومرآة ، وقال لهما إذا كان المولود بنتا فلتحمـل قطعة الفضة وتاتي إلي ، أما إذا كان ولدا فليحمل الخاتم ، ثم عادت الضيفتان إلى بلدهمـــا وولدت كل منهما ولدا .

وتحمل الرغبة الولدين على أن يطلبا رؤية والدهما ، فأرسلتهما الملكة إليـــه . ولكـــن القصة تذكر أن الملكة أعطت ولدها الخاتم والمرآة في حين نسيت الأخرى أن تعطي ولدهـا المرآة .

وخروج الشابان معا على رأس قافلة كبيرة مجهزة بالجند يقصدان قصر أبيـــهما، ولمـــا وصلا إلى القدس ، وعلم سليمان أن هناك ولدين يزعمان أنه أبوهما ، أمر بتأخيرهما ثلاثـــة أيام في نهايتها أعار واحدا من أصدقائه ملابسه الملكية ، وأجلسه على عرشه ، ولبس هـــو خرقا ممزقة وذهب إلى الاسطبل وأخذ يرقب كل شيء من بعيد . ثم أمر الشابين أن يدخـلا إلى قاعة العرش فتقدم ولد الوصيفة أولا وقبل يد الجالس على العرش وهو يحسبه أبـــاه في حين ظل ابن الملكة المسمى منليك واقفا من بعيد دون أن يقدم فروض الطاعة . وأخـــيرا

تقدم وهو ينظر في المرآة التي أعطته إياها أمه ، فرأى ملامحه كما تظهر في المرآة مختلفة تماما عن ملامح الجالس على العرش ، فأيقن أنه ليس أباه الملك . فأخذ يتجه يمينا وشمالا بحثا عنه وهو لايجد أحدا يشبهه ، وبعد مدة رأى سليمان ينظر إليه من وراء باب الإسطبل ،فعرفه لساعته، فذهب إليه وقدم فروض الطاعة ، فصرخ سليمان : هذا ابني . . . الحقيقي . . . والثاني هو ابني أيضا ولكنه غبي . وأراه الولد الخاتم الذي أخذه من أمه الملكة ، فلما شاهد سليمان الخاتم تأكد أنه ولده، وغمره فرح عظيم ، واحتضنه وصرخ قائلا : مرحبا يابن الحبيب ، أنت ابن داود . ووضع سليمان تاج أبيه على رأسه وأجلسه على عرش داود أبيه.

وضرب أصحاب الطبول طبولهم ، ونفخ أصحاب الأبواق أبواقهم ، وصرخ المعلنون قائلين : هذا داود بن سليمان بن داود ملك أورشليم ، وسمع هذا الأمر خارجا ، وانتشر بين جميع قبائل أورشليم أن ابن سليمان من ملكة الجنوب قد أتى إلى أبيه وأن سليمان قد توجه ملكا ليجمع مملكة داود أبيه . وأجلسه على عرشه .

ولكن سرعان ما تبين للناس أن الابن والوالد كثيرا ما كانا يختلفان في أحكامهما القضائية وحينئذ أبدى الشعب رغبته في ألا يحكمه ملكان ، وأن على سليمان أن يعيد ابنه إلى دولته ، وصارح سليمان ابنه في ذلك فطلب منه أن يسألهم : أليس هذا ابني البكر ؟ فإذا وافقتم فسأرسله إلى دولته إذا رضيتم أن ترسلوا معه أبكاركم . ورضي الناس بذلك وأخذ سليمان يجهز لابنه رحلته .

وكان في الهيكل الذي بناه سليمان تابوت عهد الرب وفي داخله لوحا الحجر اللذان كتب الله فيهما بأصابعه وصاياه وعصا هارون ، ولوحا مانا . وكان هذا التابوت مغطى بصفائح من الذهب وملفوفا بلفائف من القماش المطرز بالذهب . وكانت هناك معجزة يراها الشعب ، وهي أنهم إذا انتهوا من تضرعاتهم في أثناء صلاة الكهنة ومثول الشعب

امام الرب مدبر الكون ، يرتفع التابوت عن الأرض فيعلم الناس أن تضرعاهم قد قبلت ، فإذا لم يرتفع عرف الكهنة أنهم قد ارتكبوا شيئاً أو أن أحد من الشعب قد ارتكب شيئاً يستحق المؤاخذة . ويأخذون في البحث عن مرتكب هذا الشيء ليعاقبوه ، حتى إذا تم ذلك ارتفع التابوت ، فكان ذلك بمثابة انصراف غضب الرب . وحدث أن ذهب ابن سليمان إلى الهيكل للصلاة. ورأى التابوت وقد ارتفع الشيء الذي لا يستطيع عقل بشر أن يفهمه فسر من ذلك وصمم على أن يأخذه معه إلى مملكته ، وأعلن ذلك لسليمان أبيه وقال له : سأحمل تابوت عهد الرب إلى مملكتي ، فأجابه : يابني العزيز . إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك، فليس هناك من يستطيع أن يحمله إلا من كان كاهناً . وإذا مسه غير كاهن ذهبت طهارته حالاً . هذا إلا أن الشعب ليس له حام من أعدائه سوى تابوت عهد الرب ، ولكن هذا الكلام لم يقنع الابن وقال لأبيه : لا أسألك ذهباً ولافضة ، لأنه كثير في مملكتي ، ولا أسألك إلا هذا التابوت .كي يصونني في رحلتي ، ويسند دولتي وجندي ، فأجابه سليمان : إذا كانت إرادة الله قد قضت أن تأخذه ، فسيكون ذلك ميسوراً لك . ولكن إذا كنت ستحمله معك فلا تجعلني أعرف ذلك، ولا تودعني لأن الكهنة وأبناء الشعب جميعاً سوف يسألوني عنه ويجعلونني أقسم على مأقول ، ولن أقسم لهم إلا صادقاً

ودعا الابن سراً صانعاً وكلفه أن يعمل صندوقاً خشبياً . مقاييسه هي نفس مقاييس الصندوق الذي في التابوت . فلما أتم عمله نقله ليلاً ودعا صناعاً آخرين وكلفهم أن يضعوا عليه الذهب كما في صندوق التابوت . وقتلهم جميعاً.كما قتل الصانع الأول . ثم غطى الصندوق الجديد بأقمشة مطرزة بالذهب تشبه أقمشة الصندوق الأول . ولم يعلم سليمان عن هذا كله شيئاً . ودعا الأبن أربعة من الكهنة ليصلوا له قبل رحيله . وأقنعهم بعد أن أعطاهم ذهباً كثيراً ورشوة كبيرة كي يساعدوه في كل مايريد .

وفي ليلة رحيله جاء الكهنة ليودعوه . فأخذهم إلى مسكنه ليصلوا له، فلما اختلى بهم أمر فقيدوا بقيود من حديد ، ثم أمر جنوده أن يصعدوا ويرحلوا دون أن يعلنوا الرحيل .

وأخذ معه حفنة من رجاله المخلصين مزودين بالحراب ومعهم هؤلاء الكهنة إلى الهيكل . وأمر الكهنة أن يحملوا التابوت ويجعلوا الصندوق الذي صنعه مكانه ، وخرج من المدينة ليلاً ومعه التابوت يحمله الكهنة ولم يودع والده ولم يعلمه برحيله . وحدث كل ذلك بإرادة الرب له !! بكر لحمايته التابوت المقدس كي يسكن إلى الأبد في مملكة داود ، كما وعد الله داود أن يجلس نسله على العرش إلى الأبد .

وفي الصباح ذهب الكهنة والشعب إلى الهيكل ليقيموا الصلاة وبعد ما انتهى الكهنة من تضرعاهم لم يرتفع التابوت في الهواء كما كان يحدث من قبل بل لم يتحرك من مكانه فظنوا أن أحداً قد أخطأ ، وأمروا بالصوم والصلاة ثلاثة أيام ، وداروا يبحثون بين الناس عمن يكون قد ارتكب الاثم ، ولكنهم لم يجدوا أحداً . فذهب الكهنة إلى التابوت وكشفوا عن الغطاء . . . فأي مصيبة وأي نكبة وأي رعب وأي حزن حل عليهم بسبب ما اكتشفوا من عدم وجود التابوت ، وما معه من أشياء مقدسة ! .

وعندما تأكدوا أن ابن سليمان هو الذي أخذه بحثوا فعرفوا الكهنة الناقصين، لأنه كان قد أخذهم معه ، فأيقنوا أهم الخطاة . وعندئذ ذهب الكهنة والشيوخ إلى سليمان الملك ، وكانوا جميعاً يصرخون ويولولون من الحزن بسبب ضياع التابوت المقدس ، فقالوا لسليمان أنت الذي أمرت ولدك أن يأخذ التابوت ، فبكى سليمان وأقسم لهم أنه لم يسمح لولده بذلك ، ولم يودعه ، ولم يسمع شيئاً عن سفره ، فأجابه الكهنة والشيوخ ، قائلين : حفظ الله الملك إذا كان ذلك قد حدث دون إذنك فأرسل جندك المسلح لتطارده وتستعيد التابوت ، وتعيده إلى مكانه المقدس . وفعل سليمان ذلك وأعطاهم مالاً ومؤونة . وخرجوا في طلب الشاب فساروا أربعين يوماً ، ووجدوا تجاراً في الطريق فسألوهم عما إذا كانوا قد رأوا التابوت ، فأجابهم التجار إنهم رأوا ملكاً عظيماً وجنوده الكثيرين وأن الصندوق كان معهم وإنهم يسيرون كسحاب يدفعه ريح قوية ، وأخبرنا سكان القرى التي مررنا بها أنهم ساروا منذ أربعين يوماً ، فعاد الجند يملأ الحزن أفئدهم . ولكن هذا الحزن لم ينفعهم شيئاً .

وأخيراً وصل الشاب إلى مملكته سالماً وقابلته أمه ونزلت عن عرشها وجلس هو ملكاً على عرش داود وأبيه . وبذلك أصبحت مملكة أثيوبيا تتبع عرش داود إلى الأبد . واستقر التابوت هناك .

- ٣ -

لعل أول ما يلاحظ في هاتين القصتين اتحادهما في الهدف وفي أجزاء كثيرة منهما، وإن اختلفا في اللفظ وفي بعض التفاصيل .

ولعل أول نقاط هذا الاختلاف تجاهل القصة الأولى للمقدمة التي تشير إلى الثعبان الذي كان يعبده أهل تجري ، وتقديم الأهالي له الفتاة واللبن والخمر كل عام. ولعل هذا الجزء أيضاً هو أقرب أجزاء القصة إلى الخرافة ، وظاهر أنه وضع من أجل إيجاد سبب لقيام الملكة برحلتها إلى أورشليم . وقصدت القصة إلى الهدف مباشرة ، وهو رغبة الملكةفي تعلم الحكمة من سليمان كغرض أساسي وحيد.

أما اختلاف القصتين من حيث عبادة أهل أثيوبيا للحية في القصة الثانية أو الشمس في القصة الأولى . فليس بذي بال مادام الشعبان وثنيين هديهما الملكة بعد زيارهما لسليمان إلى عبادة الله الواحد .

ونقطة أخرى من نقاط الإختلاف ، وأكثرها وضوحاً ، هو تجاهل القصة الأولى لهذه الفتاة الثانية التي صحبت الملكة في رحلتها ، وإنجابها ولداً آخر من سليمان. ولا بد أن واضعي القصة الثانية قد هدفوا من وراء وضع هذا الجزء إلى غرض معين سوف نبينه فيما بعد .

ونقطة ثالثة من نقاط الاختلاف أيضاً . وهي إصرار القصة الأولى على إظهار ابن الحكيم بمظهر غير السارق أو القاتل فاصحابه من أبكار الرجال هم الذين دبروا أمر السرقة دون أن يعلم بها منليك ، ولم يعرف خبرها إلا في مصر فلم يسعه إلا التسليم بها.

ونقطة رابعة من نقاط الاختلاف أيضاً ، هو العهد الذي أخذته الملكة على شعبها بعد عودة ولدها من عند أبيه ألا ينصبوا عليهم ملكة في المستقبل ، بل أن يكون كل من يتولى الملك في بلادهم من الذكور ، ومعنى ذلك ولا شك عدم الاعتراف بأي ملكة ترقى العرش باعتبارها مغتصبة له ، وبالتالي اعتبار كل من يلي العرش من غير أبناء هذه الملكة ملوكاً غير شرعيين . ؟

نقطة خامسة أيضاً تتمسك بها القصة الأولى ، هي هذا الحلم الذي رأى فيه سليمان الشمس تنتقل من وفوق مملكة أورشليم إلى إثيوبيا واستقرارها فيها .

ومن الطبيعي أن هذه الاختلافات لم توجد عبثاً ، ولم توضع في إحدى القصتين دون الأخرى دون سبب أو غرض ، مما سوف نبينه .

والآن نعود إلى دراسة القصتين بصفة عامة :

تعد رواية العهد القديم من الكتاب المقدس عن زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس أقدم الروايات ، فقد جاء في سفر الملوك الأول كيف أعطى الله سليمان حكمته . حين قال " وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً ، ورحمة قلب كالرمل الذي على شاطئ البحر . وفاقت حكمة سيلمان جميع بني الشرق ، وكل حكمة مصر، وكان أحكم من جميع الناس . من إيثان الأزراحي، وهيمان وكلكول ودردع بني ماحول . وكان صيته في جميع الأمم حواليه . وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمساً ، وتكلم عن

الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط وتكلم عن البهائم. وعن الطير. وعن الدبيب ، وعن السمك ، وكانوا يأتون إليه من جميع الشعوب ليسمعوا من حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا عن حكمته" (الإصحاح الرابع:٢٩ – ٣٤) .

وقد وهبه الله هذه الحكمة حين ألح في طلبها وفضلها على كل ذهب الأرض، بل فضلها على طول العمر ، وعلى السلطه التي تمكنه من قهر أعدائه .

كما جاء في الإصحاح العاشر من نفس السفر خبر هذه الزيارة . فقد قال " وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل كثيرة ، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً ، وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان ، وكلمته بكل ماكان في قلبها ، فأخبرها سليمان بكل كلامها ولم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها به . فلما رأت الملكة سبأ كل حكمة سليمان ، والبيت الذي بناه وطعام مائدته ، ومجلس عبيده ، وموقف خدامه وملابسهم ، ومحرقاته التي كان يصعدها إلى بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي ، فهوذا النصف لم أخبر به . فقد زادت حكمتك وصلاحك عن الخبر الذي سمعته . طوبى لرجالك ، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً ، السامعين حكمتك ، ليكن مباركاً الرب إلهك . الذي سر بك وجعلك ملكاً لتجري حكماً وبراً ، وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب. وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة . ولم يأت مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان . وكذلك سفن حيرام التي حملت ذهباً من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيراً جداً وبحجارة كريمة. فعمل سليمان بخشب الصندل درابزيناً لبيت الرب وبيت الملك . وأعواداً ورباباً للمغنين . لم يأت ولم ير مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ماأعطاه إياها حسب

كرم الملك سليمان . فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها " (١-١٣) .

كما جاء في الإصحاح العاشر من نفس السفر أن جميع الملوك كانوا يقصدونه ابتغاء سماع حكمته حين قال : " وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التي جعلها الله في قلبه " (٢٤) .

وتتكرر القصة في أخبار الأيام الثاني : (الإصحاح التاسع ١٠ -١٣) . ويكاد النصان يتفقان في الكلمات ، ولكنها في الثاني تزيد عن الأول في وصف قصر سليمان وآنيته ومركباته وخيوله .

كما ذكرت هذه الزيارة في العهد في الجديد في موضعين ، " وملكة الجنوب ستقوم مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان" (إنجيل متى : الإصحاح الثاني عشر: ٤٢) ، و " ملكة التيمن ستقوم في الدين مع رجال هذا الجيل وتدينهم لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان وهوذا أعظم سليمان هاهنا" (إنجيل لوقا : الإصحاح الحادي عشر : ٣١) .

وذكرت هذه القصة في القرآن الكريم أيضا فجاء في سورة النمل : {ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن اعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وتفقد الطير وقال مالي لا أرى الهدهد أم كان

من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون . وقالت يأيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم . وإنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين . قالت يأيها الملأ افتوني في أمري ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وألو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما أتاني الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ماكانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت : ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (الآية ١٥ – ٤٤) .

ولكن من هي ملكة سبأ التي ذكر كل من العهد القديم والقرآن الكريم إنها أتت إلى "سليمان ؟ ومن هي ملكة الجنوب التي جاءت في إنجيل متى أو ملكة التيمن كما جاء في إنجيل لوقا ؟ وما علاقتها بأثيوبيا ؟ وماذا كانت نتيجة زيارتها لسليمان ، غير هدايتها وتركها الوثنية إلى التوحيد ؟ .

الجواب على هذا لم تذكره المصادر الدينية ، ولكن تتكفل به القصتان الأثيوبية لتصلا به إلى الهدف الذي أرادتاه في أن ملك أثيوبيا هو ابن سليمان ملك بيت المقدس .

ولكننا نعرف أن سبأ جزء من اليمن لامن أثيوبيا ، وأنها كانت في آخر الأمر عمود التاريخ اليمني القديم وتكوينه السياسي الكبير . وما تلك التي ذكرت معها سوى تكوينات سياسية معاصرة لفترات سبأ انفصلت منها أحياناً واندمجت فيها أحياناً أخرى ، مثل دولة معين وأوسان وقتبان وحضرموت ودويلات المرتفعات أو اتحدت معها لتكون دولة واحدة كدولة حمير .

وبلقيس أو ماكده وإن اختلفت تفاصيل قصتها واسمها عند الجميع ملكة سبأ ، وهجرة أهل اليمن ارتبطت بسبأ حتى قيل في الأمثال العربية القديمة تفرقوا أيدي سبأ ، والبلدة الطيبة التي أشار إليها القرآن الكريم هي في الأصل أرض سبأ ، وأكثر من ذلك كله أن أبرز رموز اليمن التاريخية وهو سد مأرب قد اقترن ذكره بسبأ ، وكان تكريمه بالذكر في القرآن سبباً في ذيوع ذكر قوم سبأ وحاضرهم مأرب في التاريخ الإسلامي ومازالت بقايا السد تشهد بعظمة الحضارة السبئية ورقيها إلى اليوم .

ولكن ليس بوسع المرء أن يقرر بثبات ، متى نشأت حضارة سبأ ، إذ الإيماءات

التاريخية قليلة والآراء التي قامت عليها متضاربة ، فقد تناول الباحثون نشأة السبئيين من أكثر من زواية واحدة ، ويمكن إيجاز آراء القدماء منهم في نظريتين رئيسيتين هما : —

أولا نظرية زكاها عدد من الباحثين (مثل شراد ، وكيبرت ، وهارتمان ، ودلتش، ثم فيتز هومل) ، تقول إن السبئيين عاشوا أصلا في شمال شبه الجزيرة العربية قرب منطقة الجوف الشمالي واستمروا فيها على البداوة زمنا طويلا ، ثم دفعتهم دوافع معينة إلى الإتجاه نحو جنوب الجزيرة قبيل بداية القرن الثامن ق.م. بقليل حيث استقروا فيه .

ثانيا : نظرية ألمح إليها مؤرخون آخرون (ومنهم مولر ، وجلازر ، وفنكلر ، ومايرثم ألوموزيل) ، ويرون فيها أن السبئيين عاشوا منذ بداية أمرهم في الجنوب ، ولكن جالية منهم اتجهت خلال القرن الثامن ق.م. أوقبله بقليل إلى الشمال وأقامت قرب واحة تيماء ومنطقة الجوف الشمالي لترعى المصالح التجارية لقومها في شمال الجزيرة وعلى طرق القوافل المتجهة منها إلى الهلال الخصيب .

ويبدوا أن النظرية الثانية أقرب إلى الصواب فيما يختص بأحوال السبئيين في عصورهم التاريخية . أما النظرية الأولى فهناك من الشواهد ما يدعو إلى الإكتفاء بالخروج منها بما يحتمل من أن السبئيين عاشوا قبل تكوين دولتهم السياسية المستقرة في منطقتها الخصبة بجنوب الجزيرة العربية ، على ماعاش عليه أغلب أهل القبائل القديمة لا يعترفون بحدود وتتفرق بطونهم بين الشمال وبين الجنوب وفقا لظروفها الخاصة ومصالحها الطارئة وعلاقتها بجيرانها . ولم يكن هذا شأن القبائل القديمة بين الشمال والجنوب فقط ، بل كان شأنها أيضا في الجنوب نفسه .

أما عن تاريخ نشأتهم فهناك وجهتا نظر للعلماء ، فألبرت جام يرى أن صورة الحروف التي اكتشفها في (العبر) عام ١٩٦٢ م هي أقدم ما عثر عليه من خط المسند ، وأن ما

عرف بحروف سيناء التي يعتقد أن تاريخها يعود إلى حوالي القرن الخامس عشر ق.م. لابد أن يكون قد انتقلت من أرض سبأ . أما العالم الألماني هرمان فون فيسمان فيرى أن أقدم كتابة يمنية هي تلك التي عثر عليها في (هجر بن حميد) من وادي بيحان . والمعروفة بين العلماء (بمونوجرام هجر بن حميد) ويعود تاريخها إلى الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والتاسع ق.م.

ونحن نعرف أن النصوص الآشورية ذكرت السبئيين وملوكهم في مناسبات متفرقة . فالملك الآشوري سرجون الثاني يؤكد في نص له يرجع إلى العام ٧١٤ ق.م. أنه تلقى من (أتى أمر) السبئي جزية من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب. ثم ذكرت نصوص الملك الآشوري سنحاريب في عام ٦٨٥ ق.م. أن ملكها حين احتفل بوضع حجر أساس "بيت أكيتو" . - وقد يكون معبدا أو حصناً أو قصراً - استقبل مندوباً عن الحاكم السبئي "كريبي إيلو" حمل إليه هدايا من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب . ووضع جانباً منها بأمر من مولاه في أساس المبنى الجديد .

ويعتقد الباحثون أن اسمي الحاكمين السبئيين الذين ذكرهما النصوص الآشورية، محرفين عن (يثع أمر) و (كرب إيل) وهما من حكام سبأ الأوائل .

وهناك أجماع بين الدارسين على هجرة جماعات من جنوب بلاد العرب إلى الساحل الأفريقي من البحر الأحمر في وقت ما بعد القرن العاشر ق. م. على أبعد تقدير . ونحن لا نعرف أسماء هذه القبائل التي هاجرت في هذا التاريخ المبكر ، ولكننا نعرف أن أهم هذه الهجرات التي تمت في مراحل لاحقة كانت تضم قبيلة حبشت (ح ب ش ت) التي ترد كثيراً في النقوش اليمنية القديمة المتأخرة وصارت تطلق على الساحل الأفريقي من البحر الأحمر . الأجاعزة ، وهو الإسم الذي أطلق فيما بعد على اللغة الحبشية ، إذ تسمى باللغة الجعزية

أما سبب هجرة هذه القبائل فإنه ربما يكمن في الصراع الذي ساد ممالك جنوب جزيرة العرب لتأمين الطريق التجاري البحري ، بل ربما كان الوصول إلى بعض مصادر

تلك التجارة هو الذي دفع الدولة السبئية إلى إرسال جماعات إلى الساحل الإفريقي لإقامة محطات تجارية في البداية ، ثم تتمكن هذه الجماعات من تأسيس مستوطنات هناك ، وربما كان للظروف الديموغرافية أيضاً دور إلا أننا لا نعرفها على وجه الدقة الآن .

وجدير بالذكر هنا أن ثقافة السكان الأصليين في أثيوبيا كانت بدائية إذا ماقورنت بحضارة المهاجرين الجدد ، إذ أن كثيراً من الكتاب الكلاسيكيين يروون كيف أن هؤلاء السكان كانوا جامعين للثمار وصيادين . وكيف أنهم استعانوا بثقافة المهاجرين العقلية والتقنية كالدين واللغة واستخدام المحراث واستئناس بعض الحيوانات واستعمال الحديد واستخدام الحجارة في البناء .

فكل أسماء الآلهة السبئية العروفة لدينا نجدها تتكرر في النقوش الحبشية مثل: إلمقه "أ ل م ق هـ" وهو بس "هـ و ب س" بالواو ، وهبس " هـ ب س" بحذف الواو ، وعثتر " ع ث ت ر" بحرف الثاء أو بإبدال الثاء بالسين أي "ع س ت ر" . وفي مجال اللغة فقد نتج عن الاختلاط بين الساميين القادمين من جنوب جزيرة العرب والسكان الأصليين ظهور اللغة الجعزية . فمن القرن الأول الميلادي تقريبا ظهرت نقوش مكتوبة بهذه اللغة (الجعزية) التي اعتمدت بالأساس على الحروف السبئية واقتبسوا منها ٢٤ حرفاً فقط من أصل تسعة وعشرين ، وأضافوا ستة حروف جديدة منها أربعة حروف ذلقية ، أما البناء فإن كل المباني التي تم الكشف عنها في أثيوبيا مثل معبدي يحا وأبابنطالون وبقايا الأعمدة في كسكاسا ومقابر أكسوم ، كلها تشير إلى أصولها العربية الجنوبية ، ومن دراسة معبد يحا البيضاوي الشكل يتضح أنه يرجع إلى فترة الوجود السبئي هناك ، ومن المحتمل أنه كان يحمل نفس اسم معبد المقه المركزي في مأرب أوام (أ و م) ذلك أن اسم هذا المعبد يرد في النقش الموسوم (CIH651) ناقصاً حرفاً هكذا (. و م) ، وقد أضاف ناشر النقش حرف (ب) ليصبح الاسم (ب و م) ، وهذا اسم غريب لمعبد حتى من الناحية اللغوية . وقد كان المعبد مبنياً من الحجارة الموقصة (المصقولة) المرصوفة فوق بعض بشكل دقيق .

أما أعمدة أكسوم الشهيرة التي اعتبرها البعض مرحلة متطورة للمنـــــهير (Menhir) وهو عبارة عن صخرة ضخمة توضع على شكل عمود ، وآخر يرى أنها تشبه المســـلات المصرية، وفريق ثالث يعتقد أن هذه الأعمدة ليست سوى تقليد للمعابد الهندية القديمـــة ، والواقع أن شكل هذا الأعمدة كان يرمز بدون شك إلى بيوت مكونة من عدة طوابـــق ، تماماً على شكل البيوت التي مازلنا نراها اليوم في اليمن – منازل صنعاء القديمة وناطحـلت السحاب في شبام حضرموت– أما الزخارف الجانبية للأعمدة فإنها تحاكي فن البناء العـربي الجنوبي القديم والحديث في الوقت نفسه .

وهكذ نصل إلى القول ، إن سبأ كان اسماً لمملكة عربية جنوبية قديمة ، وأن مـــهاجرين من جنوب جزيرة العرب إلى الساحل الإفريقي من البحر الأحمر استقروا في أثيوبيا ، علـــى نحو ما فعلت القبائل العربية بعد الإسلام ، مع اختلاف الأسباب والدوافع . فقد هـــاجرت هذه القبائل العربية وسكنت أجزاء جديدة في مهاجرها كالأندلس ، وبلـــغ مـــن حبـــها لمواطنها الأول واعتزازها بها أن أطلقت على هذه الأجزاء الجديدة التي استقرت فيها أسماء الأماكن التي أتت منها ، مثل: مرب وهو اسم واد إلى الشمال من أكسوم ، وهوزن وهـــو اسم موقع اثري جنوب شرق أكسوم ويقابله في جنوب الجزيرة مخلاف هوزن – أي حراز الحالية – وصيغة اسم أكسوم يذكرنا بالصيغة العربية الجنوبية القديمة "أفعـــــول" الـــذي مازال يستعمل في عدد كبير من أسماء الأماكن اليمنية ، مثل "أبقور ، أجعود ، أحكـــوم ، أدمور ، أعبوس ، أشمور ، أعروق ، أفيوش ، أمجود ، أهنوم، . . . إلخ " . كما أن جـــذر الاسم "ك س م" يذكرنا باسم ناحية "كسمة" في ريمة اليمنية .

بل أكثر من هذا ، فقد جاء في نقش من يحا (JE4) ذكر جماعة على أنهـــم "ب ن / و ع ر ن/ ر ى د ن " " من وعران ريدان " والإسم "ريدان" يذكرنا بعدد مـــن المواقـــع في بلاد العرب الجنوبية ، كقصر ريدان القتباني ، وريدة عمـــران "ر ى د ت : في النقـــوش

المتأخرة " وقصر ريدان الحميري . ونقلت أيضاً هذه الجماعات المهاجرة فيما نقلت ما تواتر في الأساطير القديمة من نسب أسرها الملكية القديمة إلى سليمان وماكدا ملكة سبأ ، وهي على أية وجه من الوجوه تشير إلى أن دولة الجدة ماكدا التي انتسب ملوك أثيوبيا إليها كانت قريبة من دولتهم أي في بلاد اليمن .

فلنعد للكلام على الغرض الذي وضع من أجله (الكبرانجست) قبل أن نعرض لزمان وشخصية كاتبه ، وهذا الغرض لا يحتاج إلى كثير من الجهد للكشف عنه، إذ هو إظهار حق أسرة معينة في العرش الأثيوبي طبقاً للقصة الأولى أو حق أسرتين معينتين ، طبقاً للقصة الثانية . وليس الغرض من هذه القصة إثبات هذا الحق فحسب ، بل إثباته بصفة قاطعة ، مانعة ، تحول دون أي محاولة للثورة على هذه الأسرة ، بل تجعل هذه المحاولة إن حدثت نوعاً من الكفر أو تحدياً لمشيئة الله ، مادامت إرادة الله قد شاءت أن تدفع بهذه الملكة إلى زيارة سليمان من أجل إنجاب هذا الولد الذي أصبح يستند في حقه في العرش الإثيوبي على الحق إلهي .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا ألح الملك يوحنا الرابع (١٨٧٢– ١٨٧٩) على (إيرل جرانفل) وزير خارجية بريطانيا أن يعيد إليه النسختين الخطيتين من كتاب (كبرانجست) اللتين كانت الحملة البريطانية على إثيوبيا بقيادة نابير عام ١٨٦٨ قد استولت عليهما إثر هزيمة الملك ثيودوروس الثاني في موقعة مجدلا ، إذ كتب إليه يقول " إن الشعب الأثيوبي لن يطيعني أو يخضع لي بدونهما " .

وكذلك عندما طلب المسيو (هيولورو) مندوب فرنسا لدى الإمبراطور منليك الثاني (١٨٨٩ – ١٩١٣) إذناً بترجمة هذه المخطوطة إلى الفرنسية أجابه الامبراطور : " إن الأسلحة وحدها لا تكفي للدفاع عن الدولة ولكن الكتب أيضاً . إن ماتتكلم عنه هو فخر دولتي ، وإنه لما يسرني ، ويسر جميع أفراد الشعب الأثيوبي مني أن يترجم هذا

الكتاب إلى الفرنسية ، ليعلم أصدقاؤنا أننا نعيش ، ويعلموا أيضا أن الله لن يتركنا أبداً لأعدائنا " .

هذا من ناحية الغرض الذي وضعت من أجله تلك القصة أو القصتان ، أما عن زمن وضع كل منهما فإن ما ذكر عن سبب سفر الملكة إلى أورشليم يكفي لمعرفة هذا الزمن على وجه التقريب ، فإن قصة الثعبان – الذي ذكرته القصة الثانية – والذي كان يعبده أهل تجرى ، ثم تعودهم التقرب إليه بفتاة وقدر من الخمر وآخر من اللبن ، ثم تغلب الملكة على هذا الثعبان بمعونة القديسين السبعة ، يجزم تمام الجزم بأن هذا الزمن بعد ظهور المسيحية بقرون ستة على أقل تقدير ، فهؤلاء القديسون الذين ذكرت أسماؤهم لم يصلوا إلى أثيوبيا إلا في القرن الخامس الميلادي .

ومن الواضح أيضاً أن هذا الجزء لا يمت بصلة كبيرة إلى مجرى القصة ، وأنه قد وضع ، أو استعير لا لهدف سوى تشويق القارئ أو السامع إلى سماع بقية القصة ، ثم إلى "خلق" السبب الذي من أجله قامت الملكة بهذه الرحلة الطويلة: لأنها "سمعت عن سليمان ومقدرته الطيبة وعن قدرته على أن يفعل العجائب ، فصممت على أن تذهب إليه ليعيد قدمها إلى حالتها الأولى " .

ولكن الشيء الهام الذي يحدد ركن وضع القصة على وجه الدقة هو هذا الجزء من القصة الثانية الذي يروي أن الملكة صحبت معها في رحلتها وصيفتها، وأن سليمان قد تزوجها كما تزوج سيدتها وأهدى إليها كما أهدى إلى الملكة قطعة من الفضة وخاتما ومرآة، وأوصاها كما أوصى الملكة أن تبادر فترسل إليها ولدها الذي تنجبه . وتزيد القصة الثانية أيضاً أن الوصيفة أنجبت ولداً كملكتها . وأرسلت هذا الولد مع أخيه إلى بيت المقدس ، وأن هذا الولد أخفق في معرفة أبيه. ثم تتجاهل القصة هذا الولد تجاهلاً تاماً الأمر الذي يبدو غريباً غاية الغرابة ، كأنه لم يذهب إلى أورشليم . فذكر هذا الجزء من القصة الثانية ، بل إن تجاهله في القصة الأولى ، ينبهنا إلى أهمية وضع هذا الجزء ، وهذا

الوضع لا بد أنه كان لغرض خاص حرص واضع القصة الأولى على تجاهله . وهذا الشيء الذي يحرص أصحاب القصة الأولى على تجاهله هو حق غيرهم في ارتقاء العرش مهما كان هذا الحق ضعيفاً ، فإنجاب ولد آخر من امرأة يجعل لهذا الولد الحق في العرش .

ونحن نعرف من تفاصيل تاريخ اثيوبيا أن ملوك الأسرة السليمانية يقولون إنهم فقدوا العرش في القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر حين استرد من هذه الأسرة المغتصبة الامبراطور يكونو أملاك ، وكانت الأسرة المغتصبة هي أسرة زاجوا التي يذكر كتاب (كبرانجست) أن ملوكها أحد عشر ملكاً حكموا مدة ثلاثة قرون ، وأن أشهرهم وأكبرهم شأنا هو سابعهم الملك لاليبالا الملقب بجبر مسقل الثاني وأن آخر ملوكهم هو نكويتنا لآب الذي نزل عن العرش نزولاً سلمياً للامبراطور أملاك سنة ١٢٨٠ م .

فليس لنا إذن إلا أن نقطع بأن هذه الأسرة الزاجوية التي اغتصبت العرش في القرن العاشر الميلادي وتمكنت من الاحتفاظ به ثلاثة قرون كاملة ، هي التي وضعت في القصة هذا الجزء ، وأنها قصدت بذلك تأييد حقها في العرش وإظهار أن حقها يستند إلى نفس الأسس التي يستند إليها حق الاسرة الأخرى التي تفخر بانتسابها إلى منليك ابن ملكة سبأ من سليمان الذي لايستند في حقه في العرش إلى كونه ابناً لهذه الملكة بل إلى كونه ابناً لسليمان ، والولدان يستويان في هذه الصفة ، ولا شأن لكون الابن الثاني ابناً للوصيفة لا للملكة ، بل أكدت القصة الثانيه حقه في العرش أكثر من أمه حين جعلتها تنزل عن عرشها له ، ومادامت الأسرة الأخرى قد ضعفت إلى حد عدم استطاعتها الاحتفاظ بالعرش في نسلها ، فلن يكون هناك وارث طبيعي لها – يستطيع المحافظة على العرش السليماني والمحافظة على تابوت العهد ولوحي الشريعة – إلا هذا الابن الذي لا يقل حقه في العرش عن حق الابن الأول . ومن هنا نستطيع القول أن زمن وضع القصة الثانية كان النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، حين احتاجت هذه الأسرة الجديدة إلى تأييد حقها في العرش ، وأن وضع هذه القصة الثانية كان سابقاً لوضع القصة الأولى التي عنيت حين

استردت العرش باظهار حقها فيه ، فهي في المدة السابقة لاغتصاب هذه الأسرة الزاجوية العرش ، ثم استردادها إياه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر لم تكن في حاجة إلى ما يؤيد حقها في العرش مادام العرش في يدها حقيقة واقعة .

وأكثر من هذا أن القصة الثانية عنيت بأن تظهر أن الملك منليك لم يأت بتابوت العهد من أورشليم إلى أكسوم إلا بعد أن سرق وقتل ولجأ إلى الخديعة والغش ، فإنه لم يتردد في ادخال الغفلة على أبيه من أجل أن يسرق التابوت ، كما لم يتردد في قتل النجار الذي صنع له الصندوق ، وإجبار الكهنة على الصلاة من أجل أن يرفعوا الصندوق ، بل أنه لم يخرج من أورشليم إلا مطرودا بعد أن سئم الشعب تضارب أحكامه مع أحكام أبيه ، ولما كان أبوه معروفا بالحكمة وسداد الرأي فلابد أن تكون أحكام هذا الملك الشاب أبعد ما تكون عن الحكمة وسداد الرأي .

كل هذا يجعلنا نعتقد أن الذي وضع النصف الثاني من هذه القصة هم أصحاب الأسرة التي اغتصبت حقها مدة ثلاثة قرون ، ثم نجحوا في استرداده ، أي أن القصة الثانية قد وضعت في عهدين : وضع أولها في عهد الأسرة الزاجوية المغتصبة ، ووضع آخرها في عهد الأسرة التي استردت العرش ، بل إن هؤلاء الذين وضعوا النصف الثاني عنوا بأن يظهروا ابن سليمان الثاني بمظهر المهمل الذي لم يأخذ المرآة معه ليعرف وجه أبيه ، وقد جوزي على هذه الغفلة بأن سلب حقه في العرش .

ولما كانت هذه الأسرة الزاجوية قد قامت في لاستا ، وهي مدينة في تجري ، وكانت سلطتها في لاستا وتجري أقوى منها في أي جزء آخر أدركنا لم تداول أهل تجري هذه القصة دون غيرهم من أهل أثيوبيا .

ونلاحظ في القصة الثانية – أنها بعد وصول التابوت إلى أكسوم واحتفاظ منليك به –

لم تحاول أن تقدم لنا منليك في صورة الملك المحارب الذي ينجح في حكم دولته ، ولم تحاول أن تصوره لنا بطلا كما فعلت القصة الأولى ، فهي تريد أن تتجاهل هذا الملك بعد أن أدى الرسالة التي هيأه الله لأدائها ، لأن دوره لم يكن أكثر من حمل تابوت العهد إلى أثيوبيا مما لا يجعل حقه في العرش مؤيدا . وإذا استطعنا أن نحدد بصورة تقريبية واضع هـــذه القصـــة وزمان وضعها ، لأننا نعرف أن الأسرة الزاجوية حكمت ثلاثة قرون كاملة ، بل على وجه التحديد ٣٣٠سنة (٩٤٠-١٢٧٠) فإننا نستطيع أيضا أن نكون أكثر دقة ، فنحـاول أن نعين في أي جزء من هذه القرون الثلاثة بدأ وضع هذه القصة ، فقد انتهزت فرصة ضعـف الأسرة الأولى ، وعدم اتساع سلطة الملوك إلى أكثر من مدينة أكسوم وما حواليها وقـلمت الأسرة الجديدة في لاستا وهي منطقة متطرفة في غربي تجري، وجمعـــت حولهـا العنــاصر الغاضبة والتي أضرت بها الأسرة القديمة أو التي أضرت بها سيادة العناصر السامية ، وهـي قبائل الأجوا التي كانت تسكن أجزاء أجوامدر ، وقبائل الفلاشا واستطاعت هذه العنـلصر مجتمعة أن تقضي على الأسرة القديمة وتنقل العاصمة من أكسوم إلى لاستا لتبدأ عهد جديدا .

وكان العرش من نصيب الملكة جوديت ، وقـــد اســـتمر حكمـــها أربعـــين ســـنة (٩٤٠-٩٨٠) فليس من المقبول عقلا أن تلجأ مثل هذه الملكة إلى اصطنـــاع القصـــص لتأييد عرشها ، فالوسائل الشديدة العنيفة بل المتناهية في الشدة والعنف التي لجأت إليـــها هذه الملكة لا تتسق مع سياسة اصطناع قصتها من أجل تأييد حق في عرش قد حصلـــت عليه فعلا بقوتها وقوة من معها من جند وما معها من سلاح ، وخلف هذه الملكة الملـــك تكلاهيما نوت الذي سرعان ما تبين خطأ سياسة الملكة السابقة .

ورأى ماجرته سياستها على البلاد من السخط والتذمر وانتشارهما بـين الشـعب إلى درجة هددت الأمن والسلام ، حتى خيف أن يخرج الأمر من يدها ، فلجأ إلى وسائل مـن شأنها القضاء على هذا السخط وإعادة الطمأنينة الى نفوس الناس ، فكـــانت العـودة إلى المسيحية إحدى هذه الوسائل ، وإعادة العلاقات الدينية مع مصر وسيلة أخرى ، وتعـاون

الدولة مع الكنيسة على بث الطمانينة في النفوس وسيلة ثالثة ، ثم كان تأليف هذه القصة التي تثبت حق الأسرة الجديدة في العرش مستندة إلى أصول عميقة تعود إلى ما قبل الميلاد بعشرة قرون وسيلة رابعة .

لذلك أرجح أن تكون هذه القصة التي روت زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك المقدس مصحوبة برنيسة حرسها ، وأن سليمان رزق ولدا من كليهما قد وضعت في هذا العصر ، ولم يتورع منشئ هذه القصة – وربما يكون راهباً أثيوبياً – عن أن يدخل في قصته أجزاء من قصص كانت متداولة بين المسيحيين وكانوا يؤمنون بها إيماناً لا يعتوره الشك مثل قصة الثعبان الذي يطلب العروس واللبن والخمر ، ثم التغلب عليه بقوة الإيمان أكثر من أي قوة أخرى ، وكانت هذه الوسائل مجتمعة كافية لأن تبعث القوة في هذه الأسرة الجديدة فيمتد حكمها خلال عهد الملوك من الثالث إلى السادس دون أن نسمع أو يسجل لنا التاريخ ثورة أو محاولة لثورة من أجل الإنقضاض على هذه الأسرة . بل إن الأساطير تروي أن فرداً واحداً من أبناء الأسرة القديمة نجا من المذبحة التي قضت على جميع أفرادها ، وأنه استقر في شوا لا يستطيع أن يجرؤ على أن يرفع رأسه ، لأن نفوذ الأسرة الجديدة التي تحكم في لاستا كان ساحقاً ، على الرغم من ضعف الملوك القائمين بالأمر . فالمصادر كلها تجمع على أن السلطة الفعلية لملوك اسرة زاجوا لم تكن تتعدى منطقة سيمين ، ولكن يبدوا أن نفوذهما الأدبي كان كبيراً إلى حد أرغم أعدائها على الإنزواء ، ولم يكن هذ النفوذ الأدبي إلا نتيجة هذه القصة التي تثبت حقهم في العرش والتي انتشرت بين أفراد الشعب عن طريق رجال الدين و القصاص الذين انبثوا في الشعب يروون له هذه "الحقائق" التي لا يعتريها شك ، وأخيراً جاء الملك لاليبالا الذي اتخذ لنفسه اسم جبر مسقل الثاني فأكمل عمل تكلاهيمانوت ، فبنى مجموعة كبيرة من الكنائس ووقف عليها الأراضي مما كان سبباً في تدعيم هذه الأسرة .

ويبدو أن رجال الدين الذين نعموا بالهدوء والاطمننان في عهد كل من تكلاهيملنوت

ولاليبالا لم يكتفوا بما ترويه القصة ، أو أنهم رأوا أن يدعموا هذه الأسرة أكثر مما دعمت ، أو ربما رأوا بوادر ضعف قد سرت إليها ، فرفعوا الملك الأخير إلى مرتبة القديسين ، وصاغوا حوله اسمه مجموعة من القصص والخرافات تجعله فوق مرتبة البشر ، فقد عرف النحل ميعاد ولادته فتجمع حول والدته وسلم عليها سلام الملك ، ولم تكن هذه الجماعات من النحل سوى جماعات من الملائكة ، رأت أن تتخذ النحل صورة لها ، وكان هذا الملك أيضاً – كما تروي هذه القصص– مملوءاً بالحكمة من روح الله ، حتى لقد تآمر اخوانه عليه لقتله بالسم فدسوا إليه لحماً مسموماً ، ولكن الملائكة انقذته وحملته على أجنحتها إلى السماء الأولى فالثانية فالثالثة إلى السابعة حيث شاهد مجد الله بعينيه ، فأمر – جل جلاله – أن يبني عددا من الكنائس ، ولم تقف مؤمرات الأعداء عند حد ، فأخذت الملائكة على عاتقها أمر حمايته باخفائه عنهم في الكهوف والمغارات ، بل لم يترددوا في أن يقفوا إلى جانب العرش يحفظونه من أن يجلس عليه مغتصب ، وحملته أيضاً على أجنحتها إلى بيت المقدس لزيارتها ، ولعل الصلة بين قصة زيارة الملك سليمان في أورشليم وهذه القصة الأخيرة واضحة لاتحتاج إلى برهان أو دليل .

وحكم بعد لاليبالا أربعة ملوك ، ويبدو أنهم كانوا ضعافاً كأسلافهم كما أنهم لم يقوموا بأية عملية إنشائية تدر بعض الخير على الناس ، فمادت الأرض تحت أقدامهم ، وأخذت السلطة تنتقل رويداً رويداً من أيديهم حتى انتهى أمر اسرهم نهائياً بقيام يكونو أملاك في سنة ١٢٧٠ .

ولعلنا نلاحظ أيضا أثر الإسلام الواضح في هذه القصة ، فقد عنيت باظهار ما ذكره القرآن الكريم من كشف الملكة عن ساقها حين حسبت أرض الهيكل مغمورة بالماء كي تتسق مع ماذكره أولا من تحول قدم الملكة إلى قدم حمار ورغبتها في شفائها ، ثم رغبة الملك سليمان في رؤيتها دون أن يطلب منها ذلك، ويبدو أن المؤلف لم يفهم تماما ما جاء في القرآن الكريم ، أو أنه أراد أن يعطي الخشب اهمية أخرى علاوة على أهميتها الأولى في

الدور الأول من القصة ، فغمر أرض الهيكل بالماء ووضع الخشبة فيها .

ولا غرابة في تأثر أهل أثيوبيا بالإسلام ، فقد كانوا ، ولا يزالون – أقرب الناس إلى سكان الجزيرة العربية وأكثرها استقبالا للعرب قبل الإسلام وبعده ، حتى كانت هذه البلاد أولى الأجزاء التي سمعت عن قيام الإسلام وأولى البلاد التي فكر النبي صلى الله عليه وسلم في أن يهاجر المضطهدون من أنصاره فيستقرون فيها زهاء ستة عشر عاما ، فلابد أن أجزاء كثيرة من أثيوبيا قد قطنها المسلمون واختلطوا بالمسيحين ، فإذا ماجاء وقت تأليف هذه القصة كان أثر هذا الاختلاط واضحا ، كما يبدو أيضا فيما قيل عن حمل الملائكة للملك لاليبالا إلى المقدس ، وكذلك وضح هذا الأثر في القصة الأخرى حين عنيت بأن تذكر أن الملكة اكتشفت عن سليمان أنه كان يعرف لغة الحيوان والطير وأنه كان قويا يسيطر بقدرته على كل الأرواح والشياطين التي كات تأتمر بأمره ، وأن شعب ملكة سبأ كان يعبد الشمس كما جاء في القرآن الكريم . . . .

– ٥ –

والآن نعود إلى القصة مرة أخرى لنحللها أيضا كما فعلنا في القصة الأولى: ولعل أول مانلاحظه على القصة الأخرى " الأولى في الترتيب الذي أوردناه" أنها لم تعن بقصة الثعبان ، بل قصدت إلى الهدف مباشرة، وذكرت أن الملكة ماكيدا كانت واسعة الثروة والغنى تملك الكثير من الذهب والفضة ، وأنها سمعت عن حكمة سليمان فأعجبت به ، وزرع الله في قلبهاأن تذهب إلى بيت المقدس لترى هذا الملك العظيم وتتزود من حكمته ، فلم يكن حب الثروة ولا الرغبة في الشهرة ولا الرغبة في معالجة نقص بها هو الذي دفعها إلى هذه الزيارة، بل حب الحكمة ، وهو في ذاته غرض نبيل يرفع من قيمة الملكة في هذه القصة عن قيمتها في القصة الأخرى .

وتجاهلت القصة الأولى ذكر رئيسة الحرس وذهابها مع الملكة إلى أورشليم وزواج الملك بها وإنجابه منها بل تجاهلت كل ما يتعلق بهذا الولد الثاني ، ومن الواضح أن هذا التجاهل لايدع لأحد حقا في العرش ، بل حصر هذا الحق في شخص واحد هو هذا الابن الوحيد الذي أنجبته الملكة من سليمان فكل من عداه وليس من نسله لاحق له في العرش ، بل هو مغتصب له .

وأصرت القصة الأولى على ذكر الحلم الذي رآه سليمان في منامه ، بل أطالت في ذكر هذا الحلم وتفاصيله ، وأن الشمس سطعت في كبد السماء ثم سارت حتى وصلت إلى أثيوبيا واستقرت هناك ، ومعروف أن هذه الشمس تمثل انتقال الأسرة والعرش إلى بلد جديد ، الأمر الذي أثار رعب سليمان فكاشف به رئيس الكهنة ، فلم يكن رعب هذا الأخير أقل من رعب الملك .

وأظهرت هذه القصة أيضا كيف صحب صادوق الكاهن الأكبر منليك إلى الهيكل وأدخله إلى قدس الأقداس حيث لمس المذبح وأعلنه ملكا ، ثم أركبه بغلة سليمان وطيف به المدينة بين هتافات الشعب في حين اكتفت القصة الأخرى بأن ذكرت أن سليمان توجه ملكا ، وأجلسه على العرش ، والفرق بين النصين ظاهر فالمقصود بالنص الأول اشتراك السلطتين الدينية والزمنية في الاختيار . بل قد اتخذت في القصة كل مظاهر التتويج من إعلانه ملكا في الهيكل ، ثم خروجه في موكب رسمي يركب فيه بغلة سليمان ، وطوافه بالمدينة ثم استقبال الشعب وترحيبه به .

وأكثر من هذا كله أن القصة الأولى عنيت اكثر مايكون بأن تظهر أن من فكر في "سرقة" التابوت عن طريق الخداع والسير في إجراءات هذا الخداع لم يكن منليك نفسه ، فتنزهه عن ارتكاب كل هذه الأفعال التي لا تليق بالملوك ، بل كان الذي فعل ذلك هم الكهنة الذي صحبوه في رحلته بالإتفاق مع ابكار رجال الدولة ، فقد اجتمعوا من تلقاء

أنفسهم وصمموا على أن يحملوا هذا التابوت دون أن يدري أحــد بفعلتــهم ، ودون أن يستشيروا منليك أو أن يشترك معهم في شيء من تفاصيله ، ودون أن يقتل أحدا أو يخدع أحدا أو يــأتي ما تأباه الشرائع والقوانين الوضعية أو السماوية ، بـــل فوجــئ منليــك بالتابوت بعد أن وصل إلى مصر ،فلم يملك إلا أن يسجد له مع الساجدين ، علــى حــين وقف رفاقه يصفقون ويرقصون .

كذلك أظهرت القصة الأولى أن منليك لم يحاول الهرب من أبيــه أو خديعتــه ، بــل استأذنه في الرحلة ، فإذن له وقبله ومنحه بركته ، وأعطاه الغطاء القديم للتابوت .

وشيء آخر هام عنيت القصة بإظهاره ، وهو جمع الملكة لأعيان الدولــة ووجهائــها وقسمهم أمامها على أن لايجعلوا عليهم مستقبلا ملكة مطلقا ، وأن لايقبلوا عليهم ملكــا في المستقبل لايكون من نسل داود بن سليمان ، ثم إقبال الجميع على هذا القسم فرحين به

وكذلك أظهرت هذه القصة أيضا أن الملكة هي التي عينت عازار بن صادوق كاهنــا أعظم للدولة ، ومعنى ذلك – ولاشك – خضوع السلطة الدينية للسلطة الزمنيــة إذ أن الجالس على العرش هو الذي يعينه في مركزه .

وكذلك عنيت القصة الأولى بان تظهر منليك بأنه هو الذي نظم دولته على نحو مملكة أبيه ، كما نظم قوانينها وفقا للشريعة الموسوية ، وأنه حاول من هذا كله أن يجعــل مــن مملكته مثالا لمملكة أبيه ، وبذلك يكون الملك هو صاحب السلطة التشــريعية والتنفيذيــة العليا في الدولة ، وليست هناك سلطة أخرى تملك شيئا من التشريع أو التنفيذ .

وأخيرا عنيت القصة الأولى بأن تقدم منليك إلى الشعب ملكــا شــجاعا اشــترك في حروب كثيرة خرج منها جميعا منتصرا ، ثم إظهار أعدائه بأنهم كانوا أناسا لهم ذيول الحمير

هذه كلها فروق في القصتين لم توضع عبثا ، بل قصد بكل واحد منها إلى هدف معين ، فإظهار الملكة بمظهر الغنية التي تملك الكثير من الذهب والفضة يجعلها -كما ذكرنا- لاتهدف إلا لغرض نبيل ، كما يظهر أنها تقوم بهذه الزيارة لأن الله اراد أن يرزقها ولدا من سليمان يرث والده في الحكم ، وأن الله هو الذي أراد أن ينقل بيت داود من أورشليم إلى أثيوبيا .

وشاء الله أيضا أن يجعل منليك يرتقي العرش ارتقاء صحيحا ترضى عنه السلطات الدينية ، بل أن يتبع في ارتقاء العرش جميع الطقوس الدينية الصحيحة التي رضي الله عنها قبل أن يظهر غضبه على اسرائيل ، كما أن منليك هذا كان في كل تصرفاته مثلا للابن الصالح الذي يرضى عنه والده ، ولم يحاول أن يخدع أحداً أو أن يرتكب إثما في سبيل هدف ما ، وأنه إلى وقت سفره كان مباركا من سليمان حتى لقد أهداه غطاء التابوت .

وقسم أعيان الدولة ووجهائها أن لا يجعلوا عليهم في المستقبل ملكة ، مقصود به اظهار اغتصاب أسرة زاجوا لعرش لم يكن لهم حق فيه ، لاسيما أنه لم يصحب الملكة في سفرها أحد ممن يستطيع أن ينجب ولدا ثانيا لسليمان ، وإذا كانت الملكة استير "جوديت" اولى ملوك الأسرة الزاجوية قد ارتقت العرش الأثيوبي في القرن العاشر ، فقد كانت مغتصبة للعرش ، وبذلك أصبحت كل أسرتها ومن تولى العرش من بعدها من ملوك هذه الأسرة مغتصبين له ، بل إن كل من يرتقي هذا العرش في المستقبل من غير الأسرة السليمانية مغتصب للعرش ، لأن إرادة الله هي التي شاءت أن تجعل عرش أثيوبيا من حق هذا الابن ونسله من الذكور دون غيرهم ، وكل من يحاول ذلك إنما يقف أمام إرادة الله، بل يعارض إرادة الشعب بأكمله كما يعارض قسما أقسمه الشعب ممثلا في ذي المكانة منه عن رضا وارتياح ، ومن أجل هذا الغرض نصت المادة الخامسة من دستور سنة ١٩٥٥ م على أن " نظام الوراثة ينحصر في الذكور المولودين من زواج شرعي "

وطبقا لهذه القصة أيضا لايملك أحد من الشعب حقا بجانب حقوق الملك فهو الوحيد الذي يملك حق التشريع والتنظيم لهذه الدولة ، وكل قانون أو تشريع أو تنظيم أو تنفيذ لابد أن يصدر عن الملك بمحض إرادته ، بل إن هذه التنظيمات والقوانين التي يضعها الملك للدولة إنما هي تشريعات إلهية لا تصدر إلا وفقا لقوانين سماوية لايملك أحد معارضتها أو نقضها أو الخروج عليها.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا ذكر الامبراطور في خطابه الذي وجهه إلى "الأمراء والأعيان والأساقفة ورؤساء الكنيسة " في التاسع من هملى سنة ١٩٢٣ (١٩٣١)م . والذي أعلن بمقتضاه صدور الدستور الأول أن " أفكاره التي اتجهت إلى مصالح أثيوبيا ومصالح شعبها المحبوب هي التي تتجه الآن إلى أن يمنح شعبه دستورا دون أن يسأله أحد أو يطلب منه إصداره " .

كما نصت المادة الحادية والتسعون من الدستور الجديد الصادر في سنة ١٩٥٥م على أن الأمبراطور " يملك في حالة عدم اتفاق مجلس النواب والشيوخ على تشريع ما ، أن يضع مشروعا جديدا يختلف عن مشروعي المجلسين "

بل إن الملك – وفقا لهذه القصة – لابد له أن يدافع عن هذه القوانين وعن هذه النظم بكل ما يملك من قوة ، منها قوة السلاح ، وأن من يخرج عن إرادته أو يقف في وجهه معارضا إنما هو حمار أو كالحمار !

ومن هذا كله نستطيع أن نشير بيدنا الآن إلى من وضع هذه القصة الأخرى، ومتى وضعها ؟ ولماذا وضعها ؟ فجميع الأدلة تشير إلى شخص واحد ووقت واحد وغرض واحد، وهو يكونو أملاك الذي استرد العرش الأثيوبي ، كما تقول الاساطير الأثيوبية في القرن الثالث عشر الميلادي ، لتثبيت حقه وحق أسرته في العرش وانتزاع كل وهم يتجه

الى شخص آخر أو أسرة أخرى .

ونحن نعرف من حوادث التاريخ الأثيوبي أن يكونو أملاك عندما ظهر في القرن الثالث عشر الميلادي حرص على أن يظهر نفسه بأنه سليل الأسرة السليمانية القديمة ، ويذكر أنه كان مختفيا في إقليم شوا ، وأنه لم يكد يظهر معلنا دعوته حتى لجأ إلى وسائل مختلفة تعينه على بلوغ غرضه وكانت هذه الوسائل هي : -

أ - عقد إتفاق مع (أبونا) تكلاهيمانوت الذي كان رئيسا لديردبرا ليبانوس ينص على أن يمنحه رجال الدين وعلى رأسهم تكلاهيمانوت تأييد الجماهير التي تتأثر بهم، وأن يهب يكونو أملاك ثلث أراضي الدولة للكنيسة للصرف عليها وعلى رجال الدين والمنشآت الدينية في البلاد ، وأن ينصب تكلاهيمانوت رئيسا للإكليروس الأثيوبي ويحظى بلقب يؤيد هذه الرئاسة ولا يتمتع به أحد غيره ، وهو الاتشيجي ، كما يتمتع بسلطات لا يتمتع بها أحد غيره من رجال الدين الأثيوبيين .

وتذكر الأساطير الأثيوبية التي تروي تاريخ هذه الفترة أن "يكونو أملاك كان محبا للرب، وبسبب حكمته ذهب إلى تكلاهيمانوت وجعله أمينا على مملكته كي يقويه الرب على جميع أبناء إسرائيل ، فصلى تكلاهيمانوت وطلب من الرب - مصدر كل قوة - فصنع سلاما بينه وبين والرب ، فحينئذ ذهب يكونو أملاك إلى أبينا تكلاهيمانوت مصدر كل النور ورئيس الكهنة وأعطاه مملكة أثيوبيا وحكم خمسة عشرة سنة .

وواضح من هذا النص اتفاق السلطتين الزمنية والدينية على منح العرش الأثيوبي ليكونو أملاك ، ومباركة رئيس الكهنة في المملكة الجديدة بهذا العمل بعد أن عينته ملكيدا أم الملك .

وفي سبيل تنفيذ هذا الإتفاق لم يكد يكونو أملاك يعلن نفسه "نجوس نجست" لأثيوبيا حتى أعلن تكلاهيمانوت من جانبه أنه قد توصل إلى عقد اتفاق سلمي مع آخر ملوك الأسرة الزاجوية ، وهو نكويتالاب ، على أن يترل عن التاج واللقب للأسرة السليمانية في شوا مع احتفاظه ونسله بلقب (نجوس) وجزء من ولاية لاستا ، على أن تكون أرضه معفاة من الضرائب ، كما يحق له أن يجلس على عرش ذهبي مماثل لعرش الامبراطور ، وأن تكون له شارات ملكية مصنوعة من الفضة ، وكذلك سنان رمحه ، وأن تكون له طبول محلاة بالفضة أيضا .

وكوفئ أبونا تكلاهيمانوت على هذه المساعدة بأن نصبه يكونو أملاك اتشيجي، أي رئيسا للأكليروس الوطني ورفعته الأسرة السليمانية فيما بعد إلى مرتبة القديسين، والفت في حياته كتابا ضخما ذكرت فيه أنه من نسل عازار ابن صادوق الكاهن الذي ارسله سليمان مع ابنه منليك ليكن كاهن مملكته الجديدة والذي دبر مسألة نقل تابوت العهد القديم من أورشليم إلى أثيوبيا .

وقد ساعد تكلاهيمانوت بنفوذه ونفوذ الكهنة الذي يخضعون له على نشر الدعاية ليكونو أملاك في مختلف أنحاء الدولة حتى استطاع أن يجمع جنودا بلغت ست فرق بقيادة مالزاي رئيس الجند الذي باركه تكلاهيمانوت واستطاعت هذه الجيوش أن ترغم الملك الزاجوي على تنفيذ الاتفاق الذي كان قد وقعه مع ابينا تكلاهيمانوت .

ب- وكانت الوسيلة الثانية التي لجأ إليها يكونو أملاك هي أنه أرسل إلى مصر يطلب إعادة العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية ، وكانت هذه العلاقات الدينية قد قطعت منذ عشرين سنة تقريبا ظل فيها منصب المطران شاغرا ومات فيها كثير من رجال الدين ، وأضطر الناس خلالها إلى أن يتزوجوا دون اللجوء إلى الكنيسة ، وأن يهملوا تعميد أولادهم، بل أن يهملوا أيضا الذهاب إلى الكنائس والقيام بالطقوس الدينية والمدنية .

ولعدة أسباب رفض السلطان الظاهر بيبرس السماح بتعيين مطران .

جـ - ولجأ يكونو أملاك إلى وسيلة ثالثة وهي استعمال القوة لإرغام آخر ملوك أسرة زاجوا على تنفيذ اتفاق النزول عن العرش ، ولسحق كل من تحدثه نفسه بالثورة على الامبراطور الجديد ، فلجأ من أجل ذلك إلى التجار المسلمين يستنجدهم ، وكان هؤلاء على نصيب كبير من القوة والثروة بفضل هذه التجارة الواسعة التي كانوا يدبرون أمرها سواء في المحيط الهندي أو البحر الأحمر ، فقد كانوا هم يتولون نقل التجارة الهندية - بعد أن يتولى التجار الهنود نقلها من موطنها إلى عدن بسفنهم الضخمة - إلى موانئ أثيوبيا والسوادان ومصر المطلة على البحر الأحمر ، بل كانوا يتولون نقلها أيضاً إلى بقية أجزاء أفريقية ، وكان لهم من أجل ذلك أساطيل بحرية ضخمة وجيوش منظمة قوية تحمل أحدث ما وصل إليه العلم آنذاك من سلاح .

وكان أن عقد يكونو أملاك مع أحد هؤلاء التجار ويدعى عمر ولسمع اتفاقاً نص على أن يقدم هذا التاجر مساعدته المالية والحربية إلى يكونو أملاك حتى يتمكن من تنصيب نفسه امبراطوراً على أثيوبيا ، فإذا نجح في ذلك نصب عمر ولسمع سلطاناً ايفات المسلمة التي تقع في شرق أثيوبيا وتطل على البحر الأحمر عن طريق ميناء زيلع ، كما يمنحه حرية الإغارة على مملكة شوا الإسلامية التي كانت قائمة في شرق أثيوبيا منذ أكثر من ثلاثة قرون ويحكمها حكام وملوك مسلمون وتتمتع بنصيب كبير من الاستقلال ، كما يمنحه رياسة الأجزاء الإسلامية من دولته على أن يكون بعد ذلك خاضعاً لسلطة الامبراطور .

فهل تستبعد أن يلجأ يكونو أملاك إلى سلاح الدعاية يستخدمه ليثبت حقه في العرش ، فيضع هذه القصة التي تظهر أن مايبذله من الجهد للجلوس على العرش الأثيوبي ليس إلا من أجل استعادة حق اغتصبه المغتصبون قبل ذلك بقرون ثلاث ، وأن حق هؤلاء المغتصبين - وإن طالت مدهم - لايرقى إلى حقه ، وأن الوارث الطبيعي جاء ليسترد حقه المسلوب

، وكان في وضعه لهذه القصة في شكلها الجديد سالباً كل حق من الأسرة القديمة ، بل مظهراً إياهم بأنهم اغتصبوا شيئاً لم يكن لهم فيه أدنى حق أو شبهة من حق ، وأن هذه القضية التي يستند إليها هؤلاء الملوك الزاجويون إنما هي قصة مخترعة أضافوا إلى أصلها أشياء لم تكن فيها ، وحذفوا منها أشياء لم يكن من حقهم أن يستبعدوها لأنها تسند حقاً لم يكن لهم ، وأن القصة الحقيقية للزيارة إنما هي تلك التي يذيعها هو.

ولعل إخفاق يكونو أملاك في سياسة استقدام مطران مصري جديد ، ثم محاولة استقدام مطران أرثوذكسي آخر وإن كان غير تابع لكرسي الاسكندرية ذي العلاقات التقليدية ، ثم عدم رضا الشعب عن هذه الخطوة الجريئة التي رآها فصلاً بينه وبين كنيسته التقليدية المحبوبة ، وعدم رضا رجال الدين عن هذا كله هو الذي شجعه على اختراع هذه القصة وعلى اعطائها هذه الصورة التي يرغب فيها والتي تؤيد حقه وتسلب الآخرين حقهم .

ويؤيد هذا مافعله يكونو أملاك لأول مرة في التاريخ الأثيوبي من إنشائه ما نستطيع أن نسميه (ديوان التأريخ) مهمته تسجيل الحوادث الهامة التي تقع وترتيبها وإذاعتها ، فهل نستبعد أن يقوم هذا الديوان أو هذه الإدارة بمهمة وضع هذه القصة في الشكل الذي يتلائم مع الهدف الذي يسعى إليه الامبراطور؟

- ٦ -

وأخذ يكونو أملاك ينشر هذه القصة بمختلف وسائل النشر ، فكان رجال الدين من هذه الوسائل فأخذوا يرددونها في مجتمعاتهم ويكثرون من ترديدها كلما اجتمعوا مع أفراد الشعب ، كي يجعلوه يؤمن بما جاء بها ، وكان تكلاهيمانوت ورياسته الجديدة على رجال الدين أكبر عون على هذا الذيوع وأخذ الرهبان في الأديرة المختلفة بفضل المنحة التي وهبها إياهم ، وهي ثلث أراضي الدولة ، يكتبون هذه القصة ويكثرون من كتابتها في مخطوطاتهم، ويرسلون هذه المخطوطات إلى مختلف الكنائس كي يقرأها أفراد الشعب

أو يقرأها الكهنة للشعب أو يعلموها للصغار في المدارس والكتاتيب الملحقة بالكنائس والأديرة ، ولابد أن هذه المنحة قد هيأت الظروف لكثير من الناس أن ينظموا إلى صفوف الرهبان ورجال الدين بعد أن رأوهم يتنعمون بما لم يكونوا به من قبل ، فكثر عددهم في الأديرة القائمة ، بل كثر عدد الأديرة في طول البلاد وعرضها ، وأقبل الأثيوبيون يلتحقون بها ، فكانت هذه الوسائل هي الأداة التي مكنت يكونو أملاك من نشر القصة وإذاعتها .

ولجأ يكونو أملاك إلى الشعراء والمنشدين يدفع إليهم أو يدفع بهم إلى من يحفظهم هذه القصة ثم يطلقهم ينشدونها في معابر الطريق وزوايا الشوارع وفي سهرات الأثيوبيين وحفلاتهم ومآتمهم وآفراحهم وكلها مجتمعات تضم اشتاتاً مختلفة من الناس قد تطول إلى أربعين يوماً ، بل إلى عام كامل في بعض الأوقات على نحو ما جرت عليه عادة القوم في تلك الأيام ، فكانت كلها فرصاً تتيح لهؤلاء الشعراء والكهنة والرهبان ورجال الدين أن يبلغوا من غرضهم مايريدون ومايريد سيدهم أن يبلغ .

وكان للإثيوبيين من الظروف الطبيعية مايساعد علىسرعة انتشار هذه القصة فهم شعب مرح يحب الغناء والطرب ويميل إليه ، وعندهم الكثير من الآلآت الموسيقية تساعدهم على توقيع الألحان مصحوبة بالغناء بل كان لهم من الآلات الموسيقية ما يساعد الشاعر أو المنشد على ترديد القصص وأعمال البطولة لمن يحبونهم من الأبطال والشجعان ، فإذا ما أظلمت الدنيا وأقبل الليل كون الأثيوبيون في بيوتهم الحلقات المختلفة من الرجال والنساء، واقبلوا على مشروبهم الوطني الذي يصنعونه من الشعير أو العسل يرشفونه رشفاً بل يعبونه عباً في كميات كبيرة ، فتميل أنفسهم إلى سماع الشاعر ضارباً على آلته الموسيقة مترنماً بالشعر والقصص .

وكان فصل المطر الذي يستمر أربعة شهور أو أكثر في بعض الأحيان فرصة أخرى لانتشار هذه القصص وأشباهها بينهم فمن عادتهم أن يهيئوا أنفسهم كل عام لقدوم هذا

الفصل ، فيختزنون من المواد الغذائية ما يكفيهم طوال هذه المدة التي يقضونها في بيوتهم مادام المطر ينهمر طول الليل وجزءاً كبيراً من النهار فلايمكنهم من رعي مواشيهم أو الابتعاد بها عن موطنهم ، ولا يمكنهم من زراعة أرضهم ، ويحول دون الانتقال أو السفر إلى قرى غير قراهم ،فليس لهم إلا أن يقضوا هذا الفصل الكبير في كسل دائم يقبلون فيه على طعامهم وشرابهم وإلى ما يحبونه من التجمع حول الشاعر ، يسمعون منه ما تميل إليه نفوسهم من قصص الأبطال وكانت هذه الأوقات أيضاً فرصة لرجال الدين ليترددوا على أبنائهم في بيوتهم يسمعونهم من هذه القصص ما تصبو إليه نفوس الشعب ، ومايرغب الكهنة في ترديده من قصص تزيد من سلطانهم فيجزون عنها خير الجزاء .

وعمد يكونو أملاك إلى الرسامين أيضاً ينقدهم مكافآت جزيلة فيقومون برسم تفاصيل هذه القصة في صور صغيرة متلاحقة متلاصقة على قطع كبيرة من الجلد أو القماش أو الورق ، ويلونونها بالألوان الصارخة التي تستهوي الناس فيقبلون على شرائها ، ومازال هؤلاء الرسامون يقومون بعملهم هذا حتى الآن ، وقد تبلغ تفاصيل القصة من الكثرة درجة تؤهل الرسام لأن يرسم عدداً من الصور تبلغ المائة عداً يجعلونها خطوطاً منتظمة لتروي وقائع القصة في إسهاب وتفصيل دون أن يتركوا منها شاردة ولا واردة .

ولم يكن يكونو أملاك في هذا العمل مخترعاً ولا مبتدعاً ، فقد سبقه ملوك الأسرة الزاجوية في وضع القصة بعد أن استندوا في وضعها إلى ماجاء بالكتب السماوية من أصل تاريخي لزيارة من كانت تسمى بملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس في عاصمته ، ثم أكملوا القصة بما وجدوه في كتب السير والقصص المتداولة واختاروا منها ما يشتهون ، فاستند يكونو أملاك على هذه القصة فأخذ أكثرها وحذف منها مالا يروقه أو يتفق مع غرضه ، وأضاف إليها أجزاء تتفق وهذا الغرض .

ولم يكن ماورد في الكتب السماوية السابقة ، ولاما روته القصة الأولى ، هو المصدر

الوحيد الذي استند عليه في روايته لقصته وتأليفها ، بل كان هناك ايضاً مايردده سكان أجزاء أخرى من أثيوبيا عن قصة ملكة "الحبشة" التي كانت حاملاً ،، ورأت عنزة سمينة فنظرت إليها واشتهتها ، وقالت : ما أسمن هذا الحيون ! وما أسمن أقدامه ! ولما أتت أيامها ولدت طفلة جميلة إحدى قدميها قدم عنزة ، وعندما كبرت هذه الفتاة وأصبحت تصلح للزواج أعرض عنها بسبب قدمها ، وظلت هذه الفتاة عذراء حتى ارتقت العرش وسمعت عن سليمان وحكمته ومقدرته في شفاء جميع الأمراض والعلل ، فأرادت أن تسافر إليه لأن إرادة الرب كانت أن يستمر ملك داود إلى نهاية العالم ، فقد أقسم الرب لداود أن نسله لن يفنى ، وسيجلس هذا النسل على العرش ما دام يحافظ على اللوح والشريعة ، وما اسهل أن يحمل هذا اللوح وهذه الشريعة إلى أثيوبيا ! .

وهذه القصة الجديدة لا تختلف عن القصة الثانية التي أوردناها في أول هذا البحث إلا في هذه المقدمة ، ويبدو أن واضع هذه القصة الجديدة رأى أن مقدمة الأولى عن بناء الهيكل، ثم عن هذه الفتاة التي خلصها القديسون السبعة من الثعبان الشره ، مما لا يثير اهتمام الناس لما فيها من خرافة ظاهرة فأهملها واستبدل بها هذا "الوحم" الذي يصيب الحبالى في الشرق وغير الشرق ، والذي يدفع النساء إلى طلب المستحيل مخافة أن يصيبهن ماأصاب هذه الفتاة.

ولم يكتف مؤلفو هذه القصة أيام يكونو أملاك بهذه المصادر ، بل اتخذوا أيضاً ما يردده المسلمون القاطنون في شرق الحبشة عما ورد في القرآن الكريم عن ملكة سبأ وزيارتها لسليمان ، فقد كانوا يضعون لهذه الملكة اسم بلقيس ويزيدون على ماورد في القرآن الكريم مارادده المفسرون والقصاص من أنها ارسلت هديتها الأولى إلى سليمان خمسمائة رجل وخمسمائة جارية بعد أن ألبست الرجال ملابس النساء والجواري ملابس الرجال ، وحملوا معهم خمسمائة أوقية من الذهب وتاجاً مرصعاً وقدراً كبيراً من المسك والعنبر والتوابل والأخشاب الثمينة . واسرع الهدهد إلى سيده ليخبره بما حده وبأن سفارة من

الملكة في طريقها إليه ، فلما وصلوا استقبلهم سليمان في ميدان فسيح يحيط بـــه حـــائط حجارته من ذهب وفضة ، وأمرهم أن يعودوا من حيث أتوا ويقولون لسيدهم أن سليمان قادر على أن يرسل لهم جيشاً لايقاوم ، فلما عرفت بلقيس ذلك عولت على أن تذهـــب بنفسها لتقدم خضوعها ، وخرجت تقصد أورشليم يصحبها جيش كبير ، وهناك وهبتـــه نفسها ، وندمت على عبادها الشمس وأسلمت .

وكان المصريون وبخاصة مسيحيوهم ورهبانهم الذين عاش بعضهم في الأديرة الأثيوبيـة أو اختلط بهم الرهبان الأثيوبيون في الأديرة المصرية ، يرددون ما جاء في العهد القـــديم ، وماذكره الشيخ المكين ابن العميد في كتابه "التاريخ" من أن سليمان بن داود كان ثـــالث ملوك مملكة اسرائيل ، وأنه ملك أربعين سنة، وأنه كان يقدم في كل يوم على مذبح الـرب ألف ذبيحة ، وأن الرب أعطاه ماطلبه من الحكمة كي يستطيع أن يحكم شعبه مفضلاً إياها على الأموال الوفيرة وطول العمر ، وأن الله مكنه من بناء الهيكل الذي حفظ فيه تـــابوت الرب ، وأن الملوك كانوا يسعون إليه كي يسمعوا الحكمة منه ، وأن ملكة سبأ سمعت عــن حكمته فأتت إلى أورشليم ، ولكن الله غضب عليه لكثرة ما تزوج من نســـــاء غريبـــات وثنيات ولسماحه لهن أن يتعبدن للآلهتهن ، بل لقد بنى لهن المحرقات ليقدمن الذبائح لهـــذه الآلهة ، حتى لقد أقسم الرب ليشقن ملكه من بعده ويصيره لغيره .

وكذلك كان البابليون يحتفظون أيضاً بلوح عليه صورة إلههم بعل ، وكان الإله يـزور هذا المكان الذي فيه اللوح مرة كل عام كما يعتقدون ، بل كانوا يحتفلون بهذه الزيـــــارة التي يقوم بها الإله في يوم معين من العام فيقيمون المواكب الكبيرة الفخمة

فمن هذه المواد مجتمعة ومن غيرها صاغ يكونو أملاك قصته الأخيرة ، وضمنها كتـاب (كبرانجست) الذي يحوي علاوة على هذه القصة أسماء ملوك أثيوبيا منذ أيام منليك بـــن سليمان ، ويعتقد الأثيوبيون ، جميعا بصحة ماجاء في هذا الكتاب اعتقاداً لا يعتوره شك .

وهناك من المؤرخين من يقول أن إنشاء قصة زيارة الملكة سبأ إلى بيت المقدس تعود إلى عصور سابقة لهذا كله ، إذ يرجعونها إلى القرن السادس الميلادي ، بل يقولون أنها وضعت أصلاً بالقبطية وبواسطة راهب قبطي عاش في مصر أو أكسوم أو أي جزء من أثيوبيا ، وأنها ترجمت إلى العربية أولاً في عصور تالية ثم إلى الحبشية في القرن الثالث عشر ، وأنه قد أضيفت إليها في أثناء الترجمة زيادات من مصادر عربية أو اسلامية ، بل هناك من يؤيد نصف هذا الرأي ويقول إن الترجمة من العربية إلى الحبشة كانت سابقة للقرن الثالث عشر، ويحدد لها مدة حكم لاليبالا ، سابع ملوك الأسرة الزاجوية ، وسواء أكان هذا الرأي أم ذاك فهو لا ينفي ما ذهبنا إليه بل يؤيد ماذكرنا من أن ملوك الأسرة الزاجوية هم أول من اهتم بهذه القصة وعمل على تدوينها ونشرها ، وتابعهم في هذا التدوين والنشر ملوك الأسرة السليمانية الجديدة في القرن الثالث عشر، وكان وضع ملوك الأسرة الزاجوية لها بالصورة التي تروق لهم وتتفق مع أهدافهم ، كما كان اهتمام ملوك الأسرة السليمانية بها في القرن الثالث عشر، أي يكونو أملاك أو ابنه على أكثر تقدير ، ولابد أن يكون هناك جزء مشترك بين القصتين .

ويذهب إلى هذا الرأي كثير من المؤرخين ، ويقولون ان الصياغة النهائية لهذه القصة أو الترجمة إلى الحبشية سواء من القبطية مباشرة أو من العربية لم تتم إلا عقب نجاح يكونو أملاك فيما أسماه "عودة" الأسرة السليمانية ، ويؤيدون قضيتهم مستندين إلى بعض تعبيرات قصة "كبرانجست" تثبت النص العربي الذي ترجمت منه، بل يؤكدون أن هذه الترجمة من العربية تمت على يد أبي الفرج ابن العسال الذي عاش في مصر في القرن الثالث عشر تحت إشراف قس أثيوبي يدعى إسحق استطاع أن يدس إلى الأصل العربي بعض إضافات لتعطي القصة أهمية لم تكن لها .

وبعد أن أتم الأثيوبيون وضع القصة على الصورة التي يشتهونها والتي تتفق مع أغراضهم اجتهدوا في أن يجعلوا مظاهر دولتهم ومراسمها تتفق مع ما جاء في هذه القصة ، فبالغوا في المحافظة على مظاهر خاصة من أجل أن يجعلوا انتسابهم إلى سليمان بن داود أمواً مفروغاً منه ، وراعوا أن تطبق هذه المظاهر على ماكان يحدث أيام هذا الملك فيقولون إن من عادة اباطرة اثيوبيا إذا ما ارتقى احدهم العرش أن يخرج فيستقبله الجيش والشعب بالأعلام الملكية داعين له بالسعاده والأيام المليئة بالهناء ، فيبادر هذا ويطلب من المطران تتويجه كي يحصل على السند الشرعي بجانب السند الفعلي ، ونحن نجد في مظاهر هذا التتويج التي كانت متبعة حتى أوخر القرن الثامن عشر ، والتي يصف لنا بروس الرحالة الاسكتلندي انطباقاً يكاد يكون تاماً على ماكان يحدث أيام سليمان وروته لنا الكتب المقدسة ، إذ كان الامبراطور يخرج من قصره راكباً بغلته يقصد الكنسية وهي مهيأة لهذه المناسبة مفروشة بالبسط ، وفي صدرها العرش الملكي تحت صورة كبيرة للقديس جورجيس أو الملاك ميخائيل ويحيط به القضاة والأشراف، ثم يأتي المطران وهو رئيس الكهنة فيمسح رأسه بالزيت المقدس ويضع التاج على مفرقيه وهو يقول : " مات الملك ، عاش ملكنا " ، فيصيح الرجال علامة الفرح ، ويتقدمون فيقبلون يده ، في حين يكون الفناء الخارجي يعج بالحرس والشعب ، وبعد انتهاء الاحتفال يغادر الاشراف المكان وهو يقرعون الطبول لإعلان الخبر الجديد إلى بقية الولايات بطريقة غير منتظمة ، حتى إذا تم هذا أصبح في استطاعة الملك ومن حقه دون اعتراض من أحد أن يعزل من يشاء من أصحاب المناصب ، وبخاصة مناصب القصر ويعين فيها من يشاء من أصحابه .

ونحن نجد مظاهر التتويج أيام سليمان كما جاءت في العهد القديم قريبة من هذا فقد جاء بشأن تتويج سليمان : "فنزل صادوق الكاهن وناتان النبي وبناياهو بن يهوداع والجلادون والسعاة ، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود ، وذهبوا إلى جيحون – لأن

الهيكل لم يكن قد بني بعد – فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة – وهي التي كانت حتى ذلك الوقت بمثابة الهيكل– ومسح سليمان وضربوا بالأبواق ، وقال جميع الشعب : ليحيى الملك سليمان وصعد جميع الشعب وراءه ، وكان الشعب يضربون الناي ويفرحون فرحاً عظيماً حتى لقد انشقت الأرض من أصواهم " (سفر الملوك الأول : الإصحاح الأول : ٣٨ – ٤١) .

بل حرص أباطرة أثيوبيا إلى عهد قريب جداً على أن يكون تتويجهم في مدينة أكسوم حيث يحتفظون بتابوت العهد ، فصارت تعرف باسم المدينة المقدسة ، ومازالت تيجان كثيرين من هؤلاء الأباطرة محفوظة هناك ، وكانو يختارون لأنفسهم عقب التتويج أسماء جديدة يعرفون بها كما اختار سليمان لابنه اسم منليك .

وكذاك عنى الأثيوبيون بإكمال هذا التشابه ، فعين الامبراطور اثنى عشر قاضياً ليكونوا مجلس القضاء وكان هذا المجلس مختصاً بالقضايا الكبيرة ، كما كان بمثابة مجلس استشاري يستشيره الامبراطور في امور الدولة وبخاصة ماكان متعلقاً بالدخول في المعارك الكبرى أو عقد المعاهدات . وإن كان الامبراطور غير ملزم باتباع ما استقر عليه رأي المجلس أو رأي أغلبية أعضائه ، بل كان يملك حق مخالفته وتنفيذ مايراه وقد ظل الأثيوبيون طوال تاريخهم لايزيدون عدد أعضاء هذا المجلس واحداً ولاينقصون واحداً . بل ظل كما هو اثنى عشر عضواً كما ظل الامبراطور يحمل لقب "الأسد المنتصر ، الخارج من سبط يهوذا المختار من الله ، ملك ملوك أثيوبيا ".

وإذا كان الامبراطور حينما منح شعبه الدستور الأول سنة ١٩٣١ لم ينص فيه على وجود القضاة ذي الاثنى عشر عضواً فلم يكن هذا يعني إلغاءه ، بل ظل قائماً يسدي المشورة إلى الملك كلما دعاه الامبراطور إلى الاجتماع وطلب النصيحة منه ، أما في الدستور الثاني فقد اضاف الامبراطور إلى المجلس المطران وأسماه مجلس التاج وجعل أعضاءه

جميعاً معينين ، وجعل منه أداة يستشيرها في المسائل ذات الخطورة ، بل في أخطر شئون الدولة ، مثل رغبة الامبراطور في نزع ولاية العهد من أكبر أبنائه واختيار آخر لخلفه على العرش إذا كان الابن الأكبر غير مستطيع تحمل أعباء الملك لقصور فيه . وجعل الحكم على كفاية ولي العهد محصوراً في يد الامبراطور بعد استشارة مجلس التاج .

كما عني الامبراطور أيضاً في أن يعين له إلى جانب الحاشية المدنية حاشية أخرى دينية لها ماللحاشية الدينية من السلطة والنفوذ ، وكان يرأسها الاتشيجي الذي هو كما ذكرنا كبير الرهبان الأثيوبيين ثم يليه (الاكابي ساعات) وهو الموكل بالمحافظة على المعتقدات وتتبع الخارجين ومحاكمتهم ، والحكم عليهم وتنفيذ الحكم ، وإن كان هذا المنصب لم يخلق إلا أيام الامبراطور زرأ يعقوب في القرن الخامس عشر .

وكذلك عني الأثيوبيون بأن يحافظوا على الكنيسة المستديرة الشكل التي تشبه خيمة الاجتماع يتوسطها قدس الأقداس الذي لا يدخله إلا الكهنة والملك والأشراف ، ثم القسم الأوسط الذي يدخله رؤساء الشعب ، وهم الذين يمثلون رؤساء القبائل التي كانت تتكون منها مملكة سليمان ، ثم القسم الخارجي الذي يقف فيه الشعب ، بشرط أن يكون الواحد منهم مستحقاً أن يقف فيه ، أي متطهر لم يرتكب إثماً ، أما من يجد نفسه غير مستحق لأن يقف في إحدى هذه الأقسام فعليه أن يخرج خارج أسوار الكنيسة ، ولوكان في الكنيسة ماكان له ، وكانت الكنيسة تشبه أيضاً هيكل الرب الذي بناه سليمان حين "هيئا محراباً وسط البيت من الداخل ليضع هناك تابوت عهد الرب " "سفر الملوك الأول ، الإصحاح السادس : ١٩" .

كما حافظ الأثيوبيون على أن يظلوا في الكنيسة وقوفاً ، فبرغم أن جميع الكنائس المسيحية ، ومنها كنيسة مصر التي يتبعونها قد أدخلت نظام الجلوس في غير الهيكل ، إلا أن الأثيوبيون وحدهم ظلوا يحافظون على الوقوف رغبة في التشبه بنظام الهيكل القديم ،

ومراعاة لهذا التشبه أيضاً ظل الأثيوبيون يحافظون على استعمال بعض الآلات الموسيقية في بعض احتفالاتهم الدينية ، كالطبول والسسترون وغيرهما، كما حافظ الرهبان على الرقص ايضاً في بعض الاحتفالات لأن كهنة أورشليم كانوا يزاولون هذه العادة في احتفالاتهم ، بل إن سليمان وداود كانا يرقصان في هيكل الرب أمام المذبح تمجيداً له .

بل مازال الأثيوبيون حتى الآن يميلون إلى ترتيل المزامير أكثر من أي جزء آخر من أجزاء الكتاب المقدس ، ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، أكثر مما يحفظون من أي جزء آخر ، ويقبلون على نسخها في الأديرة أكثر من أي جزء آخر ، كما يقبل الناس على شرائها وحيازتها ، أكثر مما يقبلون على شراء أي جزء من أجزاء الكتاب بعهديه القديم والجديد ، ويجوز لنا أن نقول أيضاً إنه من أجل إكمال التشابه بين مملكة اثيوبيا ومملكة أورشليم لم يحاول أحد من الاباطره أن يضع نظاماً ثابتاً من أجل توراث العرش ، ومن ثم أصبح هذا التوارث – وإن كان محصوراً في نسل منليك بن سليمان ومتجهاً إلى الابن الأكبر للجالس على العرش أمراً نظرياً فقط ، وقلما كان يحدث من الوجهة الفعلية أو الواقعية ، فوارثة الابن الاكبر لأبيه الجالس على العرش نادرة ، فقد حدث في أكثر من مرة أن فضل الابن الاصغر على الأكبر .

كما اتجهت الوراثة في بعض الأحيان إلى الأخ أو العم ، ثم تعود بعد فترة طويلة إلى الابن ، وربما كانت القاعدة الوحيدة التي اخذ بها هي مبدأ القوة ، أي أن العرش كان دائماً من نصيب الأقوى الذي يستطيع التغلب على المتنافسين ، كما كانت القاعدة أيضاً أن يبادر الجالس على العرش بالقبض على كل من كانت هناك شبهة في ارتقائه العرش من الأخوة والأعمام وقتلهم ، أو على الأقل الزج بهم في السجون وحراستهم حراسة قوية ، حتى إذا جاء الدستور الأخير نص على وجوب تسلسل الوراثة في الأبناء الذكور دون الإناث ، وفي الابن الأكبر دون الاصغر ، إلا أنه في الوقت نفسه ترك للأمبراطور حق اختيار ولي عهد آخر غير ولي العهد الشرعي ، على أن يأخذ بذلك إذناً من مجلس التاج

بعد أن يتبين كل من المجلس والامبراطور أن هناك من الأسباب ما يمنع ولي العهد من القيام بوظيفة الملك خير قيام ، لمرض أو غيره من الأسباب التي تعوقه عن مباشرة وظيفته ، ولا يشترط في هذا المختار إلا أن يكون من أقرب الذكور إلى الأمبراطور ومن النسل المباشر للامبراطور سهلاسلاسي الجد الأكبر للمبراطور هيلاسلاسي ، على أن يقسم عند اختياره بأن يراقب تصرفات الامبراطور الجالس على العرش ويحترم رغباته ولا يحيد عنها.

ويبدو أن هذا كله وإن كان متفقاً مع التقاليد الأثيوبية إلا أنه وضع أيضاً من أجل إكمال التشابه بين السلطة الامبراطورية في أثيوبيا والسلطة الملكية التي كانت لداود ونسله من بعده ، فقد جاء في سفر الملوك أن داود اختار سليمان لوراثته في العرش دون أن يكون سليمان هذا أكبر أبنائه ، فقد حدث أن أدونيا وهو الابن الثاني لداود لما رأى كبر أبيه وعجزه عن القيام بأعباء الملك ، أراد أن يتعجل الأمر لنفسه ، فأعد عجلات وفرساناً واتفق مع أبياثار الكاهن على أن يولم أدونيا وليمه يعلن بعدها جلوسه على العرش مكان أبيه ، فسمعت أم سليمان بذلك ، فذهبت إلى داود وذكرته بوعده الذي كان قد بذله لها أن يملك أبنها سليمان من بعده ، فأمر داود أن يدعى له صادق الكاهن وناثان النبي وبنا ياهو بن يهوداع وأمرهم أن يأخذوا معهم عبيد الملك ، ويركبوا سليمان – وكان أصغر أولاده– على بغلته ، وينزلوا به إلى جيحون حيث يمسحه صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً . وسمع بذلك أدونيا فاغتاظ ولكنه سلم بالأمر ورضخ له بل انطلق وأمسك بقرون المذبح خائفاً أن يقتله أخوه ، ولكن سليمان عفا عنه ، ثم لم يتردد بعد ذلك في قتله عندما رأى منه ما يخالف التقاليد . بل لم يتردد عن أن يعزل أو يقتل كل من يشتم منه روح الثورة عليه من أنصار أخيه كما فعل من أبياثار الكاهن الذي صرفه عن أن يكون كاهناً للرب ، وقتل ايضاً بوآب قائد الجيش برغم التجائه واستجارته ببيت الرب وقرون المذبح – قتله وهو داخل الهيكل ، وعين بناياهو بن يهوداع قائداً للجيش مكانه ، كما وضع صادوق مكان أبياثار ، وحدد إقامة شمعي أحد أعوان أخيه في مكان خلف وادي قدرون في مدينة أورشليم وهدده بالموت إن ترك مكانه ، ثم قتله حين سمع أنه أخل بعهده ، وكان

الشعب يرى كل ذلك حقاً من حقوق الملك لا يجادله فيها ، ومازال الشعب الأثيوبي يرى في أشباه هذا العمل حقاً من حقوق الامبراطور (انظر الاصحاحين الأول والثاني) .

- ٨ -

ويعنى كتاب "كبرانجست" عظمة الملوك ، بذكر قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس ويتخذها بدءاً لتاريخ أثيوبيا ، ثم يتدرج إلى ذكر منليك الأول وارتقائه للعرش خلفاً لوالدته ، ثم يذكر بعد ذلك أسماء الملوك الذين تولوا العرش الأثيوبي ، ولكن الشك يعتور كل أجزاء هذه السيرة أيضاً كما اعتور القصة من قبل ، إذ لدينا من هذا الكتاب نسخ متعددة يختلف بعضها عن بعض ، فبينما يذكر بروس الرحالة الاسكتلندي الذي ساح في بعض أجزاء أثيوبيا في أواخر القرن الثامن عشر ، وحصل على نسخة من هذا الكتاب أن عدد الملوك الذين حكموا أثيوبيا منذ عصر منليك حتى عصر بازن ، وهو الملك الذي عاصر ميلاد المسيح ، اثنان وعشرون ملكاً ، ذكر أسماءهم نقلاً عن النسخة التي اطلع عليها، ويذكر لنا سولت الذي ساح أيضاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أنهم سبعة عشر ملكاً ، وتذكر المخطوطة الخاصة بذلك والموجودة في المتحف البريطاني تحت رقم ٢٨١ في صفحتها رقم ٢٨ بأنهم واحد وعشرون ، وتذكر مخطوطة أخرى بنفس المتحف تحت رقم ٨٢١ أنهم ستة وعشرون .

ويمضي الكتاب بعد ذلك فيذكر أيضاً أسماء ملوك يقول إنهم حكموا البلاد من عهد بازين حتى عهد عيزانا في القرن الرابع ، وقد ذكر الرحالة بروس أيضاً أن هؤلاء الملوك الذي حكموا خلال هذه المدة كانوا ثلاثة عشر ملكاً في حين تذكر وثيقة المتحف البريطاني الأولى أنهم كانوا أحد عشر .

فمن ذلك نرى الشك قد اعتور سلسلة الملوك الذين تعاقبوا على العرش الأثيوبي من

منليك الأول ، فهل يكون بعد ذلك عجب إذا سرى هذا الشك أيضاً إلى القصة من أولها إلى آخرها ، ولم يترك لنا إلا الجزء الأول منها الذي يروي لنا خبر زيارة من تدعى ملكة سبأ لسليمان ، مما يجعلنا نجزم أن الأثيوبيون قد اتخذوا هذا الأساس الديني الثابت أساساً لهذه القصة القومية التي تروي أمجاد تاريخهم وتعطيهم الأساس الذي ينتسب إليه ملوكهم .

ولم تكن المخطوطة "كبرانجست" أو قصتها معروفة في أوربا حتى الربع الثاني من القرن السادس عشر ، حين بدأ الدارسون يهتمون بأرض "القديس حنا" بعد أن قرأوا عنها ماكتبه "فرنسسكو الفارز" الذي كان مبعوثاً للملك ايمانويل ملك البرتغال إلى الملك داود ، وكانت هذه البعثة برئاسة "در يجو دي ليما " فيما بين سنتي ١٥٢٠ و ١٥٢٧ فمن بين الوثائق الخاصة بهذه البعثة ذكر الفارز سجلاً بأسماء ملوك أثيوبيا بالإضافة إلى ماذكره عن أحوال وعادات الشعب في كتابه الذي ظهر سنة ١٥٤٠ باسم "القديس جون الهندي" .

وتلا تلك أن نشر Godinho بعض قصة الملك سليمان وابنه منليك وذكر أنه اقتبسها من "كبرانجست" ، ففي سنة ١٥٨٠ نشر القس اليسوعي مانويل الميدا كتابه عن " تاريخ أثيوبيا العام " ، وكان مانويل الميلدا هذا قد أرسل مبعوثاً إلى أثيوبيا في أكثر من فرصة لأجل دراسة كتاب "كبرانجست" مباشرة ، ولذا كان كتابه كبير القيمة ، وقد أرسل أخوه أبوليناري من بعده إلى أثيوبيا أيضاً إلا أنه رجم هو وزميلان له حتى الموت في تجوي ، وإذا ما جاء Tellez في نهاية القرن السابع عشر وكتب "التاريخ العام لأثيوبيا القديمة" ، أعطانا تفصيلات كثيرة عن محتويات "عظمة الملوك" وقد اعتمد على ماكتبه من سبقوه من أمثال مانويل الميدا والفونسو منذز وجودهو والأب بايز ، وأشار إلى كتاب Tellez عدة مرات جون لودولف حين كتب كتابه "تاريخ أثيوبيا" الذي نشر في فرنكفورت سنة ١٦٨١ ، ومن الواضح أنه لم يطلع على نسخة أصلية من القصة إلا أنه اعتبرها كلها خرافية .

وعاد الظلام يخيم مرة أخرى على أثيوبيا وعلى قصة "كبرانجست" حتى نهاية القرن

الثامن عشر حين أشار إليها جيمس بروس الرحالة الأسكتلندي في كتابه "رحلات لكشف منابع النيل " فقد أهدى إليه الرأس ميخائيل وزير الملك تكلاهيمانوت عند مبارحته أثيوبيا بعض المخطوطات الأثيوبية الثمينة كان من بينها نسخة من "كبرانجست" وأشار له إلى أهميتها ، وكان بروس قد سمع عن هذه الأهمية حين مكث في أثيوبيا وعرف مقدار تقدير الأثيوبيين لها ، حتى إذا كانت الطبعة الثالثة من كتابه ضمنه القصة كاملة ، فكان أول نشر لها كاملة في لغة أوروبية ، ثم أهدى بروس هذه المخطوطات إلى مكتبة بلادون فحفظها باسم مجموعة بروس رقم ٩٣ ، ٨٧ ، فكان ذلك بداية دراسة هذه القصة على نطاق واسع.

مختارات من المصادر والمراجع

أولاً : العربية :

-ابن حزم ، أبو محمد علي ابن أحمد : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، مصر (١٩٦١) .

-ابن كثير ، الحافظ عماد الدين : تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، بيروت (١٩٨٠).

-أبو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، صيدا (١٩٥٩) .

-أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ج١٩ ، دار الفكر للجميع ، بيروت (١٩٧٠).

-الحميري ، نشوان بن سعيد : خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة، تحقيق وتعليق علي بن اسماعيل المؤيد واسماعيل بن أحمد الجرافي ، القاهرة (١٣٨٧ هـ) .

-الحوفي ، أحمد : المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة (١٩٥٤) .

-الهاشمي ، علي : المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد (١٩٦٠) .

-الهمداني،أبومحمد الحسن:الإكليل،ج١،تحقيق الأكوع،القاهرة (١٩٦٣) .

: الإكليل،ج٨،تحقيق الأكوع، دمشق (١٩٧٩) .

- دائرة المعارف الإسلامية ، مادة سبأ .

-الزمخشري ، محمد بن عمر : الكشاف ، القاهرة (١٩٥٣).

-الطبري ، أبو جعفر بن جرير:تاريخ الأمم والملوك،دار الفكر،بيروت (١٩٨٧).

: تفسير الطبري ، مصر (١٩٥٦).

- علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، بيروت (١٩٧٠).

- فخري ، أحمد : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة (١٩٦٣) .

: اليمن ماضيها وحاضرها،مراجعة وتعليق عبدالحليم نورالدين ، بيروت (١٩٨٨).

- كحالة ، عمر رضا : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، دمشق (١٩٥٩).
- مهران ، محمد بيومي : مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة ، مجلة كلية العلوم الإجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض (١٩٧٧).
- وهب بن منبه : كتاب التيجان في ملوك حمير ، رواية ابن هشام ، حيدر آباد (١٣٤٧ هـ) .

ثانياً – المراجع الأجنبية

1- Alvares F., The prester John of the Indies , 2vols ., (Hokluyt Society) London (1961) .

2- ARNAUDT. J. La reine Belkis , legende arabe recueillie dans le Yemen, in Revue d Egypte (1894 -1895).

- Bezold G. Kebra Nagast , die Herrlichkeit der Koenige , nach den Handschriften in Berlin , London , Oxford und Paris , Muenchen (1905).

3- Bruce J., Travels to Discover The Source of the Nile , 5vols ., Education(1790).

4- Budge E. WALLIS , The Queen of Sheba and her only son Menyelek ... a complete translation of the Kebra Nagast, with introducation , London , Liverpool , Boston (1922) .

5- CAQUSTA , La Reine de saba et Le bais de La Croix , selon une tradition ethiopienne , AE I (1955) .

6- CHASTEL A., La legende de la Reine de saba in Revue d Histoire des Religions , CXIX (1939) .

7- CROOKE W. The Queen of Sheba , in JRAS (1913) .

8- DERAMY J., La Reine de Saba , in Revue d'Histoire religieuse, XXIX (1894) .

9- GOLDZIHER. UND LANDBERG - HAKKBERGER C. GRAF VON , Die Legende vom moench Barsisa Kirchhaus (1896) .

10- GREBAUT S., Salomon et La Reine de Saba d'apres le MS. Ethiopien NO. 3. de M. E. Delorme ROC 17(1912).

11- GRIERSON G. A., Duryodhana and the Queen of Sheba , in JRAS (1913).

12- HALEVY J.La legende de La reine de Saba , Annales de L, Ecole Pratique des Hautes etudes , Section des Sciences his torique et philogiques (1905) .

13- DRAUSS S., Die Koenign von Saba in den Byzantinischen Chroniken , Byzantinische Zeitschrift 11(1902) .

14- LITTMANN E., The legend of the Queen of Sheba in the tradition of Axum , Bibl . abessinical, 1, Leiden (1904) .

15- LOEFGREN O., Dagfal und Di'bil als Gewaehrsmaenner der sued - arabischen Sage, Studi Orientalistici in onore di Giorgio della vida (Pubblicazioni dell'Istituto per l' oriente) , tome 2, Roma (1956) .

16- MOBERG A. Ueber einige christliche Legenden in der islamishen tradtion , Lund (1930).
17- PEARN N. AND BARLOW V. Quest for Sheba , London (1947).
18- PRAETORIUS FR., Fabulade Regine Sabae und apud Aethiopes , Halle (1798).
19- PRITCHARD J. B. (editeur) Salomon and Sheba , London (1974).
20- PORTER J . R , Pre - Islamic Arabic Historical Traditions and the Early Historical Narratives of the old Testament , in Journal of Biblical Literature, LXXXVII (1968) .
21- ROSCH G., Die Koenigin von saba als Koenigin Bliqis, Jahrbuch fuer Protestntische Theologie 60 (1880).
22- SIDERSKY D., Les originines des legendes musulmanes dans Le Coran et dans la vie des Prophetes, Paris (1933).
23- STRELCYNS S., Kebra Nagast, Warszawa (1956).
24- TAWNEY C. H. , The Queen of Sheba , in Bulletin of the in JRAS (1913).
25- ULLENDORF E ., Bilkis, in El (nouv. ed .) , 1, Leyde (1960) .
- The Queen of Sheba , in Bulletin of the John Rylands Library (Manch . Univ . Press) , XLV (1962 -1963).
26- WILKEN U., Kandake, Hermes 28 (1893).